



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر



أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (ل.م.د)
شعبة: التاريخ تخصص: تاريخ بلاد المغرب الوسيط

المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط
ما بين القرنين (5-8هـ/11-14م)

إشراف: أ.د. علال بن عمر

إعداد الطالب: أحمد فايزي

نوقشت بتاريخ 2025/12/04 أمام لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
البشير غانية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسا
علال بن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
عبد الغني حروز	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	مشرفا مساعدا
عمار غرايسة	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	عضوا مناقشا
أحمد بن خيرة	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	عضوا مناقشا
صلاح الدين وانس	أستاذ محاضر أ	جامعة غرداية	عضوا مناقشا
سالم كربوعة	أستاذ محاضر أ	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1446هـ / 2024-2025م



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر



أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث (ل.م.د)
شعبة: التاريخ تخصص: تاريخ بلاد المغرب الوسيط

المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط
ما بين القرنين (5-8هـ/11-14م)

إشراف: أ.د. علال بن عمر

إعداد الطالب: أحمد فايزي

نوقشت بتاريخ 2025/12/04 أمام لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
البشير غانية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسا
علال بن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
عبد الغني حروز	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	مشرفا مساعدا
عمار غرايسة	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	عضوا مناقشا
أحمد بن خيرة	أستاذ محاضر أ	جامعة الوادي	عضوا مناقشا
صلاح الدين وانس	أستاذ محاضر أ	جامعة غرداية	عضوا مناقشا
سالم كربوعة	أستاذ محاضر أ	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1446هـ / 2024-2025م

شكر وتقدير

بعد حمدي وشكري لله خالقي ورازقي ومُوفّقي لإتمام هذا العمل المتواضع، أتقدّم بأسمى وأرقى عبارات الشكر والتقدير والثناء لأستاذي ومشرفي وولي نعمتي، فضيلة الأستاذ الدكتور "علال بن عمر" الذي غمّني بحلمه، وأفادني بغزارة علمه، وخصّني بجهدته ووقته، وأرشدني بخبرته وتجربته، وألهمني بنصائحه وتوجيهاته، فكان لي أفضل سندٍ ومُعِين، وخير ناصر ونصير، فله مني كلّ الشكر والتقدير، وأعتذر له عن أيّ زلّة أو تقصير.

كما يسرّني أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى كافة أساتذتي بقسم التاريخ وكلّية العلوم الاجتماعية والانسانية بطاقيها التعليمي والإداري، وعلى رأسها سعادة العميد، الأستاذ القدوة، والفائد الرشيد، الدكتور "عمار غرايسة" الذي سخّر وقته وجهده خدمة للطلبة والباحثين، دون كلل أو ملل.

ثمّ الشكر والثناء موصولان للسيد الأستاذ المشرف المساعد الدكتور "عبد الغني حروز"، والسادة الأساتذة الأفاضل، أعضاء لجنة المناقشة على تحمّلهم مسؤولية مناقشة أطروحتي، وتكبّدتهم عناء فحصها وتمحيصها، قراءةً وتدقيقاً وتصويباً.

وختاماً أتقدّم بالشكر الجزيل لكلّ من مدّ لي يد العون -من قريب أو بعيد- في سبيل إنجاز هذا العمل، وأخصّ بالذكر ابن عمّي الأستاذ "عبد الرؤوف شتوف" والأستاذ "نور الدين داودي" بآلهما جهودهما، وألهمني وإياهما السداد والتوفيق، والحمد لله رب العالمين.

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع
إلى رجالٍ رحلوا وتركوا بصماتهم في توجيهي وتكويني
أبي العزيز وخالي البشير، طيب الله ثراهما
الأول رسم لي معالم الطريق، والثاني وضعني فيه.
إلى أمي الزهراء الغالية التي أرضعتني لبن الصبر على خوض الصعاب، وحفّتي بدعائها المستجاب.
إلى زوجتي ورفيقة دربي التي حملتها المشاق، ولولا صبرها ما استُكمل هذا العمل الشاق
إلى إخوتي وأخواتي سندي الدائم ومِرآتي، إلى أبنائي وبناتي قرّة عيني ونور حياتي
إلى خيرة من عرّفتني بهم الحياة العلمية، فأحببتهم في الله وأحبوني فيه
صديقَي الدكتور "أنور بن عمارة" والأستاذ "فرحات شعباني"
إلى مجاهديننا الأبطال، وأرواح شهدائنا الأبرار، في غزّة الصمود والانتصار
أهدي أطروحتي التي هي وحي توجيهاتهم وزفرات آهاتهم وأناثهم.

قائمة المختصرات

الرمز	الدلالة	الرمز	الدلالة
هـ	هجري	ت	توفي
م	ميلادي	ق	قرن
ص	صفحة	س	سنة
ج	جزء	ع	عدد
مج	مجلد	ط	طبعة
تح	تحقيق	د ت	دون تاريخ
تع	تعليق	p	page
تق	تقديم	pp	Page continue
تر	ترجمة	T	Trimestre

المقدمة

تمهيد:

بدأ المذهب المالكي يعرف طريقه إلى بلاد المغرب مع بداية رحلات المغاربة إلى المشرق، وإلى بلاد الحجاز تحديداً، أواسط القرن الثاني الهجري (8م)، وهو الوقت الذي كان فيه أمر الإمام "مالك بن أنس"¹ مؤسس المذهب قد بدأ يعلو، ومنهجه المبني على الالتزام بالكتاب والسنة والابتعاد عن التأويل قد بدأ يتحدد، فأقبل عليه طلبة العلم المغاربة يغترفون من بحره وينهلون من معينه، كيف لا وقد وجدوا فيه ضالتهم المنشودة، إنه -وقبل كل شيء- يُدرّس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو في معتقدتهم أقرب إلى روح الاسلام ممّن يُدرّس في الكوفة أو البصرة أو دمشق أو بغداد، ثمّ إنه عالمٌ بدقائق الكتاب، حافظ لسنة رسول الله، عارف بصحيحها من سقيمها، لذلك فلا غرابة أن افتتن أهل المغرب به، وقلّده حتى في معاشه ولباسه، وهندامه وجلسه، ودوّنوا عنه كلّ صغيرة وكبيرة.

ولئن اتّخفتنا كتب التراجم والطبقات بأسماء الكثير من طلبة العلم التونسيين والأندلسيين الذين ارتحلوا إلى مدينة رسول الله، وأخذوا عن الإمام مالك، ما جعل تاريخ بدايات تسَلُّل المذهب المالكي إلى هذه المجالات تبدو واضحة إلى حدّ بعيد، فإنّ الأمر مختلف تماماً بالنسبة للمغرب الأوسط، ذلك أنّ المصادر لم تخبرنا -صراحةً- ولو عن شخصية من أهل هذا القطر التقت مالكا وأخذت عنه، عدا ما حكاه القاضي عياض عن ذلك المغربي الذي اتّصل بمالك طالبا منه النصيحة بعد أن شكّا إليه كثرة الأهواء بين قومه²، وهي عبارة -في الحقيقة- لا يمكن الاطمئنان إليها ولا التأكّد من أيّ المغارب هذا الذي ذُكر؟ فكانت هذه إحدى النقاط التي أثارت حفيظتي، وجعلتني أفكر في كيفية تسَلُّل هذا المذهب إلى المغرب الأوسط، ثمّ تبلوره إلى مدرسة لها خصائصها ومميّزاتها وإسهاماتها في الحركة الفقهية، لذلك جاء موضوع رسالتي على النحو التالي:

المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط من ق5 إلى ق8هـ/11-14م

دواعي اختيار الموضوع:

لا يختلف اثنان في أنّ المذهب المالكي هو المذهب السائد -والمفضّل- لدينا نحن الجزائريين، لذلك وجب علينا أن نُعنى ببحثه من مختلف جوانبه، إبرازاً لخصوصياته وإظهاراً لمزاياه، وأنْ نكشف عن السرّ وراء هذه العلاقة الحميمة التي ربطتنا به وبمؤسّسه، والدوافع التي جعلتنا نؤثره على غيره، وهذا في الحقيقة ما لمستّه عند باحثي

¹ - الأعلام والمصطلحات التي ترد في المقدّمة، أثرت شرحها -عند ورودها- في هوامش متن الرسالة.

² - ينظر القاضي عياض، أبو الفضل (ت544هـ/1149م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح ابن تاووت الطنجي، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1، ج2، ص47.

المغربيين الأدنى والأقصى، لكن وقفتُ عليه محتشماً عند باحثينا، لم يلقِ الحظوة التي تليق به، وحتى ما كان من دراسات في هذا التخصص وجدتها مقتصرة إما على دراسة شخصية مالكية، أو حاضرة فقهية، أو عن صراع المذهب المالكي مع غيره من المذاهب، لذلك كانت رؤيتي أن تكون دراسة شاملة ودقيقة للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط .

زيادة على ما ذكرت أعلاه، وبينما أنا أتصفح كتاب "بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق في العصر الوسيط" لصاحبه "جورج مارسيه" صادفتني عبارة له - ما كانت لتمرّ على حفيظتي مَرّ الكرام- يصوّر فيها المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة على أنّه الأقلّ تحضراً مقارنة بالمغربيين الأدنى والأوسط، تقلّ به المدن وتغلب عليه النزعة الريفية، سكّانه من البدو الرّحل ومن الفلاحين المستقرّين بالجبال، وأنّ ما غمره هو المذاهب والكيانات الخارجة عن نطاق السلطة الحاكمة بالشرق، فوقفتُ من هذه الصورة موقف الحذر، ووضعتُ تحت هذا الحكم سطراً بل أسطراً، ذلك أنّ كتابات المستشرقين عودتنا في الغالب -رغم موضوعية بعضها- على الدّسّ والتشكيك، والحفر عن مظانّ النقص ومظاهر الاختلاف في الحضارة الإسلامية، غير أنّي وجدت هذه الصورة التي تُجسّد صفة الهامشية لهذا المجال الفسيح يتردّد صداها -كذلك- حتّى عند بعض الباحثين المعاصرين المتأثرين بأفكار المدرسة الاستشراقية، بل وقفت -أيضاً- على رواياتٍ من بعض القدامى تنفي وجود أيّ علم أو فقهٍ يمكن أن يمثّل هذا الإقليم، كشأن "العبدري" (ت720هـ/1320م) في وصفه لحواضر المغرب الأوسط في القرن السابع الهجري (13م) أثناء رحلته¹.

ولأنّني أنتمي إلى هذا المجال الفسيح، وحُبّه يسري في عروقي، حرّكت هذه الرّؤى والروايات في نفسي دافع الغيرة والتّخوة، وحفّزني إلى مزيد البحث والتنقيب عن السرّ المكنون وراء هذا التعتيم، كما زادني إصراراً العامل الذاتي المتمثّل في رغبتني البحث في المواضيع ذات العلاقة بالحياة الفكرية والثقافية لا سيما ما تعلّق منها بالعلوم الدينية في العصر الوسيط، ولا أدلّ على ذلك من أنّ مذكري في مرحلة الماستر كانت في هذا المجال²، أقول هذا الكلام دون أن أنسى توجيهاتٍ ونصائحٍ أستاذي المشرف، الذي أدرك رغبتني في السير على خطاه وفي نفس

¹ - ينظر العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت بعد 700هـ/1300م): رحلة العبدري، تح علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط2، 1426هـ/2005م، ص 47 وما بعدها.

² - مذكري في مرحلة الماستر كانت بعنوان: "أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوردجاني ودوره في الفكر الإباضي (500-570هـ)"، وهي عمل مشترك مع زميلي "د. أنور بن عمارة" تحت إشراف الأستاذ الدكتور: علّال بن عمر"، وتمّت مناقشتها بجامعة الوادي يوم 2019/06/22م.

رواقه البحثي المفضل الذي لامسته من خلال تتبّعي لمواضيع رسالتيه، الماجستير والدكتوراه، ومقالاته المبنوثة في المجالات العلمية المحكمة.

أهداف الدراسة:

أسعى من دراستي هذه إلى تحقيق أهداف وغايات بعيدة المدى -ليست على مستوى علمي وأكاديمي فحسب- تتمثل أساسا في بحث همم المجتمع المغرب أوسطي(الجزائري)، سلطنة ورعية، فقهاء وعامة من أجل بذل المزيد من الجهود الرامية إلى تعزيز وترسيخ الوحدة الفقهية المالكية، وحث الفقهاء -تحديدا- على المساهمة في تطوير المذهب المالكي، وتجديده -على خطى أسلافنا- حتى يواكب متطلبات المجتمع وحاجياته، أمّا الأهداف العلمية المتوخاة من بحثنا فيمكن تلخيصها فيما يلي:

- إثراء الدراسات التاريخية المتعلقة بالمذهب المالكي والتحقيب له بالمغرب الأوسط، بداية بتاريخ دخوله وانتشاره، مروراً بالعقبات التي واجهته خلال العهد الأغلي والرسامي ثم الفاطمي، وصولاً إلى مرحلة التمكين في عهد الدولة الحمّادية والمرابطية

- إبراز الملامح العامة للمدرسة المالكية المغرب أوسطية، التي تحدّدت معالمها واتّضحت أكثر خلال العهد الحفصي والزيرياني، وذلك من خلال تتبّع رحلات علماء المغرب الأوسط وآثارهم، إضافة إلى المقررات الفقهية التي كانت تُدرّس بالمنشآت التعليمية، لا سيما منها مصنّفات مالكية المغرب الأوسط وفتاويهم المدوّنة في كتب التّوازل.

- رصد أهمّ الروافد والدعائم التي ارتبطت بالمذهب المالكي وساهمت في التمكين له بالمغرب الأوسط، كالتيار الأشعري في الجانب العقدي والمسحة الصوفية في الجانب السلوكي وغيرها، وذلك من خلال الترجمة لأهمّ الأعلام الذين ساهموا في نشرها، وتقصّي أبرز مؤلفاتهم وآثارهم العلمية.

إشكالية البحث:

لستُ مبالغاً إن قلت أنّ هذه الروايات والأحكام -التي ذكرْتُ أعلاه- حيّرتني بل أرقتني، وأضافتُ إلى تساؤلاتي تساؤلات: أهذه الروايات والاستنتاجات حقائق أم مغالطات؟ ألا يمكن أن تكون استنتاجات خاطئة لافتراضات خاطئة؟ أليست لأصحاب هذه الأطاريح أهدافاً وغاياتٍ لحجب مساهمة المغرب الأوسط في خدمة الفقه الاسلامي والمذهب المالكي؟ ألم يقف هؤلاء على أسماء أعلام -بهذا القطر- ساهموا في الحركة الفقهية ونشر المذهب المالكي خصوصاً، كأبي جعفر الداودي(ت402هـ/1012م)، ومروان البوني(ت440هـ/1049م)، وأحمد المقرئ(ت759هـ/1358م)، وغيرهم؟ ألم يرصد هؤلاء رحلات طلبة المغرب الأوسط إلى المشرق وجلبهم لأمّهات الكتب المالكية والتأليف حولها؟ ألم يسجّلوا لنا الكتابات والزوايا والمساجد والمدارس التي شُيّدت بالقلعة

وبجاية وقسنطينة وتلمسان... لتدريس الفقه المالكي والعلوم الدينية؟ ألا ينقلون لنا حلق العلم والمناظرات التي كانت تُعقد فيها؟

وعموماً فإنّ الإشكال المحوري الذي تنطوي تحته كلّ هذه التساؤلات يتمحور حول العوامل التي ساهمت في تشكيل مدرسة مالكية مغرب أوسطية مميّزة عن باقي المدارس الأخرى؟ ومن هم أشهر أعلامها؟ وما هي أبرز إسهاماتهم الفقهية؟ هذا ما سأحاول الإجابة عليه من خلال المنهج والخطة المبيّنة أسفله.

المنهج المعتمد:

رغم تداخل موضوعي مع اختصاصات أخرى كالفقه وأصول الدين والتصوّف، إلّا أنّ اعتمادي الغالب كان على المنهج التاريخي المبني على النّقد والتحليل والتركيب، وذلك قصد استقراء وتحليل واقع المذهب المالكي بالمغرب الأوسط خلال فترة الدراسة، وهو ما تطلّب منّي الاعتماد على المصادر الأقرب من الوقائع التاريخية، وقراءتها على أسس علمية واقعية بعيدة عن الحُبّ والكراهية، وعن الصراع بين الأنا والآخر، أو التعصّب لمذهبٍ أو سلطة قائمة على حساب أخرى، كما فرض عليّ هذا المنهج المقارنة بين الروايات والنصوص، ومقابلتها مع غيرها للتّثبت من صدقية المعلومات الواردة فيها، واستخلاص الحقائق منها، ثمّ توظيفها في نسقها التاريخي المناسب.

وفي ظلّ غياب المادّة المصدرية لبعض الفترات التاريخية، أو وجود مصادر مشكوك في حيادها وموضوعيتها، فإنّي استعملت منهج الاستدلال المنطقي القائم على استخدام المعلومة المتوفرة لاستخلاص نتائج أو بناء تنبؤاتٍ أو عمل تفسيراتٍ، وتعبير أدقّ الانتقال من قضايا مسلّم بها إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة.

وبما أنّ الموضوع - كما أشرتُ - يمسّ أصنافاً أخرى من العلوم والمعارف، فإنّ ذلك حتّم عليّ الاطّلاع على بعض التعاريف والمفاهيم الفقهية والعقدية والأصولية، وكذا الرجوع إلى كتب التفسير والأحاديث النبوية لأجل الإحاطة بالموضوع والسيطرة عليه.

وتجدر الإشارة في الأخير إلى أنّي التّجأت إلى المنهج الكميّ ممثلاً في الجداول والخرائط، وذلك قصد الاختصار والتوضيح، حيث مكّننا هذا المنهج من إحصاء الفقهاء ومصنّفاتهم والخطط التي تقلّدوها، والمناطق التي نشأوا بها أو ارتحلوا إليها...

الخطة المتبّعة:

للإجابة على جملة التساؤلات التي ذكرت أعلاه، وحتّى تتحقّق الأهداف المرجوة من هذا البحث، اعتمدتُ خطة بحثٍ مقسّمة إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدّمة وفصل تمهيدي بمثابة توضيح للفكرة وتمهيدٍ للموضوع، وتتلوها خاتمة بها أهمّ النتائج المتوصّل إليها، مع تذييل للبحث ببعض الخرائط التوضيحية والجداول الإحصائية.

قسّمت **الفصل التمهيدي** إلى ثلاثة مباحث تطرّقت في أولها إلى تحديد المجال الزماني والمكاني للبحث، ثمّ عرّجت على التعريف بمصطلحي "المذهب" و"المدرسة" والتفريق بينهما، وختمته بترجمة موسّعة للإمام مالك مؤسّس المذهب، أمّا المبحث الثاني فقد خصّصته للحديث عن دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب، واستهللت الحديث فيه عن الأوضاع الدينية لبلاد المغرب قبيل دخول المذهب المالكي، ثمّ قمت بإبراز أهميّة الرحلة والدور الفعّال لتلاميذ مالك في نقل مذهبه ونشر أفكاره وآرائه، واجتهدت في المبحث الثالث لتوضيح الحضور المالكي في المغرب الأوسط خلال القرن الثالث الهجري (9م)، بداية بتعايشه مع المذهب الحنفي في بعض فترات العهد الأغلبي، ثمّروا بمنظرات أعلامه مع أعلام المذهب الإباضي في العهد الرستمي، دون أن أنسى الحديث عن مذهبية الإمارات السلিমانية في الجهة الغربية من المغرب الأوسط.

أمّا **الفصل الأول** فقد خصّصته لتتبع إرهابات تشكّل المدرسة المالكية من خلال تقصّي واقع المذهب المالكي وعلاقته بالسلطة الحاكمة في الدّول التي قامت على أرضه بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (10-12م)، وقسمته -هو الآخر- إلى أربعة مباحث، خصّصتُ الأوّل منها لتوضيح دور الصراع الفاطمي المالكي في بدايات بزوغ معالم هذه المدرسة، أمّا الثاني فقد تطرّقت فيه للحديث عن المذهب المالكي في الدولة الحمّادية باعتبارها مهد المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، مبرزاً دور قادتها وأعلامها في التمكين للمذهب وغرس بذور المدرسة المالكية في حواضره (القلعة، بجاية،...)، بينما ركّزت في المبحث الثالث عن دور الفقهاء وعلاقتهم مع مختلف أطراف المجتمع في العهد المرابطي الذي كان بمثابة الحاضنة السياسية للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، أمّا المبحث الرابع الذي تناولت فيه الحضور المالكي في العهد الموحدّي فقد قسّمته إلى مرحلتين، المرحلة التومرتية، وسمّيتها بالفترة الانتقالية بين المرابطين والموحّدين، والمرحلة الثانية هي مرحلة ما بعد ابن تومرت، وبسطتُ الحديث في كلا المرحلتين عن واقع المدرسة المالكية من خلال فقهاءها وتعامل خلفاء الموحّدين معها.

وفي **الفصل الثاني** أسهبت الحديث -في ثلاثة مباحث- عن واقع المدرسة المالكية في أواخر العهد الموحدّي وبداية العهد الحفصي والزياي، مبرزاً دور سلاطين هاتين الدولتين في دعم المذهب المالكي حتّى بالحواضر الجنوبية، ومُنوّها بدور بيوتات الفقهاء في الحواضر الكبرى، ومدى سعي أعلامها في نشر المذهب والتمكين له.

وإلى هذا الحدّ لا يمكن أن تتجلّى معالم المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط بكلّ دقّة ووضوح، لذلك اخترت الحديث في **الفصل الأخير** عن المميّزات والخصائص العامّة لهذه المدرسة، وذلك في ثلاثة مباحث متباعدة، مهّدتُ للمبحث الأوّل بالحديث عن انفتاح المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط على المدارس الفقهية المجاورة، أمّا المبحث الثاني فقد خصّصته للحديث عن خصائص التصنيف ومميّزات الفتوى، ثمّ أنهيت هذا الفصل -و الرسالة ككلّ-

بمبحثٍ آثرُ الحديث فيه عن بعض الروافد والدعائم التي سارِثُ المذهب المالكي وساعدتْ على ترسيخه بالمغرب الأوسط، واخترت منها التيار الأشعري عقيدةً، والمسحة الصوفية سلوكًا.

المصادر والمراجع المعتمدة (نقد و تقييم):

بما أنَّ أغلب اعتمادي -كما أشرت أعلاه- على المنهج التاريخي الذي يعتمد أساسا على المصدر والوثيقة، لأنَّهما هما مادَّة التاريخ وبهما يُصنَّع، وحيث "لا وثائق لا تاريخ"، ولأنَّ البحث التاريخي يحتاج -على حدِّ قول ابن خلدون "إلى مأخذ متعدِّدة ومعارف متنوِّعة، وحُسن نظر وتنبُّت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط"¹، لذلك فقد تعدَّدت مصادرنا وتنوَّعت تنوُّع فصول الرسالة، لكنَّها في الغالب لا تخرج عن الأطر التالية:

- كُتب التاريخ العام وتاريخ الدُّول: قدَّم لنا هذا النوع من المصنِّفات معلومات هامة ودقيقة عن الأحداث السياسية والحضارية ذات العلاقة بالحياة الدينية والمذهبية ببلاد المغرب، ويأتي في مقدِّمتها كتاب "العبر" لابن خلدون (ت808هـ/1405م)، الذي يُعدُّ -بحقِّ- موسوعة وأ نموذجاً فريداً للتأليف -وفق المنهج الموضوعاتي- في العصر الوسيط، حيث أعطانا وصفاً دقيقاً عن الحياة السياسية التي كان -هو- أحد رجالها من خلال المناصب التي شغلها في بلاط السلاطين، كما أفادنا بوقائع الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية للمغرب الأوسط، فأمدنا بالعلوم الدينية الرائجة والمدارس التي شُيّدت وتطورت، وأسماء الأعلام الذين ساهموا في تنشيط الحركة العلمية وازدهارها في زمانه وقبله، خاصةً أنَّه استقى بعضاً من مادَّته العلمية من مصدر أساسي عايش مؤلِّفه -بالقلعة وبجاية- الدولة الموحدية واثرة أبحاد بني حمَّاد، وهو كتاب "التبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة" لصاحبه ابن حمَّاد الصنهاجي (ت628هـ/1231م)، هذا الأخير الذي استفدنا كذلك من مؤلِّفه "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم" في الكشف عن أوضاع الفقهاء المالكية في العصر الفاطمي، كما يحضر في ذات المجال كتاباً المراكشيَّ ابن عذارى (ت712هـ/1312م)، وعبد الواحد (ت647هـ/1249م)، فأما الأول فأفادنا كتابه الموسوم بـ "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" بأدقِّ تفاصيل الحياة السياسية التي شهدتها المغرب الأوسط،

¹ - ابن خلدون، عبد الرحمان (ت808هـ/): العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ/1988م، ج1، ص13

- خاصّة خلال العهدَيْن الفاطمي والحمّادي، بينما خاض المراكشي في كتابه المحلّي بـ "المعجب في تلخيص أخبار الأندلس و المغرب" في مسائل دقيقة تخصّ العهدَيْن المرابطي والموحّدي المعاصر لهما.
- كُتِبَ التراجم والطبقات والفهارس: ولأنيّ أبحث في تاريخ المذهب المالكي بالمغرب الأوسط، كان لزاماً عليّ الاطّلاع على تراجم الفقهاء ومناقبتهم ورحلاتهم وما خلّفوه من آثارٍ يمكن اعتمادها في تحريّ مناهجهم وعلاقاتهم مع مختلف أطياف المجتمع، فكان من أبرز هذه التصانيف مصنّفات مؤرّخي المغرب الأوسط التي شكّلت -في هذا المجال- العمود الفقري لدراستنا، وأهمّها كتاب "عنوان الدراية فيمن حلّ من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لأبي العباس الغبريني (ت714هـ/1314م) الذي استخلصنا منه الكثير عن واقع المدرسة المالكية البجائية من خلال ما أمدّنا به من تراجم لذوي الأصول البجائية أو ممّن استوطنوا بجاية من الحواضر الأخرى، واستفدنا في المقابل من كتاب ابن مريم (ت بعد 1014هـ/1605م) الموسوم بـ "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" والذي يعدّ من المصادر القيّمة التي أمدّتنا بتراجم عدد من فقهاء تلمسان والحواضر المحيطة بها، كما قدّم لنا ابن قنفذ القسنطيني -في هذا الإطار- كتاباً آخر سمّاه "أنس الفقير وعزّ الحقيّر"، وهو وإن كان أقرب لأن يُعدّ في كتب الرحلات، إلّا أنّه أعطانا فيه صورة واضحة عن أعلام تصوّف زمانه، وخصّص فيه حيّزاً مهمّاً للحديث عن أشهر أولياء المغرب، كالشيخ أبي مدين الغوث وغيره.
 - وتحضر في ذات السياق مؤلّفات الأندلسيين الذين ترجموا لأعلام المغرب الأوسط الوافدين على الأندلس، أو الأندلسيين الذين استوطنوا حواضر المغرب الأوسط دارسين أو مدرّسين، ومن أشهر مؤلّفاتهم التي اعتمدناها كتاب الحميدي (ت488هـ/1095م) "جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" وتذييله الموسوم بـ "بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس" لأبي جعفر الضبي (ت599هـ/1203م)، كما اعتمدنا -كذلك- كتابي "الصلة" لابن بشكوال (ت578هـ/1182م) وتكملته "التكملة لكتاب الصلة" لابن الأتار القُضاعي (ت658هـ/1260م)، هذا المصنّف الذي يعتبر مهمّ جدّاً بحكم أنّ صاحبه دخل ببجاية وأخذ العلم عن علمائها وكان له إلمام بواقع فقهاء عصره.
 - كُتِبَ المسالك والرحلات: بالإضافة إلى كتب الجغرافيين المشاركة في هذا المجال كان أغلب اعتمادنا على كتاب "المسالك والممالك" للبكري (ت487هـ/1094م)، حيث أمدّنا بنظرة شاملة عن حواضر بلاد المغرب، قدّم فيها رفقة الموقع الجغرافي معلومات هامّة عن تفاصيل الحياة العلمية والدينية فيها...

كما شكّلت كُتب الرحلات -هي الأخرى- رافداً مُهمّاً لدراستنا، كَوْن أصحابها شاهدي عيان على الأوضاع الثقافية والعلمية للحواضر التي مرّوا بها، كرحلة العبدري (ت720هـ/1320م) المسماة "الرحلة المغربية"، ورحلة ابن خلدون (ت808هـ/1406م) الموسومة بـ "ابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً".

- كتب أصول الفقه والفتاوى والنوازل: ولأنّ موضوعنا ذو علاقة متشعبة مع أغلب العلوم النقلية لا سيما علمي الفقه وأصوله، فإنّ اعتمادنا على هذا النوع من المصادر يعتبر ضرورة ملحة تقتضيها ضرورة البحث، فكان من أبرزها أمّهات كتب الفقه المالكي كمدونة سحنون (ت240هـ/854م)، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م) ومختصر ابن الحاجب (ت646هـ/1248م)، بالإضافة إلى مصنفات فقهاء المغرب الأوسط ككتاب "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول" للشريف التلمساني (ت771هـ/1370م)، وكتاب "القواعد" للمقرّي (ت759هـ/1358م) الذي اشتمل على أزيد من ألف ومائتي قاعدة أصولية،

أما كتب النوازل، وكما هو معروف فإنّها تعتبر ميزة خاصة وسمة بارزة في واقع الفقه المالكي ببلاد المغرب، وتكمن أهميتها في أنّ مواضيعها تمسّ مختلف نواحي الحياة التي تهمّ الفرد والمجتمع، كما تعطي تفاصيل دقيقة ومهمّة عن القضايا النازلة والمستجدّة في العصر الذي طُرحت فيه، لذلك كان اعتمادنا على أشهر ما ألّف فيها ككتاب "الدّر المكنونة في نوازل مازونة" ليحيى بن أبي عمران المازوني (ت883هـ/1478م)، وكتاب "المعيار المغرب والبيان المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت914هـ/1508م)

- المراجع العامة والمتخصّصة: ومن دون شك، فقد ساعدتنا في عملنا هذا، كتابات رواد المدرسة التاريخية الجزائرية في تقصّي الحياة الثقافية والدينية للمغرب الأوسط، وأبرز الأعلام المساهمين فيها، كأعمال الأستاذ موسى لقبال، وعبد العزيز فيلاي، مروراً بكتابات الأستاذ محمد الأمين بلغيث، والطاهر بونابي، وموسى هيصام، وصولاً إلى أبحاث الأساتذة عمارة علاوة، بوبة مجاني وعبد القادر بوباية، وغيرهم ممّن كان لمؤلّفاتهم الأثر البارز في الإحاطة بمختلف جوانب هذا الموضوع المتشعب.

الدراسات السابقة:

ساهم الباحثون -من قبلي- في تقديم أعمال مفيدة على مستوى رسائل الماجستير والدكتوراه، اجتهدت في الاطلاع على مضامينها والاستفادة من محتوياتها، غير أنّه -وفي حدود اطلاعي- لم أعثر منها على دراسة شاملة -زمانية ومكانية- للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري (11-14م)،

وكانت أغلب هذه الدراسات إما لحقبة زمنية محدّدة، كفترة دخول المذهب المالكي وانتشاره، أو تتبّع واقعه في عصر من العصور كالعهد المرابطي أو الموحيدي...، أو لدراسة المذهب المالكي في حاضرة معيّنة كقلعة بني حمّاد أو بجاية أو تلمسان...، ومن أهمّ هذه الدراسات:

- أبحاث الأستاذ "موسى هيصام" من خلال كتابه "التمكين للمذهب المالكي في المغرب الأدنى والأوسط بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (10-12م)" في جزئيه الأوّل والثاني، وهو عبارة عن أطروحة نال بها الأستاذ درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط
- أعمال الباحثة "سعيدة لوزري" ممثلة في رسالة ماجستير تحمل عنوان "المذهب المالكي في المغرب الأوسط، دخوله وانتشاره (3-5هـ/9-11م)"، ورسالة دكتوراه موسومة بـ "دور فقهاء مالكية المغرب الأوسط في إثراء التأليف خلال العصر الحمّادي (395-547هـ/1005-1135م)"
- رسالة دكتوراه للأستاذ "عبد القادر بوعقادة" تحت عنوان "الحركة الفقهية في المغرب الأوسط بين القرنين 7 و9هـ/13 و15م"
- كتاب "فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي (510-668هـ/1116-1296م)" للأستاذ "لخضر محمد بولطيف".

-الصعوبات والعوائق:

- اعتزضتني في عملي هذا صعوباتٍ، وواجهتني عقبات، لكنّ إرادته تحقيق الغايات، ومعرفتي بأنّ الوصول سوف ينسيني تلك المحطّات، عقدت العزم متوكّلا على الله ربّ الأرض والسموات.
- وحقّي يقدر القارئ الكريم هذا الجهد منّي، وليتمس لي أساتذتي الأفاضل العذر عند مصادفتهم لبعض الهفوات التي لا يخلو منها أيّ عمل بشري، ها أنا أشير إلى البعض منها:
- سعة المجالين الزماني والمكاني للبحث، جعلت الإحاطة به والسيطرة عليه أمرا عسيراً، إذ ليس من السهل أن تستوعب المدرسة المالكية في المغرب الأوسط، نشأتها ومنشأها، أعلامها ومعالمها، طيلة أربعة قرون، أُقيمت فيها دُولٌ وأُسقطت حكومات، أينع المذهب المالكي فيها أعواماً وذبل سنوات...
 - ومما صعب المهمة أكثر ارتباط موضوع البحث بعدّة فروع معرفية، أهمّها علم "الفقه الإسلامي"، ممّا يفرض على الباحث -في موضوع كهذا- أن يكون متضلّعاً في الفقه المالكي، عالماً بمصطلحاته، عارفاً بخصائصه ومميّزاته، قادراً على فهم مكنوناته.

- صعوبة التعامل مع المادّة العلمية المتناثرة في كتب الرحلات، وكتب التراجم و الطبقات، من حيث المقارنة والتحليل والنقد والاستنتاج...وأخصّ بالذكر تلك المادّة المتاحة في كتب النّوازل، والتي تتطلّب من الباحث معرفة ظروف وملابسات وزمن النازلة حتّى يتمكّن من تطويعها وتوظيفها كحدث تاريخي. ختامًا وبفضل الله أولاً، ثمّ بنصائح وتوجيهات أستاذي المشرف ومساعدته -حفظهما الله- تمكّنت من تجاوز هذه العقبات، وتذليل تلكم الصعوبات، فالشكر كلّ الشكر لهما على ما قدّماه لي من إضاءات، قلّصت عليّ الجهد والخطوات، ووضعتني على خطّ سيرٍ واضح البدايات والنّهائيات، فأرجو أن أكون قد وفّقتُ في تحقيق الغايات، ولله الحمد ربّ الأرض و السماوات.

الفصل التمهيدي

لمحة تاريخية عن المذهب
المالكي بالمغرب الأوسط

قبل ق4هـ/10م

تمهيد:

لقد ارتأيت من خلال هذا الفصل أن أنطلق من نقطة - أعتبرها - أساسية لأي بحث تاريخي أكاديمي، ألا وهي شرح معاني المفردات والمصطلحات الواردة في عنوان الرسالة، لذلك كانت أهم النقاط التي سنتناولها فيه هي التعريف بالمذهب المالكي وصاحبه، وتحديد الفرق بين المذهب والمدرسة، إضافة إلى ضبط الإطار الزمني والمكاني لموضوع الدراسة، لنختتمه ببسطة تاريخية تحقيقية لدخول المذهب المالكي لبلاد المغرب، ومآلاته بالمغرب الأوسط قبل القرن الرابع الهجري.

أولاً: تعريفات و مفاهيم

1. المغرب الأوسط وإشكالية المجال

من المعلوم تاريخياً أنّ الحدود الحالية في الفترة الوسيطة قد غلب عليها المدّ والجزر ولم تعرف ثباتاً مثلما هي عليه اليوم، فتحديد مجال المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة يتطلب الإلمام بالجانب السياسي والقبلي وحتى المذهبي للدول القائمة به، ذلك أنّ الوصول إلى استنتاجات حاسمة يمكن من خلالها التحدّث عن الإطار الجغرافي للمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة يتطلب منا الخوض في أدقّ التفاصيل السياسية والمذهبية للسلطة الحاكمة والمجتمع القبلي الخاضع لها.

جدير بي أن أذكر -بداية- ومن خلال تفحصنا للنصوص المصدرية -التاريخية منها والجغرافية- أنّ ما كان متداولاً خلال القرون الهجرية الأربعة الأولى هو مصطلح "بلاد المغرب" في إشارة إلى البلاد الواقعة غرب مصر، وهو ما ذكره أشهر جغرافيي القرن 4هـ/10م كالإصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم¹، أمّا أول من استعمل مصطلح "المغرب الأوسط" فهو الجغرافي أبو عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م) في مسالكه، وذلك في قوله عند وصفه لمدينة تلمسان "وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط...وهي دار مملكة زناتة، وموسطة قبائل البربر، ومقصدا لتجار الآفاق"².

¹ - للاطلاع أكثر على المجال الجغرافي لبلاد المغرب ينظر:

- الإصطخري، أبو القاسم إبراهيم (ت346هـ): مسالك الممالك، دار صادر، بيروت، د.ت، ص36

- ابن حوقل، أبو القاسم (ت4هـ): صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ط2، 1938م، ج1، ص92.

- المقدسي، أبو عبد الله محمد (ت380هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر بيروت، ط2، د.ت، ص215-216

² - البكري، أبو عبيد الله (ت487هـ): المسالك و الممالك، تح جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ج2، ص259

وبعد اطلعنا على أهم النصوص المصدرة¹ التي تطرقت إلى ذكر مجال المغرب الأوسط وحواضره خلال فترة الدراسة(ق5-8هـ/11-14م) تمكنا من الوصول إلى الاستنتاجات التالية:

1- إنّ مسألة المعالم الجغرافية لبلاد المغرب الأوسط ضمن بلاد المغرب الاسلامي لم تُطرح في المصادر التاريخية و الجغرافية قبل ق5هـ/11م، وإثما وردت بعض النصوص التي تحتل التأويل، ومثال ذلك نصّا في نوازل البرزلي يعود إلى عهد الإمام سحنون (ت240هـ/854م) يقول فيه: "وحدّ افريقية من طرابلس إلى طنبنة"² وهو ما يوحي بأن البلاد الواقعة غرب "طنبة" ليست من افريقية، كما أنّ بروز كيانات سياسية ذات توجه مخالف لسلطة الأمويين ومن بعدهم العباسيين بإفريقية، يمكن أن يعطي ملمحا سياسيا ومذهبيا وجغرافيا لواقع بلاد المغرب الأوسط، كالمملكة الزناتية ذات التوجه الصفري بتلمسان، والإمارة الرستمية(160-296هـ/777-909م) ذات التوجه الإباضي بتيهت.

2- تُجمع المصادر التاريخية والجغرافية منذ عهد البكري(ت487هـ/1094م) ومن جاء بعده إلى عهد ابن خلدون(ت808هـ/1406م) على أنّ تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ومفتاحه من الجهة الغربية، ويعتبر نهر ملوية وجبال تازا تازا حداً طبيعياً فاصلاً بين المغربين الأوسط و الأقصى.

¹ - للاطلاع على أهم النصوص المصدرة الجغرافية والتاريخية، المشرقية والمغربية التي تطرقت إلى ذكر مجال المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من ق5هـ إلى ق8هـ ينظر:

- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت ق6هـ): كتاب الجغرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص106

- الإدريسي، محمد بن محمد(ت560هـ) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتاب، بيروت، ط1، 1409هـ، ج1، ص222

- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تع سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص176

- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي(ت647هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1426هـ/2006م، ص152.

- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى(ت685هـ): كتاب الجغرافيا، تح اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ط1، 1970

- الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد(ت714هـ): عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص88.

- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل(ت732هـ): تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص122

ابن خلدون، عبد الرحمن(ت808هـ): العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ، 1988م، ج6، ص420 .

² - البرزلي، أبو القاسم بن أحمد(ت844هـ): جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ج2، ص534

3- اختلاف المصادر في تحديد المعالم الشرقية للمغرب الأوسط، فمنهم من يذكر بأنها تبدأ من بونة باتجاه الجنوب إلى الإريس فالأوراس فتبسة، ومنهم من يعتبر نهر الشلف هو الحد الشرقي لبلاد المغرب الأوسط، ويرى آخرون أن الحد الشرقي عبارة عن خط وهمي يبدأ من بجاية باتجاه الجنوب، وهذا راجع في نظري إلى عدم الاستقرار السياسي، مما أدى إلى غموض حدود الإمارات والكيانات التي تعاقبت على حكمه، أي أن الحدود تُرسم على حساب قوة وضعف الدول القائمة به من جهة، وضعف وقوة الدول المجاورة لها من جهة أخرى، كما أن التركيبة القبلية المتحركة لمجتمع المغرب الاسلامي تحول دون رسم دقيق وثابت للفصل بين مكُوناته، هذا بالإضافة إلى اختلاف المعايير التي رسمت على أساسها الحدود (قبلية، سياسية، مذهبية، جغرافية...).

4- إنَّ اختفاء مصطلح المغرب الأوسط في بعض المصادر -لاسيما المتأخرة منها- يعود في اعتقادي إلى الوحدة الثقافية والدينية التي فرضتها الوقائع التاريخية والمعطيات الجغرافية على مجتمع الغرب الاسلامي والتي جعلت منه كيانا موحدًا لا يمكن التفريق بين أطرافه، ولا أدلّ على ذلك ما نسجّله من حرية في انتقال القبائل والعلماء والطلبة والمؤلفات، معتقدين أن جغرافية هذا المجال المغربي الواسع هي مجالها السياسي، بغضّ النظر عن الوقائع السياسية التي كانت ترسم العلاقة بين دول بلاد المغرب، ومثال ذلك من المصادر:

كتاب "المستفاد في مناقب العباد" لأبي عبد الله التميمي (مغربي من علماء ق6هـ ت603هـ/1206م)¹.
كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العمري (مشرقي من جغرافي ق8هـ توفي سنة 749هـ/1349م) حيث اعتبر إقليم المغرب إقليما واحدا في يد السلطان أبي الحسن المريني².

5- إن إشكالية تحديد معالم المغرب الأوسط في النصوص المصدرية انتقل صداها إلى المراجع وعند الباحثين المعاصرين عندما اختلفوا في صلة الجزائر الحديثة بمصطلح المغرب الأوسط، وهل أن هذا المصطلح يشغل حيّزا للدولة بالمفهوم الحديث، وهو ما تطرّق إليه الأستاذ أبو القاسم سعد الله (ت1435هـ/2013م): في قوله: "... إنَّ تسميته المغرب الأوسط لم تكن بالضبط أيضا حدود الجزائر الحالية، لأنَّ هذا المصطلح بالإضافة إلى مصطلحي المغرب الأدنى والمغرب الأقصى بقيت غامضة غموض حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي"³.

¹ - الفاسي، أبو عبد الله التميمي (ت603هـ): المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح محمد الشريف، منشورات كلية الآداب، تطوان، المغرب، ط1، 2002م، قسم2، ص180.

² - ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبوظبي، ط1، 1423هـ، ج4، ص188-190.

³ - سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي (ق10-14هـ/16-20م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ج1، ص28.

6- بعد الجمع بين مختلف النقولات الجغرافية منها والتاريخية، ومحاولة التوفيق بينها، يتضح أنّ العلة من تسميته بالمغرب الأوسط كونه يتوسط المغربين الأدنى والأقصى، وأنّ حدوده -التي سنعتمدها في دراستنا- كما يلي: يحدّه من الشمال بحر الروم، ومن الجنوب الصحراء الفاصلة بينه وبين بلاد السودان، وهي حد طبيعي مشترك بين المغرب الثلاث، أما من الشرق فإننا سنعتمد مدينة "بونة" كحد فاصل بينه وبين إفريقيا، ومن الغرب يعتبر وادي ملوية حداً طبيعياً فاصلاً بينه وبين المغرب الأقصى، وهو ما أشار إليه الأستاذ "الطاهر بونابي" بقوله: "أنّ مصطلح المغرب الأوسط خلال القرنين 6 و7هـ/12،13م كان يعنى به العمق الممتد من بونة شرقاً إلى ما وراء تلمسان غرباً، ومن البحر شمالاً إلى الصحراء جنوباً"¹، وهذا هو الإطار الذي سندرس ضمنه موضوعنا الموسوم بـ: "المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط من ق5هـ/11م إلى ق8هـ/14م".

2. المذهب و المدرسة:

أ. المذهب:

لغة: مصدر ميمي من الفعل "ذهب"، يذهب، ذهاباً، أي سار أو مرّ، جاء في تاج العروس: "ذهب كمنع) يذهب (ذهاباً) بالفتح ويكسر (ذهاباً) مصدر سماعي (وذهوباً) بالضمّ، قياسي مستعمل (ومذهباً، فهو ذاهب وذهوب) كصبور (: سار أو: مرّ)، وذهب (به: أزاله، كأذهبه)."² وفي "لسان العرب": (المذهب مصدر كالذهاب، وهو السير والمرور، ويطلق المذهب على المتوصّلاً لأنّه يُذهب إليه، وفي الحديث أنّ النبي ﷺ كان إذا أراد الغائط أبعد في المذهب³). وبعد تفحصي لأهمّ المعاجم اللغوية تبين لي أنّ كلمة "مذهب" تُطلق في اللغة ولها معنيان؛ معنى حقيقي صالح لمكان الذهاب وزمانه، وآخر مجازي، يقول ابن فارس: (الذال والهاء والباء أصلان: أُصِّل يدلّ على حسن ونضارة، من ذلك الذهب معروف، والمذاهب سُيُور تُموّه بالذهب، وكلّ شيء مُموّه بذهب فهو مذهب⁴. وأصل ثان يدلّ على ذهاب الشيء ومُضيّه، ومنه قولهم ذهب فلان مذهباً حسناً أي سلك طريقاً حسناً). وفلان يذهب إلى قول أبي حنيفة أي يأخذ به⁵. كما يطلق المذهب ويراد به المعتقد الذي يُذهب إليه،

¹ - بونابي، الطاهر: التصوف في الجزائر خلال ق6،7هـ/12،13م، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص33

² - الزبيدي، محمد بن محمد (ت1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تح مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج2، ص449.

³ - ابن منظور، جمال الدين (ت711هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج1، ص393

⁴ - ابن فارس، أبو الحسن أحمد (ت395هـ): معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م، ج2، ص362

⁵ - الزمخشري، أبو القاسم محمود (ت538هـ): أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ج1، ص319

والطريقة، والأصل¹. وفي "المصباح المنير": (وذهب في الأرض ذهابا وذهوبا ومذهبا مضى، وذهب مذهب فلان قصد قصده وطريقته وذهب في الدين مذهباً رأى فيه رأياً وقال السرقسطي أخذت فيه بدعة.)²

اصطلاحاً: تُعرّف أغلب المصادر الفقهية "المذهب" على أنه: (مجموع الآراء والأحكام الاجتهادية³ التي سلكها إمام من الأئمة المجتهدين، ثم ما ذهب إليه تلامذته وأصحابه من اجتهادات مبنية على أساس قواعده وأصوله)، فإذا قيل لك: ما مذهب مالك؟ فقل: "ما اختص به من الأحكام الشرعية الفروعية الاجتهادية، وما اختص به من أسباب الأحكام والشروط والموانع والحجاج المثبتة لها."⁴ وجاء في "مواهب الجليل" ما نصّه: (المذهب حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية، ويطلق عند المتأخرين من أئمة المذاهب على ما به الفتوى من باب إطلاق الشيء على جزئه الأهم نحو قوله ﷺ: ﴿الحج عرفة﴾؛ لأن ذلك هو الأهم عند الفقيه المقلد.⁵) وفي "حاشية الدسوقي": (وأنّ مذهب مالك مثلاً عبارة عمّا ذهب إليه من الأحكام الاجتهادية الاجتهادية أي التي بذل وسعه في تحصيلها فالأحكام التي نصّ الشارع عليها في القرآن أو في السنّة لا تعدّ من مذهب أحد من المجتهدين... وسئل ابن عرفة هل يقال في أقوال الأصحاب: إنّها من مذهب الإمام فقال: إن كان المستخرج لها عارفا بقواعد إمامه وأحسن مراعاتها صحّ نسبتها للإمام وجعلها من مذهبه وإلا نسبت لقائلها⁶).

وبناء على ما تقدّم فإنّه يمكن الخلوص إلى أنّ:

- الأحكام القطعية المنصوص عليها من الشارع في الكتاب والسنّة، كوجوب الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ونحوهما، ليست من هذا القبيل، ولا اختصاص لمذهب بها دون مذهب.
- اصطلاح المذهب ليس مجرد آراء واجتهادات الإمام المؤسس فحسب، وإنّما يشمل أيضاً أقوال أصحابه - المجتهدين - من بعده ما داموا قد استنبطوا على قواعده وضوابطه وأصوله؛ فالمالكية في بعض الفروع

¹ - الفيروزآبادي، محمد الدين أبو طاهر (ت817هـ): القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005م، ج1، ص86

² - الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت770هـ): المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج1، ص210

³ - يُقصد بالاجتهادية، الأحكام الشرعية الفرعية المستنبطة من الأدلة الظنية، أي ما ليس فيه دليلاً قطعياً من الكتاب والسنّة.

⁴ - لشرح هذا التعريف يُنظر القرافي، شهاب الدين أبو العباس أحمد (ت716هـ): الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1995م، ص195

⁵ - الخطّاب الرعيني، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت954هـ): مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط3، 1992م، ج1، ص24.

⁶ - الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة (ت1230هـ): حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، دار الفكر، د.ت، ج1، ص19.

يعتمدون قول "ابن القاسم" الذي خالف فيه الإمام مالك، ويعتدون ذلك من المذهب المالكي¹، والمذهب الحنفي كذلك هو ليس أقوال الإمام أبي حنيفة وحده، بل هو أقواله وأقوال أصحابه كـ "أبي يوسف"، وعند الشافعية يُعتبر المذهب ما ذهب إليه الشافعي وأصحابه من الأحكام في المسائل.²

ب. المدرسة:

لغة اسم مكان مشتق من الفعل "درس" بمعنى "قرأ"، جاء في لسان العرب: "ودرس الكتاب يدرسه درسا ودراسة ودارسه، من ذلك، كأنه عانده حتى انقاد لحفظه وروي عن ابن العباس في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾³ قال: معناه وكذلك نبين لهم الآيات من هنا لكي يقولوا إنك درست أي تعلمت وقرأ ابن عباس ومجاهد: درست، وفسرها قرأت على اليهود وقرأوا عليك. وقرئ: وليقولوا درست؛ أي قرئت وتليت.⁴

وفي المعجم الوسيط: " (دارس) الكتاب ونحوه مدارس ودراسة قارأه وذاكره ، (تدارس) الكتاب ونحوه تعهده بالقراءة لئلا ينساه و تدارس الطلبة الكتاب درسه كل منهم على الآخر، و في هذا السياق يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾⁵ و(المدراس) الموضع يدرس فيه كتاب كتاب الله ومنه مدراس اليهود، و(المدرسة) مكان الدرس والتعليم وجماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين تعتنق مذهبا معينا أو تقول برأي مشترك، ويقال هو من مدرسة فلان على رأيه ومذهبه (ج) مدارس"⁶ ويقال سُمِّي سُمِّي إدريس عليه السلام لكثرة دراسته كتاب الله تعالى، واسمه أحنوخ.⁷

اصطلاحاً: تعددت التعاريف الاصطلاحية للفظ "المدرسة" بتعدد استعمالها في مختلف الحقول المعرفية

¹ - للمزيد من التفاصيل راجع محمد إبراهيم علي: اصطلاح المذهب عند المالكية، دار البحوث للدراسات الاسلامية، دبي، ط2، 2002م، ص23

² - الشرييني، شمس الدين محمد بن أحمد (ت977هـ): مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/ 1994م، ج1، ص102.

³ - سورة الأنعام: الآية 105

⁴ - ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج6، ص79

⁵ - سورة الأعراف: الآية 169

⁶ - للمزيد ينظر ابراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، د ت، ج1، ص279-280

⁷ - الفارابي، أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت339هـ): الصِّحاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م، ج3، ص927

ففي اصطلاح المؤرخين، المدرسة مؤسسة عمومية تُلقن فيها -بشكل جماعي- معارف خاصة أو عامة ضرورية، وهي تضم مفكرين و باحثين بنوا اجتهاداتهم، وألفوا كتبهم بناء على مرجعية موحدة لتحقيق هدف واحد، ومواجهة الأفكار والمدارس والآراء المخالفة بالدروس والتحليل والتعليل أحيانا و بالمناظرة أحيانا أخرى.¹

وفي اصطلاح المعماريين هي مؤسسة تضم بيتا للصلاة والدراسة في آن واحد وتعرف باسم "القبة"، وصحفاً مكشوفاً واسعاً وسكنى للطلبة تتألف من طابق أو طابقين بهما غرف أو حجرات صغيرة وما يتبعها من مرافق ضرورية أخرى مثل خزانة الكتب أو المكتبة وغيرها.²

وذهب آخرون في تحديد مفهومها إلى رأي غير هذا، فالمدرسة تعني "المذهب الفكري"، فقد يكون لشخص ما مدرسة كـ "المدرسة الافلاطونية"، التي يقصد بها تلك الطريقة التي اتبعها "أفلاطون" في فلسفته، وقد يكون لمدينة ما مدرسة تعرف بها فيقال "مدرسة البصرة" في النحو، وقد تكون لفرقة كلامية مدرسة كالمعتزلة مثلاً، كما قد تكون لقطر من الأقطار، فيقال "مدرسة الحجاز" للفتوى و "مدرسة الشام" في أنظمة الحكم³، ويمكن أن تنسب المدرسة لمذهب -فكري أو فقهي أو فلسفي...- وصقع من الأصقاع في آن واحد، كالمدارس الفقهية المختلفة التي ظهرت في أرجاء الدولة الإسلامية، ومنها المدارس الفقهية المالكية، وعليه يمكننا القول بأن المقصود بالمدارس المالكية، الاتجاهات الفقهية المختلفة -في بعض المسائل الفرعية- داخل المذهب المالكي، أو بتعبير آخر هي الطرق المختلفة التي نقل بها شيوخ كل مصر روايات المذهب والتي ترى أنّ نهج مالك ومذهبه هو ما تسير عليه.⁴

وبناء على ما سبق يظهر جلياً الفرق بين المذهب والمدرسة، فالمدرسة أحصّت من المذهب، وهي منضوية تحته وفرع من فروعها، لا تخرج عنه في أصوله، وإنما تختلف مع غيرها من المدارس -بذات المذهب- في بعض المسائل الفرعية، وفي طريقة الاحتجاج، وأيضاً في شرح مقفل غوامض المذهب، والاهتمام بالروايات المنقولة عن الإمام وتمحيصها وترجيح بعضها على بعض ... إلى غير ذلك من القضايا التي تعمل على خدمة المذهب⁵

3. الإمام مالك مؤسس المذهب:

- ¹ - مجموعة من المؤلفين: بحوث الملتقى الأول "القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي"، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، دولة الإمارات، ط1، 2004م، ج1، ص547
- ² - صالح بن قربة وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007م، ص139.
- ³ - بشير مبارك: المدرسة المالكية المغربية ما بين القرنين 2-8هـ، مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية، مج3، ع1، 2016م، ص11
- ⁴ - المامي، محمد المختار محمد: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته، مركز زايد للتراث والتاريخ، التاريخ، العين، دولة الإمارات، ط1، 2002م، ص25.
- ⁵ - مجموعة من المؤلفين: بحوث الملتقى الأول "القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي"، مرجع سابق، ج1، ص549

أ. نسبه ومولده:

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري¹ - نسبة إلى "أصبح" بفتح الهمزة والباء، قبيلة من اليمن كبيرة، بيته بيت علم وفضل، فجده الأعلى أبو عامر، صحابي جليل شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ خلا بدرًا، وقيل عنه: تابعي مخضرم، وجده الأسفل مالك، من كبار التابعين وعلمائهم، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلاً إلى قبره²، يقول أبو سهيل عم الإمام مالك، وهو من جُلَّة علماء التابعين وسادتهم، روى عنه في الموطأ: (نحن قوم من ذي أصبح قدم جدنا المدينة فتزوج في التميميين فنسبنا إليهم.³) يقصد بني تميم بن مزة، أمّا أمّه فهي "العالية" بنت ابن بكار شريك بن عبد الرحمان بن شريك الأزدي⁴. وُلد ﷺ بالمدينة المنورة سنة ثلاث وتسعين من هجرة النبي ﷺ - على أشهر الأقوال - قال الإمام القرطبي، أبو الفضل رضي الله عنه: (اختلف في مولده رحمه الله تعالى اختلافًا كثيرًا، فالأشهر في ما روي من ذلك قول يحيى بن بكر أن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة (93هـ/712م) في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.⁵) أمّا وفاته فكانت في ربيع الأول من سنة تسع وسبعين ومائة من هجرة الرسول ﷺ، بعد مرض عضال تاركًا وراءه إرثًا عظيمًا في غير فنٍّ من العلوم كالتفسير والحديث والعقيدة والآداب والمواعظ... كان أكثرها شهرة "الموطأ" الذي قال فيه الشافعي: إنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، قال الحميدي في كتاب جذوة المقتبس: حدّث القعني قال: دخلت على مالك وهو يبكي في مرض وفاته فقلت: ما يبكيك؟ فقال لي: ومالي لا أبكي، ومن أحق بالبكاء مني، والله لوددت أني ضُربت بكل مسألة أفتيت فيها برأي بسوط سوط، وقد كانت لي السعة فيما قد سُيِّقَتْ إليه، وليتني لم أفت بالرأي⁶

ب. صفاته ومناقبه:

¹ - ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، الهند، ط1، 1326هـ، ج10، ص05

² - الحجوي، محمد بن الحسن (ت1376هـ): الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ج1، ص446

³ - القاضي عياض، أبو الفضل (ت544هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح ابن تاووت الطنجي، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1، ج1، ص111

⁴ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص112.

⁵ - القاضي عياض: المصدر نفسه، ج1، ص118

⁶ - الحجوي: الفكر السامي، مصدر سابق، ج1، ص453.

لقد أتخفتنا المصادر بما فيه الكفاية من ذكر لصفاته وخلقه وملبسه وطيبه ومسكنه ومطعمه ومن ثناء الأئمة عليه علماً وخلُقاً¹، حيث كان ﷺ رجلاً طويلاً عظيم الهامة أصلع أبيض الرأس واللحية شديد البياض، وكان لباسه الثياب العذنية الجياد، وكان إذا أراد أن يجلس لحديث رسول الله ﷺ وسلم اغتسل وتبخّر وتطيب ومنع الناس أن يرفعوا أصواتهم، وكان إذا دخل بيته يكون شغله المصحف وتلاوة القرآن، وكانت السلاطين تهابه، وكان يكره حلق الشارب ويعيبه ويراه أنه من المثلة وكان يقول: بلغني أن العلماء يُسألون يوم القيامة عما يُسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان يقول: مثل المنافقين في المسجد كمثل العصافير في القفص إذا فتح باب القفص طارت العصافير، وكان يقول إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه، وكان ﷺ إذا قال في المسألة لا أو نعم لا يقال له من أين قلت هذا.

وأخذ ﷺ العلم عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين وكان يقول ليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب، وقيل له ما تقول في طلب العلم؟ فقال حسن جميل ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه.

ولما ضربه جعفر بن سليمان في طلاق المكره وحمله على بعير قال: له ناد على نفسك فقال ﷺ ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، أقول طلاق المكره ليس بشيء فبلغ ذلك جعفرًا فقال: أدركوه وأنزلوه، وكان يقول بحق على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وكان ﷺ يقول: لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيعه فإنه ذل وإهانة للعلم، وكان يمشي في أزقة المدينة حافياً ماشياً ويقول: أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها قبر رسول الله ﷺ بحافر دابة.

وقال مالك ﷺ: لمطرف ماذا يقول الناس فيّ فقال: أما الصديق فيثني وأما العدو فيقع، فقال: ما زال الناس هكذا لهم عدو وصديق ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها.

وسئل رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾² فغرق وأطرق وصار ينكت بعود في يده ثم رفع رأسه وقال: الكيف منه غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج³. وقال علي بن بشر بن عمر الزهراني سألت مالكا عن رجل، فقال أرايته

¹ - من أهم المصادر المغربية التي تناولت مناقب الإمام مالك وصفاته، القاضي عياض في مداركه، حيث أفرد باباً لصفته وخلقه وآخر في ملبسه وطيبه وحليته ومسكنه ومطعمه وباباً في عقله وسمته، راجع القاضي عياض: المصدر نفسه، ج1، ص-ص120-130.

² - سورة "طه": الآية 05

³ - الشعراني، أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد (ت973هـ): الطبقات الكبرى، مكتبة محمد المليحي الكتي وأخيه، مصر، 1315هـ، ج1، ص45

في كتي؟ قلت لا، قال لو كان ثقة لرأيت في كتي¹. وقال ابن يونس: سأل ابن القاسم مالكا عن البغاة: أيجوز قتالهم؟ فقال: إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز، فقال: فإن لم يكن مثله؟ فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما. فكانت هذه الفتوى من أسباب محنته². ج. أقوال العلماء فيه³:

قال ابن هرمز شيخه فيه أنه عالم الناس، وقال سفيان بن عيينة لما بلغه وفاته ما ترك على الأرض مثله، وقال: مالك إمام ومالك عالم أهل الحجاز، ومالك حجة في زمانه ومالك سراج الأمة، وما نحن ومالك إنما كنا نتبع آثار مالك، وقال الشافعي: مالك أستاذي وعنه أخذنا العلم وما أحد أمن علي من مالك وجعلت مالكا حجة بيني وبين الله تعالى، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ولم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم لحفظه وإتقانه وصيانيته، وقال: العلم يدور على ثلاثة مالك والليث وسفيان بن عيينة، وحكي عن الأوزاعي أنه كان إذا ذكره قال: قال عالم العلماء وعالم أهل المدينة ومفتي الحرمين، وقال بقرية بن الوليد: ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك، وقال أبو يوسف: ما رأيت أعلم من ثلاثة، فذكر مالكا وأبا حنيفة وابن أبي ليلى، وقال ابن مهدي - وسئل عن مالك وأبي حنيفة - مالك أعلم من أستاذي أبي حنيفة، وقدمه ابن حنبل على الأوزاعي والثوري والليث وحماد، والحكم في العلم.

وقال: هو إمام في الحديث والفقه، وسئل عمن يريد أن يكتب الحديث وينظر في الفقه حديث من يكتب؟ وفي رأي من ينظر؟ فقال حديث مالك ورأي مالك، وقال يحيى بن سعيد القطان: مالك إمام يقتدى به، وقال ابن معين: مالك من حجج الله في خلقه.

إمام من أئمة المسلمين مجمع على فضله، وقال أيوب بن سويد: مالك إمام دار الهجرة، وقال أبو جعفر المنصور أنه أعلم أهل الأرض.

وقال سعيد بن الحداد كان مالك من الراسخين في الإسلام أرسخ في العلم من الجبال الراسيات، وقال حميد بن الأسود كان إمام الناس عندنا بعد عمر زيد بن ثابت وبعده عبد الله بن عمر قال علي بن المديني وأخذ من زيد ممن كان يتبع رأيه واحد وعشرون رجلاً.

ثم صار علم هؤلاء إلى ثلاث ابن شهاب وبكير بن عبد الله وأبي الزناد، وصار علم هؤلاء كلهم إلى مالك بن أنس، وقال أسد بن الفرات: إن أردت الله والدار الآخرة فعليك بمالك بن أنس، قال حماد بن زيد: دخلت المدينة

¹ - ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، مصدر سابق، ج10، ص06.

² - الحجوي: الفكر السامي، مصدر سابق، ج1، ص448.

³ - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك (بتصرف)، مصدر سابق، ج1، ص75 وما بعدها.

ومنادياً ينادي لا يفتي الناس في مسجد رسول الله ﷺ ويحدث إلا مالك بن أنس، وقال فيه تلميذه الشافعي: مالك حجة الله على خلقه، وقال ابن مهدي: ما رأيت أحداً أتمَّ عقلاً ولا أشدَّ تقوى من مالك، وقال: ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك، وقال الإمام البخاري: أصح الأسانيد مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. وقال أبو داود: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه، ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. لم يذكر أحداً غير مالك، وقد أجمع أشياخه وأقرانه فمن بعدهم على أنه إمام في الحديث موثق بصدق روايته، طبقت مناقبه وفوائده الآفاق. وقد اعترف له بالعلم والإمامة يحيى بن سعيد شيخه والأوزاعي والليث وابن المبارك وجماعة من هذا النمط ومن بعدهم كالبخاري ومحمد بن عبد الحكم وأبو زرعة الرازي ومن لا يبعد كثرة.

د. مؤلفاته:

ألف الإمام "مالك" رحمه الله في مجالات مختلفة من شتى فنون العلم خاصة التقلية منها، غير أن أميزها وأشهرها كتاب "الموطأ"، الكتاب الذي حفظ لنا أصول المذهب المالكي من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبه عُرف المذهب وصاحبه، حتى أن أبا زيد القيرواني ذهب إلى أن مالكا لم يضع غيره، لما سأل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور تأليفه¹، وقد أورد القاضي عياض في باب تأليف الإمام مالك من غير الموطأ نصاً² توحى القراءة المتأنية له بما يلي:

- تنوع تأليف الإمام مالك في العقيدة والتفسير والأقضية والرقائق... ثم على سعة مداركه العقلية، وقدراته العلمية، فقد جلس للفتيا وهو ابن سبع عشرة سنة، قال مالك: "وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم إني لموضع لذلك"³

- تأليف الإمام مالك - من غير الموطأ - حتى وإن كان أكثرها بأسانيد صحيحة، فإنها لم تُرو تواتراً، أي أنه لم يواظب على إسماعها.

- أن الإمام مالك لم يكتب هذه المؤلفات، وإنما نقلها عنه صاحب المسألة مشافهة أو آحاداً ممن سمعها من أصحابه

¹ - ابن أبي زيد، أبو محمد عبد الله القيرواني (ت386هـ): النوادر و الزيادات، تح عبد الفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999م، ج1، ص8.

² - للاطلاع على هذا النص ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص90-94.

³ - القاضي عياض: المصدر نفسه، ج1، ص142.

-إنكار السادة المالكية نسبة بعض الكتب إلى الإمام مالك لورود أحاديث ضعيفة أو منكرة تخالف أصول المذهب، راجعٌ لمعرفتهم مدى تشدد الإمام مالك في أخذ الحديث، فقد قال ابن وهب: "ما أحد آمن ولا أوثق من مالك"¹ وقال يحيى بن سعيد القطان: "ليس في القوم أصح حديثاً منه"²، وقال عبد الرحمن بن مهدي: ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك بن أنس، ولا أقدم عليه في صحة الحديث أحداً، وما رأيت أعقل منه، قال: وسفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة. والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث. ومالك إمام فيهما جميعاً³.

هـ. أصول مذهبه:

مما ينبغي الإشارة إليه -أولاً- أنه وعند قراءة نصوص متقدمي فقهاء المالكية يتبين لنا أن الأصول التي بُني عليها المذهب المالكي لم يكن للإمام مالك يد في إخراجها⁴، وإنما توصل إليها تلاميذه وفقهاء المذهب الذين استنبطوها من خلال استقراءهم لآراء "مالك" وفتاويه، ولا أدل على ذلك من اختلافهم في عددها، فمنهم من قال بأنها أربعة⁵، ومنهم من ذكر بأنها خمسة⁶، وعدّها القرافي¹ في كتابه "تنقيح الأصول" إحدى عشر أصلاً، وهو

¹ - القاضي عياض: المصدر نفسه، ج1، ص163.

² - القاضي عياض: المصدر نفسه، ج1، ص163.

³ - الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف (ت1099هـ): شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تح طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ - 2003م، ج1، ص54.

⁴ - نص الإمام مالك على بعض أصول مذهبه عندما أشار إلى المستندات التي يجب أن يستند إليها القاضي أثناء إبرامه الحكم، وذلك في قوله: "وليحكم بما في كتاب الله، فإن لم يكن فيه، فيما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا صحته الأعمال، فإذا كان خبراً صحبت غيره الأعمال، قضى بما صحبته الأعمال، فإن لم يجد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما أتاه عن أصحابه إن اجتمعوا، فإن اختلفوا، حكم بمن صحبت الأعمال قوله عنده، ولا يخالفهم جميعاً ويتدئ شيئاً من رأيه، فإن لم يكن ذلك فيما ذكرنا، اجتهد رأيه وقاسه بما أتاه عنهم، ثم يقضي بما يجتمع عليه رأيه، ورأى أن الحق"، ومن هذا النص يمكن حصر هذه الأصول في ستة، وهي القرآن، السنة النبوية، عمل أهل المدينة، إجماع الصحابة أو التابعين، القياس، الاجتهاد، ينظر القيرواني، ابن أبي زيد (ت386هـ): النوادر والزيادات، تح محمد الأمين بوخيزة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ج8، ص15، 16.

⁵ - وهو ما ذهب إليه ابن الحاج العبدري المالكي، الفاسي مولداً، المصري وفاة، في قوله: "ومذهب مالك - رحمه الله - مبني على أربع قواعد: القاعدة الأولى: آية محكمة. القاعدة الثانية: حديث صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن غير ناسخ، ولا معارض. القاعدة الثالثة: إجماع أهل المدينة. القاعدة الرابعة: إجماع أكثرهم بعد اختلافهم ومناظرهم". وهو في نصّه هذا أغفل قاعدتي القياس والاجتهاد، اللتين نصّ عليهما الإمام مالك في النص السالف الذكر، ينظر ابن الحاج، أبو عبد الله العبدري (ت737هـ): المدخل، دار التراث، د ط، د ت، ج1، ص180.

⁶ - وممن قال بذلك ابن العربي الإشيلي المالكي (ت543هـ)، حيث ذكر أن: "أصول الأحكام خمسة، منها أربعة متفق عليها من الأئمة، الكتاب، السنة، الإجماع، النظر والاجتهاد، فهذه أربعة، والمصلحة وهو الأصل الخامس الذي انفرد به مالك رضي الله عنه دونهم، ولقد وُفق فيه من بينهم" ينظر ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله

وهو ما اعتبره الأستاذ أبو زهرة أشمل وأدق إحصاء²، حيث قال: "إن أصول المذهب هي القرآن، السنة، الإجماع، القياس، عمل أهل المدينة، قول الصحابي، المصلحة المرسلّة، العرف والعادات، سدّ الذرائع، الاستصحاب، الاستحسان"³، وذهب آخرون في عدّها إلى أكثر من ذلك بكثير⁴، كما تجدر الإشارة إلى أنّ هناك أصولاً اشترك فيها مع بعض المذاهب الفقهية أو جميعها، وأخرى انفرد بها المذهب المالكي عن غيره من المذاهب، فالكتاب والسنة والاجماع والقياس، أصول اتّفقت عليها المذاهب السنيّة الأربعة، ويشترك مع المذهب الحنفي -إضافة إلى ذلك- في "الاستحسان" و"العرف"، ومع المذهب الحنبلي في أصل "سدّ الذرائع"، على أنّ ما يمكن ملاحظته عند سردنا لهذه الأصول أنّ بعضاً منها انفرد به المذهب المالكي وحده، كـ "العرف والعادات"، و"شرع من قبلنا"، و"مراعاة الخلاف"، ولعلّ أهمّها وأشهرها "عمل أهل المدينة"، مثلما أكّد ذلك ابن خلدون في قوله: "واختصّ - أي مالك - بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتمدة عند غيره وهو عمل أهل المدينة لأنّه رأى أنّهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك، متابعون لمن قبلهم ضرورة لدينهم واقتدائهم، وهكذا إلى الجليل المباشرين لفعل النبيّ صلى الله عليه وسلّم الآخذين ذلك عنه. وصار ذلك عنده من أصول الأدلّة الشرعيّة"⁵.

الاشبيلي(ت543هـ): القيس في شرح موطأ مالك بن أنس، تح محمد عبد الله ولد كرم، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ج2، ص683.

¹ - القرافي(ت684هـ/1285م): هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمان الصنهاجي القرافي المصري مولدا و منشأ و وفاة (ت684هـ)، برع في علوم عديدة كالفقه والأصول والتفسير، وإليه انتهت رئاسة الفقه على المذهب المالكي، من مؤلفاته الذخيرة في الفقه المالكي، وشرح التهذيب، وشرح الجلاب...ينظر الزركلي، خير الدين (ت1368هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م، ج1، ص94، 95.

² - ينظر أبو زهرة، محمد: مالك، حياته وعصره، آروه وفقهه، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، مصر، ط2، د ت، ص276.

³ - أسهت كتب الفقه والمقاصد وتلك التي اعتنت بدراسة المذاهب الفقهية، في شرح هذه الأصول، لذلك تعمدنا عدم الخوض في ذلك تجنّبا للإطناب، ولمن يريد الاستزادة ينظر محمد المختار ولد أباه: المدخل إلى أصول الفقه المالكي، تق محمد الشاذلي النيفر، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1436هـ/2011م، ص75، 99، 151. عجيرد فهم: المسائل الفقهية المختلف في تشهيرها في المذهب المالكي، دراسة فقهية مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2012/2011م، ص25-44.

⁴ - تطرّق الأستاذ عمر الجيادي إلى كثرة الأصول والقواعد في المذهب المالكي، واختلاف علماء المالكية في عددها، وذكر بأنّ هناك من أوصلها إلى خمسمائة أصل، كما ذهب الأستاذ أبو زهرة إلى أنّ المذهب المالكي أكثر المذاهب أصولا، ما جعله أكثر مرونة وحيوية، وأقرب إلى مصالح الناس وحاجاتهم، ينظر عمر الجيادي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 1993م، ص256 وما بعدها. محمّد أبو زهرة: مالك، حياته وعصره، مرجع سابق، ص477.

⁵ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص565.

ثانيا: دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب:

1. الخارطة المذهبية لبلاد المغرب قبيل دخول المذهب المالكي:

بتحليل النصوص المصدرية يتبين لنا أنه وبعد العمليات الطويلة للفتح الاسلامي لبلاد المغرب، لم يتمكن الفاتحون ولا ولا السلطة الأموية من بسط السيطرة الكاملة على هذا الإقليم الشاسع من الدولة الإسلامية، وأنّ إسلام البربر غلبت عليه السطحية والارتجاج حتى نهاية القرن الأول الهجري (7م) رغم الأعمال الجلييلة التي قام بها الفاتحون الأول في هذا الشأن، فلقد سجّلت لنا المصادر أنّ أول عمل قام به عقبة بن نافع الفهري (ت63هـ/683م)¹ بعد فتح القيروان هو بناء مسجدها الجامع لتكون المدينة عاصمة ومركزا لنشر تعاليم الاسلام ومبادئ اللغة العربية، وقال في ذلك "إني أرى إفريقية إذا دخلها إمام تحرموا بالإسلام، فإذا خرج عنها رجع كل من أجاب منهم عن دين الله، فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لكم عز الأبد. فأجابه الناس واتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين فيها"²، ثمّ قال بعد تشييدها: "يا رب املأها عابدين واملأها بالمطيعين لك واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك"³، ولما وصل بجيشه إلى بلاد السوس عمد إلى ترك مجموعة من أصحابه بالمسجد⁴ الذي بناه ببلاد "ماسة"⁵ بالمغرب الأقصى، كما أنّ سياسة اللين التي انتهجها الفاتح أبو المهاجر دينار (ت63هـ/683م) عملت على ازدياد نطاق الاسلام، ولا أدلّ على ذلك من دخول قبيلة

¹ - عقبة بن نافع (ت63هـ/683م): هو عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري، وُلد على عهد رسول الله ولم يرو عنه شيئاً، كان رجلاً مستجاب الدعاء، وله كرامات وإجابات، وكان دخوله إفريقية ثلاث مرّات، حيث ولّاه ابن خالته عمرو بن القاص إفريقية وُقُو على مصر، سنة إحدى وأربعين، فمكث بها ثلاث سنين، ثمّ دخلها سنة خمس، وفيها اختطّ القيروان، وفي سنة خمس وخمسين تمّ عزله من طرف الخليفة معاوية بن أبي سفيان، أمّا الثالثة ففي خلافة يزيد بن معاوية سنة اثنتين وستين، وفيها بلغت فتوحاته سوس المغرب وبلاد السودان، وسائر إفريقية وعامة بلاد البربر، وقُتل عقبة بن نافع سنة ثلاث وستين لما قفل راجعاً من فتح بلاد السوس الأقصى، وقبره ظاهر بالزّاب يُبرّك به، ترجم له الدّباغ في باب صغار الصحابة ممّن دخلوا إفريقية، بينما ذكر ابن عبد البر أنّه "لا تصحّ له صحبة"، للمزيد ينظر ابن عبد البر القرطبي، يوسف بن عبد الله بن محمد (ت463هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/1992م، ج3، ص1075. الدّباغ: معالم الإيمان، مرجع سابق، ج1، ص164.

² - مؤلّف مجهول (ت ق 6هـ): الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986م، ص113.

³ - ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص23.

⁴ - المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ص40.

⁵ - ماسة: إحدى كور السوس الأقصى، واليهما يُنسب "وادي ماسة"، للمزيد ينظر مؤلّف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص211. وعند البكري بالناء المبسوطة "ماسة"، ينظر البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص320.

"أوربة"¹ البرنسية الاسلام على يده، وهو ما يُعدّ حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ إسلام بلاد المغرب²، كما عهد حسان بن النعمان (ت85هـ/704م)³ لثلاثة عشر فقيهاً من أجل التابعين من أصحابه لتعليم البربر -الذين انخرطوا في جيش الفتوح- أصول الإسلام ومبادئ اللغة العربية⁴، وقام موسى بن نصير (ت97هـ/716م) على نفس نهج سابقه حينما سخر سبعة عشر رجلاً من العرب لتعليم المصامدة أمور دينهم، وفي ذلك يقول ابن عذاري: "...وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض من أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام: منهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاية خلفاء بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ولم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه..."⁵، ثم جاءت بعثة الفقهاء العشرة⁶ التي أوفدها الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت101هـ/720م) إلى بلاد المغرب حوالي سنة 100هـ/719م، والتي تُعدّ -بحقّ- إنجازاً هاماً وخطوة حاسمة في سبيل نشر الدين الإسلامي، وترسيخ مبادئه لدى ساكنة بلاد المغرب، فلقد كان لهذه البعثة الأثر

¹ - أوربة : بألف مفتوحة وواو ساكنة سكونا حيّا، قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس (أي الحضرة)، يقول ابن خلدون: "وكان التقدّم لعهد الفتوح لأوربة هؤلاء بما كانوا أكثر عدداً وأشدّ بأساً وقوة، وهم من ولد أورب بن برنس، وهم بطون كثيرة، فمنهم بجاية ونفاسة ونعجة وزهكوجة ومزبانة ورغيوته وديقوسة." ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص192.

² - مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط5، 2000م، ص42.

³ - حسان بن النعمان (ت بعد 80هـ/699م): هو حسان بن النعمان بن عدي بن بكر الأزدي الغساني، أحد مشاهير الفاتحين المسلمين لبلاد المغرب، أتمه عبد الملك بن مروان على إفريقية سنة 73هـ فكانت له وقائع عظيمة مع الروم، ومع الكاهنة، انتهت بمقتلها والانتصار عليها، وهو الذي جدّد بناء جامع القيروان، ودوّن الدواوين، وولّى الولاية، ووضع الخراج على عجم إفريقية، أمّا وفاته فكانت بأرض الروم سنة 80هـ وقيل 84هـ. للمزيد ينظر الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): تاريخ الإسلام وفيات المشاهير و الأعلام، تح عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1413هـ/1993م، ج5، ص392. ابن عبد الحكم، عبد الرحمان بن عبد الله (ت257هـ): فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ، ص228.

⁴ - يذكر سعد زغلول أنّ حسان بعدما تمّ له النصر عن الكاهنة أخذ اثني عشر ألفاً من البربر، وجعل منهم فرقتين، وعهد بقيادتهما إلى ولدي الكاهنة، وعهد بتعليمهم القرآن وأصول الإسلام لثلاثة عشر فقيهاً، للمزيد ينظر سعد زغلول، عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، دت، ج1، ص243.

⁵ - ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص42.

⁶ - قال محمد بن أحمد بن تميم (أبو العرب): "قد حدّثني فرات بن محمد، أنّ عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين، يفتّحون أهل إفريقية، منهم: موهب بن حيّ المعافري، وأقام بإفريقية حتّى مات بها، وجبان بن أبي جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور القرشي، وإسماعيل بن عبيد، مولى الأنصار... ومّن بعث عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية: طلق بن حبان يفتّحهم، وبكر بن سودة الجذامي، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي، وقد كان ولي قضاء إفريقية... وأبو عبد الرحمن الحبلي واسمه: عبد الله بن يزيد، مات بإفريقية وله بها مسجد، وسعيد بن مسعود التجيبي... وكلّ هؤلاء ثقة عند المحدثين" ينظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص20-21.

الواضح على واقع المجتمع المغربي بما عُرف عنهم من علم وورع وفقه، "فاختط كل واحد منهم دارا لسكناه وبنى مسجدا بحذائها لعبادته ومجالسه، واتخذ بقره كتابا لتعليم القرآن وتلقين مبادئ العربية لصغار أطفال البلد، وأشاعوا الرشد وعلموا الحلال والحرام وحرصوا على الأمن والتأخي والمساواة، فكان إسلام البربر نهائيا من آثار هذه البعثة الكريمة"¹، كما سجّلت لنا كتب الطبقات عددا غير قليل من التابعين -من غير بعثة عمر بن عبد العزيز- ممن دخلوا مع جنود الفاتحين واستقروا ببلاد المغرب، أحصى منهم أبو العرب ثلاثا وعشرين تابعا² منهم أبو عبد الله علي بن رباح بن نصير اللخمي (ت114هـ/732م) وعبد الله بن أبي بردة القرشي (ت2هـ/8م) وحولهم جميعا بدأت تتكوّن بوادر مدرسة فقهية مغربية، جُبلت نفوس أصحابها على التمسك بالكتاب والسنة، والخوف من أصحاب الأهواء والبدع، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد أخذت المذاهب والأفكار السياسية والعقدية المناوئة لنظام الحكم في المشرق، طريقها -هي الأخرى- إلى بلاد المغرب منذ بدايات القرن الثاني الهجري (8م)، فعن الخوارج يقول ابن الأثير: "ثم لم يزل أهل إفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم، إلى زمان هشام بن عبد الملك، حتّى دبّ إليهم أهل العراق واستثاروهم، فشقوا العصا، وفرّقوا بينهم إلى اليوم، وكانوا يقولون: لا نخالف الأئمة بما تحيي العمال. فقالوا لهم: إنّما يعمل هؤلاء بأمر أولئك"³... ويقول ابن خلدون: "فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، ورسخت فيهم كلمة الإسلام... ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها، ولقنوها من العرب الناقلة من سمعها بالعراق. وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها، من الإباضية والصفيرية"⁴... وهو ما أشار إليه السلاوي في كتابه الاستقصا بقوله: "فَكَانَ الْمَغَارِبَةُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ لَدَلِكِ عَلَى مَذْهَبِ جُمْهُورِ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ وَاعْتِقَادِهِمْ وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْحَقُّ إِلَى أَنْ حَدَثَتْ فِيهِمْ بِدْعَةُ الْخَارِجِيَّةِ لِأَوَّلِ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ نَزَعَ إِلَيْهِمْ بِهَا بَعْضُ أَهْلِ التَّفَاقُ مِنْ خَوَارِجِ الْعِرَاقِ وَبَثَّوْهَا فِيهِمْ، فَتَلَقَّوْهَا مِنْهُمْ بِالْقَبُولِ وَحَسَنَ مَوْقِعَهَا لَدَيْهِمْ"⁵... وعن المعتزلة يصوّر لنا البكري ذلك الحضور القوي بقوله: "وكان مجمع الواصلية قريبا من

¹ - إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 2005م، ص35.

² - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، باب تسمية من دخل إفريقية من جلة التابعين، ج1، ص18-20.

³ - ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين (ت630هـ): الكامل في التاريخ، تح عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1417، 1997م، ج2، ص465.

⁴ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص144.

⁵ - السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري/محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دت، ج1، ص192.

تبيّرت وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها¹... " هذه النصوص وغيرها تؤكد نجاح أصحاب هذه الأفكار في التغلغل وبشكل واسع، خاصة في المجتمعات القبلية المنتشرة بالمغرب الأوسط والأقصى، بل وتمكّن بعضها من تكوين كيانات (إمارات) سياسية فصلت بلاد المغرب عن سلطة العبّاسيين، ولعلّ من أبرزها الإمارة الإباضية بتيهرت، والصفورية بسلمجاسة، والإمارات العلوية التي انتشرت من مغنية إلى مدينة البويرة بالمغرب الأوسط. لقد أضحت بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري - كما وصفها الأستاذ علاؤة عمارة - بمثابة فسيفساء من المجموعات السياسية والعقدية من إباضية وصفورية ومعتزلة واصلية، وزيدية علوية.²

في ظلّ هذا التصدّع - مع بدايات النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (8م) - أخذت المذاهب الفقهية³ طريقها إلى بلاد المغرب عن طريق الوافدين من المشرق أو الراحلين من المغرب بغية الحج أو طلبا للعلم، فلقد سجّلت لنا كتب الطبقات أنّ أغلب رحلات الطلبة المغاربة خلال القرن الثاني للهجرة (8م) ركّزت على كبار الأئمة بالمشرق، كأبي حنيفة (ت150هـ/767م) وسفيان الثوري (ت161هـ/778م)⁴ بالكوفة، وعبد الرحمان

¹ - البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص202.

² - علاؤة عمارة: دراسات في العصر الوسيط في الجزائر و الغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م، ص129.

- حتّى وإن تحدّث القاضي عياض عن مذهب مالكي أو حنفي منذ العقود الأولى من القرن الثاني الهجري، فلنّ أميل³ إلى رأي كثير من الباحثين ممّن يرون عدم تبلور مذاهب فقهية شخصية في هذه الفترة، ذلك أنّ أغلب النصوص المصدرة تؤرّخ لمذاهب فقهية إقليمية، أي مرتبطة باسم الإقليم الذي ظهر فيه ذلك المذهب كمذهب الكوفيين، ومذهب البصريين، ومذهب أهل المدينة... ويعتبر المستشرق الألماني "يوسف شاخت" أنّ الإمام الشافعي أوّل إمام أسّس مذهباً مرتبطاً باسمه، ومعه بدأ التحوّل من مرحلة المذاهب الإقليمية إلى مرحلة المذاهب الشخصية، فبدأ الحديث عن المذهب الحنفي والمذهب المالكي، ويرى "بروكوب" أنّه من السخف أن ننسب فقيها ما بمصر إلى مذهب معيّن خلال القرن 2هـ/8م، فالعالم آنذاك يأخذ في نفس الوقت ببعض من آراء مالك والبعض من آراء الشافعي أو الليث بن سعد أو غيرهم... بل هناك من الباحثين من يعتبر أنّ مصطلح "المذهب" ظهر بصفة متأخرة من تاريخ تطوّر التشريع الإسلامي (نخبة ق3هـ وبدايات ق4هـ)، وأنّ ما كان رائجا في الفترة التأسيسية (حتّى منتصف ق2هـ) هو مصطلح "القول" أو "الكتب"، كقول أهل المدينة أو كتب المدنيين، وهو ما نسجّله -على سبيل المثال- في "المدوّنة" من حضور لعبارة "قول مالك" بدلا عن "مذهب مالك". للزّيد من التفاصيل يُنظر نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5هـ/11م، تبر الزمان، تونس، 2004م، صص24-27. جوزيف شاخت: مدخل إلى الفقه الإسلامي، تر د. حمادي ذويب، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2018م، ص79.

Jonathan Brockopp: **Early Mālikī Law** Ibn 'Abd al-ḥakam and his Major Compendium of Jurisprudence, Leiden. Brill.2000.p206.

⁴ - سفيان الثوري (161هـ/777م): هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، والثوري نسبة إلى ثور (جبل بمكة)، وهو من تابعي التابعين، وُلد بالكوفة في خلافة سليمان بن عبد الملك، سنة 97هـ/716م، عاش أغلب حياته مستترا متخفيا عن السلطان حتّى أنّه نُفي بالبصرة ليلا، سنة 161هـ/777م، عُرف بفقهه وحفظه وزمّده، ونفوره من الخلفاء و الأمراء، وعُرف مذهبه انتشارا واسعا حتّى وصل أثره إلى بلاد المغرب. ينظر النووي، أبو زكريا محي

الأوزاعي (ت157هـ/774م)¹ بالشَّام، والليث بن سعد (ت175هـ/791م) بمصر، والإمام مالك (ت179هـ/795م) وفقهاء المدينة السبعة²، لذا فقد عرفت آراء سفيان الثوري وعبد الرحمان بن عمر الأوزاعي انتشاراً-ولو محدوداً- بإفريقية والمغرب عقب سقوط الدولة الأموية، قبل أن يضمحل المذهبان ويمهدا الطريق لمذهبي أبي حنيفة ومالك بن أنس³. ولئن أشار القاضي عياض (ت544هـ/1150م) إلى أسبقية للمذهب الحنفي⁴ عن المذهب المالكي من الناحية الزمنية، وإلى أخذ البعض -من بعد- بمذهب الشافعي⁵ وحتى مذهب داوود الظاهري، فإنّ كثيراً من الباحثين يذهبون إلى المزامنة والازدواجية في دخول وانتشار مذهبي مالك وأبي حنيفة إلى بلاد المغرب حيث يقول في مداركه: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد⁶ وابن أشرس¹ والبهلول بن راشد²، وبعدهم أسد بن الفرات³

الدين (ت676هـ): تهذيب الأسماء و اللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت، ج 1، ص222. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج3، ص104.

¹ - عبد الرحمان الأوزاعي (ت157هـ/774م): هو عبد الرحمان بن عمرو بن محمد الأوزاعي، نسبة إلى موضع مشهور بربض دمشق، اختلف في أصله فقيل عربي من حمير، وقيل أعجمي من همدان، وُلد سنة 88هـ/707م ببلعبك، ونشأ بالكرك، ثم انتقل إلى بيروت وبها توفي في صفر من سنة 157هـ/774م، شهد له العلماء بالفضل والنبوغ في الفتيا والعلم، وكان له مذهب مستقل مشهور -يُعدّ من مذاهب أهل الحديث والأثر- عمل به فقهاء الشام مدّة، وفقهاء الأندلس ثم فني. ينظر ابن سعد، أبو عبد الله محمد (ت230هـ): الطبقات الكبرى، تح إحصان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1968م، ج7، ص488. الذهبي: (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1427هـ/2006م، ج6، ص541-547.

² - عنهم ينظر محمد الشاذلي النيفر: موطأ الإمام مالك، مرجع سابق، ص18.

³ - الهنتاتي، نجم الدين: المذهب المالكي بالغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص19.

⁴ - يرتبط دخول المذهب الحنفي إلى بلاد المغرب باسم "عبد الله بن فروخ الفارسي (ت176هـ)"، حيث كان ممن رحلوا إلى المشرق طلباً للعلم، والتقى بأبي حنيفة وصحبه مدّة، وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدوّنة، يذكر أنّها نحو عشرة آلاف مسألة، كما لقي الإمام مالك وسفيان الثوري وأخذ عنهما، ولما عاد إلى القيروان كان اعتماده على أقوال مالك لكنّه إلى طريقة أهل النّظر والاستدلال أميل. يُنظر المالكي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت بعد464هـ): رياض النفوس، تح بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م، ج1، ص180. عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، دار العرب، بن عروس، تونس، ط1، 1406هـ/1986م، ص39.

⁵ - حتّى وإن نفى المقدسي (ت387هـ/997م) أيّ وجود للمذهب الشافعي ببلاد المغرب، في معرض حديثه عن المذاهب الإسلامية في هذا الإقليم، انطلاقاً من حادثة وقعت معه، فهذا في الحقيقة -حسب رأيي- ليس مدعاة للتعميم، فلربما كان قصده " أنّ الغالبية من سكّان المغرب لا يعرفون مذهب الشافعي، إنّما هو أبو حنيفة ومالك رحمهما الله"، ذلك أنّ كتب الطبقات سجّلت لنا عدداً -معتبراً- ممن ذهبوا إلى آراء الشافعي من مغاربة القرن 3هـ/9م ينظر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص236.

⁶ - علي بن زياد: هو أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي (ت183هـ/799م) قيل أصله من العجم، وُلد بطرابلس، ثم انتقل إلى تونس فسكنها. وقال ابن شعبان وغيره هو من عبس. قال أبو العرب علي بن زياد من أهل تونس ثقة مأمون (خير) متعبد بارع في الفقه ممن يخشى الله عز وجل مع علوه في الفقه. سمع من مالك وسفيان الثوري والليث

وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس... وكان بالقيروان قوم قلة في القديم أخذوا بمذهب الشافعي ودخلها شيء من مذهب داوود، ولكن الغالب إذ ذاك مذهب المدينة والكوفة⁴.

2. دور الرحلة في دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب

لئن كان الهدف الأسمى من رحلات المغاربة إلى بلاد الحجاز هو أداء فريضة الحج، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الرغبة في معرفة أمور دينهم من مصادرها، جعل "الهمم سبّاقة إلى الجمع والاستكثار... والرواية... إعجاباً بالتراث وتعصباً له... وحنيناً إلى منابعه في مواطن الارتكاز"⁵ مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته أولاً، ثم إلى عالمها الإمام مالك، إمام دار الهجرة ثانياً، وهو ما تؤكد النصوص المصدرية التي سنتناولها بشيء من التحليل كما يلي:

ابن سعد، وابن لهيعة وغيرهم. وسمع بإفريقية قبل هذا من خالد بن أبي عمران، لم يكن بعصره بإفريقية مثله. سمع منه بهلول بن راشد وسحنون وشجرة وأسد بن الفرات وغيرهم. وروى عن مالك الموطأ، وقد ألف فيه "أبو العرب" كتاباً خاصاً، إجلالاً له، وتعريفاً بمكانته في العلم، وتقديراً لجهوده... كانت وفاته سنة ثلاث وثمانين ومائة، وقبره بتونس مزار متبرّك به إلى اليوم، ومما يرويه أهل تونس أنّ من زار قبره في معترك علمي نجح بحول الله تعالى. للمزيد حول ترجمته، شيوخه، تلاميذه، مؤلفاته، مناقبه... ينظر محمد الشاذلي النيفر: **موطأ الإمام مالك** (قطعة منه برواية ابن زياد)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط5، 1984م، صص 31-50

¹ - ابن أشرس: هو أبو مسعود العباس (وقيل عبد الرحمان وقيل عبد الرحيم) بن أشرس الأنصاري، من طبقة علي بن زياد، كان ثقة فاضلاً، له سماع من مالك، قال عنه سحنون "كان ابن أشرس أحفظ للرواية، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ينظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص253. المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج1، ص252.

² - **البهلول بن راشد**: أبو عمرو البهلول بن راشد الحجري الرعيني نسبة إلى رعين من قبائل حمير المعروفة، كان مولده سنة 128هـ و توفي سنة 183هـ، قال عنه أبو العرب: "كان ثقة، مجتهداً، ورعاً، لا يشك في أنه مستجاب الدعوة، وكان عنده علم كثير، سمع من مالك بن أنس، ومن سفيان الثوري، ومن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ومن موسى بن علي بن رباح، ومن الليث بن سعد، ومن الحارث بن نبهان، أحسبه سمع منه لما دخل الحارث إفريقية". ينظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص52. المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج1، ص200، 201.

³ - **أسد بن الفرات**: هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، ولد بجرّان سنة 142هـ، و دخل القيروان مع والده في جيش ابن الأشعث، ثم ارتحل إلى تونس فسمع الموطأ من علي بن زياد، و بالمشرق لقي مالكا فواظب على السماع منه، و بالعراق لقي أصحاب أبي حنيفة، ولّاه زيادة الله الأغلي القضاء سنة 203هـ، و توفي أثناء غزوه لصقلية في شهر ربيع الآخر سنة 213هـ. ينظر المالكي: المصدر السابق، ج1، ص254.

⁴ - عياض، القاضي: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص25. ويذكر البيهقي (ت845هـ) أنّ عبد الله بن فروخ الفارسي (ت175هـ) أول من دخل بمذهب أبي حنيفة إلى إفريقية، ينظر المقرئ، تقي الدين (ت845هـ)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ، ج4، ص150. ويُرجع السلاوي (ت1315هـ) سبب أخذ أهل المغرب بمذهب أهل العراق في الأصول والفروع إلى كونه مذهب الخلفاء يومئذ بالمشرق والتأس على قدم إمامهم، ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج1، ص193.

⁵ - بن عاشور، محمد الفاضل: **أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي**، مكتبة التجاح، تونس، د ت، ص50.

- شعور المغاربة بالعزلة والبعد عن منبع الدين الاسلامي، ولّد لديهم رغبة في الرحلة المبكّرة إلى مواطن الصحابة والتابعين، للتعرف على أمور دينهم والإجابة على الإشكالات التي تواجههم، يؤكّد هذا ما ذكره أبو العرب في طبقاته من أنّ خالد بن أبي عمران¹، أتى القاسم وسالما، بمسائل من المغرب، فذهب يسألها عنها، فأبى عليه أن يجيباه، فقال لهما خالد: أنا بموضع جفاء، وأنهم حملوني هذه المسائل، وقالوا لي: إنك تقدم المدينة وبها أبناء أصحاب النبي، عليه السلام، فسلهم لنا، وإنكما إن لم تفعلًا كانت حجة لهم فما شئتما؟ فقال القاسم: سل، فسألها، فأجاباه فيما سألهما عنه².

- يقدّم ابن خلدون نصّاً يشير فيه إلى اقتصار رحلة غالبية المغاربة إلى بلاد الحجاز، الشيء الذي جعلهم يأخذون بمذهب مالك و يختصّون به، "...وإن كان يوجد في غيرهم إلّا أنهم لم يقلّدوا غيره إلّا في القليل لما أنّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصرُوا عن الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلّدوه دون غيره ممّن لم تصل إليهم طريقته³".

- باعتبار "مصر" طريق المغاربة إلى بلاد الحجاز، وهي أول أرض انتشر بها مذهب مالك بعد المدينة، و غلب عليها و أطبق أهلها على الاقتداء به⁴، فقد ساهم فقهاؤها من كبار تلامذة الإمام مالك في دخول المذهب إلى بلاد المغرب، بل كان ذلك بتوجيه منهم⁵، وكان المغاربة ينصحون طلبة العلم بالجلوس إليهم و السماع منهم ، و هو ما نستشفّه من وصيّة الإمام سحنون لابنه محمد عندما قال له إذا أردت الحجّ تقدّم اطرابلس و كان فيها رجال مدنيون، و فيها الرّواة و فيها فقه مالك، و مصر وفيها الرّواة، و المدينة و فيها عشّ مالك...⁶

- أورد المقدسي (ت380هـ/990م) نصّاً يتساءل فيه مستغرباً من دخول مذهب أبي حنيفة إلى بلاد المغرب و لم يكن على سابلة أهلها -و هو الذي طاف أكثر بلاد الإسلام، و ذكر أنّه بسائر المغرب إلى مصر إنّما هو أبو

¹ - خالد بن أبي عمران: هو أبو محمد، خالد بن أبي عمران التحيبي، تابعي بن تابعي، من العلماء الراسخين و العبّاد المجتهدين، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان سنة73هـ، وُلد بتونس و نشأ و تعلّم بها على يد والده ثمّ رحل إلى المشرق و سمع من أعلامه، ثمّ عاد إلى تونس و تولّى القضاء في ولاية عبد الله بن الحبحاب، ذكره المالكي في الطبقة الثانية من فقهاء مدينة القيروان و ما يليها من البلدان، توفي بتونس سنة123هـ و قيل سنة125هـ تاركاً ديواناً ضخماً في الحديث، فيه مروياته عن التابعين من أهل المدينة. للمزيد ينظر المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج1، ص162.

حسن حسني عبد الوهاب: الإمام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس، ص16.

² - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص246.

³ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ص568.

⁴ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص25.

⁵ - الهنتاتي، نجم الدين: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص69.

⁶ - القاضي عياض: تراجم أغلبية، تح محمد الطالبي، الجامعة التونسية، تونس، 1968م، ص93.

حنيفة و مالك رحمهما الله¹، وذلك اعتقاداً منه -كما ابن خلدون- أن رحلة المغاربة كانت مقتصرة على بلاد الحجاز فقط.

- اهتمّ طلبة العلم المغاربة بالرحلة إلى حلقات الإمام مالك منذ تولّيه التدريس بالمسجد النبوي²، و ذلك اقتداء و امتثالا و اعتقاداً بأنّه المقصود من الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلّم أنّه قال: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم-وفي رواية يلتمسون العلم- فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة"³ فقد روي عن ابن عيينة، أنّه لمّا سُئِلَ مَنْ عالم المدينة؟ فقال: إنّهُ مالِك بن أنس، ولا نعلم أحداً انتهى إليه علم أهل المدينة وأقام بها ولم يخرج عنها ولا استوطن سواها في زمن مالك مجمعاً عليه إلا مالكا، ولا أفتى بالمدينة وحدّث بضعا وستين سنة أحد من علمائها، يتلقّى عنه المشاركة والمغاربة وتضرب إليه أكباد الإبل غيره⁴. لذلك فقد بادل الإمام مالك طلبة العلم المغاربة نفس الشعور، و تجلّهم أيّما تجيّل، فقد ذكر خالد بن أبي عمران أنّ مالكا كان يجلّ عبد الله بن غانم وإذا جاءه اقعهده إلى جنبه وسأله عن أخبار المغرب، وأكثر من السؤال، حتّى قال أصحابه "شغله المغرب عنا"⁵. و روي عنه قوله: قال لي المهدي⁶: يا أبا عبد الله ضع كتابا أحمل الأمة عليه⁷، عليه⁷، فقلت يا أمير المؤمنين، أمّا هذا الصقع -و أشار بيده إلى المغرب- فقد كفيته¹.

¹ - المقدسي: أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص236.

² - يقول الإمام مالك: "ليس كلّ من أحبّ أن يجلس للحديث أو الفتيا بمسجد رسول الله جلس... و ما جلست حتّى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أنّي أهل لذلك"، و يُذكر أنّه جلس للتدريس و هو في سنّ السابعة عشر من عمره، للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص140 و ما بعدها.

³ - ينظر الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت279هـ): الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ج4، ص344.

⁴ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص71.

⁵ - القاضي عياض: المصدر نفسه، ج3، ص66.

⁶ - **محمد المهدي**: هو أبو عبد الله محمد المهدي، بن عبد الله المنصور، بن محمد، بن علي، بن عبد الله، بن العباس، بن عبد المطلب، وأمه أم موسى بنت منصور الحميرية ولد بإيذج من بلاد فارس في سنة سبع وعشرين و قيل ست و عشرين ومائة. و هو ثالث خلفاء بني العباس استخلف يوم مات أبوه، أبو جعفر المنصور بمكة، سنة ثمان وخمسين ومائة، دامت خلافته عشر سنين وشهرا ونصفا، وعاش ثلاثا وأربعين سنة، و قيل خمسا وأربعين، ومات بماسبذان من بلاد فارس، في المحرم، سنة تسع وستين ومائة، وبويع بالخلافة بعده ابنه الهادي. للمزيد عن ترجمته ينظر الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي (ت463هـ): تاريخ بغداد، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م، ج3، ص382.

⁷ - أوعز القاضي عياض -في رواية أخرى- طلب تصنيف الموطأ إلى أبي جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس (ت136-158هـ)، للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص71. ابن فرحون: الدياج المذهب، مصدر سابق، ص25، السيوطي، جلال الدين (ت911هـ): تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك، المطبعة الخيرية، مصر، ط1، 1325هـ/1907م، ص46.

3. تلاميذ الإمام مالك البذرة الأولى للمذهب في بلاد المغرب:

أتخفتنا المصادر بأسماء طائفة من طلبة العلم الذين ارتحلوا من إفريقية (المغرب الأدنى) والأندلس إلى المدينة المنورة — بداية من العقد الرابع من القرن الثاني — حيث كان الإمام مالك لازال حيًّا يلقي دروسه بالمسجد النبوي، ويروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسمعوا منه، ودَوَّنوا أجوبته وفتاويه عن مسائل السائلين، ولما رجعوا إلى أوطانهم أخذوا ينشرون علمه وفقهه بين الناس، عن طريق حلق الدرس والفتيا والقضاء... و هو ما يجعلنا نؤكد طرح أغلب الباحثين من أنَّ المذهب المالكي — في شكل فتاوى على الأقل — قد دخل هذين الإقليمين من بلاد المغرب في حياة الإمام مالك.

فمن الأندلسيين² يُعتبر الغازي بن قيس (ت199هـ/815م)³، و زياد بن عبد الرحمان⁴ الملقَّب بشبْطون (ت194هـ/810م) من أشهر طلبة العلم الذين أخذوا عن الإمام مالك، وكان لهم الفضل في إدخال

¹ - ينظر الزواوي، عيسى بن مسعود: مناقب سيدنا الإمام مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1415هـ/1994م، ص77.

² - أحصى القاضي عياض في مداركه من الطبقة الأولى خمسة من الأندلسيين ممن صحبوا مالكا وهم سعيد بن عبدوس و الغازي بن قيس وزياد بن عبد الرحمان و سعيد بن أبي هند و يحيى بن مضر اليحصبي، و تسعة من الطبقة الوسطى هم قرعوس بن العباس و محمد بن بشير القاضي و طالوت بن عبد الجبار المعافري و عبد الرحمان بن موسى الهواري و عبد الرحمان بن عبيد الله و حسان و حفص ابنا عبد السلام السلمي و شبْطون بن عبد الله الأنصاري و محمد بن يحيى السبائي و داوود بن جعفر الصغير، أمَّا من الطبقة الصغرى فذكر من الأندلسيين يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى المشرق مرتين، سمع في الأولى من مالك و غيره، وكانت رحلته الثانية سنة179هـ وجد فيها الإمام مالك عليلا، ومكث بالمدينة إلى أن توفي و حضر جنازته، للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص113 و ما بعدها (الطبقة الأولى)، ج3، ص325 و ما بعدها (الطبقة الوسطى)، ج3، ص379 و ما بعدها (الطبقة الصغرى).

³ - الغازي بن قيس: أموي من أهل قرطبة، ويكنى بأبي محمد، رحل إلى المشرق صدر أيام عبد الرحمان الداخل، و سمع الموطأ من الإمام مالك كما سمع من ابن جريج و الأوزاعي و غيرهم، ذكر القاضي عياض و ابن القوطية أنه أول من أدخل موطأ مالك و قراءة نافع الأندلس، روى عنه ابنه عبد الله و عبد الملك بن حبيب و أصبغ بن خليل، وكانت وفاته سنة تسع و تسعين و مائة. للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص114. ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت367هـ): تاريخ افتتاح الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ/1989م، ص56.

⁴ - زياد اللّخمي: هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمان بن زياد بن عبد الرحمان بن زهير بن ناشرة اللخمي، و شبْطون لقب له. رحل إلى المشرق فسمع الموطأ من الإمام مالك، و روى عن الليث بن سعد و ابن عيينة و عبد الله بن نافع، و عنه أخذ يحيى بن يحيى الليثي و غيره، توفي سنة ثلاث و تسعين و مائة، يذكر ابن فرحون و الحميدي -وعنه نقل المقرئ- أنه أول من أدخل الأندلس فقه مالك بن أنس، للمزيد ينظر الحميدي، محمد بن فتوح الميورقي (ت488هـ): جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1966م، ص218. المقرئ، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت1041هـ): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1900م، ج1، ص340. ابن فرحون (ت799هـ): الديباج، مصدر سابق، ص118.

مذهبه و موطنه إلى بلادهم، و رغم اختلاف المصادر¹ في تحديد من له قصب السبق في إدخال الموطأ إلى هذا الإقليم فإنَّ أسبقية الرحلة و اللقاء بالإمام مالك كانت للغازي بن قيس الذي -يذكر الخشني² أنه- شهد تأليف الموطأ و حفظه ظاهراً³ عن الإمام مالك ثم عاد به إلى الأندلس زمن إمارة عبد الرحمان الداخل⁴ (138-172هـ/756-789م)، بينما كانت رحلة زياد في عهد إمارة هشام بن عبد الرحمان (172-180هـ/789-796م) الذي حمل الناس على التزام المذهب المالكي بعد أن كانوا على الأوزاعية منذ الفتح الإسلامي⁵، وهو الأمر الذي يجعلنا نميل إلى الرأي القائل بأنَّ الموطأ ككتاب -على الأقل- كان معروفاً بالأندلس قبل رحلة شبطون، على أنه يبقى دور يحيى بن يحيى الليثي⁶ (ت234هـ/849م) -رغم تأخر رحلته- هو الأبرز في ترسيخ قدم المذهب المالكي، حتَّى صاروا يقولون لا نعرف إلا كتاب الله و موطأ مالك⁷ برواية يحيى الليثي الذي قال عنه

¹ - قدّم الباحث مصطفى الحرّوس دراسة توثيقية تفصيلية أضاف فيها اللّثام عن الجدل الحاصل بشأن دخول المذهب المالكي إلى الأندلس، فبعد أن استعرض أغلب التّصوّص المصدريّة و آراء المؤرّخين و المستشرقين في المسألة، قسّمها إلى ثلاث مراحل تاريخية، مرحلة ظهور يتصدّرها الغازي بن قيس، ومرحلة ذبوع يتزعمها زياد بن عبد الرحمان، و مرحلة سيادة يترأسها يحيى الليثي، للمزيد ينظر مصطفى الحرّوس: *المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري*، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1418هـ/1997م، ص35 و ما بعدها.

² - *الخشني*: هو أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني، مؤرخ و فقيه قرواني الأصل، هاجر إلى الأندلس و عمره اثنا عشر عاماً، واستوطن قرطبة و بها توفي سنة 361هـ، ترك عدّة مؤلفات منها: "أخبار الفقهاء و محدّثين" و تكملة لكتاب "طبقات علماء إفريقية" لأبي العرب، ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج6، ص268.

³ - الخشني، محمد بن الحارث (ت361هـ): *أخبار الفقهاء و محدّثين*، تح ماريّا لويسا أبيلا و لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، إسبانيا، 1991م، ص292.

⁴ - *عبد الرحمان الداخل* (ت172هـ/788م): هو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي، أول أمراء الأندلس من بني أميّة، يعرف بالداخل، وبصقر قرش، فرّ -خوفاً من بطش العباسيين- إلى الأندلس، عقب سقوط الخلافة الأموية، بويع بالإمارة في العاشر من ذي الحجة 138هـ، إلى أن توفي في العشر من جمادى الأولى 172هـ، للمزيد ينظر ابن عبد ربّه، أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد (ت328هـ): *العقد الفريد*، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ، ج5، ص229.

⁵ - الجزنائي، علي: *جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس*، تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط2، 1411هـ/1991م، ص20.

⁶ - ترجم له القاضي عياض في الطبقة الصغرى من أصحاب مالك، للمزيد ينظر ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص379.

⁷ - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص236.

ابن لبابة¹: "فقيه الأندلس عيسى بن دينار، و عالمها عبد الملك بن حبيب، و راويها -و في رواية و عاقلها- يحيى بن يحيى الليثي"².

ومن الأندلس -تشير بعض المصادر³- تسلل المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى⁴ عن طريق الوفود العربية التي قدمت من الأندلس في عهد إدريس الثاني⁵ (188-213هـ/804-828م)، الذي قلّد عددا منهم مناصب مناصب هامة في دولته بداية من سنة 189هـ/805م⁶، فاستقضى سعيدا بن محمد القيسي الذي سمع من الإمام

¹ - هو الفقيه الأندلسي أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابة (ت314هـ)، كان مقدّما في فقه مالك، و له فيه كتاب اسمه (المنتخب)، للمزيد ينظر الحسين الحيان: قرطبة و المذهب المالكي، ص124.

² - ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت403هـ): تاريخ علماء الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1408هـ/1988م، ج2، ص177.

³ - لما كانت النصوص المصدرة بشأن مذهبية الدولة الإدريسية شحيحة ومتباينة، اختلفت آراء المؤرخين و الباحثين فيمن بادر إلى تبني المذهب المالكي بها، فبينما ذهب المؤرخ المغربي عبد الحي الكتّاني إلى أنّ إدريس الأكبر (172-175هـ) كان مالكيًا، و هو أول من ألزم الناس باتباع المذهب المالكي، و أورد قوله: "نحن أحقّ باتباع مذهبه (أي مالك) و قراءة كتابه (أي الموطأ)"، يرى آخرون بأنّه وافق إسحاق على الاعتزال-شيخ قبيلة أوربة التي آوته، و مكّنت له و ناصرته، و على أكتاف رجالها أسّس دولته، و هو ما أشار إليه البكري بقوله: "...و كان نزول إدريس عند دخوله المغرب بوليلي... فنزل على إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي فتابعه على مذهبه"، في حين ذهب أغلب المؤرخين المغاربة أنّه على المذهب الزيدي، نسبة إلى أتباع زيد بن علي بن الحسين، الذين يسوقون الإمامة في أولاد الحسن و الحسين ابني فاطمة، و أنّ إسحاق الأوربي هو الذي وافقه على مذهبه... للمزيد ينظر البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص799. ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1972م ص19، 20. الكتّاني: التراتيب الإدارية، مرجع سابق، ج1، ص82. قادة سبع: الصراع المذهبي العقدي بالمغرب الإسلامي، رسالة دكتوراه، إشراف محمد بن معمر، جامعة وهران، الجزائر، 2015/2014م، ص62 و ما بعدها.

⁴ - لم تسعفنا المصادر بأسماء طلبة من المغرب الأقصى سمعوا من الإمام مالك أو تتلمذوا عنه، غير هذه العبارة التي أوردها القاضي عياض من أنّ رجلا من أهل المغرب جاء مالك بن أنس و شكّاه كثرة الأهواء في قومه. فوصف له مالك شرائع الإسلام الصلاة و الزكاة و الحج و الصوم ثم قال خذ بها ولا تخاصم أحدا. و بالرغم من أنّ القاضي عياض لم يسم هذا الرجل و لا المنطقة التي قدم منها بالضبط، إلّا أنّ الفضيلي في الدرر البهية نسبته إلى سلجاسة، للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص47. إدريس الفضيلي: الدرر البهية و الجواهر النبوية، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، 1420هـ/1999م، ج1، ص96. عمر الجيادي: مباحث في تاريخ المذهب المالكي، مرجع سابق، ص18.

⁵ - إدريس الثاني (ت213هـ): هو إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، بلقب بإدريس الثاني أو الأصغر، يكنّى بأبي القاسم، و أمّه "كنزة" جارية من قبيلة نفزة البربرية، قتل أبوه و أمّه حامل به في شهرها السابع، و كان مولده في الثالث من شهر رجب سنة 177هـ، و بيع بالإمامة سنة 188هـ... للمزيد ينظر ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب، مصدر سابق، 1972م، ص25.

⁶ - تذكر المصادر أنّه عندما استقام أمر المغرب لإدريس بن إدريس وتوطّد سلطانه، و عظمت جيوشه و كثر أنصاره، وفدت عليه وفود العرب من إفريقية و الأندلس في نحو خمسمائة فارس من القيسية و الأزد و مدلج و غيرهم، فسّر إدريس بوفادتهم و أجزل صلاتهم و قرّبهم و رفع منازلهم و جعلهم بطانته من دون البربر، ينظر ابن أبي زرع الفاسي: المصدر

الإمام مالك و روى عنه كثيرا، و استوزر عميرا بن مصعب الأزدي، واستكتب أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي الذي كان يُلقب بالمالكي الأنصاري¹، وغيرهم ممن كان لهم الفضل في نشر المذهب المالكي بالمغرب الأقصى أواخر القرن الثاني الهجري.

أما عن إفريقية و المغرب الأوسط² فقد ذكر القاضي عياض فيما نقله عن الحافظ محمد ابن الحارث الخشني (ت361هـ/972م) أنَّ عدد المغاربة الذين لقوا الإمام مالك يزيد عن الثلاثين³، في حين توصل الباحث التونسي "الحسين شواط" إلى حصر أربعة وأربعين شخصية مغربية سمعت من الإمام مالك وروت عنه⁴، حيث جاء في كتابه "مدرسة الحديث في القيروان" ما نصّه: "في بداية العقد الخامس من القرن الثاني بدأت صلة القرويين و الأفارقة عموما بالإمام مالك بن أنس، وذلك عن طريق عبد الله بن فروخ(ت176هـ/792م) و البهلول بن راشد(ت183هـ/799م) و عبد الله بن غانم⁵(ت190هـ/806م)، ثم تتالت عليه أفواج علمائهم حتى إنّ عدد

السابق، ص29. الجزائى: المصدر السابق، ص18. الناصري السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، دت، ج1، ص219.

¹ - ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي(ت1012هـ): جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط المغرب، 1973م، ص25.

² - لم تسجل لنا المصادر أسماء طلبة من المغرب الأوسط سمعوا مباشرة من الإمام مالك أو روى عنه، غير شخصية "أبو القاسم الزواوي" التي ذكرها المالكي(ت474هـ) في رياض النفوس نقلا عن أبي العرب، الذي قال أنّه روى عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما حديثا مرفوعا - لم أعلم أحدا رواه غيره- عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: "لما خلق الله الجنة حفها بالريحان وحف الريحان بالخناء وما خلق الله شجرة أحب إليه من الخناء وإن الخاضب بالخناء لتصلي عليه الملائكة إذا راح"، و هو الحديث الذي ذكر ابن حجر(ت852هـ) في لسان الميزان أنّه حديث باطل ما حدّث به مالك قط، غير أنّه -و للأمانة العلمية- لم نجد ذكرا لهذه الشخصية في طبقات أبي العرب (النسخة المطبوعة من طرف دار الكتاب اللبناني)، وإنّما ذكر محمد بن الحارث الخشني في طبقاته أنه سمع عن شخصية -لم يقدّم لها تعريفا- يذكر أنّها من شيوخ سحنون، تلقّب بالزواوي... للمزيد ينظر الخشني: طبقات علماء إفريقية، مطبوع ضمن طبقات أبي العرب، مصدر سابق، ص154. المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج1، ص248، ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تح دائرة المعارف النظامية بالهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط2، 1390هـ/1971م، ج7، ص94.

³ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص51.

⁴ - أورد الباحث أسماء 38 شخصية مغربية ممن سمعوا من الإمام مالك ولم ينسب إليهم إدخال الموطأ إلى بلاد المغرب، مرتبين على حروف المعجم، وأحال إلى المصادر التي استقى منها تراجمهم، ثم أورد الستة الباقيين تحت عنوان "رؤاة الموطأ"، ورتّبهم حسب الأسبقية في إدخال الموطأ إلى إفريقية، ينظر الحسين بن محمد شواط: مدرسة الحديث في القيروان(من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1411هـ، ج1، ص263-267.

⁵ - عبد الله بن غانم(ت190هـ): هو أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمان، عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني القيرواني، وُلد سنة 128هـ، و دخل الحجاز و الشام و العراق في طلب العلم، سمع من الإمام مالك و جمع ما سمعه في ديوان سَمّاه "ديوان ابن غانم"، ولّاه روح بن حاتم القضاء سنة172هـ و بقي عليه إلى أن توفّي بالقيروان سنة190هـ، للمزيد عن

الرواية عنه قد وصل إلى 44 رجلا فيما وصلت إليه بعد البحث و التتبع، خلافا لما هو سائد من أنهم أكثر من ثلاثين رجلا...¹. ولم يكن مستغربا أن تتزايد رحلة المغاربة إلى الإمام مالك لما حضوا به من اهتمام وتبجيل من جهته ولما اكتسبوه من شهرة ومكانة وشرف الأخذ عن إمام دار الهجرة عند المغاربة، لذلك فقد كانوا يهتمون - زيادة على نشر علمه - بوصف أخلاقه وحث الأمة على الاقتداء به في أخلاقه وسلوكاته، مما زاد من تمسك المغاربة بآرائه وفتاويه، بل و الاشتياق لرؤيته، لذلك استمرت رحلة المغاربة إلى المدينة حتى بعد وفاة الإمام مالك، رغبة منهم في أخذ علم مالك من تلاميذه وأصحابه. هذا ويعتبر فقيه تونس وقاضيه المالكي علي بن زياد (ت183هـ/799م) صاحب السبق في إدخال الموطأ إلى إفريقية²، ومفسر قول مالك لأهلها ولم يكونوا يعرفونه من قبل³، وفي هذا يقول الشيخ "محمد النيفر": "...هو الذي بث في المغرب المالكية فعمت جميع أقطاره بدون استثناء، وهو وإن شاركتها المدرسة المصرية فهو الذي دل عليها، ولولاه ما قصد سحنون ابن القاسم، فالتكوين الأول للمالكية بإفريقية إنما هو لابن زياد إذ فتح الأعين على مالك وعرفهم فضله، وبيّن أصوله للناس، فالجسر الطويل الذي مرّ به رجال المدرسة المالكية من بعد إنما هو ابن زياد، والبذرة الأولى التي بُذرت من مذهب مالك هو الذي وضعها في التربة الصالحة"⁴. و يقول أيضا: "وانتشر -أي المذهب المالكي- و تعرّف عليه الناس في تونس أول ما تعرّفوا من علي بن زياد الذي هو في عداد الطبقة الأولى الآخذين عن الإمام مالك، وهو وإن شاركه في هذه الطبقة غيره من الأفارقة وهم: البهلول بن راشد و أبو مسعود بن الأشرس و عبد الله بن فروخ و أبو محرز القاضي و عبد الله بن أبي حسان اليحصبي و عبد الله بن غانم القاضي، لم يبلغوا مبلغه، فهؤلاء سبعة من الأفارقة بضميمة ابن زياد إليهم كانوا مقدّمة انتشار المذهب المالكي و التعريف به، لكنهم غير ابن زياد

ترجمته ينظر الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت476هـ): **طبقات الفقهاء**، تح إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1970، ص151. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص65.

¹ - الحسين شواط: مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص425

² - هذا ولا يمكن إغفال جهود طائفة من معاصري علي بن زياد، ارتحلوا إلى المدينة وسمعوا من الإمام مالك ونقلوا مذهبه (على شكل فتاوى) كابن فروخ وابن غانم اللذان سمعا من الإمام مالك وأبي حنيفة و سفيان الثوري، ومن بعدهم البهلول بن راشد الذي قال عنه أبو العرب: "كان ثقة، مجتهدا، ورعا، لا يشك في أنه مستجاب الدعوة، وكان عنده علم كثير، سمع من مالك بن أنس، ومن سفيان الثوري، ومن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ومن موسى بن علي بن رباح، ومن الليث بن سعد" وابن الأشرس الذي قال فيه أبو العرب: "ومن طبقة علي بن زياد، أبو مسعود بن أشرس من أهل تونس، وهو رجل من العرب وكان ثقة فاضلا، له سماع من مالك بن أنس، ولقد روى عنه عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك، حديثا واحدا وهو حديث الموطأ". ينظر الهنتاتي (عبد المجيد): **المرجع السابق**، ص38.

³ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص80.

⁴ - محمد الشاذلي النيفر: موطأ الإمام مالك، مرجع سابق، ص30.

لم يصنعوا صنيعه و لم يفروا فريه، فابن زياد هو الرّكيزة الأولى لهذا المذهب، مذهب دار الهجرة...¹ لكن وبالرغم ما لعلّي بن زياد من أسبقية في بثّ مذهب مالك والذود عنه، و إظهار مزاياه، إلا أنّه لم يلق الحظوة التي يستحقّها، فلقد أضاعه طلبته فيما سلف وأضاعه الباحثون من بعد²، وهو ما أشار إليه تلميذه "سحنون" بقوله: "لو كان لعلّي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاقه منهم أحد وما عاشرهم منهم أحد"³. ولم يكن سحنون يعدل به أحداً من علماء أفريقية. قال ابن حارث: كان علي ثقة مأموناً وكان سحنون لا يقدم عليه أحداً من أهل أفريقية، ويقول ما بلغ البهلول بن راشد شسع نعل علي بن زياد. قال سحنون: وكان البهلول يأتي إلى علي بن زياد ويسمع منه، ويفزع إليه. يعني في المعرفة والعلم، ويكاتبه إلى تونس يستفتيه في أمور الدين. وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليعلمهم بالصواب. قال وكان علي خير أهل أفريقية في الضبط للعلم. وقال سحنون: ما أنجبت أفريقية مثل علي ابن زياد. وكان يقول ما فاته المصريون إلا بكثرة سماعهم. وذلك أني اخترت سره وعلايته. والمصريون إنما اخترت علانيتهم. قال أسد: كان علي بن زياد من نقاد أصحاب مالك. قال وإني لأدعو له مع والدي. وفي رواية أني لأدعو في إدبار صلاتي لمعلمي، وأبدأ بعلي بن زياد، لأنه أول من تعلمت منه العلم. قال البلخي: لم يكن في عصر علي بن زياد أفقه منه ولا أورع⁴.

ولئن أجمعت المصادر-تقريباً- على عمل علي بن زياد الريادي و أسبقيته في إدخال المذهب المالكي إلى بلاد المغرب⁵، فإنّها أحجمت عن تحديد تاريخ تلك الرحلة، فذهب بعض الباحثين إلى أنّ ذلك كان في حدود سنة 150هـ/767م¹، بينما يرى آخرون أنّ دخول الموطأ كان بعد سنة 157هـ/774م² باعتبارها السنّة التي أنهى فيها الإمام مالك موطأه و هي السنّة التي توفّي فيها الخليفة العبّاسي "أبو جعفر المنصور"، استناداً إلى رواية أبي مصعب: "فوضع الموطأ، فلم يفرغ منه حتّى مات أبو جعفر"³.

¹ - المرجع نفسه: ص7.

² - عمر الجيادي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، دار الهلال العربية، الرباط، المغرب، ط1، 1993م، ص20.

³ - فضّل الأستاذ نجم الدين الهنتاتي في مسألة عدم شهرة علي بن زياد، وعدم انتشار الفقه المالكي على يديه، و أوعزها -إضافة إلى قلّة تلاميذه- إلى ثلاثة أسباب أخرى، وهي: 1- اختلاف منهجه عن منهج الإمام مالك، حيث يميل علي بن زياد إلى طريقة التّظن (طريقة أهل العراق). 2- أصل علي بن زياد عجمي من عجم طرابلس، بينما يفضّل المغاربة الاقتداء بشيخ أو إمام عربي. 3- إقامة علي بن زياد بتونس، ورفضه تولّي أيّ منصب بالقيروان التي تعتبر مركز الإشعاع العلمي و الحضاري (ق2-3هـ/8-9م). ينظر الهنتاتي (نجم الدين): المذهب المالكي بالمغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص41.

⁴ - عياض (القاضي): ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص81.

⁵ - ينظر المالكي: رياض النفوس، ج1، ص234.

أما عن أشهر رجالات مدرسة علي بن زياد، أو بالأحرى أبرز تلاميذه، فإنّ المصادر لم تذكر إلاّ القليل منهم، وقد أحصى الأستاذ عبد المجيد الهنتاتي ثمانية منهم⁴ وهم البهلول بن راشد الذي أكّد أبو العرب في طبقاته أخذه عنه، فقد نُقل عن سحنون أن البهلول بن راشد روى جامع سفيان الكبير عن علي بن زياد، كما سمع منه كتاب "الزهد"، قال سحنون: "وكان البهلول يأتي إلى علي بن زياد ويسمع منه، ويفزع إليه. يعني في المعرفة والعلم، ويكاتبه إلى تونس يستفتيه في أمور الديانة"⁵. ومن تلاميذه أيضا شجرة بن عيسى المعافري (ت262هـ)، قال عياض أصله من المغرب، وقيل أندلسي نزل بتونس وولّي قضاءها أيام سحنون وقبله، قال أبو العرب: وكان شجرة من خير الفضلاء، وأعلمهم، ثقة عدلاً مأموناً وله كتاب في مسائله لسحنون وكان مولده سنة تسع وستين ومائة. وعمر حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين⁶. ومنهم أبو الهيثم اللؤلؤي خالد بن يزيد الفارسي⁷ وإسماعيل بن نافع وإسحاق بن حلوان البرّاز وعلي بن كثير⁸. ولعلّ أبرز شخصيتين تتلمذتا عن علي بن زياد هما أسد بن الفرات (ت213هـ/828م) صاحب "الأسدية"، وسحنون بن سعيد التّوخي (ت240هـ/854م) صاحب "المدوّنة"، فقد عُرفا بتأثرهما وإعجابهما الشديد بشيخهما، ومثّل كلّ واحد منهما حلقة من حلقات تطوّر المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي

أ. أسد بن الفرات: هو أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، قال أبو العرب في طبقاته وأبو علي البصري في معربه، أنه من خراسان من نيسابور. وُلد بحرّان⁹ من ديار بكر سنة اثنتين وأربعين ومائة¹، قال:

- ¹ - ينظر بن عاشور (محمد الفاضل): أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي، مكتبة التّجّاح، تونس، د ت، ص26. بن حمدة (عبد المجيد): المدارس الكلامية بإفريقية، مرجع سابق، ص38.
- ² - شواط (محمد الحسين): مدرسة الحديث في القيروان، مرجع سابق، ص268.
- ³ - الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف: شرح الزرقاني على موطأ مالك، تح طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ/2003م، ج1، ص62. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص71.
- ⁴ - الهنتاتي (عبد المجيد): المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص39.
- ⁵ - ينظر أبو العرب (محمد بن أحمد): طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص52. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص81.
- ⁶ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص102.
- ⁷ - أبو العرب (محمد بن أحمد): طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص76.
- ⁸ - أبو العرب (محمد بن أحمد): المصدر السابق، ج1، ص122.
- ⁹ - حرّان: بفتح الأوّل وتشديد الثاني، كورة (مدينة) من كور ديار مصر، قديمة عتيقة، بينها وبين الزّها يوم وبين الرّقة يومان، يقال بناها "هاران" أخو إبراهيم عليه السلام، ينظر ياقوت الحموي: شهاب الدين (ت626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1995م، ج2، ص235. الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت900هـ): العروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عبّاس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1980م، ص191.

"دخلت مع أبي إلى القيروان في جيش ابن الأشعث فأقمنا بها خمس سنين²، ثم رحلنا إلى تونس فأقمت بها نحو تسع سنين، فلما بلغت ثماني عشرة سنة علّمت القرآن ببجردة³..."، ثم اختلف إلى علي بن زياد بتونس، فلزمه وسمع منه موطأ مالك، وتعلم منه وتفقه بفقهه، ثم رحل إلى المشرق سنة اثنتين وسبعين ومائة، فقصد مالكا وسمع منه موطأه، فلما فرغ من سماعه قال له: "زدني يا أبا عبد الله سماعا منك" فقال له الإمام مالك: "حسبك يا مغربي، إن أحببت الرأي فعليك بالعراق". ثم ذهب إلى العراق فلقي أبا يوسف و أسد بن عمرو، ومحمد بن الحسن أصحاب أبي حنيفة فسمع منهم الحديث و الفقه، ثم ارتحل إلى مصر بعد وفاة الإمام مالك، فسمع من عبد الله بن وهب، وأشهب، وابن القاسم، تلاميذ مالك، حيث تذكر المصادر أنّه كان يغدو إلى ابن القاسم كلّ يوم، يسأله فيجيبه، حتّى دَوّن عنه ستّين كتابا وسمّاها "الأسدية"، وقام يوما في المسجد فقال: "معاشر النّاس إن كان مالك بن أنس قد مات، فهذا مالك بن أنس و أشار إلى أبي القاسم". ولما عزم على الرّحيل إلى القيروان، أخذ معه كتبه وأسمعها للنّاس، وانتشرت بإفريقية، وفي سنة ثلاث ومائتين ولّاه زيادة الله بن الأغلب قضاء إفريقية، فأقام قاضيا عليها حتى سنة اثني عشرة ومائتين. وكان أسد مع توسّعه في العُلم فارسا بطلا شجاعا مقدّاما، فولّاه صاحب المغرب الغزو قائلا له: قد زدتك الإمرة وهي أشرف، فأنت أمير وقاض، فخرج على رأس الجيش لفتح "صقلية"، فافتتح منها مواضع كثيرة، ولما زحف إلّيه صاحبها في مائة وخمسين ألفا قال رجل: "لقد رأيت أسدا، ويده اللّواء يقرأ سورة ياسين، ثمّ حمل بالجيش فهزم العدو ورأيت الدّم وقد سال على قناة اللّواء وعلى ذراعه.

وتوفي رحمه الله وهو محاصر لـ "سرقوسة"⁴ في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث عشرة ومائتين، و دُفن بذات الموضع⁵.

ب. **سحنون بن سعيد**¹: هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التّنوخي، وُلد بالقيروان —على أرجح الأقوال— سنة 160هـ²، غلب لقب "سحنون" على اسمه "عبد السلام"،

¹ - ينظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص ص81-83. عياض، القاضي: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص291.

² - كان ذلك سنة أربع و أربعين و مائة و هو ابن سنتين، ينظر المالكي: رياض النفوس، المصدر السابق، ج1، ص255.

³ - هكذا وردت في رياض النفوس، و في طبقات أبي العرب: "في قرية على وادي بجردة" وهو من أشهر الوديان بالبلاد التونسية، ويسمى اليوم "وادي بجردة". ينظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص81.

⁴ - سرقوسة: بفتح أوله وثانيه ثمّ قاف، وبعد الواو سين أخرى: أكبر مدينة بجزيرة صقلية، ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص214.

⁵ - المالكي: رياض النفوس، مصدر السابق، ج1، ص255.

قال القاضي عياض: سمعت بعض مشايخ أهل الحديث يحكي عن بعض مشايخ إفريقية أنه سمي سحنونا باسم طائر حديد النظر، لحدّته في المسائل³، وقال عنه أبو العرب: هو من صليبة العرب، وأصله من الشام من أهل حمص، قدم به أبوه سعيد مع الجند. كان جامعاً للعلم، فقيه البدن، اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصّرامة في الحق، والزّهادة في الدّنيا، والتّخشّن في الملبس والمطعم، والسّماحة والتّرك، لا يقبل من أحد شيئاً، سلطاناً أو غيره⁴، أخذ العلم عن مشايخ القيروان كالبهلول بن راشد و علي بن زياد وابن غانم و ابن الأشرس، ثمّ خرج إلى مصر أوّل سنة 178هـ، حيث يقول عن نفسه: كنت عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه، فقيل له: ما منعك من السماع منه، فقال: لحي الله الفقر، فلولاه لأدركت مالكا⁵، ثمّ رحل إلى الحجاز سنة 188هـ، وسمع في رحلته إلى مصر والحجاز من ابن القاسم وابن وهب وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم و ابن الليث وسفيان بن عيينة وغيرهم... ثمّ انصرف إلى إفريقية سنة 191هـ، فكان أوّل من شرّد أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكانوا فيه حلقة للصّفويّة، والإباضيّة مظهرين لزيعهم وكان حافظاً للعلم، ولم يكن يهاب سلطاناً في حقّ يقيمه. ولي القضاء سنة أربع وثلاثين ومائتين وهو يومئذ ابن أربع وسبعين سنة. وأقام قاضياً ست سنين، ولم يأخذ على القضاء أجراً. وتوفيّ، رحمه الله، يوم الثلاثاء لسبعة أيّام مضت من رجب سنة أربعين ومائتين⁶، وصلى عليه محمّد بن الأغلب في مصلى باب نافع.

إنّ تقصّي حياة الإمام "سحنون" تنبئك عن دوره البارز في نشر المذهب المالكي بإفريقية ومن ثمّ كافيّة بلاد الغرب الإسلامي، لذا جمّعت شذرات منها ولخصتها في الومضات التالية:

- من نتائج رحلته إلى مصر وتفقهه على يدي الثالوث المصري المالكي (ابن وهب وأشهب وابن القاسم) ومصاحبته لهم في أداء فريضة الحج، الظفر بموطأ الإمام مالك وتصحيح الأسدية، والقُدوم بهما إلى إفريقية في الوقت الذي كانت تعرف فراغاً فكرياً وانتشاراً لأهل الأهواء والبدع، بعد وفاة شيخه سحنون البارز: علي بن زياد و البهلول بن راشد سنة 183هـ.

¹ - سحنون: بفتح السين المهملة وضمها-و الصواب فتحها- وسكون الحاء المهملة وضم النون وبعد الواو نون ثانية، اسم طائر بالمغرب، يوصف بالفتنة والتحرز، ينظر ابن مكي، أبو حفص عمر بن خلف (ت501هـ): تنقيف اللسان وتلقيح الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ/1990م، ص199.

² - ينظر الهنتاتي، عبد المجيد: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، مرجع سابق، تميش رقم(1)، ص45.

³ - عياض، القاضي: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص46.

⁴ - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص101.

⁵ - محمّد الطالبي: تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968م، ص87.

⁶ - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ج1، ص102.

- يبدو أنّ القصد من رحلته إلى الحجاز هو السعي إلى التعرّف على آراء مالك الخالصة النقية، وغير المخلوطة بآراء غيره، وهو ما لم يجده في أسدية ابن الفرات، ولا عند علي بن زياد من قبله، لذلك يعتبر- في رأيي- أوّل من قدم وقلّد مالكا في القول و العمل، وفي ذلك يقول المالكي أنّ سحنون تأدّب بأدب أهل المدينة حتّى في العيش، كما نقل عن عيسى بن مسكين قوله: "سحنون راهب هذه الأمة، ولم يكن بين مالك و سحنون أحد أفقه من سحنون"¹، وهو ما أشار إليه الدبّاغ في معالمة بقوله "أظهر علم أهل المدينة بالمغرب وكان أوّل من أظهره"².

- لقد أخذت شهرة سحنون تتزايد إثر جلوسه للتدريس بعد عودته من الحجاز، فصارت القيروان عاصمة علمية بامتياز، ويرى عمّار المحجوبي³ أنّه بفضل سحنون تحوّلت إفريقية إلى مركز لنشر المذهب المالكي وتوافد طلبة العلم عليه من كل أنحاء بلاد الغرب الاسلامي، و في ذلك يقول ابن عجلان الأندلسي: "ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- ما بورك لسحنون في أصحابه، إنهم بكلّ بلد أئمة"⁴، فكان يقرأ على طلبته المدوّنة و موطأ مالك و جوامع ابن وهب، ويزيّن لهم اتباع المذهب المالكي و يرغبهم فيه بالأقوال الدّعائية كقوله: "من أخذ بفتيا مالك فما ترك من الورع شيئا"⁵.

- ختم سحنون دوره الريادي في نشر المذهب بتولّيه منصب القضاء سنة234هـ، فبنى لنفسه بيتا في الجامع خصّصه للتقاضي، وفرّق أهل البدع و الأهواء وكانوا حلّقا من الصفرية و الإباضية و المعتزلة يتناظرون فيه، ومنعهم أن يكونوا أئمة أو مؤدّنين أو معلّمين للصبيان.

- بالرغم من أنّ السلطة السياسية للأغالبة بالقيروان كانت -في هذه الفترة- حنفية، و السلطات المتمركزة في المغرب الأوسط تراوحت بين الإباضية بتيهت و الزيدية بالعديد من المدن، خاصّة حمزة و تلمسان، إلّا أنّه لما تمكّن سحنون من تولّي منصب قاضي إفريقية لفائدة العائلة الحنفية المالكة، قرّر اعتماد المذهب المالكي، و منع الإفتاء بآراء المذاهب الأخرى، ممّا ساهم في إعطاء دفع كبير لسكّان المغرب قصد التشريع بمذهب مالك.⁶

ثالثا: الحضور المالكي بالمغرب الأوسط خلال القرن 3هـ/9م:

¹ - المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ص353

² - الدبّاغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ص79.

³ - Mahjoubi(Ammar):La Tunisie arabo musulmane(dans les atlas de jeune afrique), éd. Jeune afrique, Paris, 1979, pp24-25 .

⁴ - عياض، القاضي: تراجم أغلبية، مصدر سابق، ص120.

⁵ - الهنتاتي، عبد المجيد: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص50.

⁶ - ينظر علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الاسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م، ص133.

حتى وإن لم تُسجّل لنا المصادر أسماء طلبة من المغربين الأوسط والأقصى تتلمذوا مباشرة عن الإمام مالك¹، فإنّه ليس من منطلق التاريخ في شيء أن يغيب بعض الباحثين - من المستشرقين وغيرهم - بلادا شاسعة المساحة، صال في مجالها الفسيح الفاتحون والدعاة، وسار في خضمّها الرّحالة وطالبو العلم من الأندلس و المغرب الأقصى، أو يصوّرها لنا آخرون بتلك الصورة القائمة التي توحى بأنّها بيئة غير صالحة إلّا لانتشار المذاهب الخارجية و المبتدعة، حتى أصبح ذلك من المسلّم به لدى الجميع أو الأغلب، وهو ما يتنافى مع الحقيقة -التي سنبيّنها- ويصادم شواهد التاريخ، ونسجّل في هذا الصدد ملاحظة الهناتاي المتمثلة في انعدام أسماء طلبة أو فقهاء من المغرب الأوسط يمكن الاستناد إليهم في دخول المذهب المالكي²، كما صوّر المستشرق الفرنسي "جورج مارسيه" هذا المجال "على أنّه الأقل تحضّرا مقارنة مع المغربين الأدنى و الأقصى والأندلس، تقلّ به المدن و تغلب عليه التّزعة الريفية، سكّانه من البدو الرّحل و من الفلاحين المستقرّين بالجبال، وأنّ ما غمره هو المذاهب والكيانات الخارجة عن سلطة الأمويين و العبّاسيين"، و هذا راجع -في نظري- إلى عدّة أسباب أهمّها:

- تركيز كتب الطبقات على شخصيات من إفريقية أو بلاد الأندلس ممّن ساهموا في نشر مذهب مالك ببلاد المغرب، كنصّ القاضي عياض السالف الذكر مثلا: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد، وأبن أشرس، والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات، وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس..."³

- نظرا للهوّة الزمنية التي تفصل بين هذه النصوص المصدريّة و تاريخ الأحداث (ق2هـ/8م) وضياع المصادر التي أرّخت لهذه الفترة المتقدّمة من تاريخ بلاد المغرب. فإنّها تميّزت بالضبابية بل و التناقض أحيانا في ضبط تاريخ و صاحب الفضل في إدخال فقه مالك إلى بلاد المغرب.

- عدم وجود رواية تاريخية واضحة، أو نص جلي يحدّد تاريخ و كيفية دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب الأوسط، أعطى الفرصة لكثير من الباحثين لإهمال هذا المجال الجغرافي

1. المذهب المالكي ببلاد الزاب و المجالات الشرقية للمغرب الأوسط خلال العهد الأغلبي⁴:

¹ - الهناتاي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، مرجع سابق،

² - الهناتاي، عبد المجيد: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص37.

³ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص24.

⁴ - العهد الأغلبي أو الدولة الأغلبية نسبة إلى الأغلب بن سالم بن عقّال بن خفاجة التميمي، و هو جدّ الأغلبية الذين تداولوا على حكم ولاية إفريقية من قبل خلفاء بني العبّاس منذ سنة 184هـ حتى سقوط دولتهم في عهد زيادة الله الأصغر على يد عبيد الله الشيعي سنة 296هـ، ينظر ابن الأبار (محمد بن عبد الله ت658هـ): الحلة السيرة، تح حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، ص33، ص68.

منذ مطلع القرن الثاني أخذت المجالات الشرقية للمغرب الأوسط في الانخراط تدريجيا في فلك ولاية إفريقية الأموية بحكم قربها من القيروان مركز ثقل الخلافة الإسلامية بالمنطقة آنذاك، و هو ما تجلّى -ببلاد الزاب مثلا- في التحوّل الجاهلي¹ الذي تميّز بمحاولة القطع مع الماضي الروماني و انتقال العاصمة من "سيرا" إلى "طبنة" مثلما أشارت إلى ذلك روايات الفقيه "سحنون" من أنّ حدّ إفريقية من إطربلس إلى طبنة²، إلّا أنّ التيارات الخارجية و الأفكار الثورية التي عرفت طريقها إلى المنطقة منذ مطلع القرن الثاني الهجري (8م) لاقت رواجاً وانتشاراً بل و تغلغلا في أوساط الجماعات القبلية الريفية بهذا المجال، ساعدتها في ذلك الأوضاع الاجتماعية التي عرفتها المنطقة أواخر الحكم الأموي³، إضافة إلى وقوع هذه المجالات بعد ذلك وسط معازل التجمعات الإباضية في جبال الأوراس و واحات أريغ بالمغرب الأوسط، و بلاد الجريد و قسطنطينية بإفريقية، فكان أن اعتنقت القبائل البربرية - لاسيما في المجتمعات الريفية- أفكار الخوارج المنادية برفع الضرائب و تحقيق العدالة الاجتماعية⁴، وظلّت معارضة للنظام الممثل للخلافة الإسلامية بالقيروان حتى بعد سقوط دولة بني أمية 132هـ/750م واعتلاء بنو العبّاس سدّة الحكم

لكن و مع بداية تشكّل الكيان السياسي الأغلبي⁵ بإفريقية سنة 184هـ/800م طفت على السطح بدايات تحوّل واضح في الخريطة المذهبية لبلاد الزاب، ذلك أنّ إبراهيم بن الأغلب⁶ المؤسس الحقيقي لهذا الكيان، و مُدّ كان

¹ - مرجع رقم 7 الجماعات السنية ببلاد الزاب

² - الداودي (أبو جعفر أحمد بن نصر ت402هـ): كتاب الأموال، تح رضا محمد سالم شحادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص79.

³ - للمزيد عن أوضاع بلاد المغرب، وسياسة الولاة بعد عهد عمر بن عبد العزيز ينظر عبد العزيز فيلالي: **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب**، دار الفجر للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1999م، ص44 و ما بعدها

⁴ - ينظر عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الإسلامي، ص128.

⁵ - تضافرت عدّة عوامل سياسية و اقتصادية و اجتماعية ساهمت في نشوء الكيان الأغلبي، لعلّ أهمّها الخطر الذي أحسّت به الخلافة العبّاسية بعد قيام الدولة الرستمية(160هـ) بالمغرب الأوسط، و التي أصبحت تشكّل حاجزا يمنع وصول قوّة الخلافة لاسترجاع المغرب الأقصى حيث دولة الأدارسة، أو بلاد الأندلس حيث الدولة الأموية، فما كان من الخليفة العبّاسي هارون الرشيد إلّا أن سارع إلى تسليم زمام الأمور إلى واليه على بلاد الزاب "إبراهيم بن أغلب" نظير خدماته التي قدّمها للخلافة، و التي منها مساهمته في القضاء على ثورة الجند، و مشاركته في التدبير لاختيال إدريس الأكبر...، كما تعهّد ابن الأغلب بتقديم أربعين ألف دينار سنويا للخلافة على أن تكون إمارة إفريقية لأولاده من بعده، للمزيد ينظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص318. ابن خلدون: كتاب العبر، مصدر سابق، ج3، ص286.

⁶ - **إبراهيم بن الأغلب (ت196هـ/812م)**: هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقّال بن خفاجة بن عباد بن عبد الله بن محمد بن سعد بن حرام بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم، عيّنه عامل إفريقية محمد بن مقاتل العكبي واليا على بلاد الزاب في خلافة هارون الرشيد، ثمّ ولاه الرشيد إفريقية 184هـ فأستقل بملكها وأورث سلطانه بنيته نيفا على مائة سنة، وكان فقيها عالما أديبا شاعرا خطيبا ذا رأي وبأس وحزم ومعرفة بالحرب ومكائدها جريء الجنان

واليا على بلاد الزّاب جعل من مدينة طبنة "المدينة الثغر" نقطة ارتكاز تمثل خط الدفاع الأمامي في وجه التوسّع الإباضي¹، و معلوم أنّ الأغلبية كانوا الحماة الأوفياء للخلافة العبّاسية بإفريقية و بلاد المغرب²، فإنّ كان المذهب الحنفي الذي ساد في كلّ بلد فيه للدولة العبّاسية سلطان³ كان الأغلبية الأول أحنافا كذلك، وإن أظهر خلفاء بنو العباس

اعتزالا اعتنقوا الاعتزال مذهبا⁴، وكما سبقت الرؤية الفقهية الحنفية ثمّ سادت -عند النّخبة على الأقل- بالقيروان فإنّها انتشرت كذلك بواحات بنطيوس وبلاد الزاب مثلما أشار إلى ذلك البكري(ت487هـ/1094م) عند وصفه "تهوذة"⁵ بقوله: "وأهلها على مذهب أهل العراق"⁶، أمّا المذهب المالكي المتأخّر نسبيا عن المذهب الحنفي دخولا إلى إفريقية⁷، فقد صوّرت لنا كتب الطبقات أنّه كان مذهب العائمة في المجتمع الأغلي، و أنّ علماءه كانوا يرفضون التقرب من البلاط وتولّي المناصب السلطانية كالقضاء والإمامة وغيرها، غير أنّ القراءة المتأنية للنصوص المصدرية تجعلنا نتميّز مرحلتين متباينتين لسلوكات علماء المالكية في العهد الأغلي؛ مرحلة ما قبل تولّي سحنون (ت240هـ/854م) القضاء، وهي مرحلة الدعوة والدعاية للمذهب حيث سعى فيها تلامذة الإمام مالك أو

طويل اللسان حسن السيرة، توفي سنة 196هـ وهو ابن 56 سنة فكانت ولايته 12 سنة و بضعة أشهر، ينظر ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد(ت456هـ): **جمهرة أنساب العرب**، تح لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م، ص221. ابن الأثير: **التكملة**، مصدر سابق، ج1، ص93.

¹ - كانت ممتلكات الدولة الرسمية الإباضية بالمغرب الأوسط تطوّق الدولة الأغلبية من كلّ جانب، وكانت سلطة الأغلبية مقتصرة على شمال البلاد التونسية حاليا و على الشمال الشرقي من الجزائر، ينظر محمد الطالبي: **الدولة الأغلبية**، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، تميش رقم04 ص400.

² - عمل الأغلبية ببلاد المغرب بنفس السياسة التي سار عليها الخلفاء العبّاسيون بالمشرق، و تبوّوا الراية السوداء، وهي الزي الرسمي لبني العبّاس، و لم يتخلّوا عنها أبدا، وأنّخذوا تجاه بني أمية في الأندلس و الأدارسة في المغرب الأقصى و الرستميين بالمغرب الأوسط نفس الموقف الذي أنّخذ بنو العبّاس، ينظر محمد الطالبي: **الدولة الأغلبية**، المرجع السابق، ص380.

³ - ينظر محمد أبو زهرة: **تاريخ المذاهب الفقهية والإسلامية المعاصرة**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ت، ص365.

⁴ - ذهب محمد الطالبي إلى أنّ البلاط الأغلي -حتى وإن سلك سياسة سنّية في بعض الفترات- بقي على الاعتزال حتى سقوط الدولة، للمزيد حول الائتلاف و الاختلاف بين الأغلبية و بني العباس ينظر محمد الطالبي: **الدولة الأغلبية**، مرجع سابق، ص380.

⁵ - **تهوذة**: أو تهوذا بالفتح ثم الضم، وسكون الواو، والذال معجمة: اسم لقبيلة من البربر ببلاد الزاب، لهم أرض تعرف بهم، وتعرف بمدينة السحر، وهي مدينة أهلة كثيرة الثمار والنخل والزروع، بها قُتل عقبة بن نافع و جماعة من أصحابه سنة63هـ، و قبره بها إلى اليوم، ينظر البكري: **المسالك و الممالك**، مصدر سابق، ج2، ص742. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج2، ص64.

⁶ - البكري: **المسالك و الممالك**، مصدر سابق، ج2، ص741.

⁷ - أشرنا إلى موضوع أسبقية دخول المذهب الحنفي أو ازدواجيته مع المذهب المالكي ص19، 20.

تلامذة تلامذته إلى التقرب من العامة والتغلغل في أوساطهم قصد التسريع من تفشي المذهب على حساب المذهب الحنفي المنافس له من جهة، و الحد من انتشار أفكار الاعتزال من جهة ثانية، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة استقرار المذهب وانتشاره بإفريقية و بلاد الزاب و بدت ملاحمها منذ تولّى "سحنون" منصب القضاء¹، فشرد أهل الأهواء و فضّ حلق المخالفين في المسجد الجامع²، وظهرت ملامح التفاعل الإيجابي بين علماء المالكية و الحنفية جلياً، و هو ما يُستنتج من وصف البكري لمدن "بنطوس" بأنها ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، وفي كلّ مدينة جامع. اثنان لأهل السنة (أي المالكية و الحنفية) والثالث لقوم من الخوارج (الإباضية)³، كما أشار المقدسي -عند حديثه عن مذهبية بلاد المغرب- إلى التوافق بين المذهبين بقوله: "إنّما هو أبو حنيفة ومالك رحمهما الله... وما رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقلّ تعصّباً منهم وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة حتّى قالوا إنه كان الحاكم سنة حنفيّ وسنة مالكيّ"⁴، لذلك فلا غرابة أن يُعيّن "سحنون" سليمان بن عمران (ت270هـ/884م) قاضياً حنفياً على باجة والإريس وبجاية⁵ ويُعيّن تلميذه "أبا حاتم يحيى بن خالد السهمي" (ت245هـ/859م) قاضياً مالكياً على بلاد الزاب⁶، واشتهر من الفقهاء المالكية أبو عبد الملك و ابنه اسحاق بن أبي عبد الملك الملشوني⁷ نسبة إلى ملشون إحدى قرى بسكرة قرب تهودة، ثمّ أخذ المذهب المالكي يضغط بثقله شيئاً فشيئاً، و علاقة علمائه تزداد توطّداً مع الأمراء الأغالبة بداية من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (9م)، و أصبح علماء المالكية يشكّلون فئة اجتماعية متنفّذة لدى الأمراء الأغالبة الذين عملوا على استرضائهم بالمناصب السياسية و القضائية⁸، و هو ما يفسّر إقدام الأمير الأغلبي "زيادة الله الثالث"

¹ - ولى سحنون القضاء سنة234هـ و هو ابن74سنة، ينظر أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص102.

² - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص60. أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص102.

³ - البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص740.

⁴ - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص236.

⁵ - ينظر القاضي عياض: تراجم أغلبية، مصدر سابق، ص102. و يذكر الخشني أنّ سحنون لم يولّ سليمان بن عمران عمران حتّى امتحنه في مذهبه، و أظهر له أنّه على مذهب المدنيين و أنّه تارك لمذهب العراقيين، فكان لا يقضي في قضية حتّى يشاور سحنون فيها، للمزيد ينظر الخشني: طبقات علماء إفريقية، مطبوع ضمن طبقات أبي العرب، مصدر سابق، ص180.

⁶ - القاضي عياض: تراجم أغلبية، مصدر سابق، ص317. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص204.

⁷ - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص98. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص369.

⁸ - نجم الدين الهنتائي: المذهب المالكي بالغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص154، 155.

(290-296هـ/903-909م) على عزل القاضي الحنفي "محمد بن أسود الصديني" في رمضان سنة 290هـ/903م وتولية "حماس بن مروان" المالكي على القضاء، فرضيت الخاصة والعامة وشُرت به¹، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على توسّع انتشار المذهب المالكي بإفريقية منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (9م) والذي تجلّت مظاهره في النقطتين التاليتين:

- اتّسع القاعدة الشعبية للمذهب في الأرياف بفضل احتكاك علماء المالكية و فقهاءهم بعامة الشعب في المهن و مشاغل الحياة اليومية، فلقد حكى أبو العرب عن الفقيه المالكي أبي الوليد مروان بن أبي شحمة (ت242هـ/856م) قائلاً: "...حدّثني عبد الرحمن ابنه، أنّه كان يعمل بيده الطّوب فيتصدّق بثلاث ما يريح فيه، وينفق ثلثا على عياله، ويردّ ثلثا في الطّين والتّبن وما يصلح به عمل الطّوب... ولم يكن له سريرٌ يرقد عليه، إنّما كان قد نصب طوبا فعليه ينام في بيته."² كما سجّلت لنا كتب طبقات المالكية عددا من فقهاء العهد الأغلبي الذين كانوا يمتحنون مهنا حرّة تضمن لهم مورد رزقهم من جهة، و تمكّنهم من نشر علمهم و فتاويهم بين عامة النّاس من جهة ثانية³.

- القيود التي فرضها قضاة المالكية و فقهاؤهم على الحياة العلمية و الفكرية، حيث كان الإجراء الأوّل تنفيذا من القاضي سحنون أن فرّق جلق أصحاب الاتجاهات المبتدعة من جامع القيروان، و لعلّ من أبرز مظاهره: الحصار الفكري على علماء المذاهب الأخرى بمنعهم من تولّي الإمامة والتدريس ورفع الأذان في المسجد، وحرمان العامة من إمكانية الاتّصال بهم، وفرض أحكام قاسية على المخالفين أو المتهمين بالزندقة حتّى يكونوا عبرة لغيرهم، بالإضافة إلى تركيز التدريس في المساجد والكتاتيب على الفقه المالكي بدرجة أكثر من باقي العلوم.

2. واقع المذهب المالكي في الدولة الرستمية:

نحج الإباضيون⁴ -ببلاد المغرب- في الانتقال بمذهبهم من إمامة الكتمان إلى إمامة الظهور¹، وتمكّنوا من تأسيس أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية بالمغرب الأوسط بعد سقوط الدولة الخطابية² بطرابلس وجبل

¹ - القاضي عياض: تراجم أغلبية، مصدر سابق، ص344.

² - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص115.

³ - ينظر نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص139، 140.

⁴ - الإباضية: فرقة من الفرق الاسلامية نسبة إلى عبد الله بن أباض المري التميمي (ت86هـ)، ينظر ترجمته عند الزركلي: الزركلي: الأعلام، ج4، ص61، 62. و يسمّى الإباضية أنفسهم بـ "أهل الحق" و "أهل الدعوة" و "أهل الاستقامة" و يرون أنّ أصول مذهبهم و مرجعيته تعود إلى التابعي أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي اليماني العماني مولدا البصري موطنا(ت93هـ) الذي أخذ العلم عن عائشة أم المؤمنين و ابن عباس، ثم انتقل إلى تلميذه أبي عبيدة، فأخذه عنه حملة العلم، للمزيد ينظر السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: اللمعة المرضية من أشعة الإباضية، مؤسسة عمان للصحافة و الأنباء، مسقط، عمان، 1426هـ/2005م، ص12، 13. و تطرّقت أغلب كتب الفرق إلى شرح عقائدهم و

نفوسة سنة 144هـ/761م، حيث استطاع عبد الرحمان بن رستم³ عامل أبي الخطّاب على القيروان الفرار و اللجوء إلى مواطن قبيلة لماية بجبل سوفجج⁴ بالمغرب الأوسط لتقديم حلف بينهم و بينه على حدّ تعبير ابن خلدون⁵، و هناك اجتمع حوله أهل الفضل و الصلاح من القبائل البربرية من هوّارة و مكناسة ولماية و مزّانة و

مبادئهم على أساس أتهم فرقة من فرق الخوارج، حيث ذكر البغدادي و الشهرستاني -نقلا عن أبي الحسن الأشعري في مقالاته- أنّ الإباضية يعتبرون مخالفيهم من هذه الأمة ليسوا مؤمنين و لا مشركين، و إنّما هم كفّار نعمة منّا كحتمهم جائزة، وموارثتهم حلال، و غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام. و حرام قتلهم وسبيهم في السر غيلة، إلا بعد نصب القتال، وإقامة الحجة. وقالوا: إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى. وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم، وأجمعوا على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر، كفر النعمة، لا كفر الملة، وتوقفوا في أطفال المشركين، وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام، وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلا... للمزيد عن أهمّ عقائد الإباضية و أشهر فرقهم ينظر الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم(ت548هـ): الملل والنحل، مؤسّسة الحلبي، القاهرة، مصر، د ت، ج 1، ص 135، 136. البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد(ت429هـ): الفرق بين الفرق و بيان الفرق الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1977م، ص 82-87. غير أنّه و في دراسة مستفيضة قدّمها الباحث الأستاذ "محمد علي الصلّابي" عدّ فيها الإباضية من المدارس الإسلامية المعتدلة و المتسامحة مع غيرهم، و أنّه من غير الإنصاف تصنيفهم من فرق الخوارج، بل هي من مدارس الإسلام السيّ في أصول الفقه و مصادر التشريع، ومذهبهم الفقهي قريب من المذهب المالكي، ينظر الصلّابي، محمد علي: الإباضية مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج، مكتبة حسن العصرية للطباعة و النشر، لبنان، ط1، 2018/2019م، ص-ص 891، 895.

1 - تنقسم الإمامة عند الإباضية إلى أربعة أقسام و تسمّى مسالك الدّين، و هي الكتمان، الدفاع، الشّراء و الظهور، للاطلاع على معانيها و شروحاتها ينظر الشّمّاخي، أبو سعيد أحمد بن سعيد: مقدّمة التوحيد و شروحها، تح أبو حفص عمر بن جميع، دار الحكمة، لندن، ط2، 1436هـ/2016م، ص 69 و ما بعدها.

2 - الدولة الخطّابية:نسبة إلى أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني(ت144هـ) أحد حملة العلم الخمسة، و مؤسس أول إمامة ظهور بطرابلس و جبل نفوسة(140-144هـ)، ينظر الدرّجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد(ت670هـ): طبقات المشائخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ج 1، ص 22، 35.

3 - عبد الرحمان بن رستم: هو عبد الرحمان بن رستم بن بھرام بن مسرى(ت171هـ)، اختلف في نسبه أيعود إلى كسرى ملك الفرس أم إلى لذريق ملك الأندلس، ولد بالعراق في العقد الأول من القرن 2هـ/8م، و نشأ في القيروان، ثمّ رحل إلى البصرة مع حملة العلم سنة 135هـ، و في سنة 140هـ عيّن عاملا على القيروان في دولة أبي الخطّاب، ثمّ عقدت له الإمامة بتيهت سنة 161هـ، ينظر أبو زكرياء، يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة و أخبارهم، تح إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1402هـ/1982م، ص 54، 55. ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، تح إبراهيم بحاز و محمد ناصر، د ت، ص 26. إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، ط2، 1414هـ/1993م، ص 92، 93.

4 - جبل سوفجج: جبل شاهق منيع في ناحية "تيهت"، اختلفت الروايات في تحديد مكانه بالضبط، فمنها التي تقول في جنوب تيهت ناحية "قصر الشلالة"، و منها التي تقول أنّه في شمالها بناحية "أمديّة"، للمزيد ينظر محمد علي دبّوز: تاريخ المغرب الكبير، مؤسّسة تاوالت الثقافية، 2010م، ج 3، ص 30.

5 - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ/1988م، ج 6، ص 159.

غيرهم...، و بايعوه إماما لهم، ثم أشاروا عليه ببناء مدينة يأوون إليها تكون لهم حصنا و منعة من الأعداء، فوقع اختيارهم -بعد المشورة- على مدينة "تيهـرت"¹ الواقعة على بعد خمسة أميال من تيهـرت القديمة، لما لها من ميزات² تؤهلها لتكون عاصمة لدولتهم الناشئة (الدولة الرستمـية 160-296هـ/777-909م) التي استطاعت أن تبسط نفوذها على كامل ربوع المغرب الأوسط عدا إقليم الزاب و بلاد تلمسان³، فكانت "تيهـرت" أول مدينة إسلامية النشأة ببلاد المغرب الأوسط، مدينة فتحت المجال أمام الأفكار ففتحت، وحررت العقول فانطلقت، و أتاحت للألسنة والأقلام مجال النطق والتجوير فنطقت ودبجت، فوصلنا منها أدب وعلم وفلسفة وفقه⁴، و أضحت طيلة القرن الثالث الهجري مركزا علميا و مصدر إشعاع حضاري ليس ببلاد المغرب الأوسط فحسب بل وفي عموم بلاد المغرب و المشرق الإسلامي، تضاهي في ذلك بغداد ودمشق و الكوفة⁵، كما انعكس هذا الوضع على أغلب مدن الإمارة الرستمـية كقلعة هواره وقصر الفلوس وجبل توجان وجبل لانغ وتنس وبني أورينغن

¹ - تيهـرت: كلمة بربرية تعني "محطة" أو "إقامة" وهو الدور الذي ارتبط بها منذ العهد الروماني حتى العهد الرستمـي، فكانت محطة لإقامة القوافل التجارية القادمة من الشمال نحو الجنوب، ومن الشرق نحو الغرب، ينظر إبراهيم بخاز: الدولة الرستمـية، مرجع سابق، ص90.

² - أطنب المؤرخون و الجغرافيون في ذكر محاسنها و مزاياها كخصوبة أرضها، و نقاوة هوائها، و وفرة مائها، و موقعها الوسطي الحصين... حيث يذكر ياقوت الحموي أن تاهـرت اسم لمدينتين بأقصى المغرب يقال لإحدهما تاهـرت القديمة و الأخرى تاهـرت المحدثـة بينهما وبين المسيلة ست مراحل و هي بين تلمسان وقلعة بني حماد، وهي كثيرة الأنداء والضباب والأمطار قل أن ترى بها الشمس... للمزيد ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1995م، ج2، ص7. البكري(أبو عبد الله): المغرب في ذكر أخبار إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، ص66،67. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان، ط2، 1965م، ج1، ص220. إبراهيم بخاز: المرجع السابق، ص85، 90.

³ - يستثنى من بلاد المغرب الأوسط إقليم الزاب الذي كان خاضعا لسلطة الأغلبة ، و بلاد تلمسان التي يسيطر عليها الأدارسة، للمزيد ينظر عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ج1، ص221. محمد بلغراد: الحركة الإباضية في تاهـرت و سدراتة و غرداية، مجلّة الأصاله، ع41، ص45-46.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015م، ج1، ص306.

⁵ - عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ج1، ص231. بن قرية، الشيخ: الحياة الثقافية و الفكرية على عهد الرستميين، مجلّة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ع12، س2005، ص38.

ومستغانم ووهران وشلف وغيرها من مدن المغرب الأوسط¹، فكثر العلماء و الطلبة، و انتشرت المناظرات وحلق العلم في المساجد و بلاطات الأمراء و تحت رعاية الأئمة ذاتهم².

ولئن لم تفدنا النصوص المصدرة بإشارات واضحة تخص المذهب المالكي في هذا الكيان، فإنّ الباحثين عمدوا إلى بعض الإيجاءات يستفزونها ويستنبطون منها ما قد يكون قريبا من الحقيقة التاريخية، فما أورده المقدسي من أنّ "تيهت" مدينة انتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب³، وفصله مؤرّخ الدولة الرستمية "ابن الصغير" قبله عندما ذكر أنّ "الوفود والرفاق كانت تأتيها من كلّ الأمصار وأقاصي الأقطار، وليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلّا

استوطن معهم و ابنتى بين أظهرهم... حتى لا ترى دارا إلّا قيل هذه لفلان الكوفي، و هذه لفلان البصري، و هذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين و رحبتهم، و هذا مسجد البصريين، و هذا مسجد الكوفيين"⁴ يمكن أن نستشفّ منه أنّ تيهت و أحواضها كانت مستقرّا لفرق و مذاهب عدّة لكلّ منها مساجدها و أئمّتها و دروسها، فليس مستبعدا أن يكون مسجد القرويين لأصحاب المذهب المالكي، و مسجد الكوفيين لأصحاب المذهب الحنفي، و مسجد البصريين للإباضية أو للمعتزلة الواسلية... كما يتّضح لنا أنّ المناظرات كانت تدور بين الإباضية و غيرهم من الفرق الأخرى كأصحاب مذهب العراق الذين اشتهروا بالرأي و القياس، و الحجازيين الذين عُرفوا بالسنة و الأثر، يظهر ذلك جليّا في قول أحد الإباضية لابن الصّغير في مناظرة جرت بينهما "من أين زعمت و زعم أصحابك و غيرهم من الحجازيين و العراقيين..."⁵ و في قول ابن الصغير: "و من أتى إلى حلق الإباضية من

¹ - للمزيد عن المدن التابعة للإمارة الرستمية بالمغرب الأوسط ينظر الباروني، سليمان باشا: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، مرا محمد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، ط1، 2005م، ص89 و ما بعدها. فياض، أبو دياك: المظاهر الحضارية و السياسية للدولة الرستمية، مجلّة دراسات تاريخية، ع55، س1996م، ص82.

² - عرف الأئمة الرستميون بالنبوغ في فروع مختلفة من العلوم النقليّة و حتى العقليّة، لذلك كانت النقاشات و المناظرات تعقد في بلاطاتهم، كما كان العلم شرطاً من شروط تولّي منصب الإمامة عندهم، فالإمام عبد الرحمان بن رستم مؤسس الدولة و أوّل أئمّتها كان على قدر عظيم من العلم، و له من التآليف تفسير القرآن العظيم، و ديوان خطب، و رسائل إخوانيات، أمّا ابنه عبد الوهاب ثاني الأئمة فقد كان أعلم علماء الإباضية في وقته، له في الفقه كتاب اشتهر بـ "مسائل نفوسة"، و يعتبر الإمام أفلح بن عبد الوهاب ثالث الأئمة و أطولهم حكماً من أفذاذ العلماء العارفين في الأدب و الشعر و الدين، كما حفظت لنا كتب التاريخ أنّ أبا بكر بن أفلح رابع الأئمة كان مولعاً بالدعوة و الأدب، أمّا أخاه أبا اليقظان فقد كان يباشر التدريس بنفسه حتّى في أيام حكمه... للمزيد ينظر عبد الرحمان الجليلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص222 و ما بعدها. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القسّم و الحديث، مرجع سابق، ج2، ص71 و ما بعدها. محمّد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الاسلامي، دار القلم، الكويت، ط3، ص237.

³ - المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص228.

⁴ - ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، مصدر سابق، ص31، 32.

⁵ - ينسب هذا القول إلى رجل من وجوه الإباضية، من قبيلة هواره، يسمّى سليمان، و يكتّى بأبي الربيع، ينظر ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، مصدر سابق، ص102.

من غيرهم قريوه و ناظروه ألطف مناظرة، و كذلك مَنْ أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك¹، و عن الحرّية المذهبية التي كفلها الأئمة الرستميون لغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى يذكر ابن الصغير أنّ الإمام أبا اليقظان² لما دخل المدينة كان أول شيء نظر فيه أمور الناس، إذ أمر قوما من "نفوسة" يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و لا يمنعون الناس فيما يتمذهبون، فلا يصدّون أحدا من أهل المذاهب الأخرى عن الصلّاة في مساجدهم، و لا يُنكرون عليه حاله و لو رأوه رافعا يده، إلّا المسجد الجامع فإنّهم إذا رأوا فيه مَنْ رفع يده منعوه³.

إنّ استنطاق النصوص المصدريّة —على قائلتها— يُظهر تبوّ "تيهت" مركزا هامّا لبثّ الأفكار و التعاليم الإباضية ونشرها، لاسيما بين الجماعات الإباضية الصحراوية التي كانت منتشرة في المنطقة الواقعة بين طرابلس و تيهت، كما يوحى بأنّ أئمّتها وعلماءها قادوا ثورة علمية لا مثيل لها في تاريخ بلاد المغرب، فأضحت مساجدها ومدارسها أمكنة لحلق العلم وشحذ الهمم وروح الجدل وحبّ المناقشة والتدقيق، فانتشرت المناظرات في جميع المجالات الفكرية والفقهية والفلسفية، في جوّ تسوده الحرّية التي كفلتها الدولة الرستمية للجميع بفضل تسامح أئمّتها و تقواهم و علمهم⁴، هذا المناخ كان للمذهب المالكي فيه نصيب، برز فيه أعلام أثروا و تأثروا بغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى، دوّنت لنا كتب التراجم و الطبقات سير البعض منهم كالفقيه الإخباري "ابن الصغير المالكي"⁵ والشاعر الأديب أبو عبد الرحمان بكر بن حمّاد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناقي¹، أمّا

¹ - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، مصدر سابق، ص102.

² - أبو اليقظان، محمد بن أفلح (ت281هـ/894م): خامس أئمة بني رستم، ينظر ترجمته عند أبي زكريا: المصدر السابق، ص98. الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، من كتب التراث، ط2، د ت، ج1، ص82، 83.

³ - ينقل مبارك الملي عن الباروني بأنّ المتعصبة من العائّة هم من يفعلون هذا بالمسجد الجامع، و ذلك من غير إذن الإمام، ينظر مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، د ت، ج2، ص79. ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، مصدر سابق، ص77.

⁴ - ألفرد بل: الفرق الإسلامية بالشمال الإفريقي، تر عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987م، ص149.

⁵ - لا يعرف عن ابن الصغير الشيء الكثير إلّا ما ذكره هو بنفسه في كتابه الذي جمع فيه أخبار الأئمة الرستميين، غير أنّه لم يفصح فيه عن مولده و لا بلده و لا مذهبه، لكنّه ذكر أنّه سكن تيهت و عاصر أيام أبي اليقظان، و نفى صراحة انتماءه للمذهب الإباضي، للاطلاع على ترجمته ينظر ابن الصغير: المصدر السابق، ص11 و ما بعدها. الباروني: الأزهار الرياضية، مرجع سابق، ص85. ناصر الدين سعيدي: من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص13. وداد القاضي: ابن الصغير مؤرّخ الدولة الرستمية، مجلّة الأصالة، ع45، س1387هـ/1977م، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ص38 وما بعدها.

الأول فهو مؤرخ الدولة الرستمية الذي وصفه الباروني بالعلامة المالكي الشهير² العارف بقضايا الأحكام وقواعد اللغة حتى عُدَّ من طرف معاصريه من شيوخ المالكية³ القادرين على المناظرة والجدال⁴، وأمَّا الثاني فقد عدَّه عبد الرحمان الجيلاني من كبار علماء الجزائر وأدبائها، وُلِدَ ونشأ بتيهت و بها دُفِنَ، أخذ العلم عن علماء بلده ثم ارتحل إلى القيروان فأخذ عن سحنون وعون بن يوسف الخزاعي وتصدَّر للتدريس بجامعها الكبير⁵، ودخل بغداد فكانت له مناظرات ومساجلات مع فقهاء وأدبائها، قال عنه البكري: "كان ثقة مأمونا حافظا للحديث"⁶، و قال عنه ابن عذارى: "كان عالما بالحديث وتميز الرجال"⁷، كما اشتهر في العهد الرستمي الشاعر المالكي أحمد بن فتح بن خراز التيهرتي⁸، و الفقيه عبد الرحمان بن عبد الله بن محمد التميمي، وابنه المحدث قاسم بن عبد الرحمان⁹، وإبراهيم¹⁰ وقاسم ابنا عبد الرحمان التنسي، و زكريّا و عبد الرحمان ابنا بكر بن حماد السالف الذكر و غيرهم¹¹.

¹ - بكر بن حماد التيهرتي: هو أبو عبد الرحمان بكر بن حماد بن سمك الزناتي، شاعر و فقيه مالكي، عارف بالحديث و رجاله، وُلِدَ بتيهت، و لم نخبرنا المصادر بتاريخ مولده، رحل إلى البصرة سنة 217هـ، ثم عاد إلى القيروان و سمع من "سحنون"، و تصدَّر للتدريس في جامع القيروان، وفي سنة 295هـ رجع إلى مسقط رأسه واستقر بها إلى أن توفّي سنة 296هـ، للمزيد عن ترجمته ينظر الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج2، ص63. محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1385هـ/1966م، ص43. عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ج1، ص241، 242.

² - الباروني: الأزهار الرياضية، مرجع سابق، ص85.

³ - ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص13.

⁴ - من بين ما سجّله لنا ابن الصغير في كتابه أخبار الأئمة الرستمين مناظرة جرت بينه و بين أبي الربيع سليمان الهواري حول مسألة خيار البنت البكر الصغيرة في الزواج بعد أن تدرك، و مقارنتها بخيار الأمة في الزواج بعد أن تعتق، الشيء الذي يؤكّد نبوغه الفقهي و مكانته العلمية في المجتمع التيهرتي، ينظر ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستمين، مصدر سابق، ص102، 103.

⁵ - يرى الباروني في أزهاره أنّ "بكر بن حماد" إباضيا أو صفريا، غير أنّي لم أقف له على ترجمة في المصادر الإباضية، و ما ذكرته كتب التراجم السنية من تلقّيه العلم عن سحنون و تصدّره للتدريس في جامع القيروان يجعلنا نستبعد هذا الرأي، ينظر الباروني: المرجع السابق، ص116. قرواش سومية: إسهامات علماء تيهت في الحركة العلمية ببلاد المغرب الاسلامي، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2019/2018م، ص182، 183.

⁶ - البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص201.

⁷ - ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص154.

⁸ - ترجمته عند عادل نويهض: المرجع السابق، ص58.

⁹ - ترجمته عند عادل نويهض: المرجع السابق، ص59.

¹⁰ - ترجمته عند عادل نويهض: المرجع السابق، ص84.

¹¹ - ينظر محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية، مرجع سابق، ص237.

وصفوة القول أنّ التواجد المالكي في الإمارة الرستمية كان حقيقة تاريخية أفرزتها سياسة حسن الجوار إن مع الإمارة الأغلبية¹ شرقاً، أو الإمارات السليمانية ودولة الأدارسة غرباً²، ووطّدتا الحرية المذهبية التي كفلتها السلطة السياسية لجميع المذاهب و الطوائف الدينية³، أمّا العلاقات بين المذهبين فقد غلبت عليها المناظرات و السجلات و تداولُ المصنّفات في كنف الهدوء و الاحترام.

3. المذهب المالكي في الدولة السليمانية⁴ والإمارات العلوية بالمغرب الأوسط⁵:

¹ - حتّى وإن تميّزت العلاقات بين الدولتين بالتعايش السلمي فقد سجّلت لنا كتب التاريخ بعض النزاعات التي نشبت بينهما، لعلّ أشهرها محاولة الأمير الأغلبي محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بناء مدينة سماها "العباسية" على الأراضي الرستمية، و نصب الراية العباسية عليها سنة 239هـ، و التي خرّبها الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب... للمزيد ينظر ابن الصغير: المصدر السابق، ص82. محمد الطالبي: المرجع السابق، ص399، 400.

² - ممّا زاد في توطيد العلاقات بين الرستمين و الأدارسة، الموقف الموحد الذي يجمعهما تجاه الخلافة العباسية و القوائم على الخوف المشترك من بغداد، إضافة إلى الحرّية المذهبية التي كفلتها الدولتان لاسيما للمذهب المالكي الذي عرف انتشاراً واسعاً في فاس و المغرب الأقصى عموماً، ينظر جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص195. حسن علي حسن: دولة الأدارسة بالمغرب، ص245.

³ - سمح الرستميون للعلماء حتّى من غير المسلمين بمزاولة العلوم، حتّى نبغ منهم اليهودي يهوذا بن قريش الذي ألف كتاباً في فقه اللغة المقارن بين اللغة العربية و العبرية و البربرية، ينظر محمد سعد الحريري: المرجع السابق، ص237، 238.

⁴ - الدولة السليمانية نسبة إلى سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، توفّي أبوه عبد الله في سجن الخليفة العباسي "المنصور" سنة 144هـ، وأمّا أمّه فهي عاتكة بنت عبد الملك، و هي أمّ أخويه الشقيقين عيسى و إدريس الأكبر مؤسّس الدولة الإدريسية، و أمّا هو فقد فرّ من موقعة فخ 169هـ - على أرجح الأقوال - واستقرّ بتلمسان و بها أسّس دولته حوالي سنة 173هـ و توفّي سنة 195هـ، ينظر الأصبهاني، أبو الفرج ت365هـ: مقاتل الطالبين، تح السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ت، ص365، ص378. ابن خلدون، عبد الرحمان: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص17، ص23. البكري، أبو عبيد الله، المصدر السابق، ج2، ص804. مبارك المليي: المرجع السابق، ج2، ص102.

⁵ - أغلب الإمارات العلوية بالمغرب الأوسط هي تلك الإمارات التي انشطرت عن الدولة السليمانية بعد هلاك سليمان و تولّى ابنه "محمد" الذي عمل على تفريق أبنائه الستّة على أعمال الدولة، كإمارة جراوة، و إمارة أرشكول، و إمارة تنس... إضافة إلى الإمارات التي تولّى حكمها أحفاد الحسن و الحسين من غير أبناء محمد بن سليمان، كإمارة الهاز، و إمارة متيجة...، لأكثر تفاصيل عن الإمارات العلوية بالمغرب الأوسط و مناطق نفوذها ينظر بملولي سليمان: الدولة السليمانية و الإمارات العلوية في المغرب الأوسط، وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011م، ص103 و ما بعدها. سايح دين: الاتجاهات المذهبية و دورها في التطور الثقافي في المغرب الأوسط (ق3-6هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015/2016م، ص136 و ما بعدها.

تُعتبر الدولة السليمانية ثاني دولة مغربية -بعد دولة الأدارسة- ذات أصول علوية هاشمية، اتخذت من مضارب زناتة بتلمسان¹ ومناطق المغرب الأوسط امتدادا لها، حيث يقول ابن خلدون بشأن مؤسسها: "وأما سليمان أخو إدريس الأكبر فإنه فرّ إلى المغرب أيام العباسيين فلحق بجهات تاهرت بعد مهلك أخيه إدريس، وطلب الأمر هناك فاستنكره البرابرة وطلبه ولاية الأغالبة فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك، وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سننه، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط²" و يقول "التنسي" بشأن الإمارات العلوية المنشطرة عنها: "لما تملك محمد بن سليمان استفحل أمر ابن عمه إدريس بالمغرب الأقصى، فاستدعاه محمد ليستعين به على البلاد الشرقية، فقدم عليه إدريس، و قدموا جيوشا دؤخوا بها شلفا و ما وراءه إلى أسوار بجاية، ثم رجع إدريس إلى بلاده، و ترك المغرب الأوسط بيد ابن عمه محمدا، الذي فترق بنيه على أعمالها، فأقام ابنه عيسى بأرشكول، و إدريس بجراوة، و أقام ابنه الحسن على تيهرت، وابنه ابراهيم على تنس، وكان ابنه أحمد وليّ عهده معه بتلمسان³"

أما عن مذهبية الدولة السليمانية في ظل غياب نصوص مصدريّة صريحة جعلت جُلّ المؤرخين يتساءلون عن توجّهم الفروع والأصولي أشيعه هم أم سنّة؟ مالكية أم معتزلة أم زيدية؟ غير أنّه واستنادا إلى الإشارات التي تومئ إلى تقاربهم والتقاءهم مع بني عمومتهم الأدارسة في المغرب الأقصى، إضافة إلى محاولات الأغالبة الأحناف والرسّامين الإباضية السيطرة على هذا الكيان، تبعلنا نتوقّع -رغم انعدام القرائن القطعية- توجّهم الشيعي الزيدي⁴ الممزوج بنوع من القابلية بل وللدعوة للمذهب المالكي أحيانا، فمن ما أورده الشيخ عبد الرحمان الجيلاني من أنّ "إدريس الأكبر كان يقول نحن أحقّ باتّباع مذهب مالك وقراءة كتابه، وأنّ الإمام مالك روى في موطنه عن عبد الله الكامل والد إدريس وسليمان، كما أنّه أفتى بخلع الخليفة العبّاسي أبي جعفر المنصور، وصحّة البيعة لمحمد النفس الزكيّة أخي إدريس وسليمان⁵"، يُفهم أنّ سليمان وأخيه إدريس ساهما -ولو بطريقة غير مباشرة- في نشر

¹ - كانت السيادة بنواحي تلمسان إلى وهران إلى شلف شمالا و غريس من ناحية معسكر جنوبا لقبيلتين زناتيتين هما مغراوة و بني يفرن، ينظر مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم و الحديث، مرجع سابق، ج2، ص105.

² - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج4، ص23.

³ - التنسي، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل: تاريخ دولة الأدارسة، من كتاب نظم الدر و العقيان، تح عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984م، ص65.

⁴ - ينتسب أصحاب هذا المذهب في دعوتهم إلى زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي خرج في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان، فقتله الخليفة و صلبه سنة121هـ، و يعتبر هذا المذهب من أقرب المذاهب الشيعية إلى أهل السنّة، ينظر الجرجاني: الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص25. الشهرستاني: الملل و النحل، مصدر سابق، ج1، ص154، 158، 161.

⁵ - عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص251.

المذهب المالكي بالمغربين الأوسط والأقصى كما ساهم في نشره علي بن زياد و البهلول بن راشد وغيرهما في المغرب الأدنى، فلقد عرف المذهب المالكي في عهد السليمانيين انتشارا واسعا أشارت إليه بعض النصوص -إن تصريحاً أو تلميحاً- حيث يقول اليعقوبي مثلاً: "حصن بني كرام وليس أهله بشراة ولكنهم جماعة"¹، ويقول البكري عن مدن بنطيوس "هي ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، و في كل مدينة جامع، فالاثنتان من أهل السنة"²، و عند حديثه عن القسم الغربي من المغرب الأوسط ذكر "البكري" بأنّ تلمسان لم تزل دارا للعلماء والمحدثين و حملة الرأي على مذهب مالك³، وهو ما توحى إليه عبارة ابن خلدون عندما أشار إلى تنحّي بربر زناتة - من بني قرة وبني يفرن ومغيلة- عن النحلة الخارجية سواء الصفرية أو الإباضية⁴، وتحول ولائهم عن بني العباس إلى الأدارسة الذين كانوا الأقرب إلى المذهب المالكي من الناحية الفقهية، و حتّى و إن أظهروا التشيع الزيدي فهو لا يعدو إلّا أن يكون مطيّة سياسية لإظهار حقّ العلويين في الخلافة و الملك، و هو ما عبّر عنه إدريس الأصغر - الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة- عند تشييده مدينة فاس بقوله: "اللهم اجعلها دار علم و فقه يتلى بها كتابك، و تقام بها حدودك، و شرائع دينك، و سنة نبيك محمد صلى الله عليه و سلم ما أبقيت الدنيا... اللهم وفق سكّانها و قطّانها إلى الخير و أعنهم عليه، واجعلهم متمسكين بالسنة و الجماعة ما أبقيتها"⁵

¹ - اليعقوبي: البلدان، مصدر سابق، ج1، ص191.

² - البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص207.

³ - البكري: المصدر نفسه، ج2، ص213.

⁴ - يقول ابن خلدون في هذا الصدد: "وانتظمت كلمة البرابرة وزناتة ومحووا دعوة الخوارج منهم، واقتطع الغريبين عن دعوة العباسيين من لدن الشمس الأقصى إلى شلف" ينظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج4، ص18.

⁵ - ينظر السنوسي، علي الخطابي الادريسي: الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية، مطبعة الشباب، القاهرة، مصر، 1349هـ، ص70. السلّاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1418هـ/1997م، ج1، ص223.

الفصل الأول

إرهاصات تشكّل المدرسة
المالكية بالمغرب الأوسط

(ق4-6هـ/10-12م)

تمهيد:

عرفت بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجري جُملة من الأحداث التاريخية المتعاقبة والمتسارعة، أثّرت في مسار الحركة الفقهية، وساهمت من قريب أو بعيد في وضع أسس المدرسة المالكية بهذا المجال الفسيح، فما هي أبرز هذه الأحداث؟ وإلى أي مدى ساهمت في ظهور الملامح الأولى للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط؟

أولاً: العهد الفاطمي¹، مخاض ميلاد المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط (296-405هـ/909-1015م):

قبل الخوض في وضعية المذهب المالكي ورجالاته في العهد الفاطمي ببلاد المغرب الأوسط جدير بنا أن نعرج على ظروف وملابسات نشأة هذا الكيان من مرحلة الدّعوة إلى مرحلة الدّولة، وما جرى خلال ذلك من صراعات قبلية وتغييرات مذهبية ومناظرات علمية وحروب عسكرية...، إذ ورغم الغموض والتضارب² الذي يشوب بدايات تسرّب دعاة الاسماعيلية³ إلى بلاد المغرب - كشأن غالبية المذاهب الوافدة من المشرق⁴ - إلا أنّه يمكننا التمييز بين مرحلتين أساسيتين أجمع أغلب المؤرخين على أهمّ معالمهما في تاريخ الدعوة الفاطمية ببلاد

¹ - **الدّولة الفاطمية:** نسبة إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم وزوجة علي رضي الله عنه، كما تسمّى - في بعض المصادر - الدّولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها عبيد الله المهدي، حكم الفاطميون بلاد المغرب لأزيد من ستة عقود (297-361هـ)، ثمّ انتقلوا إلى مصر في عهد المعزّ لدين الله، ودام حكمهم بما أكثر من قرنين من الزمان، إلى أن انتهى حكمهم في القاهرة على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ... لأكثر تفاصيل عن نسب الفاطميين وفترة حكمهم ببلاد المغرب ينظر ابن خلدون، أبو عبد الله محمد بن علي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، د ت، ص 35 وما بعدها. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، مصدر سابق، ج 1، ص 158.

² - لم يدر الخلاف حول تاريخ تسرّب الدعوة الاسماعيلية إلى بلاد المغرب فحسب، وإنّما شمل أيضا الدّعاة الذين كان لهم قصب السبق في ذلك، والجهة التي كانت وراء إرسالهم إلى هذه المجالات، ويعتبر العلامة ابن خلدون من أشهر المؤرخين الذين تتبّعوا بدايات التوافد الشيعي على بلاد المغرب وفصلوا في هذا الباب تفصيلا مفيدا، كما يعتبر الباحث الجزائري الأستاذ موسى لقبال من أبرز محلّلي النصوص المصدرية التي تناولت الجذور الأولى لحركة الشيعة العبيديين ببلاد المغرب... لأكثر تفاصيل ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج 4، ص 37 وما بعدها. موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية منذ التأسيس إلى منتصف القرن 5هـ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص 205 وما بعدها.

³ - **الاسماعيلية (المذهب الاسماعيلي):** هي أحد فرق الشيعة الإمامية التي تقول بالنصّ على إمامة علي، وسمّيت بذلك نسبة إلى اسماعيل بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما تسمّى بالرافضة لرفضها إمامة أبي بكر وعمر... للمزيد عن تاريخ ظهور هذه الفرقة وأبرز عقائدها ينظر أبو الحسن الأشعري (ت324هـ): مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط 1 1426هـ/ 2005م، ج 1، ص 40 وما بعدها. حيدر محمد عبد الله الكربلاي: المشرّع الاسماعيلي أبو حنيفة القاضي النعمان، رسالة ماجستير، إشراف د. ناجي حسن، كآية الآداب، جامعة بغداد، العراق، 1428هـ/ 2007م، ص 49 وما بعدها. إحسان إلهي ظهير: الاسماعيلية تاريخ و عقائد، إدارة ترجمان السنّة، لاهور، باكستان، د ت، ص 267 وما بعدها.

⁴ - ظلّت بلاد المغرب منذ مطلع القرن الثاني الهجري (8م) وجهة للكثير من الأفكار والتّيارات السياسية والعقدية المعارضة لنظام الحكم في المشرق (معتزلة، خوارج، شيعة...)، مستغلّة صعوبة تضاريس هذه المجالات وبعدها عن مركز الخلافة، وتنوّعها الاثني والثقافي والاجتماعي، إضافة إلى الفراغ وعدم الاستقرار الذي عرفته بلاد المغرب من جزاء السياسات الاجتماعية والاقتصادية التعسّفية من طرف بعض الولاة الأمويين ثمّ العباسيين... للمزيد عن أسباب توجّه دعاة المذاهب والأفكار المعارضة نحو الشمال الإفريقي ينظر ألفرد بل: الفرق الاسلامية بالشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص 145 وما بعدها.

المغرب؛ مرحلة الحرث ومرحلة البذر، أما الأولى فقد تميّزت بالسريّة التامة إلى جانب غموض مادّتها الدّعوية، وتزعمها الدّاعيان "أبو سفيان" و"الحلواني" اللذان أمرهما الإمام جعفر الصادق (ت148هـ/765م)¹ أن يجاوزا حدّ إفريقية إلى بلاد البربر، وأن ييسّطا بها ظاهر علم الأئمّة، وينشروا فضلهم²، فنزل أبو سفيان بموضع يقال له "تالا" واستطاع أن ينشر أفكاره بمراجمّة والإريس ثمّ ببلاد الجريد، وواصل الحلواني مسيرته إلى منطقة سوجمار فنزل بموضع يقال له التّاطور أين مكث يبيّث أفكار ومبادئ المذهب الشيعي بين صفوف قبيلة كتامة البربرية³. أمّا المرحلة الثانية فقد بدأت سنة 280هـ/893م مع قدوم الدّاعي أبي عبد الله الشيعي⁴ من مكّة مع وفد الحجاج الكتامي، وهو الذي تنسب إليه الروايات التاريخية الفضل الكبير في نجاح الدعوة الاسماعيلية وقيام الدولة العبيدية ببلاد المغرب، في حين يرى آخرون أنّ أبا عبد الله وجد الأرض مهية وموطّاة، وأنّه جنى ثمار غرس أبي سفيان

¹ - جعفر الصادق (ت148هـ/765م): هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه، وأمّه "فروة" حفيدة أبي بكر الصديق، ولد سنة 80 أو 83هـ بالمدينة المنورة وبها توفّي سنة 148هـ ودفن بالقيع، ينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج1، ص327.

² - للمزيد حول تاريخ قدوم الدّاعيان ومكان نزولهما ينظر القاضي النعمان: افتتاح الدّعوة، تح فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986م، ص26-27. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص41. المقرئ (ت845هـ): اتعاط الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميين الخلفاء، تح جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط1، د ت، ج1، ص41. حسين بويدي: الدّاعيان الشيعيان أبو سفيان والحلواني ببلاد المغرب، دراسة في النصوص ومقاربات حول مجالات التّشاطر والتأثير، مجلّة المعالم، ع18، س2015، صص36، 41.

³ - كتامة: بكسر الكاف أو ضمّها على الأصح، قبيلة بربرية تنتمي لفرع البرانس الذي تميّزه حياة الاستقرار، وسمّيت كذلك نسبة لاسم الجدّ الأعلى لمختلف بطوئها، وهو "كتام" أو "كنم" بن برنس بن مازيغ بن كنعان بن حام، في حين تذكر بعض المصادر أنّ تسمية كتامة مشتقة من "الكتمان" أي التسرّ، وهو ما روج له دعاة الشيعة باعتباره مبدأ أساسيا عندهم، كانت مواطنهم منذ الفتح الإسلامي كما أشار إليها ابن خلدون من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر مابين بجاية وبونة، وهي بيئة جبلية وعرة في معظمها، تميّز قاطنوها بالفقر وحبّ العزلة، والتشبّث بالعادات والتقاليد... للمزيد حول نسب وأصل التسمية ومضارب كتامة ببلاد المغرب ينظر ابن حزم الأندلسي (ت456هـ): جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م، ص495. السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت562هـ): الأنساب، تح عبد الرحمان بن يحيى المعلمي وآخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، باكستان، ط1، 1382 هـ/1962م، ص43. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج6، ص585، ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص196 وما بعدها. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ): نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1400 هـ/1980 م، ج1، ص405.

Gautier E F: **Le passé de l'Afrique du Nord**, les Siecles Obscures, Paris Payot, 1942, p338-339.

⁴ - أبو عبد الله الشيعي: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء، اشتهر عند المغاربة بالصنعاني نسبة إلى صنعاء اليمن التي قدم منها، وأصله من كوفة العراق، ومولده بالأهواز، كان يعرف بالختسب لأنّه كان محتسبا بسوق الغزل بالبصرة، كما يعرف بالمعلّم لما عرف عنه من علم الباطن والفقه والقراءة... ينظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج6، ص583. أبو زكريا: سير الأئمّة و أخبارهم، مصدر سابق، ص112 وما بعدها، المقرئ: اتعاط الحنفاء، مصدر سابق، ج1، ص51.

والحلواني¹، ومهما يكن من أمر فقد نظم الداعي الدعوة الاسماعيلية تنظيماً مُحْكَمًا، بدءاً بمرحلة إيكجان² السريّة (280-287هـ/893-900م) والتي احتضنها بنو سكتان من قبيلة جيملة الكتامية، مروراً بمرحلة بني غشمان بتازورت³ التي أعلنها دار هجرة، ثم رجوعاً إلى إيكجان ثانية والتي اتخذها قاعدة انطلاق وتوسّع خاض فيها مع جيشه الكتامي صراعات ومعارك دموية⁴ ضدّ قبائل المدن والأرياف التابعة لمجالات كتامة والقريبة منها، سواء المعارضة للمشروع الاسماعيلي⁵ أم الموالية لسلطة الأغلبية بإفريقية، كمُدن ميله، سطيف، بلزّمة، طبنه، تيجس، تيفاش، باغاية وباقي حواضر الإمارة الأغلبية التي سقطت بسقوط عاصمتها "رقّادة"⁶ بعد معركة الإريس الشهيرة⁷ أواخر جمادى الآخرة من سنة 296هـ/909م، والتي كانت نهايتها إيذاناً بغروب شمس الأغلبية بفرار آخر أمرائها "زيادة الله"⁸ إلى المشرق وبزوغ فجر الدولة الفاطمية، حيث توجه الداعي بعدها -عزّة رجب- من

¹ - محمد بركات البيلي: التّشيع في بلاد المغرب الاسلامي حتّى منتصف القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 1993م، ص68، 69.

² - إيكجان: منطقة جبلية منيعة بين قسنطينة وسطيف، بما مواطن قبيلة كتامة، ووردت في بعض المصادر "انكجان"، للمزيد ينظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، ص269. الحميري: الروض المعطار، مصدر سابق، ص71. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص273. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج6، ص585.

³ - أحاط الداعي قلعة تازورتيسور واتخذ بها مقراً دائماً له، وفيها أبان عن مذهبه، وأفصح عن أهدافه ومراميه، واستعداداً للمواجهة العسكرية قسم القبائل الموالية له أسبوعاً، وجعل لكلّ سبع منها عسكرياً، وقدم عليه مقدماً، ومنها أرسل الدعاة إلى أرياف وحواضر كتامة، ينظر القاضي النعمان: المصدر السابق، ص124. وعن تسميتها ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص43. المقرئ: المصدر السابق، ج1، ص58.

⁴ - من المعارك التي خاضها الداعي وجيشه الكتامي ضدّ القوّات الأغلبية، معركة "كينونة" الواقعة بين ميله و قسنطينة، ومعركة "دور مدين" بين سبيلطة والقصرين، ينظر موسى لقبال: دور كتامة، مرجع سابق، ص273 ومابعد.

⁵ - جدير بالذكر بأنّ القبائل الكتامية لم تكن منتصرة للمشروع الاسماعيلي على بكرة أبيها، ففي دراسة مفصّلة تتبّع فيها الأستاذ حسين بويدي التّصوص المصدريّة لاسيما تلك التي أوردها القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدّعوة، بيّن فيها أنّ القيادات الكتامية في عمومها كانت ضدّ هذا المشروع، وأنّ المنتصرين له كانوا أقلّيّة متمثلة في فرع بني سكتان من جيملة وفرع بني غشمان من تازروت وفرع أزاية من مسالطة وأقليات من ملوسة، ينظر حسين بويدي: كتامة المنسية (دراسة في مقاومة المشروع الشيعي الاسماعيلي داخل المجالات الكتامي)، مجلّة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع24، ص20، 21.

⁶ - رقّادة: مدينة كبيرة من أكثر مدن إفريقية بساتين وفواكه، وأعدلها هواء وأرقها نسيماً وأطيبها تربة، وهي على أربعة أميال من القيروان، يقال أنّ بانيها بانيها هو الأمير الأغلي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (261-281هـ)، ينظر مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ص116.

⁷ - الإريس: قلعة من قلاع مدينة الكاف التّونسية، تبعد عن حاضرة رقّادة حوالي ثلاث مراحل، وفي أرباضها جرت معركة الإريس، إحدى أشهر وأهم المعارك الفصليّة التي خاضها الداعي ضدّ الحيوّش الأغلبية، والتي جرت وقائعها لسّت أو لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة 296هـ، للمزيد عن تفاصيل المعركة ينظر ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص146. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج3، ص454. المقرئ: اتعاط الحنفاء، مصدر سابق، ج1، ص62.

⁸ - زيادة الله الأغلي: هو أبو مضر زيادة الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الأغلب، المعروف بنجر ابن إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقّال التميمي. آخر أمراء بني الأغلب، دامت ولايته بأفريقية خمس سنين وأحد عشر شهراً وأربعة أيام، وفرّ منها ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة 296هـ، ينظر ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص147. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص264.

معسكره إلى العاصمة رقادة¹ ومكث بها أشهرًا عمل فيها على إجراء تغييرات جذرية شملت جميع التّواحي لاسيما الإدارية منها والمذهبية، قبل أن يستخلف أخاه أبا العباس على إفريقية ويقود بنفسه -في السنة ذاتها- حملة إلى المغربين الأوسط والأقصى قضى فيها على حكم الأسترتين الرستمية بتيهت الإباضية² والمدارية بسجلماصة الصفرية، ليختتم مهمته التي أرسل من أجلها بتحرير عبيد الله المهدي³ وولده من سجن سجلماصة، ومبايعته بالإمامة، ومن ثمّ مغادرتهما إلى رقادة، لتبدأ بذلك مرحلة أخرى من تاريخ الاسماعيلية ببلاد المغرب؛ مرحلة تعاقب فيها أربعة خلفاء فاطميين على الحكم وشكّلوا المحور الأساس لأحداث ما يزيد عن نصف قرن من الزمن، منذ وصول عبيد الله إلى رقادة⁴ واستقراره بها إلى يوم رحيل المعزّ لدين الله إلى مصر، وسنستعرض فيما يلي أهمّ التّغييرات التي استحدثها النظام الفاطمي في بلاد المغرب، ونناقش تبعاتها على الحياة المذهبية ببلاد المغرب الأوسط:

1. سياسة أبي عبد الله الدّاعي تجاه المذهب المالكي:

بعد دخوله رقادة واستتباب الأمور بها عهد الدّاعي إلى شيوخ قبائل كتامة المتشيعّة بالإشراف على الأجهزة الإدارية والقضائية، وأمر وجوههم بدعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى العموم أبان عن سياسة مذهبية واقتصادية معتدلة، فلم يحدث أيّ تغييرات جوهرية تتفق مع مبادئ وتقاليد المذهب الشيعي، يظهر ذلك على

¹ انطلق موكب الدّاعي من معسكره بوادي الرمل بعد أن وافاه خبر فرار زيادة الله، فسلّك طريق القيروان حيث استقبله الشيوخ و الفقهاء وهنّأوه بما فتح الله له، وصحبوه إلى العاصمة رقادة التي دخلها في مستهلّ رجب من سنة 296هـ، ينظر القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، مصدر سابق، ص244، 245. ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق. ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص150. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص46. المقرئزي: اتعاظ الخفاء، مصدر سابق، ج1، ص63.

² تشير المصادر الإباضية بأنّ الدّاعي وجيشه وجدوا بتيهت صومعة مملوءة كتباً (مكتبة المعصومة)، فاستخرجوا منها كتب الفلك والحساب وأضرموا النار في كتب الفقه والعقيدة، وهذه -إن صحت الرواية- نية ميّنة للقضاء على كلّ ما يخالف التّوجه المذهبي الاسماعيلي، ينظر أبو زكريا: سير الأئمّة و أخبارهم، مصدر سابق، ص170.

³ حفلت كتب التراجم والسير باختلافات كبيرة في نسبه، منها ما أثبتت نسبه لعلي وفاطمة، ومنها التي طعنّت فيه ونفت عنه النسب الفاطمي، بل ذهب آخرون إلى أنّه من اليهود المندسين، وحسب إحدى الروايات الشيعية التي تؤيدها بعض المصادر السنيّة كابن الأثير وابن خلدون، فإنّ ترجمته كالآتي: هو أبو محمد عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدّق بن محمد المكنوم بن اسماعيل بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، باني المهديّة ومؤسس الدولة الفاطمية التي حكمت إلى جانب المغرب مصر والشام، ولد بسلامية من بلاد الشام، وقيل بالكوفة وقيل ببغداد سنة 259هـ وقيل سنة 260هـ، وبويع بالخلافة في رقادة والقيروان سنة 297هـ، وتوفي بالمهديّة سنة 322هـ، للمزيد ينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج3، ص117، ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص206. المقرئزي: كتاب المقفّي الكبير، تح محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ/1987م، ص53. حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: عبيد الله المهدي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1366هـ/1947م، ص143 وما بعدها.

⁴ كان وصول عبيد الله وابنه إلى رقادة في موكب مجيئ تجلّت فيه مظاهر الأبهة والعظمة، في 20 ربيع الآخر سنة 297هـ، ينظر ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص158. المقرئزي: كتاب المقفّي الكبير، مصدر سابق، ص87. سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي من الفتح، مرجع سابق، ج2، ص596، 597.

سبيل المثال في إغفاله الدّعاء للمهدي على المنابر، وعدم نقش اسمه على العملة، وحظر على الجنود الكتامية نهب الأموال في رقادة والمدن المفتوحة، لكن ولما خرج إلى سلجماسة واستخلف أخاه أبا العبّاس على إفريقية، أطلق هذا الأخير يد القاضي الشيعي "محمد بن عمر المروزي"¹، فعنّى وتجرّ وقوي أمره، وكانت أيتامه عصبية على أهل السنة. غير أنّ القراءة الموضوعية لبعض الروايات -السّنيّة ذاتها- تجعلنا نذهب إلى أنّ التشييع في هذه المرحلة لم يكن -على العموم- بالإكراه والفرض، وإنّما كان عن طريق الحجّة والإقناع، يظهر ذلك جليّاً فيما رواه التّويري من أنّ أبا العبّاس الشيعي -الأخ الأكبر للدّاعي- لما وصل القيروان وأراد أن ينفي عنها من خالف مذهبه، نهّاه أخوه أبو عبد الله وقال له: "إنّ دولتنا دولة حُجّة وبيان وليست دولة قهر واستطالة، فاترك النّاس على مذهبهم."² وأنكر عليه قائلاً: "قد أفسدت علينا من أمر البلد وأهله ما كانت بنا حاجة إلى إصلاحه"³، وذلك لما بلغه ما فعله من سجنٍ وقتلٍ وصلبٍ وتشهير بالفقيهين المالكيين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن برزون⁴، وأبي بكر بن هذيل، ويعضد رأينا أيضاً ما سجّله المالكي في رياضته من أنّ القاضي المروزي أرسل في طلب العلماء مدينهم وعراقيهم (أي علماء المالكية والحنفية) وقال لهم: إنّّي أمرت أن أناظركم في قيام رمضان، فإن وجبت لكم الحجّة رجعنا إليكم، وإن وجبت لنا رجعتم إلينا⁵. وقد نقل لنا "الخشني" في طبقاته أربعة مجالس للمناظرة، واجه فيها الفقيه المالكي "ابن الحدّاد"⁶ كلاً من الداعي أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العبّاس المخطوم، وقاضيهما المروزي، تباينت مواضعها بين الأصول والفروع، ولعلّ أبرزها قضيّة أفضلية الإمام علي، ومكانة السنة من

¹ - محمد المروزي: هو محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المروزي، نسبة إلى "مرو الروذ" على الحدود بين أفغانستان و إيران، كان معتقداً لمذهب الشيعة من قبل، فلمّا دخل الدّاعي أبو عبد الله القيروان بادر إليه و دخل في دعوته و لزمه، فولّاه قضاء إفريقية في مستهلّ شهر رمضان سنة 296هـ، و لما قدم عبّيد الله المهدي من سلجماسة أقرّه على القضاء، ثمّ وشي به إلى المهدي فعزله و عدّبه و أمر برميّه في إسطل للحيوانات فمات تحت غفس الدواب سنة 301هـ، و يروى عنه أنّه كان يقول: "عصيت الله فيكم، فسأطكم عليّ"، ينظر الدّباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص ص290، 293. المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص 54 وما بعدها. عماد الدين إدريس (ت872هـ): عيون الأخبار، تح محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ص140.

² - ينظر التّويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، ط1، 1423هـ، ج28، ص99.

³ - ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص155.

⁴ - الخشني: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص215، 216.

⁵ - المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص60.

⁶ - سعيد الحدّاد (ت302هـ/915م): هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح الغساني المكنى بابن الحدّاد، من أهل القيروان ويعرف عند عوامهم بـ "سعيد الحدّاد"، أخذ الفقه عن سحنون، وكان أستاذاً في غير ما فن، وإن كان الجدل أغلب الفنون عليه، وله مؤلفات كثيرة؛ منها توضيح المشكل في القرآن، وكتاب الأمالي، وكتاب عصمة النّبيين، وكانت وفاته في ذي القعدة من سنة 302هـ، ينظر المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص57. السيوطي: بغية الوعاة، مصدر سابق، ج1، ص589.

التشريع، وصلاة التراويح، وأفضلية المعلم على المتعلم، وتقديم الفاضل على المفضول وغيرها...¹ حتى ذهب المؤرخ الجزائري عبد الرحمان الجيلاني - وإن كنا نختلف معه في التعميم- إلى أنّ مذهب الشيعة لم ينتشر بأرض المغرب عن طريق الإرغام أو العنف أو الإكراه، وإنما اعتنقه من اعتنقه عن طوعية وموافقة.²

2. عبيد الله المهدي ومحاولة طمس المذهب المالكي (297-322هـ/910-934م):

على النقيض من سياسة الدّاعي تماماً تروي لنا المصادر السنيّة ما أظهره الخليفة الفاطمي الأوّل عبيد الله المهدي (297-322هـ) من إظهار التشيع القبيح ونشر مذهبه بين الناس بالترهيب، فيروي لنا ابن الأثير أنّه غداة الانتهاء من صلاة أوّل جمعة له بجامع القيروان³، جلس ومعه رئيس دعائه وأعوانه، وأحضروا الناس قسراً، و دعّوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه ومن أبي حنيس وقُتل⁴، كما أمر الأئمة والخطباء منهم بأن تزداد في الأذان بعد (حي على الصلاة) (حي على خير العمل)، وأسقط من أذان الفجر (الصلاة خير من النوم). وأمر بصيام يومين قبل رمضان، والقنوت في صلاة الجمعة، والجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة⁵، والصلاة في الخطب على علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين بأثر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم⁶، وثبتت على قضاء قضاء مدينة القيروان "المروزي"، فقعد في الجامع وأمر بإسقاط صلاة التراويح⁷ في شهر رمضان وأجبح في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الاقتداء بفعل عمر بن الخطاب في صلاة القيام، وتركهم الاقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة حي على خير العمل في الأذان، وقال لهم: (أعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول)، وأمرهم بأن لا يفتوا ولا يكتبوا وثيقة إلّا من تشرك (أي تشيع)، وأمر أن يُزال من المساجد والحصون اسم الذي بناها، ويكتب عليها اسم المهدي⁸، وقام بعزل إمام الصلاة في جامع رقّادة - وكان مالكيًا - عندما أبا التشيع وأخذ

¹ ينظر الخشني: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص199 و ما بعدها. كما أورد هذه المناظرات حسني إبراهيم حسن على شكل ملاحق في كتابه: عبيد الله المهدي، ص333 و ما بعدها.

² عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص303.

³ جمعة الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة 297هـ، وهي الجمعة التي بويع فيها بالخلافة، ولقب فيها نفسه بالمهدي أمير المؤمنين وأمر بالدّعاء له في منابر رقّادة والقيروان والقصر القديم، ينظر القاضي التّعمان: افتتاح الدعوة، مصدر سابق، ص299.

⁴ ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج6، ص598.

⁵ ابن حمّاد: أخبار بني عبيد، مصدر سابق، ص50.

⁶ ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص151.

⁷ أشار المقدسي إلى تعطيل أبي عبد الله الداعي صلاة التراويح منذ قدومه أرض كتامة، وأنّه لما جاء شهر رمضان. قال للشيخ الذي استضافه: إن رمضان قد جاء ومذهبنا أن لا تصلي التراويح لأنّها ليست من سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما سنّها عمر ونحن نطوّل القراءة في صلاة العشاء الأخيرة، ونقرأ بالسور الطوال، فيكون ذلك عوضاً عن التراويح، ينظر المقدسي: عيون الروضتين، مصدر سابق، ج1، ص127.

⁸ المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص55، 56.

البيعة من أحد دعائه¹، ويذهب ابن عذارى إلى الأفضل من ذلك عندما نصّ أنّ عبيد الله المهدي سبّ أصحاب النبي وزوجاته إلّا عليّاً والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي - رضي الله عنهم - ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكرنا²، وفي سنة 317هـ/929م وشى بعض الشيعة بـ"عروس المؤدّن"³ بأنّه لم يقل في آذانه "حيّ على خير العمل" فأمر المهدي بقطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف وطيف به ثم قُتل⁴، ومن عظيم ما فعل أن بادر إلى قتل أبي عبد الله الدّاعي وأخيه أبي العباس المخطوم⁵، وتتبع أنصارهم من الكتاميين بالقتل حتّى أفناهم، فلا غرابة أن شبّهته المصادر بالسّفاح من خلفاء بني العباس⁶، بل ووصفته بالزنديق والخبث الذي يعمل على هدم الإسلام متستراً بالتّشيع⁷، ولعلّ بناءً للمهدية⁸ وانتقاله إليها يُفسّر بعدم شعوره بالاطمئنان وهو يقيم بين ظهري مالكية رقّادة و القيروان، و هو ما عبّر عنه عندما استقرّ بعاصمته الجديدة قائلاً: "اليوم أمّنت على الفاطميات"⁹.

3. القائم بأمر الله وبداية الصراع العسكري مع فقهاء المالكية: (322-334هـ/934-946م)

بعد وفاة عبيد الله¹⁰ تولّى الخلافة ولده أبو القاسم محمّد¹، فتلقّب بالقائم بأمر الله، ويذكر صاحب الاستبصار أنّه أنّه سار على نهج والده وأظهر مذهبه وسماه مذهب أهل البيت نسبة إلى جعفر ابن محمد الصادق وإلى علي بن

¹ - ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص189.

² - ابن عذارى: المصدر نفسه، ج1، ص159.

³ - المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص152.

⁴ - ينظر الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص5.

⁵ - كان قتلها يوم الاثنين الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان و تسعين ومائتين، أي بعد عام واحد من قيام الدولة الفاطمية، و تروي المصادر أنّ المهدي اختار عروبة بن يوسف و أخاه حباسة للقيام بالمهمّة، و كانا من وجهاء كتامة، و أنّه لما حمل عروبة على أبي عبد الله، قال له لا تفعل، فردّ عليه: "الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك"، و يذكر القاضي التّعمان أنّ المهدي ترخّم على أبي عبد الله و ذكره بخير، و لعن أبا العباس و قال فيه سوءاً، ينظر المقرئ: كتاب المقفّي الكبير، مصدر سابق، ص90. القاضي التّعمان: المجالس والمسائرات، تح الحبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص ص20، 22. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج2، ص192. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القلم والحديث، مرجع سابق، ج2، ص133. ابن حمّاد: أخبار ملوك بني عبيد، مصدر سابق، ص43.

⁶ - المقرئ: اتعاظ الخفاء، مصدر سابق، ص94.

⁷ - أبو شامة المقدسي (ت665هـ): عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ج2، ص215.

⁸ - المهدية: شبه جزيرة متّصلة بالبرّ مثل هيئة كفّ متصلة بزنادها، كانت تسمّى جزيرة الخلفاء، بناها المهدي سنة303هـ، واختارها عاصمةً للملكه، للمزيد ينظر ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق، ج1، ص71. المقرئ: اتعاظ الخفاء، مصدر سابق، ج1، ص70. سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي من الفتح، مرجع سابق، ج3، ص ص91، 97.

⁹ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج6، ص641.

¹⁰ - كانت وفاته في ربيع الأول سنة322هـ من دواء سقاه إياه ابن الجزّار لنقرس كان بشكوه، و كشف القمر ليلة وفاته كسوفاً كلياً، و تروي بعض المصادر أنّ القائم أخفى وفاة والده شهراً و قيل مائة يوم و قيل عاماً، للمزيد ينظر ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص206. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص51. بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الاسلامي خلال القرن الرابع الهجري،

أبي طالب -رضي الله عنه-، والذي منه توريث البنت إذا انفردت بجميع المال كله، خلافا للمذاهب السنية التي تعطيها النصف مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ (سورة النساء الآية 11). وأسقط الرجم عن المحصنين في الزنا، وأسقط المسح على الخفين، وأسقط من أذان الصبح «الصلاة خير من النوم» و زاد في الأذان «حي على خير العمل، وعلى خير البشر»، وجعل الصوم والفطر بالعلامة لا بالرؤية فيأتي قبل صوم المسلمين بيوم وقبل فطرهم بيوم في أكثر الأعوام. وأحل المطلقة ثلاثا، وأسقط أيمان الحرج. وأمر ألا يقيم الحد أحد إلا أبوه أو ابنه أو أخوه أو قريبه. ثم أمرهم بجهاد ومحاربة من خالف مذهبهم²، وعمل على فرض آرائه بالقوة والعنف، وضيق على المالكية، وزاد في اضطهادهم، فمن تكلم منهم عذب وسجن، أو قُتل وتُكَلِّ به، حتى أنّ النصوص المصدريّة -لأسيما السنية منها- كانت تصوّره لنا وكأنّه المسؤول عن التطرف الذي أبدته الدولة الفاطمية ضدّ معارضيها، وأنّ عهده اتخذ طابعا حرييا صرّفا، مبرّرين ذلك بالثورات التي شهدتها المنطقة في خلافته والتي من أبرزها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى³ التي غطّت على أغلب أحداث فترة حكمه وشغلت المؤرخين عن غيرها من الأحداث، خاصّة وأنّها كانت -على ما يبدو- الفرصة الذهبية لرجالات المذهب المالكي للانتفاضة ثأرا وانتقاما، وسنأتي فيما يلي على أهمّ محطات هذه الثورة وما أسفرت عليه من نتائج تهم الحياة المذهبية ببلاد المغرب:

دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2003م، ص120. ابن حمّاد: أخبار ملوك بني عبيد، مصدر سابق، ص49. المقرئ: كتاب المقرئ الكبير، مصدر سابق، ص118.

¹ - القائم بأمر الله الفاطمي: هو أبو القاسم (وقيل أبو العباس) محمد بن عبيد الله، ولد بسلمية من بلاد الشام سنة 277هـ وقيل سنة 280هـ، بوع بالخلافة بعد وفاة والده، وله من العمر سبعا و أربعين سنة، فأظهر من العزم والحزم ما لم ير مثله، و توفي بالمهدية في شوال من سنة 334هـ، و كانت مدّة حكمه اثنتي عشرة سنة و بضعة أشهر، للمزيد ينظر المقرئ: اتعاظ الخنفاء، مصدر سابق، ج1، ص74. ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص218. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج5، ص19.

² - مؤلف مجهول: الاستبصار، مصدر سابق، ج1، ص205.

³ - أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى (270-336هـ/884-948م): هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد اليفرنى الزناتي، كان أبوه كيداد من أهل قسطلية من مدائن بلد توزر، وكان يختلف إلى بلاد السودان بالتجارة، ولد أبو يزيد ونشأ بتوزر، و قيل بقلعة "سدادة" من أعمال "تقيوس"، وتعلم القرآن وخالف النكارية من الخوارج، فمال إلى مذهبهم وأخذ به ثم سافر إلى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان، ولما صار الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي انتقل هو إلى تقيوس، وأقام يعلم فيها، ولما مات المهدي خرج بناحية جبل أوراس، وركب الحمار وتلقّب بشيخ المؤمنين، ودعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمية... يراه الشيعة و مؤرّخوها لعينا دجالا، و يراه الإباضية أحد المفسدين في الأرض، للمزيد عن ترجمته ينظر ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص216. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص52. أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، مصدر سابق، ص122، الدرر جيني: طبقات المشايخ بالمغرب، مصدر سابق، ج1، ص96. القاضي النعمان: المجالس والمساربات، مصدر سابق، ص73. المقرئ: اتعاظ الخنفاء، مصدر سابق، ج1، ص75. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مرجع سابق، ج2، ص145.

R. Le Tourneau: **La revolte du Abu-yazid au X^{em} siècle**, Les cahiers de Tenisie, revue de science humaines, T I, 1^{er} trimestre, 1953, p105.

أ - رغم أنّ جُلَّ المؤرّخين يؤرّخون لبداية حركة أبي يزيد بخلافة القائم بأمر الله، و تحديد شرارتها بسنة 332هـ/944م، إلّا أنّ خيوط هذه الثورة -في الحقيقة- بدأت تُنسج منذ عهد أبيه "المهدي"، فاعتباراً من سنة 316هـ/928م و بعد عودة القائم فرحاً مسروراً بنجاح حملته التأديبية على المغرب الأوسط¹، بدأت بشائر حركة أبي يزيد في بلاد الزاب وما والاها من بلاد الجريد تلوح في الأفق، ويقدم لنا ابن خلدون تفاصيل هامّة عن هذه المرحلة²، منذ أن ظهر الرجل كمعلم للصبيان وأمر بالمعروف على مذهب النكّار³ في مدينة تقيوس -من أعمال قسطنطينية- ثمّ فراره إلى المشرق و عودته إلى توزر سنة 325هـ/937م والقبض عليه، إلى تخليصه من السجن ولجؤه وصاحبه أبي عمّار الأعمش إلى منطقة النوات النكارية بجبل الأوراس سنة 326هـ/938م، وأخذ البيعة لزعماء الحركة سنة 331هـ/943م⁴.

ب - حتّى وإن بدا ظاهر الصراع في هذه الثورة مذهبي صرفاً، تحالف فيه أهل السنة (المالكية خصوصاً) مع الخوارج (النكّار) الذين اعتبروهم أهل قبلّة، بل ولقّبوا أبا يزيد بشيخ المؤمنين⁵، ضدّ الشيعة العبيديين الكفّار على حدّ قول فقهاء المالكية⁶، إلّا أنّ هذه الحركة لم تكن تخلو من طابع الصراع القبلي المتجدّد بين زناتة البترية من جهة و بربر كتامة وصنهاجة من جهة ثانية.

ج - إنّ مشاركة فقهاء المالكية⁷ في هذه الثورة أضفى عليها المشروعية، بل وأكسبها الصبغة السنيّة، وأزال عنها النزعة الخارجية، ذلك أنّ أبا يزيد أظهر الترخّم على أبي بكر وعمر، وحثّ أتباعه على قراءة مذهب مالك و الالتزام به، وكان يستند في تطبيق قواعد الشرع على الكتاب والسنة⁸، ويراقب تنفيذها بواسطة الاحتساب على

¹ - يذكر الداعي إدريس أنّ أبا القاسم رجع من المغرب الأوسط إلى المهديّة في رمضان من سنة 316هـ، و جلس مع المهدي في القصر الكبير، و الناس تتوافد عليهم و تهتّفهم بالتصّر الكبير، ينظر عيون الأخبار، مصدر سابق، ص230.

² - ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص52 وما بعدها.

³ - النكّرية: هي فرقة منشقة عن الإباضية بعد وفاة عبد الرحمان بن رستم، و هم أتباع يزيد بن فنين أبو قدامة، و سمّوا كذلك لإنكارهم إمامة عبد الوهاب بن رستم، و يسمّون أيضاً بالنكائية لكنّهم يبيّعون الإمام عبد الوهاب، كما يسمّون باليزيدية نسبة إلى يزيد بن فنين، ينظر ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، مصدر سابق، ص37. الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، المصدر السابق، ج1، ص51.

⁴ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص19 و ما بعدها.

⁵ - ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص217.

⁶ - كان فقهاء المالكية يشبّهون بني عبيد بالمجوس الكفّار لا تحلّ منّاكتهم وميراثهم، ينظر الدبّاغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص34.

⁷ - أوّد أنّ أشير هنا إلى أنّ المصادر الشيعية ككتب النعمان و كتاب عيون الأخبار للداعي إدريس قدّمت لنا تفاصيل مهمّة عن ثورة أبي يزيد، إلّا أنّها لم تقدّم لنا أيّ معلومات عن مشاركة فقهاء المالكية فيها، و يعتبر ابن عذاري -الذي ينقل عن الرقيق القيرواني و ابن سعدون- من أبرز المصادر السنيّة التي ركّزت عن أخبار فقهاء المالكية في هذه الحركة.

⁸ - غير أنّ الرجل و أصحابه أظهروا خلاف ذلك بعد أن مكّنهم الله من الاستيلاء على مدن إفريقية، و دخلوا القيروان سنة 332هـ، فعاثوا في الأرض فساداً و سفكوا الدماء و قتلوا المخالفين و استباحوا نساءهم و شقّوا بطون الناس أحياء بحثاً عن الأموال... ينظر ابن حمّاد: المصدر السابق، ص56. عبد الله جمال الدين: الجيش في الدولة الفاطميّة،

الولاية والعمال وعامة الناس، كما أنّ إشراف الفقهاء على العملية التنظيمية، بداية بالتعبئة وتجهيز العامة على الشيعة من خلال الخطب واستظهار الأحاديث التي تدعو إلى الجهاد ضدّ الرافضة¹، مروراً بالمؤتمر الذي عُقد بقيادة أبرز فقهاء المالكية الذين حملوا -بالقيروان- بنود المعركة السبعة²، كأبي الفضل عباس الممسي³ (ت333هـ/945م)، وأبي إسحاق السبائي⁴ (ت356هـ/967م)، وأبي العرب تميم⁵ (ت333هـ/945م)، وربيح القطان⁶ (ت334هـ/946م)... وصولاً إلى خطبة الجمعة التي ألقاها خطيبهم المالكي أبو إبراهيم أحمد بن أبي الوليد التي أعلن فيها البراءة من الفاطميين، وشهّر بجرائم حكامهم⁷، فكان ممّا قال: "اللهم إنّ هذا القرمطي الكافر المعروف بعبيد الله، ادّعى الربوبية من دون الله، فانصرنا اللهم عليه، وأرحنا من دولته، وأهلك اللهم شيعته وشتّت دولته"⁸، وهكذا كان للفقهاء النصيب الأوفر في تجييش العامة ودفعهم إلى الثورة، كما كان لهم الفضل الأكبر في الانتصارات التي حقّقها أبو يزيد، والحواضر التي استخلصها كالقيروان وسوسة ورقادة، ما جعل القائم -كما يقول ابن عذارى- يمكث في المهديّة محصوراً، وبها يموت محسوراً، وفي نفسه مقهـ

د - أثبتت نهاية المعركة مدى قوّة وشعبية المذهب المالكي¹⁰ سواء على مستوى النخبة أم على مستوى العامة،

¹ - يقول القاضي عياض بأنّ الفقهاء شقوا القيروان، ينادون بالجهاد، وقد شهروا السلاح، وأعلنوا بالتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، والترحم على أصحابه، وأزواجه رضي الله تعالى عنهم. فاستنهضوا الناس للجهاد، ورغبوهم فيه... ينظر: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج5، ص305.

² - عن البنود السبعة؛ ألوانها وحاملها وما كتب عليها ينظر الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص32، 33.

³ - حكى عنه المالكي أنه كان يرى أن الخروج مع أبي يزيد و قطع دولة بني عبيد فرض لازم، لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الاسلام و يثرون ويورثون، أما بنو عبيد فليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الاسلام، فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم... ينظر المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص297، 298.

⁴ - كان من أشد الناس بغضا للشيعة، و مما روي عنه قوله إنا والله نشمر ونجد في قتال اللعين المبدل للدين. فلعن الله أن يكفر عنا بجهادنا، تفرطنا وتقصيرنا عن واجب جهادهم... ينظر القاضي عياض: المصدر السابق، ج5، ص305.

⁵ - أبو العرب: الفقيه المؤرخ، صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية، و هو الذي حسم الأمر لما اختلف الناس في شرعية الخروج على الفاطميين، فتلا عليهم حديث الرسول صلى الله عليه و سلم: "يكون في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة، فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم كفار"... ينظر المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص309.

⁶ - يذكر القاضي عياض في ذكر أخباره و فضائله أنه قد جعل على نفسه ألا يشبع من طعام و لا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد، فحنم الله له بالشهادة في قتالهم، ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج5، ص313.

⁷ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج5، ص306.

⁸ - ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص285. الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص33.

⁹ - ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص285.

¹⁰ - و هو ما استخلصه الفاطميون أنفسهم، فما كان منهم إلّا أن غيروا سياساتهم تجاه المذهب المالكي و رجالاته، الشيء الذي سنقف عليه بداية من عهد المنصور ثالث خلفائهم.

ذلك أنّ من أهم أسباب هزيمة أبي يزيد هو تخلي المالكية عليه ومفارقتهم له بعد مقولته الشهيرة لأصحابه أثناء حصار المهديّة في رجب سنة 333هـ/945م: "إذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان حتّى يتمكّن أعداؤهم منهم، فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن فنستريح منهم"، وهو ما لم يتفطن له فقهاء المالكية، لأنّ العلماء - كما يقول ابن خلدون - من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها¹، وأنّ من يسلك منهم - أي العلماء - طرق الذين الذين يذهبون إلى القيام على أهل الجور ويكثر أتباعهم من الغوغاء والدّهماء، فإنّهم يعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك²، فكان أن قُتل في تلك الواقعة - فعلا - كثيرٌ من خيرة علماء المالكية و فقهاءهم، منهم الممسي و ربيع القطان³

4. المنصور بالله⁴ وازدواجية التعامل مع المالكية: (334-341هـ/946-952م)

-تولّى الخلافة بعد وفاة والده سنة 334هـ/946م، غير أنّه لم يتسمّ بأمر المؤمنين، وكتّم الوفاة خوفا أن يصل ذلك إلى أبي يزيد فتقوى عزيمته، وبقيت كتبه تنفذ: من الأمير إسماعيل وليّ عهد المسلمين، ولما كانت سنة ست وثلاثين أظهر موت أبيه⁵ بعد أن قضى على أبي يزيد وثورته⁶، وتسمّى عامها بأمر المؤمنين⁷. وبني عاصمته الجديدة "المنصورية"⁸ نسبة إليه، وربّما تيمّنا بالنصر الذي حقّقه على أبي يزيد⁹

¹ - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص745.

² - المصدر نفسه: ج1، ص200.

³ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، المصدر السابق، ج5، ص306.

⁴ - المنصور بالله الفاطمي: هو أبو العباس و قيل أبو الطاهر إسماعيل بن أبي القاسم محمد، و أمّه أمّ ولد وتسمّى كريمة، ولد بالمهديّة وقيل بقرادة القيروان سنة 299هـ و قيل سنة 302هـ، و قيل سنة 301هـ، تولّى الخلافة بعد وفاة والده، و كان عمره إذ ذاك 32 سنة، عرف بالشجاعة و البلاغة و الفصاحة، و توفي سنة 341هـ، فكانت خلافته سبع سنين، ينظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص218. ابن حمّاد: أخبار ملوك بني عبيد، المصدر السابق، ص59. المقرئ: كتاب المقفّي الكبير، مصدر سابق، ص142.

⁵ - للاطلاع على الخطبة التي أعلن فيها المنصور عن وفاة والده ينظر الجوزري، أبو علي منصور: سيرة الأستاذ جودر، تق و تح محمد كامل حسين و محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ت، ص55، 56.

⁶ - دامت المواجهات بين المنصور وأبي يزيد زهاء العشرين شهرا بين كّر و فّر، إلى أن تمكّن المنصور من القضاء عليه في موقعة "كيانة" بالمغرب الأوسط بعد حصار و حروب شديدة دامت من غرة رمضان 335هـ إلى المحرم من سنة 336هـ، حيث توفيّ أبي يزيد مشحنا بجراحه، فأمر المنصور بسلخه و حشو جلده تبنا، و طيف به في البلاد، ثمّ صلب، ينظر القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، مصدر سابق، ص333، 334. الداعي إدريس: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص451، 452. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدام والحديث، مرجع سابق، ج2، ص148.

⁷ - المقرئ: كتاب المقفّي الكبير، المصدر السابق، ص144، 145.

⁸ - المنصورية: كانت تسمّى "صبرة" و هي مدينة بينها و بين القيروان نصف ميل، شيدها المنصور سنة 336هـ، وسمّاها المنصورية، واستمرّ عليها الاسمان إلى الآن، ينظر ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص219. ابن حمّاد: أخبار ملوك بني عبيد، مصدر سابق، ص61.

⁹ - مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الاسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر، ط2، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د ت، ص176.

ورغم ثراء شخصية المنصور التي ضمنت الدوام للدولة الفاطمية، إلّا أنّها لم تحض بالدراسة مثلما حظيت به شخصية المهدي مؤسس الدولة أو المعز¹ باني القاهرة، ومع ذلك فإنّنا وقفنا على رأيين متناقضين في تعامله مع المخالفين له من أصحاب المذهب المالكي أو الخوارج؛ رأي يصوّره برجل التوافق، الحكيم المعتدل، المصافح المتواضع، ويلخّصه لنا المقرئ في قوله: "...استفتح أموره -أي المنصور- بإطلاق المحبوسين الذين حبسهم القائم بسبب القدح في الدولة... ووجه مراكب كثيرة مشحونة بالطعام إلى الفقراء لِمَا قاسوه من حصار أبي يزيد... وأقرّ الأمور على حالها ولم يغيّر السكّة ولا البنود..."²، كما يعضّد هذا الرّأي ما قام به المنصور من إكرام لأسرة أبي يزيد وعدم الانتقام منها³، ثمّ أنّه أوصى بالإحسان للأسير أبي يزيد ذاته، -وهو الدّ أعدائه- بعد أن كساه وسلّمه وسلّمه لحراسة جعفر بن علي الحاجب⁴، أمّا الرّأي الثاني فيصف الرجل بالبطش و الطغيان، و أنّ أفعاله مع مخالفه لا تمتّ للإسلام بصلة، مستدلّين على ذلك بما فعله مع ذلك الغلام الذي ثار عليه بجبل الأوراس، بعد أن قبض عليه ابن حمدون صاحب المسيلة و الزاب، والذي تروي المصادر أنّه قام بسلخه حيّاً وحشا جلده قطناً، وجعله في تابوت وكان يصلبه في كلّ موضع يحلّ به⁵، ويلخّص لنا القاضي عياض أّيّامه كما تراها المصادر السنيّة بقوله: "كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتضام والتستّر. كأنهم ذمة. تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة... وعلقت رؤوس الأكباش والحرر، على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة. واشتد الأمر على أهل السنة. فمن تكلم أو تحرك قتل، ومثّل به. وذلك في أيام الثالث من بني عبيد، وهو اسماعيل الملقب بالمنصور"⁶، غير أنّ الدراسة الموضوعية لأّيّام المنصور تجعلنا نقرّ بأنّ ثورة أبي يزيد كانت فاصلاً مهمّاً في عهده، فالمنصور قبلها -في تعامله مع المالكية- ليس كالمنصور بعدها، ومّا يؤكّد أنّه استخلص الدّرس من هذه الثورة تعيينه للفقيه المالكي أبي عبد الله محمد بن أبي منظور(ت337هـ/949م) على رأس القضاء، فسار بالعدل في أقضيته و إشار الحقّ، لا يخاف في الله لومة

¹ - المعز الفاطمي: هو أبو تميم معد بن المنصور أبي الطاهر بن القائم أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله، ولد بالمهديّة و قيل بالحمديّة في رمضان رمضان سنة319هـ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة341هـ، و في عهده انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر حيث العاصمة الجديدة "القاهرة"، و استخلف على بلاد المغرب بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، و توفي سنة365هـ، فكانت مدّة حكمه24سنة، ينظر المقرئ: اتعاظ الخفاء، مصدر سابق، ج1، ص93. ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص221.

² - المقرئ: كتاب المقتى الكبير، مصدر سابق، ص144.

³ - المقرئ: اتعاظ الخفاء، مصدر سابق، ج1، ص83.

⁴ - ينظر ابن حماد: أخبار بني عبيد، مصدر سابق، ص76. الداعي إدريس: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص451.

⁵ - تلقّيه المصادر السنيّة بـ "السلّاخ"، و تروي أنّ شأنه المبالغة في الانتقام من جميع معارضيّه، ينظر ابن حماد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد، المصدر السابق، ص65، 66.

⁶ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج5، ص303.

لائم¹، كما أنّ المنصور أسقط -بعد ثورة أبي يزيد- الجباية والضرائب عن جميع الناس، وأمر عمّاله ألا يأخذوا إلا العُشر والصدقة وفقاً لأحكام الشريعة والسنة النبوية²

5. فقهاء المالكية وفرض الرحيل على المعزّ لدين الله (341-361هـ/952-972م):

تولّى الأمر سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة بعد وفاة أبيه المنصور، وعمره أربعاً وعشرين سنة³، ودامت مدّة حكمه ببلاد المغرب زهاء العشرين سنة بلغت شهرته فيها ما لم يبلغه خليفة فاطمي قبله ولا بعده، كيف لا؟ وهو فقيه الأسرة وعالمها ومُتّعد مذهبها⁴، وهو أول من ملك مصر من الفاطميين⁵، وبني القاهرة التي ارتبط اسمه باسمها، لذلك فلا غرابة أن تصفه المصادر بجبار بيت الشيعة وفخلهم على جميع الأصعدة السياسية والمذهبية والحضارية. عمل المعزّ بسياسة مزدوجة، ما بين فرض الوجود بالمغرب والعمل على الرحيل إلى المشرق، وخاض مرحلته المغربية بساعدين يحمل أحدهما الحزم والترهيب، وبه وجّه الحملات العسكرية إلى المغربين الأوسط والأقصى في محاولة منه لوقف الزحف الأندلسي الأموي المالكي، وإخضاع الثائرين عليه من زناتة ومن حالفها، فبعد الحملة التي قادها بنفسه سنة 342هـ/953م إلى جبال الأوراس وبلاد الزاب، وجّه من القيروان حملة ثانية⁶ إلى "تيهت" "تيهت" بقيادة وزيره جوهر الصقلي على رأس جيش عظيم به كبار القادة، منهم جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة، ويزري بن مناد الصنهاجي صاحب أشير، و انضمّ لهم يعلى بن محمد صاحب المغرب الأوسط⁷، الأوسط⁷، ومن "تيهت" توجهت الحملة إلى كبريات الحواضر المغربية التي قضى فيها جوهر زهاء السنتين لإخضاعها وتثبيت أقدام الفاطميين فيها، وهو الأمر الذي أراد أن يرمز إليه عند عودته إلى المعزّ بالمنصورية حاملاً معه صاحبي فاس وسلجماسة⁸، بالإضافة إلى قلال الماء التي يسبح فيها سمك البحر المحيط، كرمز لوصول الحملة الفاطمية إلى أقصى المغرب، حيث لا يابسة بعد ذلك⁹. أمّا الساعد الثاني فقد كان يحمل الصفح

¹ المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص358.

² الداعي إدريس: عيون الأخبار، مصدر سابق، ص378، 379.

³ المقرئ: اتعاظ الخنفاء، مصدر سابق، ج1، ص93.

⁴ القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، مصدر سابق، ص24.

⁵ ابن عذاري: البيان المغرب، المصدر السابق، ج1، ص221.

⁶ السلاوي الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مرجع سابق، ج1، ص254.

⁷ ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج4، ص59.

⁸ يبدو من روايات القاضي النعمان أنّ المعزّ كان يستبشر خيراً بالقبض على الزعامات البربرية أحياء، ليس للانتقام والإذلال وإشفاء الغليل فحسب، فحسب، بل ومحاولة إعادتهما إلى بيت الطاعة، خاصة صاحبي فاس وسلجماسة "ابن بكر" و"ابن واسول" اللذين كانا يؤرقانه في صحوه ومنامه

⁹ ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج7، ص223.

والإحسان والترغيب¹، وبه واصل المعزّ إرساء الشعائر والطقوس الاسماعيلية، بل واستحدث في إطار سياسته المذهبية أعيادا و احتفالات لم تُقم من قبل، كاحتفالات الختان التي أصبحت تقام في شهر ربيع الأول الذي غدت أيامه: "أيام أعياد و أفراح و مسرّات و هبات لكلّ وجبة و جهة من مملكة أمير المؤمنين من بدو و حضر، و عمّهم فضله و تبينّ عليهم أثره، و ارتفق به أغنياؤهم، وانتعش له فقراؤهم، ودخلت المسرة على أهل كلّ بيت منهم، وكان له أثر جميل لم يسبقه إليه أحد قبله..."²

ورغم التّجارات التي حُققت في عهده، إلّا أنّ الحياة المذهبية لم تصفو له، فلا المذهب المالكي اندثر ولا التشيع الاسماعيلي تجدّر في الأوساط الشعبية، لذلك نجده يوجه القضاة سنة 349هـ/960م إلى أئمة المساجد والمؤذنين يأمرهم ألا يؤذّنوا إلّا ويقولوا فيه: (حي على خير العمل) وأن يقرؤوا (بسم الله الرحمن الرحيم) جهرا في أول كل سورة، ويسلموا تسليمتين، ويكبّروا على الجنائز خمسا ولا يؤخروا العصر، ولا يكبروا بالعشاء الأخيرة ولا تصبح امرأة وراء جنازة، ولا يقرأ العميان على القبور إلّا عند الدفن³. وهو الشيء الذي باح له به "بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي"⁴ -لَمّا استدعاه- حين قرّر المعزّ الرحيل إلى مصر وأراد أن يستخلفه على بلاد المغرب وقال له: "تأهب لخلافة المغرب، فأكبر الصنهاجي ذلك وقال: يا مولانا: أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلني يا مولاي بلا سيف ولا رمح."⁵، فلم يزل به حتّى أجابه، ولمّا سلّم له أمر البلاد قال له: "إن نسيت، ما وصيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدا من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك؛ وافعل مع أهل الحاضرة خيرا"⁶. وهذه -في نظرنا- هي خلاصة السياسة المالية و المذهبية و الإدارية التي أراد المعزّ فرضها في بلاد المغرب في بلاد المغرب، والمتمثلة أساسا في فرض المذهب الاسماعيلي -في المغربين الأوسط و الأقصى- والضرب بيد من حديد على أيادي العصاة منهم، وإغراق أهله

¹ يذكر النعمان بأنّه اقتدى بوالده في الصفح عن العصاة، بل إنّه كان أرفق بالنّاس من والده، ويروي عنه قوله: "من تاب إلينا قبلناه، و من استرحمنا رحّمناه، و من استقلنا أقلناه..." بنظر افتتاح الدّعوة، مصدر سابق، ص335. المجالس و المسامرات، مصدر سابق، ص253.

² القاضي النعمان: المجالس و المسامرات، مصدر سابق، ص558.

³ ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص223.

⁴ بلقين(بلقين) بن زيري(ت373هـ): هو بلقين بن زيري بن مناد الصّنهاجي الحميريّ، سمّاه المعزّ "يوسف" و كتّاه "أبا الفتوح" و لقّبه "سيف الدّولة"، هو أوّل من وليّ إفريقية و المغرب من بني زيري، و بقي بها إلى أن توفيّ سنة 373هـ، ينظر ابن الأثير: المصدر السابق، ج7، ص306. القلقشندي: صبح الأعشى، مصدر سابق، ج5، ص120.

⁵ المقرئزي: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، مصدر سابق، ج2، ص189.

⁶ المقرئزي: اتعاط الخفاء، مصدر سابق، ج1، ص101.

بالضرائب حتى يتجلى خضوعهم الفعلي للدولة إن التزموا، أما عن عدم تولية ذوي القربى فهو الخوف مما قد وقع -فعلا- مع بني عمومته الحمّادين أصحاب القلعة الذين استقلّوا بالمغرب الأوسط عن إفريقية.

6. قراءة في الصراع الفاطمي المالكي:

أ. بين المصادر السنيّة و المصادر الشيعية: إنّ المتأمل في النصوص المصدريّة السنيّة كأخبار ابن حمّاد الصنهاجي أو ترتيب القاضي عياض أو بيان ابن عذارى، يُخيّل إليه أنّ العهد الفاطمي ببلاد المغرب عموما و المغرب الأوسط خصوصا هو عصر المحنة و عصر شهداء المالكية، عصر سيادة البدعة واختفاء السنّة، فلا غرابة أن نجد الفقهاء المالكية يعتبرون أنّ الجهاد ضدّ الشيعة الفاطميين جهادا مقدّسا كجهاد الروم و المشركين بل ويرونهم أسوأ حالا من الكفار، وأنّ الخروج عليهم أفضل من الخروج للرباط في الثغور¹، لكن في مقابل الروايات السنيّة تنفي المصادر الشيعية -التي من أبرزها كتب القاضي النعمان²- ما تُنسب للمهدي وغيره من الخلفاء الفاطميين من غلوّ وتطرّف، وتضرب لنا أمثلة تبين فيها أنّ الأئمّة كانوا يسيرون وفق الشريعة الاسلاميّة دون زيغ أو ضلال، وأنّ الذين أساءوا إلى سمعة الأئمّة هم الدعاة المتطرفون والمنحرفون، ومثال ذلك ما روي عن الداعي أبي الخير في بلاد الأندلس، أنّه كان يقول بأنّ الخمر أحلّ من الماء للشرب والطهور، وأنّ محمّدا ظلم في تحريمها وأحلّ أشياء كانت الخمر خيرا منها³، وقول أحد المنشدين العميان: "إلعنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى"⁴، بل أنّ أحد دعاةهم بالمغرب الأوسط أفصح عن أمره لهم بإظهار التشرّق واستباحة الحرّمات، فكان الرجل يدخل إلى حليّة جاره، فيطأها وزوجها حاضر ينظر إليه ثم يخرج، فيصق في وجهه، ويصفع قفاه ويقول له: تصوّر فإذا صبر غدّ

¹ - موسى لقبال: دور كتامة، مرجع سابق، ص422.

² - القاضي النعمان (ت363هـ): هو المؤرّخ والفقير والقاضي الشيعي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي القيرواني، ولد بالقيروان في العشرة الأخيرة من القرن الثالث الهجري، وتوفي بالقاهرة سنة 363هـ، كان مالكي المذهب ثم انتقل إلى المذهب الاسماعيلي فصار دعامة من دعائم الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر، وهو من أشهر فقهاء عصره، وأكثرهم اتجاها، وأعزهم سادة، إذ لا يكاد يوجد من بين رجالات الدولة الفاطمية من خدم الدعوة الاسماعيلية وعبر عن معتقداتها ودافع عنها وأرخ لأئمّتها مثله، من مؤلفاته الفقهية "دعائم الاسلام" و "الرسالة المذهبية في العقائد الاسماعيلية"، ومن مؤلفاته التاريخية "المجالس والمسائرات" و "رسالة افتتاح الدعوة"... للمزيد ينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج5، ص415. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج12، ص222. القاضي النعمان: شرح الأخبار في ذكر فضائل الأئمّة الأطهار، تح محمد حسين الجلالي، منشورات الأعلمي، بيروت، لبنان، 2006م، ج1، ص17. القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، مصدر سابق، مقدّمة المحقق، ص6 وما بعدها.

³ - روي عن أبي الخير هذا كثير من الغلو و التطرّف حول القرآن و السنّة و أبي بكر و عمر و عائشة، كما عرف بالانحلال الخلقي و ترك الفرائض، وإنكار الحساب و العقاب، و الاستهزاء بمن يصلّون أو يحجّون، لأنهم -حسب قوله- يتعبون أنفسهم، و يقصدون حجارة صماء، و كان يذيع بأنّ قتال فقهاء المالكية أفضل من قتال الأعداء و المشركين... للمزيد ينظر ابن سهل، أبو الأصبع عيسى (ت486هـ): الإعلام بنوازل الأحكام، تح نورة محمد عبد العزيز التويجري، د ت، ط1، 1415هـ/1995م، ص889 وما بعدها.

⁴ - هو حسين الأعمى، نصبه الشيعة بأسواق القيروان للسبّ المسجع، ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج5، ص303.

كامل الإيمان وسمي من الصابرة¹، وبلغ التطرف بهم أن غيَّروا صيغة القسم واليمين² حتى صارت الأيمان تُعقد باسم المهدي على نحو: "وحقّ عالم الغيب و الشهادة، مولانا الذي برقادة"، فبأمثال هؤلاء الدعاة الذين نشروا الإباحية وابتعدوا عن قواعد الشرع، انتشرت الآراء الاسماعيلية المتطرفة التي بلغت إلى حدّ تأليه الأئمة، والادّعاء بأنهم يعلمون الغيب، والصّلاة إلى رُقادة وإلى المهديّة بدل القبلة³، وهو ما رفضه الخلفاء الفاطميون -حسب الرواية الشيعية- رفضاً مطلقاً، فيذكر المقرئزي أنّ المهدي أمر بالكفّ عن طلب التشييع من العامة خوفاً من انتشار الغلو والتطرف، ومن ظهور فتن في حواضر إفريقية⁴، كما أمر بجمع الدعاة الذين نُقل عنهم أنهم كانوا يأكلون لحم الخنزير، ويشربون الخمر في شهر رمضان جهاراً، فسجنهم في المهديّة حتى مات أكثرهم⁵، وفي ذات السياق يقول القاضي النعمان أنّ أحد الدعاة رفع بزعمه نصيحة إلى المهدي، مفادها أن يترك العامة على مذاهبهم على أن يتركوا توريث ذوي الأرحام ويردّوا ذلك إلى بيت المال، فيكون في ذلك توفير للأموال من حيث لا ينكرون، فأنكر عليه المهدي ذلك واستشاط منه غضباً، وأمر بطلبه فائلاً: "ما أراد هذا بما قال إلّا الطعن علينا، وأن نحكم بخلاف ما أنزل الله، وإمّا أقامنا الله جلّ ذكره لنقيم دينه لعباده، لا لنستكثر من دنياهم بما يأتي من غير حلّه"⁶، كما أنّ أبا يزيد الخارجي -وهو من أشدّ أعداء الفاطميين- شهد بهذا في الحوار الذي جرى بينه وبين المنصور حين سأله: "ما الذي اعتددت على أمير المؤمنين - يعني القائم بأمر الله - حين خرجت عليه؟ فقال: كان أبو القاسم كريماً حوله قوم سوء هجّنوه، وأحدثوا هذه القبالات التي فيها الجور على المسلمين، فقامت لذلك مفكراً أريد إصلاح أمور الناس"⁷. ولشدّة ما اغتاض الأئمة الفاطميون من انحرافات دعايتهم، يذكر النعمان عن المعزّ أنّه

¹ - هو الداعي بجبل ونشريس و تبهرت "منيب بن سليمان المكناسي"، و ذكر هذه القصّة ابن عذارى في أحداث سنة 309هـ، ينظر: البيان المغرب، مصدر سابق ج1، ص185.

² - و يذكر ابن عذارى في ذات السياق شعراً لخمّد البديل يمدح فيه الإمام المهدي جاء فيه:

حل برقادة المسيح ... حل بها آدم ونوح

حل بها أحمد المصطفى ... حل بها الكيش والذبيح

حل بها الله ذو المعالي ... وكل شيء سواه ربح

ينظر ابن عذارى: المصدر نفسه، ج1، ص160.

³ - يذكر ابن عذارى أنّ أحمد البلوي - وهو أحد الذين تشرّعوا بإفريقية - كان يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها وهي منه في المغرب، فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة وهي منه في المشرق، صلى إليها وكان يقول: لست ممن يعبد من لا يرى! وكان يتصدى لعبيد الله ويقول له: أرق إلى السماء كم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق! وكان يقول لأهل القيروان في عبيد الله: أنه يعلم سرهم ونجواهم، ينظر البيان المغرب، ج1، ص186.

⁴ - المقرئزي: اتعاظ الخلفاء، مصدر سابق ج1، ص68.

⁵ - ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص186.

⁶ - القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، مصدر سابق ص97.

⁷ - الداعي إدريس: عيون الأخبار، مصدر سابق ص446، 447. القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، مصدر سابق، ص336.

كان يلعن من يدّعي تأليه الأئمة¹، وأنه كان يقول: "والله لو صدق الدّعاة إلينا عنّا، وأدّوا إلى النَّاس قولنا، ولم يتقولوا علينا، ما تخلف أحد عنّا، ممّن يتّبع قولنا، وعرف مذهبنا"².

ب. السياسة الاقتصادية للفاطميين من عوامل تأجيج الصراع الشيعي المالكي: وهي السياسة التي ابتدأها المهدي، و سار على نهجها عمّاله و الأئمة من بعده، ثمّ ختمها المعزّ بوصيته لبلقين الصنهاجي بأن لا يرفع الجباية على أهل البادية، سياسة مبنية أساساً على جمع الأموال بشقّ الطرق والأساليب المشروعة وغير المشروعة، وقد ظهرت ملامحها قبل تقلّد "عبيد الله" الإمامة في رقّادة، وذلك أنّه أثناء عودته من سلجماسه عرّج على "إيكيجان"، فجمع بها الأموال أحمالاً، وصار بها إلى رقّادة³، ولما دخل إفريقية أمّن فقهاءها وأعيانها على أنفسهم وذريهم، وعندما سأله التّأمين عن أموالهم أعرّض عنهم⁴، وأمر بجمع ما كان لزيادة الله من أموال⁵، وفي سنة 305هـ/917م استحدثت ضريبة جديدة تُعرف بـ "التضييع"⁶، كما صادر أموال الأقباس والحصون، واحتكر شراء بعض أنواع السلع الثمينة بأسعار زهيدة أو بدون مقابل، وفي هذا الصدد يقول "البكري" أنّ نوعاً من تمر بسكرة يُعرف بـ "الباري"، "كان عبيد الله الشيعي يأمر عمّاله بالمنع من بيعه، والتحظير عليه، وبعث ما هنالك منه إليه"⁷، أمّا الدعاة ورجال الدولة وعسكرها فقد جُبلوا هم كذلك على نهب أموال الرعيّة والاختصاص بأموال وذريهم فقهاء المالكية الذي تعرّضوا للبطش، وهو ما أشار إليه الجوذري بقوله "وكثر امتداد أيادي العسكريين إلى نهب غنائم الرعايا المعتصمين بالطاعة"⁸، كما عُرف الارتشاء واقتناء الأموال عند قضاة الدولة كـ "محمد بن عمر المروزي" و "محمد بن عمران النفطي"⁹. هذا وقد نافح مؤرّخو الاسماعيلية عن هذه السياسة مبرّرين ذلك بحاجة الإمام إلى الأموال ينفقها على رجاله القائمين على إقرار دولته¹⁰، وذهب في ذات الطرح المستشرق الفرنسي "ألفرد بل" الذي أوعز هذه السياسة إلى طموحات الفاطميين ورغبتهم في بسط سلطانهم على المشرق و المغرب،

¹ - عارف تامر: خمس رسائل إسماعيلية، دار الإنصاف، سلمية، سوريا، 1375هـ/1956م، ص43.

² - موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية، مرجع سابق، ص425.

³ - المقرئزي: اتعاظ الخنفاء، مصدر سابق، ج1، ص66.

⁴ - ابن عذارى: البيان المغرب، المصدر السابق، ج1، ص158.

⁵ - المقرئزي: اتعاظ الخنفاء، مصدر سابق، ج1، ص63.

⁶ - التضييع: من الضياع، جمع "ضيعة" أي ضريبة أرض الفلاحة وخراجها، كما استحدث المهدي سنة 309هـ ضريبة على الحجاج، تسمّى ضريبة "الشطور"، ينظر ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص181، 186.

⁷ - البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص180.

⁸ - الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر، مصدر سابق، ص43.

⁹ - ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص188. الخشني: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص239.

¹⁰ - يقول القاضي النعمان أنّ المهدي كان لا يضيّع أقلّ شيء من المال ولا يستهين به أن يذهب، ولا يترك منه واجبا أن يصرف في غير حق، ينظر افتتاح الدعوة، ص304.

مما يستلزم تكوين جيش قوي لا تكفيه أموال الزكاة، فاضطروا إلى فرض ضرائب باهظة تخالفة للشرع و القرآن لم تقبلها العامة إلا اضطرارا، "ومع ذلك بقي في السرّ -أي الشعب- متعلّقا بمذهب أهل السنة ومذهب مالك، خصوصا في المدن الكبرى حيث ظلّ لعلماء المالكية نفوذ¹"

ج. ثبات علماء المالكية: بالرغم مما لقي علماء مالكية المغرب من الاضطهاد و التنكيل ، وما نزل بهم من أنواع العذاب من طرف الولاة و القضاة الشيعة، إلا أنّهم اختاروا المكوث ببلدانهم حرصا على بقائهم إلى جانب العامة وتنبيههم من خطر المذهب الشيعي ودعوتهم إلى الخروج على الحكام الفاطميين واعتبار ذلك جهادا مقدّسا مثل جهاد الروم، فيروي لنا ابن عذارى أنّ أبا يوسف جبلة بن محمود بن عبد الرحمان بن مسلمة الصدي² - كان من أشدّ فقهاء المالكية بغضا وعدوانا للفاطميين- وكان ملازما لرباطه في قصر الطوب بسوسة، فلمّا حلّ المهدي برقادة غادر رباطه، وحين سئل عن ذلك قال: "كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر، والآن حلّ هذا العدو بساحتنا، وهو أشدّ علينا من ذلك³"، وكان يقول للمرابطين في الأربطة: "جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك"، وردّ على بعضهم: "إن عشت سترى من أحكام هؤلاء ما هو شرّ من أحكام الشرك"، ونادى بقوله: "قطعوها قطعهم الله⁴" أي الجمعة، وذلك في أوّل جمعة أقيمت في رقادة و عي فيها لعبيد الله بلقب المهدي أمير المؤمنين، إشعارا منه بمسؤولية الشيعة عن تعطيل صلاة الجمعة، وإيداناً للعامة من المالكية بمقاطعة الجُمع والأعياد التي يُدعى فيها لهم بألقاب الخلافة، فأتت دعواته هذه ثمارها ونجح في ذلك أيّما نجاح، وما حضرها بعد ذلك أحد من أهل العلم، وقد أشاد ابن ناجي (ت839هـ/1436م) بجهوده وأمثاله من مشيخة المالكية، فقال: "جزى الله مشيخة القيروان خيرا، هذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فرتوا لكفرت العامة دُفعة و احدة⁵"

د . الهجرة و التأليف من وسائل معارضة العبيديين: لم تسجّل لنا المصادر إلا هجرة النزر اليسير من فقهاء المغرب الأوسط، سواء إلى الأندلس الأموية أم إلى بلاد المشرق حيث الخلافة العباسية، واختاروا -مع الهجرة- التأليف في شتى العلوم، كنوع من المعارضة و المقاومة الفكرية، فمن حاضرة تيهرت هاجر الفقيه المالكي أبو محمّد عبد الله

¹ - ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، تر عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987م، ص162.

² - ترجمته عند القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص371 وما بعدها. ابن فرحون: الدياج المذهب مصدر سابق، ص103. محمّد الطالبي: تراجم أغلبية مرجع سابق، ص278.

³ - القاضي عياض: ترتيب المدارك مصدر سابق، ج4، ص375، 376.

⁴ - الدّباغ: معالم الإيمان، المصدر السابق، ج2، ص273.

⁵ - الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق: ج2، ص292.

التاهري(ت313هـ/925م)¹، وأحمد بن قاسم التاهري المعروف بالبزاز²، فرّ بدينه -مع والده- إلى قرطبة خوفاً من بطش العبيديين، فولّاه عبد الرحمان الناصر(300-350هـ/913-961م)³ قضاءها، قال عنه أبو عمرو بن عبد البر: وقد لقّيته وسمعت كثيراً منه، وأخبرنا بكتاب "صريح السنة" لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وبكتاب "فضائل الجهاد" له، وبرسالته إلى أهل طبرستان عن أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري عن الطبري⁴، ومنها زكريّا بن أحمد الغساني(ت393هـ/1003م) المعروف بابن الأشجّ، دخل الأندلس مع أبيه سنة326هـ/938م فسمع المدوّنة بقرطبة، وكانت له رحلة إلى مصر سمع فيها من أبي قتيبة مسلم بن الفضل، ولقي أبا الطيب المتنبي الشاعر فأخذ عنه ديوانه، ثمّ عاد إلى قرطبة وحَدّث بصحيح البخاري⁵، والفقيه قاسم بن عبد الرحمان بن عبد الله بن محمد التميمي⁶ الذي رحل إلى الأندلس سنة317هـ وولّاه كذلك الحاكم المستنصر بالله(350-366هـ) القضاء، والقضاء، ومن وهران⁷ الفقيه والقاضي أحمد بن أبي عون⁸ الذي رحل إلى الأندلس سنة341هـ/952م، وسعيد وسعيد بن خلف الوهراني⁹ الذي رحل إلى المشرق وكان محدّثاً على المذهب المالكي، كما هاجر إلى الأندلس الفقيه قاسم بن يونس الضبي(ت370هـ/981م)¹⁰ وإبراهيم بن عبد الرحمان التنسي(ت387هـ/997م)¹¹ وأحمد بن خلوف المسيلي(ت393هـ/1003م)¹² الذي مكث هناك حتّى وفاته، والفقيه أحمد بن علي الربيعي الباغائي(ت401هـ/1011م) نسبة إلى مدينة باغاية بالمغرب الأوسط، كان كثير الحفظ، جمّ الرواية، برع في

¹ - إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب، مرجع سابق، ص316.

² - ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك(ت578هـ): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تص و مرا السيد عزّت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1374هـ/1955م، ص86.

³ - عبد الرحمان الناصر(ت350هـ/961م): هو الأمير الأموي عبد الرحمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الداخل، بويغ بالإمارة سنة300هـ، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة، دام حكمه خمسين سنة، وتوفّي سنة350هـ وعمره 72 سنة. للمزيد ينظر

⁴ - الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى(ت599هـ): بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1967م، ص201.

⁵ - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، مصدر سابق، ج1، ص179، 180.

⁶ - الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ج1، ص332.

⁷ - كانت مدينة وهران حديثة التأسيس وقتئذ، بناها جماعة من الأندلسيين البحرين سنة290هـ، ودخلت في حكم العبيديين سنة298هـ، وكانت تحت عمالة تيهرت، و واليها هو محمد بن أبي عون، للمزيد ينظر البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص738. الملي: تاريخ الجزائر في القدم و الحديث، مرجع سابق، ج2، ص141.

⁸ - ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاءيلبنسي (ت: 658هـ): التكملة لكتاب الصلة، تح عبد السلام المراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، ج1، ص111.

⁹ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر مرجع سابق، ص348.

¹⁰ - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، مصدر سابق، ج1، ص412.

¹¹ - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، مصدر سابق، ج1، ص28.

¹² - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص110.

علوم القرآن فلم يضاهه فيها أحد، قراءة وحفظاً، إعراباً وأحكاماً، ناسخاً ومنسوخاً، وله تأليف في ذلك نحا فيها نحا حسناً¹.

هذا و يعتبر أبو جعفر الداودي² من أبرز الشخصيات المالكية بالمغرب الأوسط، التي عُرفت بعلمها وتأليفها المناهضة لدولة بني عبيد الشيعية و المدافعة عن المذهب المالكي، فقد نصّ القاضي عياض في ترجمته على أنّه كان ينكر على علماء القيروان سكناهم بين ظهرائي بني عبيد³، ولما سُئل عن خطبائهم وثنائهم على أئمتهم والدعاء لهم في الجُمع والأعياد، قال خطيبهم الذي يخطب لهم ويدعو يوم الجمعة كافر، يُقتل و لا يُستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولا يرث ولا يورث ماله في المسلمين، وأحكامه كلّها أحكام كفر، فإن تاب و أظهر النّدم، ولم يكن أخذ دعوة القوم، قُبِلت توبته، ومن صلّى الجمعة وراءه خوفاً، أعاد ظهراً أربعاً، ثمّ لا يقيم بينهم إذا أمكنه الخروج، ولا عذر له بكثرة عيال أو غيره⁴، وتجدد الإشارة أنّ بعض فقهاء المالكية -وهم قلة- تشرّقوا واعتنقوا المذهب الإسماعيلي، إمّا ثقية أو خوفاً من بطش العبيديين، أو طمعاً في تقلّد الخطط والوظائف العامّة، فيذكر لنا الخشني في طبقاته أنّ الفقيه علي بن منصور الصقّار اضطرّه الفقر والإقلال ومحبّة السؤدد إلى أن يتشرّق فحضي بقضاء ميلة⁵.

¹ - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص38. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص360.

² - أحمد بن نصر الداودي (ت402هـ/1012م): هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي المسيلي التلمساني، فالأسدي نسبة إلى قبيلة "الأسد" إحدى القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة إلى بلاد المغرب، و المسيلي مولداً و قيل أنّه ولد ببسكرة و لم تذكر المصادر تاريخ مولده، و التلمساني وفاة، ترجم له القاضي عياض في مداركه، و عدّه في الطبقة السابعة، و عنه أخذ أغلب المترجمين له، نشأ الداودي في أسرة متدينة، و عاش أغلب حياته بين تلمسان و طرابلس الغرب، و كان دأبه التمسك بالسنة و الدفاع عن العقيدة الصحيحة، فكان يلقّب بشيخ الإسلام، و إمام علماء الشريعة المجتهدين، كيف لا و هو الذي تتلمذ على يده الكثير من الطلبة و المريدن منهم عبد المالك البوني و أبو بكر بن محمد بن أبي يزيد و غيرهم، و هو الذي ترك آثاراً -ضاع كثير منها- في العقيدة و الفقه والأصول و الحديث تشهد له بعلوّ كعبه و مكانته عند علماء عصره، منها كتابي "النامي في شرح الموطأ" و "التصحيح في شرح صحيح البخاري" في الحديث و كتاب "الرد على القدريّة" في العقيدة و كتابي "الأموال" و "الواعي" في الفقه، توفيّ الداودي في تلمسان سنة 402هـ و قبره بما عند باب العقبة، فقال فيها المقرّي شعراً:

و من بما أهل ذكاء و فطن.... في رابع من الأقاليم فطن.

يكفيك أنّ الداودي بما دفن.... مع ضجيعه ابن غزلون الفطن.

للمزيد عن ترجمته ينظر القاضي عياض: المصدر السابق، ج، ص102، 103. المقرّي: نفع الطيب، ج5، ص433. ابن فرحون: الديباج، ص35. ابن مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص164. عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ج1، ص361.

³ - يذكر القاضي عياض أنّ الشيخ الداودي كتب إلى علماء القيروان مرة بذلك. فأجابوه أن أسكت لا شيخ لك، أي لأن درسه كان وحده، ولم يتفقه في أكثر علمه عند إمام مشهور، وإنما وصل الى ما وصل بإدراكه، ويشيرون أنه لو كان له شيخ يفقهه حقيقة الفقه لعلم أن بقاءهم مع من هناك من عامة المسلمين تثبيت لهم على الإسلام، وبقية صالحة للإيمان، وأنهم لو خرج العلماء عن إفريقية لشرّق من بقي فيها من العامة الألف والآلاف فرجحوا خير الشرّين، ينظر القاضي عياض: المصدر السابق، ج7، ص103.

⁴ - الداودي: كتاب الأموال، مصدر سابق، ص54.

⁵ - الخشني: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص217.

ج . بين المالكية والأحناف صراع بالوكالة: رغم كلّ التضييقات التي شهدتها فترة الصراع بين السنة و الشيعة، إلّا أن المالكية عموماً تميّزوا عن الأحناف بالتشدد والتماسك والزهد في المناصب والتقرب من السلطان، لذلك أصبح ما أصبح على أيدي المعتزلة في العهد الأغلبي من اضطهاد وتعذيب وملاحقة، بينما تشرّق أكثر الأحناف وأخذوا بمذهب الدولة، فنالوا الحظوة عند الخلفاء واحتكروا الخطط الدينية، والوظائف الهامة في البلاط الفاطمي¹، أمّا المالكية فلم يتشيع منهم إلّا القليل بدافع الفاقة والحاجة أو افتتاناً تحت الضغط والإكراه، ومع كلّ ذلك فقد أفتى علماء المالكية بكفر من اعتنق مذهب العبيديين -ولو مكرهاً-، وهو ما حمل الفقيهين المالكيين ابن هذيل وابن البرذون أن يرفضوا، لما أمرهما عامل القيروان حسن بن أبي خنزير أن يخرجوا إلى الناس ويقولوا إنّنا قد فعلنا (أي الرجوع عن مذهبنا)، واعتلاً بأنّه يقتدى بهما، وقالوا له لعذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة²، وأورد صاحب المعالم أنّ شيوخ المالكية في القرن الرابع الهجري، ومنهم ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م)³ وأبو الحسن القابسي وأبو محمد الضبي وغيرهم لما سئلوا عن المكره في الدخول لمذهب العبيديين، أجابوا بأنّه لا يُعذر أحد في ذلك، لأنّه أقام بعد علمه بكفرهم، وكفرهم ارتداد وزندقة⁴. وهذا ربّما مبالغة منهم، وسدّاً للذرائع، لما فيها من مخالفة صريحة للنص القرآني: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (سورة النحل الآية 106)، والحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه، وصحّحه الألباني، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»⁵، وهو مخالف أيضاً لإجماع العلماء بأنّ المكره يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته⁶

¹ - يشير الأستاذ موسى لقبال إلى أنّ الأحناف قاموا في هذا العصر تجاه المالكية بنفس الدور الذي مثّلوه من قبل في العصر الأغلبي، فكانوا سوط عذاب وعيوناً للنظام على المالكية، ينظر موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، مرجع سابق، ص411.

² - الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص264.

³ - ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م): هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزي القيرواني، الفقيه العلامة الملقّب بمالك الأصغر، وُلد بالقيروان سنة310هـ و بما توفي سنة386هـ، كان إمام المالكية في وقته وقُدوتهم وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، تشهد مؤلفاته بذلك، تتلمذ على فقهاء بلده كأبي الفضل الممسي والأيباني وابن اللباد وأبي العرب، ورحل إلى المشرق فحجّ و سمع من أعلام كثر و تفقّه عنه جمع كثير، من تأليفه "النوادر و الزيادات" و "الرسالة".... للمزيد ينظر ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص222. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج12، ص490، الشيرازي: طبقات الفقهاء، مصدر سابق، ص160. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص143.

⁴ - الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص265.

⁵ - ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت273هـ): سنن ابن ماجه، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ت، ج1، ص659.

⁶ - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ): تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر و التوزيع، ط2، 1420هـ/1999م، ج4، ص606.

د . أمويو الأندلس طرف في الصراع المالكي الشيعي: لعب أمويو الأندلس دوراً هاماً في حلقات الصراع المذهبي الشيعي - المالكي ببلاد المغرب، واتخذوا كلَّ السبل لفرض المذهب السنّي المالكي والتّيل من خصومهم الفاطميين، وإحداث الثغرات في نظامهم، من ذلك ما أقدم عليه عبد الرحمان الناصر من تحويل لنظام الإمارة إلى نظام خلافة كتعبير على النّديّة، وتدعيمه لحركات مغراوة وبني يفرن المعارضة بالمغرب الأوسط، ولا أدلّ على ذلك من تأييده لحركة أبي يزيد، واستقباله لمبعوثين عنها، منهم ابنه "أيوب" في عاصمة الخلافة بالأندلس¹، كما عمل الناصر ذاته على دعم فقهاء المالكية بمصر الإخشيدية²، وأرسل إليهم الأموال والعطايا للوقوف في وجه الدعوة الفاطمية، وإلى جانب هذا، فقد لاقى العلماء والقادة المغاربة -الذين فرّوا من بطش العبيديين- استقبالا حسنا، وهياً لهم الأمويون مقاما جليلا، وأسندوا إليهم خططاً³ ووظائف إدارية هامة، ومن هؤلاء حميد بن يصل المكناسي و ابن عمّه اللذين استقبلا بالجيش والزينة، وكرّم الناصر موردهما، وأجمل موعدهما⁴، ومنهم حمزة ابن ابراهيم صاحب جزائر بني مزغنا⁵، وجعفر ويحيى ابنا علي بن حمدون عمّال إقليم الزاب.

هـ . الولاء الكتامي و الاستخلاف الصنهاجي، تشييع سياسي: حتّى وإن استخلف "المعزّ" -عند عزمه الرحيل إلى مصر- بلقين الصنهاجي على بلاد المغرب، فإنّنا يمكن أن نجزم بأنّ تاريخ التشيع الاسماعيلي بالمغرب الأوسط هو تاريخ قبائل كتامة البرنسية و إنجازاتها لا غير، فهي التي وجد الداعي في مجالاتها الحقل المناسب لبذر حبوبه⁶، وهي التي وجد المعزّ في رجالها خير الأولياء لنقل النفوذ الفاطمي إلى المشرق⁷، ويذكر الأستاذ موسى لقبال أنّ نحو ثلاثمائة ألف كتامي دخلوا رقادة مرّة واحدة مع أبي عبد الله الشيعي، وأنّ نحو مائة ألف منهم صحبوا "جوهر" إلى مصر⁸، غير أنّ التشييع الكتامي في الغالب ليس تشييعاً فقهياً، وإنّما هو سياسي مبني على العصبية القبلية

¹ ابن الأثير: الحلة السيرة، مصدر سابق، ج2، ص390.

² ابن الزيات، شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت814هـ): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1968م، ص190، 191.

³ عن بعض علماء المغرب الأوسط الذين أسندت إليهم خطّة القضاء في الأندلس ينظر الفقرة "د"، مطلب06، المبحث الأول، الفصل الأول

⁴ ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص215.

⁵ دخل على الناصر في قصر الزهراء سنة337هـ، فوصله و أكرمه، ينظر ابن عذارى: المصدر نفسه، ج2، ص215.

⁶ يقول ابن خلدون -في هذا الصدد- أنّ هذا المذهب أي الاسماعيلي كان منتشراً منذ الدعاة الذين بعثهم جعفر الصادق (و هم الحلواني و أبو سفيان)، و تناقله من البرابرة أمم و كان أكثرهم من كتامة، فلما جاء أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي وجد في كتامة من الباطنية -أي الاسماعيلية- خلق كثير فقام على تعليمه و بثّه وإحيائه حتى تمّ الأمر، ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص40.

⁷ ورد عن القاضي النعمان قوله: "سمعت صلوات الله عليه -أي المعزّ- يذكر كتامة و موالاتهم و انطباعهم عن الولاية، فقال عليه السلام: و الله إنّني لأظنّ أنّه لو مثّلت لهم النار و الجحّة، و قيل لهم هذه الجحّة و فيها أعداؤنا -و كلاً لا يكون ذلك- فإنّما أن تكونوا معهم فيها، وإلاّ فهذه النار فادخلوها، لا تخاروا دخولها."، ينظر القاضي النعمان: المجالس و المسامرات، ص203.

⁸ موسى لقبال: دور كتامة، ص611.

المناهضة لقبائل زناتة البترية، ذلك أننا لم نعثر في المصادر على فقيهٍ أو قاضٍ شيعي كتامي غير "هارون بن أفلح الملوسي" الذي ولّاه المهدي قضاء رقّادة¹

و . رحيل المعزّ إيدان برجيل مذهبه: إنّ رحيل الفاطميين إلى مصر هيئاً الفرصة المواتية لانتعاش المذهب المالكي، وزيادة نفوذه السياسي إضافة إلى ما كان يتمتّع به من سلطة روحية واجتماعية في الأوساط الشعبية، فالملاحظ أنّ خلفاء الفاطميين من بني زيري لم يكن لديهم من الرغبة ما يملّي عليهم مواصلة العداء مع رجالات المذهب المالكي الذين أضحووا - شيئاً فشيئاً - يتمتّعون بسلطة سياسية في البلاط الزيري، ابتداء بعائلة الوزير علي بن أبي الرجال² التي كان لها الدور الأبرز في توجيه السياسة المذهبية "للمعزّ بن باديس"³ الذي ما لبث أن أعلن القطيعة مع الفاطميين⁴، واتّخذ من المذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة، وهو ما سنتناوله في المبحث الموالي إضافة إضافة إلى تنامي دور فقهاء المالكية في الجهة الغربية من المغرب الأوسط تمهيداً لقيام دولة المرابطين.

ثانياً: دولة بني حمّاد⁵، مهد المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط:

تعتبر الدولة الحمّادية (398-547هـ/1008-1152م) أول تجربة للدولة المركزية بالمغرب الأوسط، مؤسّسها أخرج البربر من حياة البداوة والخيّام إلى حياة التمدّن والقصور⁶... مجالها غير المفهوم الجغرافي والسياسي لمصطلح المغرب الأوسط⁷... حواضرها كانت مراكز علمية وتجارية تربط المغرب الأقصى وبلاد السودان بإفريقية والمشرق...

¹ - ينظر ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص159.

² - نعت ابن الأثير عائلة الوزير علي بن أبي الرجال ببرامكة إفريقية، ينظر كتابه: إعتاب الكتاب، تح صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط1، 1380هـ/1961م، ص214.

³ - المعزّ بن باديس الزيري: هو المعزّ بن باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مّاد الصنهاجي الحميري، بويغ وهو ابن ثمان سنين، واستمرّ ملكه ملكه بأفريقية وعظم أمره بها؛ وكان منحرفاً عن الرّفص والتشيع، منتحلاً للسنّة، وأعلن ذلك في أول ولايته؛ ثم كان آخر أمره أن خلع طاعة العبيديّين، وقطع الخطبة لهم بأفريقية سنة أربعين وأربعمئة على عهد المستنصر العبيديّ خليفة مصر، وخطب للقائم بن القادر الخليفة العبّاسيّ ببغداد، ينظر القلقشندي: نهاية الإرّاب في معرفة أنساب العرب، مصدر سابق، ج5، ص120.

⁴ - ابن عذاري: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص273 وما بعدها.

⁵ - دولة "بني حمّاد" أو "آل حمّاد" هو الاسم الذي وردت به في أغلب مصادر العصر الوسيط، إذا استثنينا مسالك أبي عبيد الله البكري (ت487هـ) الذي عزّفها بـ"مملكة صنهاجة" نسبة إلى القبيل المتغلّب فيها، ينظر البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص177. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص227.

⁶ - لم تعر قبائل صنهاجة ولا زناتة قبل القرن5هـ/11م اهتماماً كبيراً بالعمران، وحتّى المدن والحواضر التي شيدت في مجالاتها خلال القرنين (4،3هـ/9،4هـ/10م) كانت أغلبها صناعة عربية أو أندلسية مثل ما هو الشأن بالنسبة لمدينتي تنس ووهران اللتان بناهما الأندلسيون، ومدينة المسيلة التي شيدتها الفاطميون، ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص193، ص205. ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق: ج1، ص85.

⁷ - كان المغرب الأوسط حتّى خاتمة القرن 4هـ/10م يعرف بوطن زناتة الممتد من وادي ملوية غرباً إلى وادي الشلف والزاب شرقاً، ومن ساحل شرشال ووهران شمالاً إلى إقليم تيهرت جنوباً، لكن بقيام الدولة الحمّادية صار يضمّ مجالات أوسع، ليصل إلى أقصاه في عهدي التّاصر وابنه المنصور، حيث أصبح يمتدّ إلى ما وراء تلمسان غرباً، ووهران جنوباً، وبونة شرقاً، وهو ما أشار إليه الإدريسي ق6هـ/12م بقوله: "...ومدينة بجاية في وقتنا هي

والمشرق... أمراؤها كما فقهاؤها حملوا على عاتقهم نشر المذهب المالكي والتمكين له فتعدى إشعاعهم بلاد المغرب إلى المشرق و الأندلس... هذا ما سأعرض له بالشرح والتفصيل في النقاط التالية:

1. حماد مؤسس الدولة، وقرار الانفراد بدولة سنية مالكية:

حملت الدولة الحمّادية اسم مؤسسها الأول "حماد بن بلقين"¹ الذي بدأ يظهر على مسرح الأحداث منذ أن عقد له أخوه "المنصور"² -سنة383هـ/993م- على ولاية "أشير"³ و "المسيلة"⁴ وما والاها من بلاد المغرب الأوسط لمواجهة زنّاة وغيرها من الثائرين على حكم بني زيري، ثم فرض نفسه كشخصية قوية أثبتت جدارة كبيرة في الحكم والسياسة⁵ لما أقرّه ابن أخيه "باديس بن المنصور"⁶ على ولاية الجزء الغربي من الإمارة الزيرية وأقطعه "أشير" وأعطاه من الخيل والسلاح والعدد شيئا كثيرا⁷، حتى استطاع بدهائه الوصول إلى إبرام عقد سياسي بينه وبين ابن أخيه سنة395هـ/1005م، وهي السنة التي يُجمع أغلب المؤرخين على أنّها سنة الميلاد الحقيقي للدولة

مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد... ومدينة تلمسان قتل بلاد المغرب"، ينظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، ص250، 260. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص231، 232. الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2020م، ص54.

¹ - حماد بن بلقين (ت419هـ/1028م): هو حماد بن بلقين (بلقين) بن زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر بن صنهاج الأكبر، مؤسس الدولة الحمّادية، و باني قلعها، لم تذكر لنا المصادر تاريخ ميلاده، أمّا وفاته فهي على الأرجح سنة419هـ، نشأ في بيت الأسرة الزيرية الملكي حيث حفظ القرآن الكريم و استوعب تفسيره و هو صغير السنّ، ثم درس علوم الحديث و الفقه و الفلسفة بالقيروان مركز الإشعاع العلمي ببلاد المغرب آنذاك، ينظر عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة في التاريخ الجزائري، مرجع سابق، ص48 وما بعدها.

² - المنصور بن بلقين (ت395هـ/1005م): هو المنصور بن يوسف بلقين بن زيري بن مناد (أخو حماد السالف الترجمة)، بوع بالإمارة في القيروان بعد وفاة والده سنة373هـ، و كانت بينه و بين أعمامه حروب عظيمة، و توفي سنة395هـ، وبوع بعده ولده باديس، ينظر لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تح سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ج2، ص321.

³ - تعتبر "أشير" الحاضرة الأولى للصنهاجيين، و كانت تسمّى "أشير زيري" نسبة إلى زيري بن مناد الذي بناها سنة324هـ، ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص203. الحميري: الروض المعطار، مصدر سابق، ص60.

⁴ - حاضرة "المسيلة" أسّسها أبو القاسم اسماعيل بن عبيد الله سنة323هـ، وتولّى بناءها علي بن حمدون الشهير بابن الأندلسي، بنظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص722.

⁵ - ذكر صاحب الاستبصار أن حمادا كان له دهاء وتجربة في الحروب، و فراسة حسنة وأخبار مشهورة ومحفظة في الذكاء و الفطنة، ينظر الاستبصار في عجائب الأمصار، ص168، و ذكر لسان الدين الخطيب (ت776هـ) أنّ حمادا كان ملكا كبيرا، وشجاعا ثبنا، و داهية حصيفا، قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدال، ينظر لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، مصدر سابق، ج2، ص328.

⁶ - باديس بن المنصور: هو باديس بن منصور (السالف الترجمة)، يكنى أبا مناد، ولقب نصير الدولة، ولد بمدينة أشير سنة374هـ وتولّى الخلافة بعد وفاة والده المنصور، وكان سائسا حازما، شديد البأس، جرت بينه وبين أعمامه وبني عمومته حروب وصراعات عدّة، أبرزها صراعه مع عمّه حماد بن بلقين الذي انتهى بانقسام ملك صنهاجة بين بني زيري في المغرب الأدنى وبني حماد في المغرب الأوسط، توفي باديس سنة406هـ، وبوع بعده لابنه المعز، ينظر لسان الدين الخطيب: أعمال الأعلام، مصدر سابق، ج2، ص322، الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص26. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص29، 30.

⁷ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج7، ص486.

الحمدّية بالمغرب الأوسط¹، يتجلّى ذلك من خلال الشروط التي اشترطها حمّاد على ابن أخيه باديس في هذا العقد، والتي ظهرت فيها بواذر النزعة الانفصالية من خلال نصّها على انفراد حمّاد بولاية أعمال الجزائر الشرقية، وتملّكه لكلّ ما يفتحه من بلاد زناته وغيرها من المناطق غير الخاضعة للدولة الزيرية، إضافة إلى فسح المجال له لبناء عاصمة جديدة يختار موقعها كما يشاء²، فرأى في "القلعة" ما يليّ رغباته، ويحقّق طموحاته إن من حيث موقعها الجغرافي وأهميتها الاقتصادية أو من الجانب القبلي والمذهبي، فمن النّاحية الأولى أعطت لنا تقارير الجغرافيين والمؤرخين العرب وصفا دقيقا عن مقدّراتها الاقتصادية وعلاقاتها التجارية، لاسيما إن قورنت بالكيانات والمدن المجاورة لها³، فهذا أبو عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م) يقول عنها: "وهي اليوم مقصد الرجال، وبها تحلّ الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب"⁴، أمّا الادريسي (ت560هـ/1165م) فقد أسهب أسهب في رصد خيراتها الزراعية وثرواتها الحيوانية وكثرة سكّانها واثرائهم في قوله: "ومدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا، وأكثرها خلقا، وأغزرها خيرا، وأوسعها أموالا، وأحسنها قصورا ومساكن، وأعمها فواكه وخصبا، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سميّة... وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم، والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير، وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف إليها تصلح فيها السوائم والدواب لأنّها بلاد زرع وخصب، وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلّت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة... وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل المذكور طولا وعرضا وأمامها في جهة الجنوب أرض سهلة متصلة الانفراج لا يرى الناظر فيها جبلا عاليا ولا شرفا مطلا إلا على بعد منها وعلى مسير أربع مراحل يرى جبلا لا تبين"⁵، أمّا من النّاحية الثانية -أي الجانب القبلي والمذهبي- وهي الدعامة الأساسية التي قامت عليها معظم دول المغرب الاسلامي، فقد اعتمد "حمّاد" في تمصيره للقلعة وبنائه للدولة على قبيلتين من

¹ - تجعل بعض المصادر من سنة398هـ -سنة اختطاط حمّاد للقلعة- التاريخ الأقرب لميلاد الدولة الحمدّية، ويمكن الجمع بين الرأيين بالقول أنّ سنة395هـ هي سنة الميلاد النظري (سنة إبرام العقد)، وأنّ سنة398هـ هي سنة الميلاد التطبيقي (سنة اختطاط القلعة)، على أنّ الاستقلال الحقيقي للدولة كان سنة408هـ، للمزيد ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، صص208، 210. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مرجع سابق، ج2، ص230.

² - ينظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، مصدر سابق، ج2، ص328.

³ - أهم تلك المدن، أشير والمسييلة ومقرة وطبنة ونقاوس وبسكرة...وهي في مجملها كانت مراكز حضارية ذات أهمية اقتصادية، لاسيما وأنّها أنشئت على طرق تجارة الذهب والرقيق الواصلة بين بلاد السودان وإفريقية، ينظر نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي من ق4إلى ق8هـ، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976م، ص80 وما بعدها.

⁴ - البكري: المسالك والممالك، المصدر السابق، ج2، ص177.

⁵ - الادريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، صص255، 261.

أعظم قبائل صنهاجة وأكثرها بطونا، و هما "تلكانة" و "أنجفة"، و ذلك وعيا منه بأن الملك و الدولة إنما يحصلان بالقبيل و العصبية على حدّ تعبير ابن خلدون و نظرياته في قيام دول المغرب و تطورها ثم أفولها¹، فكان حكم الدولة منذ تأسيسها لآل حمّاد التلكتاتيين، بينما كانت الوزارة لبني حمدون من قبيلة "أنجفة"، و ظلت كذلك حتى سقوطها سنة 547هـ/1152م².

2. القلعة عاصمة مالكية لدولة بني حمّاد بالمغرب الأوسط (408-460هـ/1017-1068م):

وبما أن الدعوة الدينية —على حدّ تعبير ابن خلدون— تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها³، فإنّ حمّادا لم يكتف ببناء القلعة والانفراد بالولاية، بل تعدّى ذلك إلى الإفصاح —سنة 405هـ/1015م— عن الانتماء المذهبي والسياسي لكيانه الجديد، حيث نادى بالولاء للخلافة العباسية، وإعلان المذهب السنّي ونبد المذهب الشيعي، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في قوله: "فأبى حمّاد وخالف دعوة باديس وقتل الرافضة وأظهر السنة، ورضي عن الشيخين ونبد طاعة العبيديّين مجلّة، وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة"⁴. وهي الفكرة الدينية التي ضمن بها حمّاد نجاح مشروعه الانفصالي الذي يبدو أنّه لم يكن مجرد ردّ فعل لمطالبة عمّه "باديس" بتسليم بعض أعمال المغرب الأوسط الشرقية إلى ابنه ووليّ عهده "المعزّ بن باديس" حتّى يرفع قدره ويضيف إليه أعمالا يستخدم له فيها أتباعه وصنائه، بل إن ذلك يعود —ربّما— إلى تكوين شخصية حمّاد الجامعة بين الفقه والسياسة، لاسيما في مرحلة تدرسه بالقيروان حيث عايش —ثمّت— فصولا من الصراع المذهبي بين الشيعة وفقهاء المالكية في أحلك مراحلها⁵، ما جعله يتطلّع إلى تأسيس دولة على خطى الفقهاء المؤسّسين كعبد الله بن ياسين الجزولي فقيه دولة المرابطين، ثمّ إنّ شخصية حمّاد الدينية تُنمّ عن اتّجاه مذهبي سنّي واضح منذ تعيينه واليا على أشير وما والاها من بلاد المغرب الأوسط، فبالإضافة إلى كثرة صيامه وامتناعه عن اللهو و شرب الخمر⁶، فإنّه لما بنى القلعة استكثر فيها من المساجد وقام بإصلاحات دينية واجتماعية

¹— ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص 193.

²— وهو ما أشار إليه ابن الأثير من أنّ الوزير ميمون بن حمدون هو من فتح باب بجاية لعبد المومن بن علي الكومي، وسلّم له مفاتيحها من غير قتال، واستأنمته على أهلها وأموالها فوقّ، ينظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج9، ص184، 185.

³— ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص198.

⁴— ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص228.

⁵— يذكر ابن الخطيب أنّ "حمّادا" قرأ الفقه بالقيروان و نظر في كتب الجدال قبل أن يعيّنه المنصور واليا على أشير و المسيلة، ينظر لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، مصدر سابق، ج2، ص328، 329.

⁶— الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية من ق10 إلى ق12م، تر حمّادي الساحلي، ط1، 1992م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج1، ص143.

واجتماعية وحتى حملات عسكرية¹ عضّدت جهود الفقهاء المالكية في مواجهة الشيعة الفاطميين وممثليهم من بني زيري بإفريقية، كما أنّ حنكته السياسية دعت إلى استغلال تجذّر المذهب المالكي في أوساط سكّان المنطقة ليعلن عن قرار الانفصال، ومناسبة العداء التام للمذهب الاسماعيلي الشيعي ورموزه بالمغرب الأوسط²، ذلك أنّه كان يدرك غاية الإدراك مدى اتّساع الهوة بين دعاة هذا المذهب وبين فئات المجتمع في المدن والأرياف رغم محاولات الفاطميين فرضه سواء بالقهر والترهيب الفكري أم بالحجّة والإقناع واستغلال العاطفة الدينية لقبائل المغرب الأوسط تجاه آل البيت، ورغم ذلك لم تلق دعوتهم صدى إلّا في قصور الحكم ودواليب السياسة، شفيعنا في ذلك أنّ العقود والمواثيق وجميع التعاملات القضائية عند أهل المغرب الأوسط كانت تعقد وفق القوانين الفقهية المستمدّة من المذهب المالكي، وأنّ المذهب الاسماعيلي لم يكن سوى ستارا سياسيا لصراع قبلي حول مجالات النفوذ³، وهي المعطيات التي انطلق منها حمّاد للإعلان عن قرار الانفصال والقطيعة مع الفاطميين، ليكون سبّاقا في الرجوع ببلاد المغرب للارتباط التقليدي مع الخلافة العباسية بالمشرق الإسلامي، حيث أنّه حسم هذا الأمر -في أوّل اجتماع له مع فقهاء القلعة- بقوله: "عالم أهل المدينة يكفيننا" بل ودعا إلى إخراج أتباع المذاهب الأخرى منها، وقال: "لا أحبّ أن يكون في عملي مذهبان"⁴، فأضحى بذلك حامل لواء السّنة بالمغرب الأوسط و حامي حمى المالكية به، وأضحت قلعته عاصمة مالكية ومركز إشعاع علمي ببلاد المغرب الأوسط، ذلك أنّها حضيت -حتى بعد حمّاد⁵ - بعناية فاقّت عنايته بها، فقد شيّد بها خلفاؤه القصور⁶ والمساجد، وأكثروا بها من الحدائق و المنتزهات، وجلبوا إليها المياه، وأجروها في السواقي والجداول، وفرّقوها في القنوات على الحارات والدور⁷، وهو ما تناقلته مشاهدات الرّحالة والجغرافيين، وصدّقته الآثار المتبقّية التي كشفت عنها تقارير الحفريات الأثرية، كذلك التي قام بها الجنرال "دوبليي" بمساعدة المؤرّخ الفرنسي "جورج مارسيه" سنة 1908م، حيث شملت الدراسة برج المنار،

¹ ينظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج7، ص601.

² موسى هيصام: المذهب السني في المغربين الأدنى و الأوسط، مرجع سابق، ص261.

³ مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القدم و الحديث، مرجع سابق، ج2، ص231.

⁴ عبد الرحمن كريب: الأثر الحضاري للمذهب المالكي في المغرب الأوسط من ق5-ق9هـ، أطروحة دكتوراه إشراف بلعربي خالد، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، 2016/2017، ص47.

⁵ تعاقب على حكم الدّولة الحمّادية بعد "حمّاد" ثمانية ملوك، أولهم ابنه "القائد419-446هـ"، و رابعهم "الناصر بن علناس454-481هـ" و هو الذي نقل عاصمة الدولة من القلعة إلى بجاية، و آخرهم "يحيى بن العزيز515-547هـ" الذي سقطت الدّولة في عهده بيد الموحدّين، ينظر رشيد بورويبة: الدولة الحمّادية تاريخها و حضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م، ص312، 313.

⁶ يذكر ابن خلدون أنّ الأمير الحمّادي "المنصور بن الناصر" تأثّق في احتطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين، والبساتين، فبنى بالقلعة قصر الملك، و المنار، و الكوكب، و قصر السّلام، ينظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص232.

⁷ ينظر مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القدم و الحديث، مرجع سابق، ج2، ص261.

ومنارة الجامع الأعظم والمباني الأميرية الواقعة شماله، وجمع من خلالها العديد من القطع الفخارية والنقدية والخزف والحديد¹.

ومّا زاد في سطوع نجم القلعة، و نموّ الحركة العلمية لا سيما الفقهية بها، كثرة الوفود عليها من الثغور القاصية والدّانية، فمن إفريقية والقيروان فرّ إليها كثير من العلماء والطلبة وأرباب الصنائع بعد واقعة حيدران 443هـ/1051م²، ومن صقلية نرح إليها جموع الفارّين من بطش النورمان وظلمهم، كما هاجر إليها كثير من الأندلسيين بعد سيطرة المرابطين الذين وضعوا أيديهم كذلك على عواصم القوّة الزناتية غرباً، والتي كانت تقض مضاجع الحمّادين بالليل والنّهار³، هذا بالإضافة إلى المكانة التي حظي بها فقهاء المالكية بعد القطيعة مع بلاط القاهرة الفاطمي، والثقة التي وضعها فيهم أمراء القلعة، والتي تجلّت في المناصب و الوظائف العليا التي تقلّدوها في البلاط الحمّادي، ففي سنة 438هـ/1047م -مثلاً- أرسل القائد بن حمّاد (419-446هـ/1028-1054م) الفقيه أبا القاسم بن أبي مالك رسولاً ليمثّله عند المعزّ بن باديس بالقيروان، فأبلغ في الخطاب، وأحسن التمثيل كما أحسن المعزّ وفادته، وشترّ به أيّما سرور⁴، وقد رصد لنا القاضي عياض فئة من فقهاء المالكية ممّن ساهموا في ترسيخ المذهب ونشره بالقلعة، نذكر منهم على سبيل المثال أبا عثمان بن أبي سوار الذي أخذ الفقه عن شيوخ القلعة، ثمّ رحل إلى سبتة أين تفقّه عن عالمها عبد الرحيم بن العجوز السبتي⁵، كما حدّثنا عن الفقيه أبي حفص عمر ابن أبي الحسين ابن الصابوني الذي تزعم فقهاء زمانه، وانفرد برئاستهم، وكان فقيهاً نظاراً محققاً، حسن الفهم جيد الكلام في الفقه⁶، أمّا عن الوافدين إلى القلعة من الحواضر المغربية فقد أشار ابن الأتبار إلى

¹ - قدّم لنا الأستاذ و الباحث "عمارة علاوة" دراسة بحثية بعنوان "الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمّادية الأولى بين الذاكرة و التاريخ" رصد من خلالها الحملات الاستكشافية التي أجريت لفحص معالم القلعة، و تتبّعها منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر و إلى غاية تسعينيات القرن الماضي، للمزيد ينظر عمارة علاوة: دراسات في العصر الوسيط في الجزائر و الغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م، ص 117، 120.

² - موقعة حيدران: أو "يوم العين" كما يسميه بعض المؤرخين، هو أوّل صدام عسكري مسلّح بين جيش المعزّ بن باديس و جحافل العرب الهلالية التي اكتسحت المغرب الأدنى، و حتّى و إن اختلف المؤرّخون في تحديد موقع "حيدران" التي ذهب ابن خلدون أنّها بنواحي قابس، بينما يرى ابن الأثير و النويري أنّها (جندران) على ثلاث مراحل من القيروان، فإنّهم متفقون على أنّها كانت في عيد التّحر سنة 443هـ، و أنّ جيش المعزّ مني فيها بهزيمة نكراء، للمزيد حول تفاصيل هذه المعركة ينظر ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج8، ص87، 88. النويري: نهاية الإرب، مصدر سابق، ج24، ص214. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج6، ص21.

³ - مبارك الملي: تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ج2، ص260.

⁴ - ذكر لنا القاضي عياض نقلاً عن تاريخ ابن شرف القيرواني أنّ أبا يوسف "ورد القيروان رسولا من قبل ابن حماد، على المعز، سنة ثمان وثلاثين، فخطب بأبلغ خطاب، وأحسنه، وألطفه. ولقي مسرة من السلطان، ولا أنفق في هذه المدة إلا ماله، ولا اقتات إلا منه." ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، المصدر السابق، ج8، ص78.

⁵ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، المصدر نفسه، ج8، ص77.

⁶ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، المصدر نفسه، ج8، ص78.

شخصية عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي القروي¹ الذي دخل القلعة وأقرأ بها علم الفقه الفرعي والأصلي، فأخذ عنه كثير من طلبتها ورووا عنه، ولعلّ أبرز من أشارت إليه المصادر -ممن استوطن القلعة- الفقيه أبو الفضل بن النحوي (ت513هـ/1119م) القلعي التوزري²، الذي عُرف بنبوغه في الفقه و أصوله زيادة على علم الكلام³، فبعد تنقله بين الحواضر المغربية مفتيا ومدرّسا استقرّ به المقام في القلعة نظرا للمضايقات التي لحقت في فاس وسلجاسة بسبب توجهاته المخالفة للملكية الدولة المرابطية، وتأثّر بمذهب ومنهج الإمام أبي حامد الغزالي.

من هنا يمكننا القول أنّ القلعة الحمّادية استطاعت -بتزعمها لنظام حكم مركزي منذ زمن مؤسسها "حمّاد" الذي اتخذ منها عاصمة لدولته الناشئة- أن تبث ميلادا سياسيا وجغرافيا جديدا لبلاد المغرب الأوسط، بعد أن كانت هامشية ومقسّمة بين إفريقية والمغرب الأقصى، كما عمل أمراؤها على توحيد بلاد المغرب الأوسط عقديا وبلورة مدرسة فقهية مالكية به، وذلك من خلال إعلان القطيعة مع بلاط القاهرة الإسماعيلي، وإعلان الولاء لخليفة بغداد العبّاسي، والتشريع بمذهب إمام دار الهجرة، هذا والجدير بالذكر أنّ السمت والعطاء الفقهي المالكي القلعي بقي مستمرا بعد انتقال عاصمة الحمّاديين إلى بجاية 481هـ/1088م، بل وحتّى بعد سقوطها بأيدي الموحّدين سنة 547هـ/1152م، فقد أشار الغبريني (ت704هـ/1305م) إلى حلق الدّرس ومجالس القضاء التي كان يعقدها الفقيه أبو محمد بن عبادة القلعي (ت669هـ/1271م)⁴، كما أشار في خضمّ تراجمه لعلماء المائة السابعة إلى الدور الريادي لجامعها الأعظم⁵ بالرغم من السياسات الموحدية التي ساهمت في تفرغ المدينة من

¹ - عبد الجليل بن أبي بكر: هو أبو القاسم عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي القروي، المعروف بالدياجي أو بابن الصابوني، أخذ العلم عن أبي عمران الفاسي و أبي القاسم الخزي و أبي عبد الله الأذري، له مؤلفات كثيرة منها "المستوعب" في أصول الفقه، و رسالة في الاعتقادات و غيرها... ينظر ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص133.

² - أبو الفضل بن النحوي (ت513هـ/1119م): هو يوسف بن محمد بن يوسف، يعرف بابن النحوي، و يكتب بأبي الفضل، أصله من توزر ببلاد الحريد، ولد سنة 433هـ، أخذ عن اللخمي و المازري و عبد الجليل الربيعي السالف الذكر، دخل سلجاسة وفاس و تلمسان مدرّسا، ثم استوطن القلعة و بها توفي سنة 513هـ، عرف بنبوغه في الفقه والأصليين، و ميله إلى النظر و الاجتهاد، كما أخذ على نفسه الزهد و التقشّف في المآكل و الملابس، قال عنه شاعر القلعة محمّد بن علي بن حمّاد: "كان أبو الفضل ببلادنا كالغزالي في العراق، علما و عملا". للمزيد عن ترجمته ينظر ابن القاضي المكتاسي: المصدر السابق، ص552. التنبكي، أحمد بابا: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص622، 623. عمر كحالة: معجم المؤلفين، مصدر سابق، ج13، ص334. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص247. محمّد مخلوف: شجرة النور الزكية، المرجع السابق، ج1، ص185. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص329.

³ - كما عرف ابن النحوي ببراعته في نظم الشعر، و لعلّ أشهر قصائده التي وصلتنا "المنفرجة" التي مطلعها:
اشتدّي أزمة تنفرجي ## قد آذن ليلك بالبلج. ومن أبرز شراحها أبو يحيى زكريّا الأنصاري المعروف بشيخ الاسلام (ت926هـ): الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة، مطبعة محمد يحيى شيخ الطريقة السعدية، الاسكندرية، مصر، 1288هـ، وهي متوفّرة إلكترونيا و ورقيا.

⁴ - ينظر ترجمته عند أحمد بابا التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص216، وفيه كانت وفاته 699هـ. محمّد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص286، 287. أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م، ص488، 489.

⁵ - أبو العبّاس الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص65.

نسيجها البشري من خلال نقل فقهاء المالكية وتقليدهم المناصب والوظائف ببجاية التي أصبحت تمثل مركز الثقل العلمي والاقتصادي بالمغرب الأوسط¹

غير أنه حتى وإن أشارت بعض الدراسات إلى انتشار المذهب المالكي واكتساحه القلعة والحوضر الحمادية، وتراجع المذهب الإباضي إلى الجنوب وانحساره في واحات وارجلان وأريغ وأسوف، واختفاء تيارات التشيع الإسماعيلي والمعتزلة والواصلية²، فإن هذه السمة الغالبة لا تنفي -في الحقيقة- وجود تيارات مذهبية أخرى غير المذهب السني المالكي، فالمصادر الإباضية مثلاً تشير إلى أن القلعة كانت متفتحة على المذاهب الأخرى، وأن حرية تنقل الأشخاص مكفولة بها، حيث يوحى لنا نصُّ أورده الدرجيني في طبقاته إلى وجود النكارية والوهبية بها³، ويُفهم من نص آخر له أنها كانت مركزاً علمياً واقتصادياً مهماً يفد إليه الناس من شتى الأنحاء⁴، كما حدثتنا كتب التراجم عن أعلام قلعيين أبانوا ميولاً للمذهب الشافعي، بل ومنهم من ألّف فيه، ك: علي بن معصوم بن أبي ذر القلعي (ت551هـ/1156م)⁵ الذي وُلد و نشأ بالقلعة، ثم ارتحل إلى المشرق واستوطن العراق، وكان من كبار فقهاء الشافعية، قال عنه النسابة السمعاني: "إمام فاضل، عالم بالمذهب، بحر في الحساب"⁶. ومن الذين اشتهروا بالميل إلى المذهب الشافعي أيضاً الفقيه محمد بن علي، المعروف بابن الرقامة (ت567هـ/1172م)⁷

¹ - عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، مرجع سابق، ص94.

² - عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، مرجع سابق، ص101.

³ - أشار الدرجيني في ترجمته لأبي محمد عبد الله اللواتي من أهل الطبقة الحادية عشر (500-550هـ)، أن هذا الأخير سافر إلى القلعة بحثاً عن تفسير عبد الرحمن بن رستم الذي كان متداولاً بها، ينظر الدرجيني: طبقات المشايخ، مصدر سابق، ج2، ص471.

⁴ - ما يؤكد وجود فرق وتيارات غير مالكية بالقلعة ما ذكره الدرجيني من أن مكاناً بسوقها يعرف بـ "موقف الشب" معروف بأهل وارجلان (الإباضية)، فلمّا وقعت حادثة قتل جماعة من الأشعرية في ورجلان تذر أهل القلعة من ذلك، بل طالب بعضهم بإخراج أهل ورجلان من القلعة و إلا تمّ قتلهم كما قتلوا إخوانهم بورجلان، للمزيد ينظر الدرجيني: طبقات المشايخ، مصدر سابق، ج2، ص472، 473.

⁵ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص267.

⁶ - ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج6، ص263.

⁷ - ابن الرقامة (ت567هـ/1172م): هو أبو عبد الله محمد بن علي بن جعفر بن أحمد بن محمد القيسي من أهل قلعة حماد، روى عن أبي الفضل بن النحوي وتفقه به وعن أبي إسحاق إبراهيم بن حماد وخاله أبي الحسن علي بن طاهر بن محشوة بالجزائر وأبا حفص التوزري وأبي محمد المقرئ ببجاية وغيرهم. ودخل الأندلس تاجراً وطالبا للعلم ولقي بقرطبة أبا محمد بن عتاب وأبا الوليد بن رشد وأبا بحر الأسدي وأبا الوليد بن طريف فحمل عنهم وسمع منهم ونزل بمدينة فاس وولي قضاءها سنة 536هـ وحدث بها ودرس وأخذ الناس عنه وكان فقيهاً نظاراً ماثلاً لمذهب الشافعي رضي الله عنه عاكفاً على كتاب أبي حامد الغزالي المسمى بالبسيط محصلاً لكنته وله تأليف منها "تسهيل المطلب في تحصيل المذهب" وكتاب "التفصي عن فوائد التقصي" وكتاب "التيبين في شرح التلقين" وغير ذلك، وتوفي بفاس عند الزوال يوم الاثنين الحادي والعشرين لرجب سنة 567هـ ودفن ضحى يوم الثلاثاء بعده وصلى عليه أبو حفص بن عمر قاضي فاس حينئذ بوصيته بذلك ومولده في شعبان سنة 479هـ. للمزيد ينظر التميمي، المستفاد في مناقب العباد، مصدر سابق، ج2، ص171، 172. ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص158. المراكشي، محمد بن محمد (ت703هـ): الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة، تح محمد بن شريفة و إحسان عباس، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1984م، ج8، ص502.

الذي وُلد ونشأ بالقلعة، حدّث عن أبي إسحاق إبراهيم بن حمّاد¹ وتفقه عن فقيهها أبي الفضل بن النّحوي السالف الذكر، وتأثّر به علما ومنهجاً².

3. فقهاء بجاية³ والحواضر الحمّادية، التّواة الأولى للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط:

يرتبط اسم مدينة بجاية في العصر الاسلامي بالدولة الحمّادية ارتباطاً وثيقاً، إذ لا يكاد يذكرها باحث أو مؤرّخ إلا و يذكر دولة بني حمّاد الصنهاجيين، وحتّى وإن تعدّدت الآراء واختلفت في أسباب تأسيسها فإنّ الدّواعي الأمنية الطارئة التي أسفرت عنها موقعة سببية 457هـ/1065م⁴، والتي مكّنت الهلاليين من تخريب أحواز القلعة، هي الباعث الأساس⁵—حسب رأيي— الذي جعل النّاصر يفكّر في بناء عاصمة جديدة تسير سوء الأحوال الأمنية والاضطرابات التي عرفها المغرب الأوسط بقدم الهلاليين، وهو ما لخصّته عبارة الإدريسي عند حديثه عن سبب تعميرها "وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنّها عمرت بخراب القلعة التي بناها حمّاد⁶"، وحتّى وإن كانت مرحلة

¹— ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص148.

²— عبد الرحمن الجليلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص400. سعيداني لخضر: الإشعاع الفكري لعلماء قلعة بني حمّاد من خلال كتب التراجم، مجلّة المعارف، جامعة الوادي، الجزائر، مج7، ع4، ماي2022م، ص902.

³— بجاية: بكسر الباء و تخفيف الجيم نسبة لقبيلة "بجاية" أو "بوجي" البربرية التي كانت تخيّم حول المكان، و هي مدينة قديمة أسّسها الفينيقيون وكانت تعرف بـ "صلدة"، وأصبحت في العهد الروماني مدينة رومانية تعرف بـ "صلداي"، حيث أقام بها الامبراطور "أوغست" جالية رومانية، ثمّ تعرّضت بعد ذلك للتخريب من طرف الوندال و البربر، و بقي خرابها ماثلاً للعيان حتّى بدايات العصر الإسلامي، إذ كانت عبارة عن قرية صغيرة مغمورة إلى عهد النّاصر بن علناس الحمّادي(ت481هـ) الذي اختطّ أسسها من جديد(457هـ) و سمّاها النّاصرية، ثمّ اتّخذها خلفاؤه من بعده عاصمة للدولة الحمّادية، و نقلوا إليها كلّ ما كان في القلعة (عاصمة الحمّاديين الأولى) من ذخائر وأشياء ثمينة، للمزيد ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص339. أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931م، ص196، 197. عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة، مرجع سابق، ص101، 102.

⁴— موقعة سببية غربي القيروان سنة457هـ/1064م، هي الموقعة التي خرج فيها الأمير الحمّادي الناصر بن علناس في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعديّ والأنبج لمواجهة ابن عمّه الأمير الزيري تميم بن المعزّ ومن معه من بني رياح و زغبة و سليم، وكانت نهايتها فرار النّاصر وانحزامه—ربما بسبب الخيانة— وقتل خلق كثير من أصحابه... لأكثر تفاصيل عن الموقعة وأسباب الهزيمة ينظر ابن عذارى: البيان المغرب، مصدر سابق، ج1، ص299. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص230. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص200، 201. رشيد بورويّة: الدولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص61، 65.

⁵— يذهب أغلب المؤرخين و المتقدّمين و المتأخّرين إلى أنّ هزيمة النّاصر أمام ابن عمّه تميم في موقعة سببية457هـ، وما أسفرت عنه هذه الموقعة من نتائج سياسية وأمنية كانت هي السبب في التفكير في بناء بجاية، بينما يربطها آخرون بالصلح الذي جرى بين الناصر و تميم بعد هذه الواقعة، وخيانة أحد رجالات تميم (ابن البعيع) و تأمره مع النّاصر، و يرى فريق ثالث أنّ بناء بجاية على ساحل البحر هو عمل استباقي خطّط له النّاصر تحسّبا لمواجهة التّورمان أو استعدادا لفتح المهديّة الساحلية عاصمة الزييين... لأكثر تفاصيل عن دوافع و أسباب تأسيس مدينة بجاية ينظر مؤلف مجهول: الاستيصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ص129. النويري: نهاية الإرب، مصدر سابق، ج24، ص223، 226. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص208. رشيد بورويّة: الدولة الحمّادية تاريخها وحضارتها، مرجع سابق، ص66. عبد الرحمن الجليلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص370، 371.

⁶— الادريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، ص261.

بجاية تمثل المرحلة الأخيرة من تاريخ الدولة، فإنها في ذات الوقت تمثل مرحلة التوسع¹ والتحضر والانفتاح على حواضر المشرق والمغرب الاسلامي، بل وعلى الضفة الجنوبية لأوربا كذلك²، ذلك أنه ومنذ أن شرع الناصر³ في تشييدها سنة 460هـ/1068م عمل على جذب السكّان إليها وإعفائهم من الضرائب وحثهم على التعمير والبناء، ولما انتقل إليها سنة 461هـ/1069م بنى بها دارا لصناعة السفن والمراكب البحرية وأنشأ بها المساجد والقناطر المعلقة وأكثر فيها من القصور التي لم ير الراؤون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا⁴، أما في عهد خليفته المنصور الذي اتخذها عاصمة لملكه سنة 483هـ/1090م، فقد تألق في اختطاط المباني وتجديدها، وتشييد المصانع والقصور⁵، واقتفى آثار أبيه في الحزم والعزم والرئاسة⁶، ثم كثر اعتناء بنيه وخلفائه بها ونقلوا إليها كثيرا من من ذخائر القلعة وأدوات الزخرفة⁷، وعقدت مع دول جنوب أوربا البحرية معاهدات تجارية وقنصلية دقيقة، وكانت لهم بها مراكز وفنادق خاصة⁸.

وبالرغم من قلة المادة الخبرية المختصة بدراسة الوسط الفقهي ببجاية الحمّادية إلا أنّ التدقيق في ثنايا كتب التراجم والطبقات، ودراسة التراث البيوغرافي لفقهاءها ولطلبة العلم الذين وفدوا إليها منذ مطلع القرن السادس الهجري، يبيّن لنا المكانة الريادية التي احتلتها بجاية في مجال العلوم الدينية لاسيما علمي الفقه والحديث، تكفيينا من ذلك شهادة فقيها وقاضيا أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت580هـ/1184م)⁹ حين أشير إليه بالتفرد في العلم، والتوحد في الفقه قوله: "أدركت ببجاية تسعين مفتيًا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من

¹ - امتدت مرحلة بجاية منذ اختطاطها حتى سقوطها بأيدي الموحدين، زهاء السبع وثمانين سنة، بلغت فيها الدولة أقصى اتساعها، إذ وصل نفوذها من التاحية الشرقية إلى تونس والقيروان، ومن التاحية الغربية تمكّن أمرؤها من إيقاف الزحف المرابطي عند تلمسان، وأجبروهم عن التخلّي على وهران وتنس، أما من الجنوب فقد وصلت جيوشها حتى واحات ورجلان بؤابة بلاد السودان، مما يعني استحوادها على غالبية المجال الحالي للجزائر الشمالية، للمزيد ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص231، 232، 234، 250. عمارة علاوة: المرجع السابق، ص102. الطاهر بونابي: مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، المرجع السابق، ص40، 54.

² - استقطبت بجاية في القرن 6هـ/12م كثيرا من طلبة العلم الأوربيين، لاسيما الإيطاليين، فقد تعلّم فيها الإيطالي "ليوناردو ألبيزي" على يد الأستاذ "سيدي عمر"، مختلف العلوم خاصة علمي الحساب والهندسة التي ألّف فيها كتابا سنة 1205م، ينظر زيفريد هونكة: شمس العرب تسطع على المغرب، تركمال دسوقي، مرا مارون عيسى الخوري، دار الجيل و دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط8، 1993م، ص87-94.

³ - يذكر أنّ الناصر سماها "التأصيرية" نسبة له، وحبّا في التميّز عن سابقيه، وعملا بالتقاليد التي كانت معروفة عند أغلب أمراء وحكام العصر الوسيط، لكن هذا الاسم لم يكتب له الذيوع والانتشار كثيرا، و غلب على المدين اسم القبيلة التي كانت تسكنها "بجاية"، ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق ج1، ص339. أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص196.

⁴ - مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ج1، ص130.

⁵ - يذكر ابن خلدون أنّ المنصور كان جماعة مولعا بالبناء، و هو الذي جدّد قصور بجاية و شيّد جامعها، ينظر العبر، مصدر سابق، ج6، ص232.

⁶ - ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج8، ص321.

⁷ - ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق ج6، ص235. عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة، مرجع سابق، ص104.

⁸ - عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص392.

⁹ - ترجمته عند الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق ص33. أحمد بابا التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق ص155.

يكون"¹، وهو ما صرح به الغبريني عندما ألحق في كتابه بعضاً من فضلاء المائة السادسة من فقهاء و فضلاء بجاية بجاية في قوله: "وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم جلال و كمال، ولكن شرط الكتاب منع من ذكرهم"²

ويعتبر العهد الحمّادي الذي تُوجّ ببناء مدينة بجاية (ق5هـ/11م)، عهد استكمال بناء حواضر المغرب الأوسط، المسيلة315هـ/927م، أشير324هـ/936م، القلعة398هـ/1008م ثم بجاية460هـ/1068م، وقد قدّمت لنا هذه الحواضر -بالإضافة إلى تيهرت ووهران³ وبسكرة وجزائر بني مزغنة⁴...- في العهد الحمّادي مجموعة مجموعة من الفقهاء الذين ساهموا في تشكيل الواقع الفقهي لبلاد المغرب الأوسط⁵، وأخذوا على عاتقهم استكمال مسيرة فقهاء القرنين(3-4هـ/9-10م)، ووضع أسس بناء المدرسة المالكية به منذ مطلع القرن الخامس الهجري(11م) الذي وصفه الأستاذ "عثمان الكعّاك" بأنّه العصر الذهبي لإيناع العلوم بالجزائر⁶، وقال عنه "مبارك الميلي" بأنّ الفقهاء و العلماء فيه ظهروا ببجاية والقلعة وأشير وطبنة والزاب والمسيلة ظهوراً لا عهد للجزائر به⁷، وهو -على حدّ تعبير بروفنسال- العهد الذي تمّ فيه الانتصار الكامل لمذهب المالكية بالمغرب بعد تلك المحاولات التي قام بها الأحناف لنشر مذهبهم، أو التي قام بها الخوارج ثمّ الفاطميون لبثّ دعوتهم⁸، أمّا الأستاذ "عمارة علاوة" فقد أشار -ضمن حديثه عن تخصّصات النخب العلمية بالمغرب الأوسط الحمّادي- إلى اهتمام

¹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق ص36.

² - الكتاب المخلّى بـ "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" الذي ألفه مؤرخها وقاضياها أبو العباس الغبريني، وذكر فيه تراجم ما يريو عن المائة وأربعين من فقهاء وأعلام المائة السابعة ممن عاصروا العهد الموحدّي ثمّ الحفصيّ، وألحق به ستّة من فضلاء المائة السادسة، ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق ، ص55.

³ - وهران: بفتح أوله و سكون ثانيه وآخره نون، مدينة ساحلية حصينة، ذات مياه سائحة وأرجاء ماء وبساتين، أسّسها خزر المغراوي وجماعة من الأندلسيين الذين كانوا ينتجعون مرساها سنة290هـ، على بعد ثلاث مراحل من حاضرة تلمسان، ينظر ابن حوقل: صورة الأرض، ج1، ص77. البكري: المسالك و الممالك، ج2، ص205. المراكشي: المعجب، ص151. الزباني، محمد بن يوسف: دليل الحيران و أنس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013م، ص43 وما بعدها.

⁴ - جزائر بني مزغنة: بكسر الميم والغين وسكون الزاي ، مدينة قديمة كانت تسمّى "إيكسيوم"، تعرّضت للتخريب أثناء هجمات الوندال وثورات البربر، ثمّ اختطّها "بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي" وأعاد بناءها من جديد في القرن 4هـ/10م، ودعاها جزائر بني مزغنة نسبة لقبيلة بربرية كانت تستقر بها، ينظر أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص206، 207.

⁵ - تجدر الإشارة إلى أنّ الدولة الحمّادية ضمت -في فترة التوسّع- إلى مجالها الجنوبية حواضر ومدنا كانت على المذهب الإباضي كوارجلان و أريغ و سوف...قدّمت هذه الحواضر فقهاء وأعلاما خدموا الفقه و الفكر العقدي الإباضي خلال القرنين5، 6هـ/11، 12م، للمزيد ينظر علي غنابرية: مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ إلى أواخر العصور الوسطى، سامي للطباعة و النشر، الوادي، الجزائر، 2023م، ص237، 238.

⁶ - عثمان الكعّاك: بلاغة العرب في الجزائر، مكتبة العرب، تونس، ص58

⁷ - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج2، ص266.

⁸ - ليفي بروفنسال: الاسلام في المغرب و الأندلس، تر السيد محمد عبد العزيز سالم و محمد صلاح الدين حلمي، مرا لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، 1990م، ص249.

الحَمَّاديين بالعلوم النّقلية التي يحتلّ "الفقه المالكي" فيها المرتبة الأولى بدون منازع¹، و ذهب إلى القول بأنّ "الفقه هو أساس المنظومة المعرفية في الجزائر الحَمَّادية"²، هذا ما أكّده "ياقوت الحموي" -من قبل- خلال حديثه عن "ريغة" ضمن مجالات الدولة الحَمَّادية بقوله: "قال أبو طاهر بن سكينه: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتي الضرير بالثغر يقول: حضرت هارون بن النضر الريغي بالريغ في قراءة كتاب البخاري والموطأ وغيرهما عليه وكان يتكلّم على معاني الحديث وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب ورأيت يقرأ كتاب التلقين لعبد الوهّاب البغدادي في مذهب مالك من حفظه كما يقرأ الإنسان فاتحة الكتاب ويحضر عنده دوين مائة طالب لقراءة المدوّنة وغيرها من كتب المذهب عليه"³، وهو ما لمسناه -فعلا- عند تقصّينا لفقهاء المالكية بحواضر المغرب الأوسط وما خلفوه من فتاوى ومصنّفات تخدم المذهب، سواء أولئك الذين نشأوا وترعرعوا بمُذنه أم الوافدين إليه من الأندلس والحواضر المغربية الأخرى، فإلى جانب فقهاء القلعة وبجاية نبغ عدد -غير هيّن- من الفقهاء والأعلام المالكية الذين ساهموا في ترسيخ المذهب وانتشاره، غير أنّ كتب التراجم والطبقات لم تمدّنا بمعلومات كافية عن الكثير منهم، واقتصرت في الغالب على فقهاء الحواضر الكبرى كالقيروان وبجاية وفاس، أو الذين تنقلوا إلى الحواضر المشرقية والمغربية، كما أنّ معظم تراجمهم قد ضاعت وعدّت عليها عوادي الزمن، وسنعرّج فيما يلي على ترجمات مختصرة لأبرز مشاهير فقهاء المالكية بحواضر الجزائر الحَمَّادية، لاسيما أولئك الذين كانت لهم بصمات في المشرق أو الأندلس...

فمن حاضرة بونة⁴ اشتهر الفقيه المالكي أبو عبد الملك مروان بن علي البوني الأسدي القرطبي القطّان(ت440هـ/1048م)¹، يرجع أصله إلى الأندلس، حيث وُلد -تحيّدا- في قرطبة²، ومنها بدأ رحلته

¹ - في حديثه عن العلوم التي لقت رواجاً بالمجالات الحَمَّادية، أشار إلى تخصّص الفقه عند أكثر من 154 عالماً، كانوا مالكية في غالبيتهم العظمى، ينظر عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص110.

² - علاوة عمارة: المرجع نفسه، ص108.

³ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج3، ص113.

⁴ - بونة: مدينة أزلية كانت تسمّى أيضا "هيون" و "مدينة زاوي" و هي الآن تسمّى "عتّابة" بأقصى الشرق الجزائري، أوّل من أورد ذكرها من كتب المسالك الوسيطية ابن حوقل في "صورة الأرض" ثمّ البكري في "مسالكه"، و قال عنها الحموي: "بونة بالضم ثمّ السكون: مدينة بإفريقية بين مرسى الخرز وحزيرة بني مزغناي، وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرّخص والفواكه والبساتين القرينة، وأكثر فاكهتها من باديتها، وبها معدن حديد، وهي على البحر، ينسب إليها جماعة، منهم: أبو عبد الملك مروان بن محمد الأسدي البوني الفقيه المالكي"، دخلها الاسلام في عهد الفاتح عقبة بن نافع و قيل في عهد حسان بن التّعمان سنة78هـ -و هو الأرجح- ثمّ خضعت للحكم الأغلبي و من بعده الفاطمي، و منذ مطلع القرن الخامس الهجري أضحت تابعة لبني زيري الصنهاجيين ثمّ انتقل حكمها لبني حمّاد وظلّت كذلك حتّى العهد الموحدّي، للمزيد ينظر ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق، ج1، ص75. البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص717. الحموي: معجم البلدان، المصدر السابق، ج1، ص512. المهدي البوعبدلي: جوانب من تاريخ بونة الثقافي و السياسي عبر العصور، مجلّة الأصالة، ع35/34، س1976، ص206 و ما بعدها.

العلمية، فسمع فيها عن عبد الرحمن بن محمد بن فطيس³ وأبي محمد الأصيلي⁴، ثم انتقل إلى القيروان فلقى كبير أئمتها أبا الحسن القابسي⁵ وأخذ عنه علما كثيرا، ومن القيروان يمم وجهه شطر المشرق حيث حظي بلقاء الإمام أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي الذي كان مقيما بطرابلس الغرب، فلزمه ومكث هناك يأخذ عنه فتاويه وشروحاته⁶، ثم استقر به المقام -حتى وفاته⁷- في "بونة" عاكفا على التأليف والتدريس حيث كان يعقد مجالسه العلمية بين أهلها وطلبة العلم الوافدين عليه من الأندلس وباقي الحواضر المغربية، غير أن المصادر التي ترجمت له لم تتحفظا سوى بمؤلفين له وهما "شرح لصحيح البخاري" و"تفسير لموطأ مالك"⁸، أما الأول فهو مفقود، ولم يبق منه سوى بعض النقول المتناثرة في كتب شروح البخاري كـ "فتح الباري" لابن حجر، و"عمدة

¹ - مروان بن علي البوني: هو أبو عبد الملك مروان بن علي البوني الأسدي القرطبي القطان، الأسدي نسبة إلى بني أسد بن عبد العزى، القرطبي نسبة إلى قرطبة من بلاد الأندلس، القطان لقب له ولأبيه لاشتغالهما بتجارة القطن، ينظر البوني(ت440هـ): تفسير الموطأ، تح أبي عمر عبد العزيز الصغير دخان المسيلي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، د ت، مج1، ص26.

² - لم تذكر جميع المصادر التي ترجمت له سنة ولادته، ينظر الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ص342. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص259. ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص345. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص512. مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج1، ص170.

³ - عبد الرحمن بن فطيس(ت402هـ/1012م): هو أبو المطرف، عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس بن أصبغ، من علماء الأندلس الذين نبغوا في التفسير والحديث وتاريخ الرجال، ولد بقرطبة سنة348هـ، وولي بها المظالم ثم قضاء الجماعة سنة 394 هـ، وبها توفي سنة402هـ وصلى عليه ولده، من آثاره دلائل السنة، المصاييح، كرامات الصالحين، الناسخ والمنسوخ، للمزيد عن ترجمته ينظر ابن بشكوال: الصلة، المصدر السابق، ص298، 300. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص22. محمد مخلوف: شجرة النور، مصدر سابق، ج1، ص152.

⁴ - عبد الله الأصيلي(ت392هـ/1002م): هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، نسبة إلى "أصيلا" من بلاد العدة، ولد بكورة "شبدونة" من بلاد الأندلس سنة 324هـ، رحل إلى المشرق وأقام به نحو ثلاث عشرة سنة، فأخذ من شيوخ إفريقية ومصر والحجاز والعراق، وحج سنة353هـ، ثم عاد إلى الأندلس فجلس للتدريس وأخذ عنه خلق كثير، وتولى قضاء سرقسطة، وقام بالشورى بقرطبة، وإليه انتهت رئاسة المالكية فيها، وبها توفي لإحدى عشرة ليلة بقت من ذي الحجة سنة392هـ، حلاه الذهبي بشيخ المالكية وعالم الأندلس، وقال عنه عياض كان من حفاظ مذهب مالك، للمزيد عن ترجمته ينظر ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص302. ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص138. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج12، ص484. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص150.

⁵ - أبو الحسن القابسي(ت403هـ/1013م): هو علي بن محمد بن خلف المعافري القروي، ولد سنة 324هـ، وأخذ عن علماء إفريقية، ثم رحل إلى المشرق وحج سنة 352هـ، وعاد إلى القيروان سنة357هـ، وهو أول من أدخل صحيح البخاري إلى إفريقية، كما كان من الأوائل الذين أظهروا مذهب أبي الحسن الأشعري وآرائه العقدية، توفي في ربيع الآخر من سنة 403هـ. ورغم أنه عاش أعمى فإن ذلك لم يثنه عن التدريس والتأليف، فقد كان له تلاميذ وأصحاب كثر، أفارقة ومغاربة وأندلسيين، كأبي عمران الفاسي، وأبي عمرو الداني...، وله تصانيف بديعة كالمهد في الفقه، وأحكام الديانات، ومناسك الحج... للمزيد عن ترجمته ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص92. ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص199. حاجي خليفة: كشف الظنون، مصدر سابق، ج2، ص873. السيوطي، جلال الدين(ت911هـ): طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ، ص419. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص145.

⁶ - يذكر الذهبي أنه لازمه خمسة أعوام أو أكثر، ينظر الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، مصدر سابق، ج29، ص507.

⁷ - ينظر الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ص342. أبو جعفر الضبي: بغية الملتبس، مصدر سابق، ص461.

⁸ - الاشبيلي، ابن خير(ت575هـ): فهرست ابن خير الاشبيلي، تح محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، ص76.

القارئ" للعيني و"إرشاد السالك" لشهاب الدين القسطلاني¹، وأما الثاني فهو محقق ومطبوع، كما يرجع الفضل إلى الشيخ البوني في حفظ مؤلفات أستاذه "الداودي"، فقد نصّ ابن خير الإشبيلي (ت575هـ/1179م) على أنّ تواليف أحمد بن نصر الداوديّ وجميع رواياته عن شيوخه يرجع سندها إلى البوني²، أمّا عن أشهر الطلبة الذين تتلمذوا على يديه ورووا عنه من الذين ذكّرتهم لنا كتب التراجم أبو القاسم حاتم بن محمد المعروف بابن الطرابلسي (ت469هـ/1077م)³ الذي قال عنه "كان رجلاً فاضلاً حافظاً نافذاً في الفقه والحديث"⁴، ومنهم أبو عمر ابن الحذاء (ت467هـ/1075م)⁵ الذي أثنى عليه بقوله "كان صالحاً عفيفاً عاقلاً، حسن اللسان رحمه الله"⁶، كما تتلمذ عليه إبنه علي بن مروان بن علي الأسدي (ت456هـ/1064م)⁷ وأخذ تآليف أبيه وحدث بها بها لما رحل إلى الأندلس، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ أغلب تلاميذ "البوني" سواء من الأندلسيين أم من حواضر المغرب الأوسط وإفريقية، غدّوا فيما بعد من كبار العلماء ومشاهير الفقهاء⁸، ولعلّ من أبرزهم تلميذه عمر بن عبيد الله بن زاهر الأندلسي (ت بعد440هـ/1048م)⁹ الذي استوطن "بونة" وعاش في ضلال الدولة الحمّادية وصار من أكابر فقهاءها.

أمّا من حاضرة الجزائر فقد برز الفقيه والمحدث أبو الحسن علي بن طاهر المعروف بابن محشرة¹⁰ ذو الأصول البجائية والنشأة الأندلسية، روى عنه ابن أخته "ابن الرقّامة" وابنه أبو الفضل محمد بن علي¹¹ وغيرهما، كما عُرف بها أيضاً الفقيه موسى بن حجاج بن أبي بكر الجزائري (ت589هـ/1193م)¹² المكنّى بأبي عمران، والذي تعود أصوله إلى مدينة "أشير"، حيث شغل إماماً ومفتياً ومدرّساً بجامعة الأعظم وذلك غداة عودته من الأندلس (540هـ/1146م) بعد أن مكث بها خمس سنوات يأخذ العلم عن أشياخ المالكية كابن العربي وابن

¹ ينظر خريّف زيتون: الإمام أبو عبد الملك البوني شارحاً لصحيح البخاري، مجلّة المعيار، ع35، س2014م، جامعة الأمير ع القادر، قسنطينة، الجزائر، ص56.

² الإشبيلي: فهرست ابن خير الإشبيلي، مصدر سابق، ص392.

³ ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص154.

⁴ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص259.

⁵ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص455.

⁶ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص259.

⁷ ابن الأتبار: التكملة، مصدر سابق، ج3، ص242.

⁸ أحصى محقق تفسير الموطأ للبوني 13 من تلاميذه، أوردتهم مرتّبين هجائياً وذكر شيئاً من تراجمهم، ينظر البوني: المصدر السابق، ص35 وما بعدها.

⁹ ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص377.

¹⁰ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص288.

¹¹ الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص53.

¹² ابن الأتبار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص182.

مسرة وغيرهما، وبالعاصمة الأولى "أشير" برز الفقيه والمحدث عبد الله بن محمد بن عبد الله الأشيري (ت561هـ/1166م)¹ المكتى بأبي محمد، والذي عاش متنقلاً بين حواضر العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، فسمع بالأندلس من ابن العربي وابن غزلون، وشغل بالمغرب كاتباً لسر صاحبها، وفي دمشق سمع من محدث الديار الشامية المؤرخ ابن عساكر الدمشقي، وذكر ابن نقطة الحنبلي أنه أسمع ببغداد وكان ثقة حافظاً²، أما ياقوت فقد حلاه بإمام أهل الشام في الفقه والأدب والحديث، يتنافس الناس إلى السماع عنه، ويتفاخر الملوك والوزراء بمجالسته والنهل من معينه³، كما عُرف بها الكاتب والأديب حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب (ت بعد669هـ/1271م)⁴، فإلى جانب نبوغه في الفقه والحديث فقد كان عارفاً بالقراءات واللغة والغريب، من مؤلفاته "مجموع في غريب الموطأ" و"نظم اللآلئ" في التاريخ.

كما تواصل عطاء عاصمة الرستميين في العهد الحمادي وظلت ولادة للفقهاء والعلماء في شتى المجالات، فعُرف بها الفقيه والمحدث أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان البزاز، الذي وُلد بتيهت ورحل صغيراً مع والده إلى الأندلس، ذكر الحميدي أنه حدث بكتابي "صريح السنة"، و"فضائل الجهاد" للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري⁵، ومنها كذلك اشتهر عبد الله بن محمد بن عيسى بن حسين التميمي والمكتى بأبي محمد، وُلد بفاس ثم رحل إلى الأندلس فسمع من فقهاء قرطبة ومرسية وشاطبة والمرية، وكان شغوفاً ولوعاً بمعرفة الحديث متناً وسنداً⁶، كما حدثنا صاحب "الصلة" عن فقيه تيهرتي دخل الأندلس واستوطنها يُعرف بعبد الله بن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان ويكنى بأبي محمد، وكان له متن في مناسك فريضة الحج⁷.

أما من حواضر بلاد الزاب فقد اشتهر بطبنة أبناء الشاعر زيادة الله بن علي بن الحسين الطنبلي، الذي رحل إلى الأندلس واستوطن قرطبة وبها توفي سنة415هـ/1024م، وكان من أشهر أبنائه الذين نبغوا في الأدب والفقه

¹ ابن كثير، عزالدین (ت630هـ): اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، لبنان، ص68. القفطي، علي بن يوسف (ت648هـ): إنباه الرواة عن أنباء التُّحاة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ، ج2، ص137 و ما بعدها. ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص304. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، المرجع السابق، ج1، ص399.

² ابن نقطة الحنبلي البغدادی، محمد بن عبد الغني (ت629هـ): إكمال الإكمال، تح عبد القيوم عبد ريب النبي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1410هـ، ج1، ص193.

³ ينظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء، مصدر سابق، ج1، ص203.

⁴ ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص218. تر رقم720.

⁵ الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ص142.

⁶ ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص303.

⁷ ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص288.

والحديث عبد الرحمان بن زيادة الله (ت401هـ/1011م)¹، كان ورعا زاهدا متنسكا راويا للحديث، ومنهم عبد العزيز بن زيادة الله المكّي بأبي الأصبع (ت436هـ/1045م)، كان له سماع ورواية عن قاضي قرطبة أبي الوليد يونس بن عبد الله (ت429هـ/1038م)²، أمّا ثالثهم فهو عبد الملك بن زيادة الله المكّي بأبي مروان (ت457هـ/1065م)، وُلد بقرطبة وأخذ عن كبار علمائها، ثمّ رحل إلى المشرق وحجّ، وله تقييدات كتبها عمّن لقيهم بالقيروان ومصر والحجاز³. كما ذكرت لنا كتب التراجم -من أهل طبنة كذلك- أبا الفضل عطية بن بن علي ابن عطية، ووالده أبا الحسن، أمّا الولد فقد عاش صغره في مكّة ثمّ ارتحل إلى بغداد وبها توفيّ سنة 532هـ/1138م، واشتهر بقرض الشعر زيادة على نبوغه في علم الحديث⁴، وأمّا والده الفقيه والمحدّث أبو الحسن علي بن عطية، فقد عاش أغلب حياته محدّثا في مكّة⁵.

وغير بعيد عن طبنة أنجبت حاضرة بسكرة⁶ الحمّادية العديد من مشاهير الفقهاء المالكية⁷، عُرف منهم بمصر الفقيه أحمد بن مكي بن أحمد بن قمود (ت بعد 516هـ/1122م) والمكّي بأبي العباس البسكري، رحل إلى المشرق واستوطن مصر فكانت له مشاركات في عدّة علوم⁸، كما اشتهر بها الشيخ أبو القاسم يوسف بن علي بن بن جبّارة، الفقيه الرخّالة⁹ المقرئ، البسكري مولدا، النيسابوري وفاة، المختصّ في اللغة و علم القراءات¹ فبلغ

¹ - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص298.

² - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص352.

³ - ابن ناصر الدين الدمشقي، محمد بن عبد الله (ت842هـ): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج6، ص41. ابن بسام الشنتريني: المصدر السابق، ج1، ص535. ابن بشكوال: المصدر السابق، ص343.

⁴ - عدّه السمعاني في جملة أصحاب الحديث، و حلاه صاحب الخريدة بالظريف الكيس، ذو النظم السلس...للمزيد ينظر السمعاني، أبو سعد (ت562هـ): الأنساب، تح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط1، 1382هـ/1962م، ج9، ص49. عماد الدين الكاتب الأصبهاني، أبو عبد الله (ت597هـ): خريدة القصر وجريدة العصر، ج2، ص881.

⁵ - ابن ماكولا، سعد الملك (ت475هـ): الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـ/1990م، ج5، ص264. السمعاني: المصدر السابق، ج9، ص49.

⁶ - نصّ ابن حوقل على أنّ المسافة بين طبنة و بسكرة تقدّر بمرحلتين، و المرحلة في الفقه المالكي هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم، ينظر ابن ابن حوقل: صورة الأرض، ج1، ص88. العدوي، أبو الحسن (ت1189هـ): حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، تح يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ/1994م، ج2، ص322.

⁷ - ذكر "البكري" المعاصر للدولة الحمّادية أنّ بسكرة بما علم كثير و أنّ أهلها على مذهب أهل المدينة (مذهب الإمام مالك)، ينظر البكري: المسالك المسالك و الممالك، ج2، ص713.

⁸ - ابن ماكولا: الإكمال، ج1، ص459. محمد المراكشي: الذيل و التكملة، السفر الخامس، ص136. بن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تح محمد علي النجار، مرا علي محمد الجاوي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د ت، ج4، ص1506.

⁹ - قال عنه ياقوت الحموي بأنّه طاف البلاد في طلب القراءات، و حلاه الذهبي بالجوال، و قال بأنّه أحد الذين طوّفوا الدنيا في طلب القراءات، و رحل من أقصى المغرب إلى بلاد الترك، ينظر الحموي، ياقوت (ت626هـ): معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، دار

فيهما شأوا عظيما حتى شاع ذكره في الأفواه، وبلغ صيته أقصى مدى الأسماع²، فاستدعاه الوزير السلجوقي نظام الملك وأقره للتدريس في المدرسة النظامية بنيسابور سنة 458هـ/1066م، فمكث بها سنين مقرئا ومدرسا حتى وفاته سنة 465هـ/1073م³ تاركا وراءه مصنفه الشهير "الكامل" في علم القراءات، المصنف الجامع للطرق المتلوة والقراءات المعروفة، قال عنه الذهبي فيه خمسون رواية من أكثر من ألف طريق⁴، وهو الكتاب الذي أبان فيه عن همة عالية وعزيمة كبيرة في الطلب إذ يقول فيه: "وجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخا من آخر المغرب إلى باب فرغانة يمينا وشمالا، وجبلا وبحرا، ولو علمت أحدا تقدم علي في هذه الطبقة في جميع بلاد الاسلام لقصدته"⁵

كما اشتهرت -من حواضر بلاد الزاب- "المسيلة" القريبة من قلعة بني حماد⁶، والتي كانت بمثابة الخزان الاقتصادي والثقافي لعاصمتي الدولة؛ القلعة وبجاية، ومن أعلامها الذين دخلوا الأندلس في القرن الخامس الهجري الفقيه المالكي أبو علي حسين بن محمد بن سلمون، الذي كانت له مشاركات في عدة علوم، ووُلي خطة الشورى بقرطبة، فُعرف بالعفاف والتواضع، توفّي في آخر شوال سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ودُفن بمقبرة العباس بقرطبة وصلى عليه قاضيها⁷، ومنها كذلك عبد الله بن حمّو المسيلي المكّي بأبي محمد (ت473هـ/1080م)، كان عالما بفروع الفقه المالكي وأصوله، تولى قضاء سبتة، ثم استوطن ألمرية بالأندلس وبها توفّي⁸.

هذا وأودّ أن أشير في خاتمة هذا المبحث إلى ملاحظتين أساسيتين:

-
- الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م، ص2849. الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1997م، ص239.
- ¹ - ذكر صاحب الإكمال المعاصر له، أنّه كان يدرّس "التحو"، وقال عنه الحموي بأنه كان عالما بالقراءات والعربية، ينظر ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص459. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، مصدر سابق، ص2849.
- ² - حاله شيخ الإقراء في زمانه "ابن الجزري" بالعلم الشهير والأستاذ الكبير، وقال لا أعلم أحدا في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته ولا لقي من لقي من الشيوخ مثله، ينظر ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد (ت833هـ): غاية النهاية في طبقات القراء، تح ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ج2، ص345.
- ³ - تنظر ترجمته عند ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص642. ابن نقطة: إكمال الإكمال، مصدر سابق، ج2، ص23، تر رقم1043. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج5، ص282. حاجي خليفة، كشف الظنون، مصدر سابق: ص1381. ابن الجزري: غاية النهاية، مصدر سابق: ص345. خميسي فريخ: من علماء القراءات في القرن 5هـ أبو القاسم يوسف الهذلي البسكري، مجلة المقدمة للدراسات الانسانية والاجتماعية، جامعة باتنة1، الجزائر، مج7، ع1، جوان 2022، ص925 وما بعدها.
- ⁴ - الذهبي، شمس الدين: تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج30، ص514.
- ⁵ - يوسف بن علي بن جبارة، أبو القاسم (ت465هـ): الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها، تح جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للنشر والتوزيع، ط1، 1428هـ/2007م، ص05.
- ⁶ - الحميري: الروض المعطار، مصدر سابق، ص558.
- ⁷ - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص145. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص300.
- ⁸ - ابن بشكوال: المصدر نفسه، ص287. عادل نويهض: المرجع نفسه، ص300.

الأولى: اعتقادي بوجود الكثير -ممن لم نذكر- من الفقهاء والمحدثين الذين نشأوا في قرى وأرياف الحواضر الحمّادية التي ذكرنا، سواء الذين لا زالت أَسْمَاؤُهُم مغمورة بين ثنايا المخطوطات، أم أولئك المجهولة أَسْمَاؤُهُم فضلا عن تراجعهم ومجهوداتهم، لاسيما من الذين لم يخوضوا غمار الترحال وآثروا الاستقرار في مواطنهم فلم يؤبه بهم و لا بمجهودهم العلمية، إهمالا وتقصيرا، أو نكرانا وجحودا، وهو ما أشار إليه الكاتب المغربي "عبد الله كنون" في قوله: "فهل تريد دليلا أقوى من هذا على إهمالنا لنبغائنا، وعدم إنصافنا لهم حتّى بعد الممات؟ وهل آن لنا أن نتخلّص من هذا الإهمال الذي قضى على جُلِّ مآثر أسلافنا؟"¹ وهو ما تأسّف له الفقيه المالكي "محمد الحجوي" صاحب كتاب "الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي" عندما قال: "ليت المغاربة كان لهم ولوع بالتاريخ، وبالأخص تاريخ الرجال... فليتنبه إخواننا إلى الاعتناء بتراجم الرجال وإظهارهم مظاهيرهم، فالأمة برجالها، والسّهام بنصالحها، وليترجم الناس لأنفسهم بأنفسهم ... حتى لا تضيع حقائق من حياتهم، ربما تُطلب فلا توجد، وكم ضاعت من حقائق بإهمال هذا الفنّ لم يُجدِ الأسفُ عليها شيئا."²

الثانية: قلّة الإنتاج الفقهي المدوّن لأغلب الأعلام الذين ترجمنا لهم، راجع -ربّما- إلى الاعتماد على الذاكرة والرواية الشفوية، ممّا يجعل تتبّع فتاويهم وأحكامهم الفقهية -خاصّة تلك التي خالفوا فيها المدرسة المصرية أو الأندلسية- أمرا في غاية الصعوبة، كما أنّ ندرة التّأليف لدى فقهاء الدولة الحمّادية قد يعود إلى تركيزهم على تكوين الطلبة والتلاميذ، فكثرة التّأليف في العلوم -كما يقول ابن خلدون- عائقة عن التّحصيل³، وهذا هو النهج الذي سلكه أبرز جهابذة الجزائر المعاصرين، فهذا رائد النّهضة الجزائرية "عبد الحميد بن باديس" عاش يؤلّف النفوس ويغرس النّفيس، ويبيّن الرّجال ليصنع الجبال⁴، وكان ردّه لما سُئل عن قلّة تآليفه بأنّه شُغل بتأليف الرّجال الرّجال عن تأليف الكتب⁵، أمّا الشيخ البشير الإبراهيمي فقال: "لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلّى بأني ألّفتُ للشعب رجالا وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده"⁶.

¹ - عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم و الأدب و السياسة، تق محمد بن عزّوز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/2010م، ج1، ص1329.

² - محمد الحجوي: المرجع السابق، ج1، ص9.

³ - ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص727.

⁴ - ابن باديس، عبد الحميد(ت1359هـ/1940م): العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، رواية محمد الصالح رمضان، الشركة الجزائرية مراوقة بوداود، الجزائر، ط2، ص9.

⁵ - ينظر ابن باديس، عبد الحميد: تفسير ابن باديس، تع أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ/1995م، ص9.

⁶ - الإبراهيمي، محمد البشير(ت1385هـ): آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع و تق أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ج1، ص06.

ثالثا: دولة المرابطين¹، حاضنة المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط

اعتلت دولة المرابطين (448-541هـ/1056-1146م) المسرح السياسي لبلاد المغرب منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، وسجّلت سطورا ناصعة في تاريخ الغرب الاسلامي على مختلف الأصعدة، ففي الجانب السياسي تمكّن المرابطون من تكوين امبراطورية قضت على الفوضى والاضطرابات التي شاعت زمن تغلب القبائل الزناتية² والهلالية، كما اتّسعت مناطق نفوذها لتمهّد الطريق لوحدة الغرب الاسلامي التي أنجزها الموحدون من بعدهم، فشملت مجالاتها- إلى جانب المغرب الأقصى حيث العاصمة مراكش³ - الأندلس والجزء الغربي من المغرب الأوسط، وهو ما فشلت في تحقيقه الدويلات التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب من قبل، أمّا من الناحية الجهادية والعسكرية فقد أبانت هذه القبائل البدوية عن عزيمة قتالية⁴ أضفت طاقة وزخما جديدا للتصدي للخطر للخطر الصليبي الذي يترّص بدولة الإسلام في الأندلس، فكسبوا بذلك رهانات كبرى كانت فاتحتها "الزلاقة"⁵ سنة 479هـ/1086م، وعلى الصعيد المذهبي والدّيني، كانت دولة الملتّمين⁶ تدين بالولاء للخلافة العبّاسية ببغداد¹، وتتخذ من المذهب السني المالكي شعارا ومشروعا لها، حتّى وُسّعت بدولة فقهاء المالكية.

¹ - تعدّدت الروايات التاريخية التي توصّل لتسمية "المرابطين" بهذا الاسم، فبعض المؤرّخين ينسبها إلى الرباط الذي أنشأه فقيه الدولة و أحد أبرز مؤسسيها "عبد الله بن ياسين" بأعالي حوض نهر السنغال عند بداية دعوته الإصلاحية، في حين يرجعها بعض المؤرّخين إلى ما قبل ذلك بكثير، حيث أوعزوا هذا الاسم إلى "دار المرابطين" المدرسة المالكية التي أسّسها الفقيه الملمّي "وجاج بن زلو" و التي تخرّج منها عبد الله بن ياسين ذاته، بينما نسبها آخرون إلى يوسف بن تاشفين و جيوشه لما جازوا إلى الأندلس و ملكوا شبه الجزيرة بأسرها، للمزيد ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص243. القاضي عياض: المصدر السابق، ج8، ص81. المراكشي: المعجب، ص123.

² - ينظر حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، مرجع سابق، ص170.

³ - مراكش: بفتح الميم و تشديد الزاء و ضمّ الكاف و شين معجمة، مدينة عظيمة في بسيط الأرض من بلاد المغرب تبعد عن البحر مسافة عشر مراحل، كانت -قبل أن يحتلّها يوسف بن تاشفين في حدود470هـ- موضع مخافة يسطو فيه للصّوص على القوافل، حتّى قيل أنّه إذا انتهت إليه القوافل قالوا "مراكش" و تعني بالبربرية "امش مسرعا"، ينظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص94. الحميري: المصدر السابق، ص540.

⁴ - و لهم في قتالهم شدّة و جلد ليس لغيرهم، ينظر البكري: المصدر السابق، ج2، ص327.

⁵ - الزلاقة: سهل متّسع جنوب غربي بطليوس بالأندلس، يعرف بالإسبانية Sagrajas وقعت فيه أوّل و أشهر مواجهة عسكرية مني فيها جيش النصراري بقيادة ألفونسو السادس بهزيمة مروعة أمام جيش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين في شهر رجب 479هـ/1086م، ينظر الحميري: المصدر السابقة ص288. مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار الأندلسية، تح سهيل زكار و عبد القادر زمامه، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1399هـ/1979م، ص56 و ما بعدها. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997م، ج2، ص320 و ما بعدها. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ت، ص239.

⁶ - يطلق على المرابطين أيضا "الملتّمين" لتمييزهم بالثّنام الذي يضعونه على وجوههم و لا يزيلونه ليلا و لا نهارا، و جاء في سبب استعمالهم له أقوال كثيرة، فقيل حماية لوجوههم من لحيف الصحراء و صقيعها، أو من الغبار الذي تثيره عواصفها، و قيل أسوة بأجدادهم اليمانيين، و ذكر آخرون أنّه يستعمل للتمويه في الحروب حتّى لا يعرف الشيخ من الشاب و لا الرجل من المرأة، غير أنّ ابن حوقل الذي يعتبر أوّل من ركّز على هذه العادة من لباس الصنهاجيين، يذكر تفسيراً غريبا لهذه الظاهرة، و هي أنّهم -على حدّ قوله- يزعمون أنّ الفم سوءة تستحقّ الستر كالعورة، نظرا لما يخرج منه، للمزيد ينظر ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق، ص102. البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص332. ابن الأثير: الكامل في

1. البُعد المالكي من جذور النشأة حتى عصر التمكن:

قبل الخوض في بذور النشأة الفقهية لدولة المرابطين، أودّ أن أشير إلى الأصول التاريخية لقبائل صنهاجة وأهمّ بطونها، وذلك يتطلّب الرجوع إلى كتب التّسابية التي تذكر -أغلبها- عند الحديث عن قبائل صنهاجة المرابطين أنّ أصولهم عربية²، وأنهم مجموعة من القبائل الحميرية اليمنية التي يعود نسبها إلى صنهاج بن حمير بن سبأ³، وفدّ أجدادهم إلى شمال إفريقيا نازحين من بلاد اليمن في تاريخ غير محدّد، بينما يرى آخرون أنّ شُعَب صنهاجة من أصول بربرية⁴، يعود أصلهم إلى فرع البرانس أكثر قبائل أهل البربر عدداً⁵، استوطنت هذه القبائل المناطق الشمالية القريبة من الساحل، والأراضي الخصبة المحيطة بجبال الأوراس، كما توغّل قسم منهم في الجزء الشرقي من جبال الأطلس الكبرى، حتّى دفعت بهم القبائل الزناتية في القرن الرابع الهجري إلى تجاوز تلك المناطق ليصلوا إلى حوض نهر السنغال أول أنهار إفريقيا المدارية غرباً⁶، ومع ذلك فقد استطاع شعب صنهاجة أن ينهض من جديد، ويكتب لنفسه ببلاد المغرب تاريخاً عريقاً، كتبت عنوانه صنهاجة الشمال بتأسيسها لدولة بني زيري، ثمّ آلت الرّعاية لصنهاجة الجنوب لتؤسّس -بدورها- دولة المرابطين.

ومهما يكن من أمر فإنّ صنهاجة -كما يذكر المؤرخون- شعب عظيم ينقسم إلى قبائل كثيرة العدد قيل أنّها تتجاوز السبعين⁷، وفي كلّ قبيلة بطونا وأفخاذا و قبائل أكثر من أن تعدّ، ولكلّ مضاربها المعلومة و مجالها الذي

التاريخ، مصدر سابق، ج8، ص138. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج7، ص129، 130. مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص18، 19.

¹ مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مرجع سابق، ج2، ص284.

² ممّا يلاحظ في دراسة أنساب سكّان بلاد المغرب مع وبعد الفتح الإسلامي، ربطها بالأصول العربية الشرقية، وذلك لتشابه طبائع البربر مع العرب في كثير من مناحي الحياة، كما أنّ ذلك الربط مدعاة لإزالة الفروق بين الجنسين البربري والعربي باعتبارهم من أصول مشتركة، بل يصل الأمر ببعض القبائل الأمر إلى اختلاق نسب عربي لها بمكّنها من المشاركة في الحياة السياسية وتحقيق لها المساواة مع القبائل العربية، ينظر حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص37.

³ وهذا ما ذهب إليه ابن أبي زرع من أنّ صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، أمّا ابن خلدون فيذكر أنّ نسبة العرب اختلفوا في نسب صنهاجة وكتامة، ثمّ يرجّح ما ذهب إليه الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والبيلي من أنّهم من قبائل العرب اليمنية، ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص16. مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص18. ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص119، 120.

⁴ مؤلف مجهول: مفاخر البربر، تح عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب، ط1، 2005م، ص186.

⁵ يذكر ابن خلدون أنّ علماء النسب متفقون على أنّ شعوب البربر يجمعهم جذمان عظيمان هما برنس و ماذغيس، و يلقّب ماذغيس بالأبتر فيقال لشعوبه البتر، و أمّا البرانس فهم أبناء برنس و تجمعهم سبعة أجدام وهي ازداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريفة. ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص116، 117.

⁶ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب و الأندلس، مرجع سابق، ص181.

⁷ ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص120. السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مصدر سابق، ج2، ص3. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص39.

تجوس فيه، أموالهم الأنعام و قوتهم اللحم و اللبن، يعيشون حياةً تعتمد على الرعي والترحال ولا يعرفون حرثاً ولا زرعاً¹، أمّا عن ديانتهم فيذكر ابن خلدون أنّهم كانوا على الديانة المجوسية وعبادة الأوثان²، بينما يذكر صاحب الحلل الموشية أنّهم كانوا يعتنقون النصرانية حتّى تسرّب إليهم الإسلام مطلع الفتوحات الإسلامية³، وتشير المصادر المصادر إلى أنّ أهمّ هذه القبائل وأكثرها شهرة قبيلتي لمتونة⁴ وجدالة⁵ اللتين كانتا تتنازعان زعامة صنهاجة و رئاستها، وهما اللتان تحمّلتا العبء الأكبر في قيام دولة المرابطين خاصّة في مرحلة الدّعوة، أمّا في مرحلة الكفاح المسلّح فقد تمتّعت قبيلتي لمطة⁶ ومسوفة⁷ -كذلك- بمراكز متميّزة من خلال مشاركة أعيانهما في الزحف من الجنوب نحو شمال المغرب الأقصى، ثمّ تولّاهم المناصب الهامّة والوظائف العليا في الدّولة.

وترجع البذرة الأولى لدولة المرابطين إلى مطلع القرن الخامس الهجري (11م)، حيث آلت زعامة صنهاجة إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي تمكّن من تشكيل حلفٍ يجمع القبائل الصنهاجية تحت سلطته، وكانت الفكرة تحديداً في طريق عودته من أداء فريضة الحج سنة 427هـ/1036م، إذ التقى في القيروان بالفقيه المغربي أبي عمران الفاسي (ت430هـ/1039م)⁸، فمكث عنده وحضر مجالسه، وأخبره بأحوال قومه ومدى حبّهم للخير

¹ - البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص324. ابن أبي زرع: الأئيس المطرب، مصدر سابق، ص120. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص241

² - ابن خلدون: المصدر نفسه، ج6، ص142، ص242.

³ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص17.

⁴ - لمتونة: قيل أنّ جدّهم "لمت" و قيل أنّ اسمهم مشتقّ من ثوبهم البسيط "اللمت"، للمزيد عن أصولهم و أماكن تواجدهم ببلاد المغرب ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص324. مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص213. الادريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، ص223. يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين، تر و تع محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1417هـ/1996م، ج1، ص67.

⁵ - جدالة: وتكتب أيضاً "كدالة"، للمزيد عن مضارهم و أصولهم ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص325، ص335. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص252. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص47. حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1980، ص297.

⁶ - لمطة: و سمّوا كذلك لوجود حيوان "اللمط" ببلادهم، وقيل نسبة إلى جدّهم "لمط" ينظر مؤلّف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص214. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص122. ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق، ص92. البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص333.

⁷ - مسوفة: نسبة إلى جدّهم "مسطوف" و قيل "مسفو" حسب ابن خلدون، ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص304. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص122. مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص17. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص47. حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص298.

⁸ - ترجمته عند الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ج338. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص243. أبو جعفر الضبي: بغية الملتبس، مصدر سابق، ص457.

وحاجتهم إلى من يُقرئهم القرآن و يعلمهم شرائع الاسلام¹، فأرسله أبو عمران إلى بلاد نفيس من أرض المصامدة بالسوس الأقصى ودلّه على فقيه ورع كان ممن أخذوا العلم عنه يقال له "وجّاج بن زلّو اللمطي"²، فما إن وصله وقرأ كتابه³ حتّى اختار له أحد تلاميذ رباطه، و هو الفقيه "عبد الله بن ياسين الجزولي"⁴، ليتّجها معا نحو القبائل الصنهاجية بالصحراء، حاملين مشروعاً دينياً صرفاً، والذي تحوّل -من بعد- إلى مشروع سياسي⁵، حيث روى لنا البكري(ت487هـ/1094م) في مسالكه -وهو المعاصر لقيام دولة المرابطين- تفاصيل أعمال عبد الله بن ياسين الدعوية ثمّ العسكرية مع قبائل جدالة و لمتونة، كما حدّثنا في ذات السياق على أعماله التوسعية في درعة و سلجماسة وأودغست⁶، ثمّ مقتله على يد برغواطة⁷ ببلاد تامسنا سنة 452هـ/1060م⁸ بعد استيلائه استيلائه على جميع بلاد المصامدة واستخلافه لأبي بكر بن عمر اللمتوني⁹، هذا الأخير الذي استخلف ابن عمّه

¹ - للاطلاع على نص الحوار الذي جرى بين يحيى بن إبراهيم وأبي عمران ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص325، 326.

السلامي: الاستقصا، مصدر سابق، ج2، ص5. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص122، 123.

² - ينظر ابن الزّيات، التادلي(ت617هـ): التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م، ص89. السلامي: الاستقصا، مصدر سابق، ج2، ص7.

³ - نص الرسالة عند ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص123. السلامي: الاستقصا، مصدر سابق، ج2، ص7.

⁴ - عبد الله بن ياسين: لم نعر له في كتب الطبقات المغربية إلّا عن ترجمة مختصرة مشوّشة أوردتها القاضي عياض لا ترقى لقيمة هذا الشخص المصلح المؤسّس، أمّا عن نسبه فقد ذكر أغلب المؤرخين أنّه ينتسب إلى قبيلة جزولة الصنهاجية، أبوه يدعى ياسين بن مكوك بن سير على، و أمّه "تين يزمارن" من أهل جزولة كذلك، و انفرد صاحب الحلل الموشية بذكر قصّة رحيله إلى الأندلس بينما لم نجد له ذكراً في كتب الطبقات الأندلسية سوى ما ذكره ابن بشكوال من أنّ أحد علماء الحديث روى عنه، للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج8، ص81. البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص326. مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص20. ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص410. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج4، ص144. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ص62.

⁵ - ينظر محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس، مرجع سابق، ج2، ص307.

⁶ - ذكر لنا البكري كذلك أفعالا و أحكاما شاذة -نشكك في صحتها- كان يطبقها عبد الله بن ياسين على أتباعه، للمزيد ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص326 و ما بعدها. محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس، المرجع السابق، ج2، ص307.

⁷ - عن أصول برغواطة وديانتهم ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص276. السلامي: الاستقصا، مرجع سابق، ج2، ص15.

⁸ - يذكر صاحب الأنيس المطرب أنّه توفّي سنة 451هـ، للمزيد ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص330. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص132. مجهول: الحلل الموشية، ص23.

⁹ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص502. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج2، ص68. محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس، مرجع سابق، ج2، ص308.

"يوسف بن تاشفين"¹ على بلاد المغرب لما عُرف عليه من دين و ورع، و شجاعة و سداد رأي، في الحين توجه بنفسه جنوبا إلى الصحراء غازيا بلاد السودان حتى استشهد سنة 480هـ/1087م².

ولئن اعتبرنا عصر "عبد الله بن ياسين" هو عصر التأسيس للدولة المرابطية، فإن عصر الأمير "يوسف بن تاشفين" يُعتبر أزهى عصور الدولة توسعا و تمكينا، فبعد تأسيسه للعاصمة "مراكش" واستيلائه على معظم مدن و حواضر المغرب الأقصى وجه ابن تاشفين جهوده نحو المغرب الأوسط لتصل جيوشه -سنة 474هـ/1081م- إلى جزائر بني مزغنة³، و لو ابتغى الذهاب إلى أبعد من ذلك مشرقا لوصل⁴، وفي سنة 479هـ/1086م عبر بجيوشه بجيوشه البحر إلى الأندلس نصرة للإسلام و تلبية لنداء ملك إشبيلية، فحقق هناك انتصارات ساحقة، و أطاح بعروش ملوك الطوائف الواحدة تلو الأخرى، و بذلك يكون قد دان له من الملك ما لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله⁵، فأورث ابنه وخليفته "علي بن يوسف بن تاشفين"⁶ سنة 493هـ/1100م إمبراطورية مترامية الأطراف مكّن فيها الأمير الجديد لأهل الفقه و الدين، و بوأ فيها فقهاء المالكية المكانة العليا، حتى أنه كان لا يقطع أمرا دون استشارتهم، و لا يفصل في حكم إلا بحضورهم⁷.

2. فقهاء المالكية بحواضر المرابطين بالمغرب الأوسط:

تشير المصادر التاريخية إلى أنّ الجزء الغربي من بلاد المغرب الأوسط والذي يمتدّ إلى الغرب من بجاية حتى حاضرة تلمسان حيث السيطرة المطلقة للقبائل الزناتية، كان بمثابة الفاصل بين دولة بني حماد حيث صنهاجة الشمال التي تترّع على عرش بجاية وما ولاها مشرقا، وبين دولة المرابطين التي كانت تحوز المغرب الأقصى وبلاد السودان

¹ - يوسف بن تاشفين: ترجمته عند ابن خلكان: المصدر السابق، ج7، ص112. الذهبي: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج14، ص228. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج5، ص427. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص222. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص136. محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس، مرجع سابق، ج2، ص313.

² - ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص135.

³ - للمزيد حول توسّعات ابن تاشفين في المغرب الأوسط ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص143. كمال شبانة: الدويلات الإسلامية في المغرب، دار العالم العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1429هـ/2007م، ص44.

⁴ - ينظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج14، ص228.

⁵ - عن حدود مملكة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين ينظر السلاوي: الاستقصا، مرجع سابق، ج2، ص60.

⁶ - علي بن يوسف بن تاشفين: هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثاني أمير لدولة المرابطين، وُلد بسبّطة سنة 477هـ، و بوع بالخلافة بالخلافة بعد وفاة أبيه و بعهد منه سنة 500هـ، انتهج نهج أبيه في جميع أموره، وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، عُرف عنه تعظيمه للفقهاء، و مقتته علم الكلام، فنفتت في أيامه كتب الفروع، و أمر بإحراق كتب الغزالي و توعد بقتل من كتبها، و في أيامه ظهر محمد بن عبد الله بن تومرت، مهدي الموحدين، فعجز عن ردّ فتنته، واضطربت أمور مملكته، ومات غمّا في مراكش سنة 537هـ، و لم يُذع خبر وفاته إلا بعد ثلاثة أشهر منه. للمزيد ينظر الصفدي، صلاح الدين خليل (ت764هـ): الوافي بالوفيات، تح أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1420هـ/2000م، ج22، ص212. السلاوي: الاستقصا، مرجع سابق، ج2، ص61. الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، ج5، ص33.

⁷ - ينظر عبد الواحد المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص130.

بالإضافة إلى الأندلس، لكن —و كما أشرنا سالفًا— فإنّ هذه المنطقة كانت ضمن توسّعات يوسف بن تاشفين، فبعد أن ضُمَّت جيوشه تلمسان سنة 472هـ/1080م¹، توجّه سنة 474هـ/1082م نحو وجدة ومنها إلى تنس ووهران وجبال ونشريس وأعمال الشلف حتى جزائر بني مزغنة، فأضحت هذه الحواضر الزناتية تحت سيطرة المرابطين في الوقت الذي لم يتمكّن فيه الحمّاديون من السيطرة عليها لاشتغالهم بالقبائل الهلالية الوافدة من المشرق من جهة، والمحافظة على حسن الجوار والعلاقة الودّية مع بني عمومته المرابطين من جهة أخرى².

وحثّى وإن أشارت المصادر إلى أنّ المجال المرابطي امتدّ نفوذه إلى الجزء الغربي من المغرب الأوسط ليضمّ كلاً من تلمسان ووهران وتنس ومليانة وجبال ونشريس والشلف والجزائر، إلّا أنّ شُحّ المعلومات عن واقع الحركة العلمية والفقهية بهذه الحواضر أضفى نوعاً من الضبابية والغموض عن الحركة الفقهية وأبرز أعلامها في هذه الفترة، فكانت كلّ استنباطاتنا إمّا من المصادر الأندلسية التي ترجمت لأولئك الوافدين من الأندلس إلى حواضر المغرب الأوسط، أو من المصادر الموحدية لاسيما تلك التي أرّخت لرحلة المهدي بن تومرت ونقاشاته لفقهاء المرابطين بالحواضر التي مرّ بها أثناء عودته من المشرق، ولعلّ أبرز ما أبانت عنه تلك المصادر نشاط حركة الرحلة و التواصل بين حواضر الأندلس و حواضر الساحل الغربي للمغرب الأوسط خصوصاً بعد حركة الاسترداد الأسبانية، واستيلاء النصارى على بعض المدن الأندلسية، وهو ما تجلّى في تزايد أعداد الوافدين من الطلبة و الفقهاء، كما أظهرت لنا —بتحديد— المكانة التي تبوّأها حاضرة تلمسان³ خاصّة بعد تأسيس "تاجرات"⁴ التي اتخذ منها أمراء المرابطين عاصمة لولايتهم و لولايتهم و مقرّاً لحكمهم بالمغرب الأوسط، وشيّدوا بها القصور والجوامع، فاستبحر عمرانها وازدهرت حركة العلوم بها حتّى أضحت مركزاً لاستقطاب أعلام المذهب المالكي، وغدا مسجداً الجامع مؤسّسة تعليمية يقصده العلماء و الطلبة من شتّى الحواضر، فكان ممّن نبغ بها في مجال الفقه و الأصول، قاضيهما الفقيه المالكي أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية بن سعيد العكّي (ت525هـ/1131م) وهو الذي ذكره القاضي عياض —و أثني عليه— في فهرست شيوخه الذين درس عنهم أصول الفقه⁵، بل أنّ هناك ممّن وفد إليها واتّخذها موطناً و أضحي من أعلامها، كالشيخ

¹ - و قبل سنة 468هـ، ينظر مؤلف مجهول: الحلال الموشية، مصدر سابق، ص28.

² - ينظر عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م، ج2، ص53، 54.

³ - أثير هنا إلى أنّ تلمسان القديمة (أجادير) كانت منارة للعلم و قلعة للعلماء و المحدثين على مذهب مالك حتّى قبل خضوعها لحكم المرابطين، ينظر ينظر البكري: المصدر السابق، ج2، ص213.

⁴ - تاجرات: أو "تاكراوات" مدينة اختطّها يوسف بن تاشفين بالقرب من تلمسان القديمة سنة 473هـ، ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص62.

⁵ - ينظر القاضي عياض (ت544هـ): فهرست شيوخ القاضي عياض (الغنية)، تح د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1463هـ/2003م، ص36.

كالشيخ أبي الحسن جابر بن أحمد بن إبراهيم القرشي التلمساني الذي اشتهر بمعرفة الرجال وحبّه للحديث و تحصيله¹، و ارتحل إليها من بلنسية الفقيه الراوية أبو بحر سفيان بن العاص بن أحمد الأسدي البلسي(ت520هـ/1126م)²، ومن طليطلة وفد إليها الفقيه أبو جعفر أحمد بن غزلون، ومكث بها حتى وفاته سنة524هـ/1130م³، ومن أغمات انتقل إليها العالم الفقيه و الولي الصالح أبو محمد عبد السلام التونسي، فاستقرّ بها معلّمًا و مدرّسًا حتى وافته المنية سنة 530هـ/1136م، وقره بالعباد إلى اليوم⁴

كما شهدت حاضرة "متيجة"⁵ في العهد المرابطي ازدهارا علميا وحركية فقهية لم تشهدها من قبل، فقد حدّثنا البيدق البيدق أنّ ابن تومرت كان له لقاء مع فقيهين متّيجيين -نزل و بات عندهما- لما كان عائدا من المشرق مطلع القرن 6هـ/12م، وهما جبارة بن محمد و الفقيه أبي زكريّا⁶، ورغم إغفال كتب التراجم لسيرة هذين العلمين إلّا أنّ مجالسة المهدي لهما والمبيت عندهما تُبيّن لنا -بما لا يدع مجالا للشكّ- علوّ كعبهما وعِظم مكانتهما في المجتمع المتيجي، كما اشتهر منها الفقيه "أبو علي المتّيجي" الذي رحل إلى أغمات ومكث بها أيام يوسف بن تاشفين⁷ وعاش إلى عشرة الثلاثين و خمسمائة⁸، فكان من المقدّمين في التدريس و الفتيا، ذكره القاضي عياض في معرض حديثه عن شيوخته، وقال بأنّه عاصر شيخه الفقيه عبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي وأثنى عليه⁹، ولقد خلّف المتيجي مؤلّفات عديدة منها "دلائل القبلة"¹⁰.

¹ - ينظر ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص201.

² - ينظر القاضي عياض: الغنية، مصدر السابق، ص205.

³ - ينظر بوهني مصطفى: الإشعاع الفكري و الثقافي لتلمسان في المغرب الأوسط من ق6 إلى ق8هـ، مجلّة البدر، جامعة بشّار، الجزائر، مج9، ع11، س2017م، ص533

⁴ - ينظر ابن مريم التلمساني: البستان، مصدر سابق، ص122. ابن الزيات، أبو يعقوب التادلي(ت617هـ): التشوّف إلى رجال الصوّف، تح أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م، ص110 (تر رقم13).

⁵ - متّيجة: بفتح الميم و كسر التاء و تشديدها، ثمّ ياء مثناة و جيم مفتوحة، قيل أنّه اسم لقبيلة بربرية كانت تستقرّ في ذلك المكان، و قيل أنّه اسم لسهل خصب، و أنّ القبيلة التي استقرّت به أخذت اسمها منه، بينما يرى فريق ثالث أنّ "متيجة" مصطلح طبوغرافي يعني السهل الفسيح، للمزيد حول أصل التسمية و سببها ينظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص53. الذهبي: المصدر السابق، ج46، ص285. يعقوبي: المصدر السابق، ص191. خديجة بورملة: إقليم متيجة خلال العصر الوسيط، مجلّة عصور الجديدة، جامعة وهران1، الجزائر، مج11، ع2، س2021م، ص272.

⁶ - ينظر البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحّدين، تح عبد الوهاب منصور، دار المنصورة للطباعة و الورق، الرباط، المغرب، 1971م، ص18.

⁷ - للمزيد عن عصر هذا الفقيه و الحقبة الزمنية التي عاش فيها ينظر طيايية تقي الدين: التحقيق من عصر الفقيه أبي علي المتيجي، مجلّة المعارف للبحوث التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، مج4، ع4، س2018م، ص327.

⁸ - ابن حجر العسقلاني(ت852هـ): تبصير المنتبه بتحرير المشته، تح محمد علي النجار، مرا علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ص1394.

⁹ - القاضي عياض(ت544هـ): الغنية، مصدر سابق، ص155.

¹⁰ - أبو علي المتيجي: دلائل القبلة، تح نصيرة عزرودي، منشورات مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس، قسنطينة، الجزائر، 2017م، ص18.

كما أتحفنا البيدق - في معرض حديثه عن رحلة المهدي إلى مراكش - بأسماء علميين من حاضرتي "ونشريس" و"شلف"، وهما الفقيه أبو الربيع، وعبد الله بن محسن الونشريسي المكّي بالبشير¹، ومن حاضرة الجزائر التي كانت مقصداً للأندلسيين، حدّثنا ابن الأبار عن شخصية فقهية أصولية بارزة تُعرف بأحمد بن عبد الله بن خميس الأزدي ويكّني بأبي جعفر، من أهل بلنسية سمع من أبي بكر بن العربي ثم استوطن الجزائر وبها توفي، ودُفن عند باب الفخارين على ساحل البحر سنة 547هـ/1152م².

3. قراءة في واقع المذهب المالكي بالمغرب الأوسط خلال العهد المرابطي:

اختلفت الكتابات - كما القراءات - التاريخية - العربية منها والاستشراقية - في حديثها عن مآثر و مثالب المرابطين بالغرب الاسلامي على جميع الأصعدة السياسية و العمرانية و الاجتماعية و الاقتصادية... لكنّ ما أثار انتباهي هو شبه إجماعها حول سياستها المذهبية والفكرية التي تنعتها بدولة التعصب الفقهي لفروع المذهب المالكي وإهمال أصوله، دولة الجمود الفكري والتضييق على الحريات، والحجر على الآراء والأفكار الابداعية ومصادرتها، وانطلق أصحاب هذا الرأي - ناقلين أو ناقمين - في حشد الروايات و النصوص المصدرة التي نُسجت خيوطها في عصر الموحدّين للطّعن في دولة المرابطين و إنتاجها الفكري والعلمي، في حين ذهب قلة من الباحثين إلى أنّ العصر المرابطي ذهب ضحية مكيدة حاكها لهم مؤرّخو وكتّاب البلاط الموحدّي، وأنّ تلك النصوص والروايات ما أُلّفت إلاّ تحاملاً بالباطل على يوسف بن تاشفين وبنيه، لذا أثرت إدراج هذه القراءة المتأّنية فيما أتيح لي من مصادر و كتابات أكاديمية تناولت هذا الموضوع، وسلّطت الضوء على دقائقه وجزئياته في محاولة متّي لاستيعاب خصائص الحركة الفقهية المالكية في هذه الحقبة لاسيما بحواضر المغرب الأوسط، ووضعها - بموضوعية - في إطارها الصحيح.

بالعودة إلى جذور تكوين الدولة يتبيّن لنا أنّ زعيم دعوتهم الفقيه عبد الله بن ياسين لم يكن - فقط - عالماً بميزان القبائل الصحراوية البسيط، وإنّما كان ذا تكوين علمي و عقلي رصين، أساسه الحجّة والبرهان، به استطاع مناقشة ومقارعة الخوارج والشيعة والبرغواطيين ببلاد السوس، فهو الذي تتلمذ في ريعان شبابه على علماء الأندلس³ الأندلس³ سبعة أعوام كاملة أيتام ملوك الطوائف الأولى⁴، قبل أن يعود إلى المغرب الأقصى ويجلس إلى الفقيه وجّاح وجّاح بن زلو في رباطه ويأخذ من علمه الذي أخذه عن فقيه القيروان أبي عمران الفاسي ندبم الباقلاني وصاحبه

¹ - البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، مصدر سابق، ص18.

² - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص54. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص46.

³ - ينظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص20.

⁴ - دول الطوائف الأولى هي الدول التي قامت على أنقاض الدولة الأموية بالأندلس، أو بالأحرى منذ سقوط الدولة العامرية في نهاية المائة الرابعة، و شغلت من حياة الأندلسيين زهاء الثمانين سنة، للمزيد ينظر محمد عبد الله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1417هـ/1997م، ص16 و ما بعدها.

الذي أخذ عنه المذهب الأشعري، وبذلك يكون ابن ياسين قد زواج بين علم الأندلس وعلم القيروان¹، ونال إجماع الرواة على أنه من أهل التقى والفضل، والدين والورع، والفقه والأدب، حتى لقبه ابن أبي زرع بمهدي المرباطين²، فلا شك أنه غرس في طلبته ومريديه الذين صاروا قادة الفتوحات من بعد - مبادئه المتشبع بها كالزهد والتقشف وملازمة الربط، و لا غرو أنه سلك بهم منهج التدرج في تلقين المبادئ الصحيحة للدين الاسلامي، فتمكّن بسعة أفقه وانسراح صدره أن ينفذ إلى قلوب الناس ويترك فيها الأثر الطيب، فأقبلوا عليه يتلقون تعاليمه ويحفظون فتاويه، بل أنهم نسجوا حول شخصه قصصا وأساطير جعلته يسمو إلى مرتبة الأولياء والصالحين³، وأما ما تعرّض له من مقاومة وفتنة من أهل الأهواء والبدع فليس شرطا أن ذلك بسبب تشدّده كما يذكر بعض المؤرخين، بل يرجع ذلك -ربّما- إلى تأجج نار العصبية القبلية التي أثارها حين اختياره ليحيى بن عمر اللمتوني خلفا ليحيى بن إبراهيم الجدالي بعد وفاته، فنقل بذلك الزعامة من جدّالة إلى لمتونة التي رأى فيها -بنظرته الاستشرافية- نجاح دعوته المستقبلية لسيطرتها على إقليم توات من جهة، وإذعان قادتها وانصياعهم له من جهة أخرى⁴، وهو في هذا كله لم يعتمد إلى السيف إلا بعد أن دعا وأنذر وأرسل الرسل إلى القبائل تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة مستلهما ذلك من مدرسة فقهاء المالكية بالقيروان وقائدها الإمام سحنون تلميذ أبي القاسم تلميذ الإمام مالك الذي عُرف بالشدة والغلظة على المخالفين من أهل الأهواء والبدع، فهو الذي شقّ على المفسدين والمبتدعين حربا لا هوادة فيها، وهو الذي فزق حلق أصحاب العقائد الضالة من المسجد الجامع، لذلك فلا غرابة أن يخطو عبد الله بن ياسين خطى فقهاء القيروان ويسلك مسلكهم، فجند المرباطين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسخر سيوفهم لهدم صرح الباطل، و تطهير المجتمع من الرذائل والمحرمات، و مع ذلك لم تذكر عنه الدراسات -التي تناقلت سيرته بموضوعية- أخذ مال مسلم أو ضرب ظهره بغير حق، بل عمل على تأليف القلوب من خلال كسب ثقة الفقهاء، حتى بدا واضحا من سياسته أنه آتٍ للإصلاح وإحياء السنّة، لا للظلم والغلبة، فكان يوزّع خمس الغنائم على العلماء اعترافا بفضلهم وكسبا لودّهم، و كان يكتفي -في الجباية- بأخذ الزكاة والعشر وإسقاط ما دون ذلك من مكوس ومغارم مستحدثة⁵، و كوّن -مع ذلك- جيلا من الفقهاء، وحثّهم على الجهاد وامتشاق السيوف في سبيل نشر الإسلام قائلا لهم: "وجب عليكم أن تجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده، وأن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحقّ وأنكروا دين

¹ - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرباطين، مرجع سابق، ص105.

² - النويري: نهاية الإرب، مصدر سابق، ج24، ص257. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص124.

³ - عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرباطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، مرجع سابق، ص66. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرباطين، المرجع السابق، ص108.

⁴ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص21.

⁵ - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص128.

الإسلام فاستعدّوا لقتالهم¹، وقُدِّرَ لتلك الأجيال أن تتوارث مبدأ الجهاد في سبيل الله و نصرته دينه من قفار الصحراء حتّى بلاد الأندلس، بل ولم يُكْتَبَ لجيوش هذه الدولة أن تضع السيف حتّى سقوطها، فكان -بحقّ- الفقيه المؤسّس لدولة عاشت و رحلت في سبيل الجهاد، بالرّغم من المكائد و الدواهي التي نسبها إليه المؤخّدون الذين لم يتورّعوا حتّى على إخفاء معالم قبره لمّا عجزوا عن إخفاء سيرته التي ظلّ النَّاسُ يتناقلونها جيلا بعد جيل². وما أنّ دعوة عبد الله بن ياسين قامت على أساس ديني وحرّكة إصلاحية فإنّ الفقهاء والعلماء أخذوا يتبوّءون المكانة العليا في طبقات المجتمع المرابطي، زاد في ذلك التبجيل والتكريم الذي نالوه من جانب أمراء الدولة بداية من الأمير يوسف بن تاشفين الذي كان مُجَلًّا للعلماء و الفقهاء و الصّالحاء³، مقرّبا لهم، معظّما لمكانتهم، مرحّبا بهم في عاصمته، ومغدقا عليهم الأرزاق من بيت المال طوال أيتامه، فكثرت وفودهم إليه، و أقبل عليه من كلّ عِلْمٍ فُحُوله، حتّى أشبهت حضرته حضرة بني العبّاس في صدر دولتهم⁴، و هي نفس السّياسة التي اتّبعها بنوه وخلفاؤه من بعده، و في ذلك يقول "المراكشي" عن الأمير علي بن يوسف بن تاشفين: "واشتدّ إيثاره لأهل الفقه والدين"⁵، فكان لا يفصل في أمر في جميع مملكته دون مشاورتهم، بل كان يخرج بنفسه لزيارة العلماء و تكريمهم، و هو ما مكّن للفقهاء و زاد من نفوذهم و سيطرتهم على شتّى مجالات الدّين و الدنيا، لذا كانت سوق الفقه المالكي عندهم نافقة، و الإقبال على دراسته كثيرة، بل إنهم كانوا يسمّون الأمير العظيم الذي يريدون تنويعه بالفقيه⁶.

وكحتمية منطقية لهذه المكانة الرفيعة التي تبوّأها الفقهاء و القضاة، تحوّلت وجوه النَّاسِ إليهم، فكثرت أرزاقهم واتّسعت مكاسبهم، و قصدهم أصحاب المصالح مترلّفين، و أصحاب الحاجات متقرّرين، و أضفى عليهم الأمراء و السلاطين التبجيل و الاحترام، و جادوا عليهم بالخطط و المناصب، فكانوا هم الأئمّة و الخطباء، و المفتون و المشاورون، و القضاة و العدول⁷... حتّى كثر حاسدوهم و منتقدوهم، و بالغ بعض الشعراء و المتصوّفة و الفلاسفة في هجائهم و التشنيع بهم و إعطاء الصورة السيئة للفقيه، و وسم المدرسة المالكية المرابطية بالتجسيم و التشبيه، فهل كان هذا التوصيف صحيحا أم خطأ فاحشا؟ و هل كان هذا التصوير منطقيا أم يُخفي وراءه غايات أخرى؟ و لعلّ ما تعرّضت له مدرسة المرابطين من تحامل و ظلم -لاسيما من المؤرّخين الذين عاصروا سقوطها و قيام دولة

¹ - النويري: نهاية الإرب، مصدر سابق، ج24، ص256

² - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سابق، ص145.

³ - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص137.

⁴ - عبد الواحد المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص123.

⁵ - عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص130.

⁶ - المقرّي: نفع الطيب، مصدر سابق، ج1، ص221.

⁷ - عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ص272.

الموحدّين - لم يكن إلّا تزلّفاً و تودّداً للسادة الجدد¹، كما استغلّ تلك الكراهية عدد من المستشرقين الذين يُكثّنون عداً عقدياً للدين الإسلامي و رجاله، و تبعهم في ذلك بعض المؤرخين المتأخرين من العرب تأثراً بالمدرسة الغربية و الفكر الاستشراقي، أو مجارةً لتحامل "البيدق" و "المراكشي" و غيرهما...، و ممّا ساعدهم في بثّ أفكارهم ندرة الوثائق و المصادر التي تؤرّخ لحكم المرابطين، إضافة إلى فقدان بعضها ككتاب "الأنوار الجليّة في أخبار الدّولة المرابطيّة" الذي ألّفه "ابن الصيرفي"²، ففي هذا الإطار -مثلاً- نجد أنّ "البيدق" صاحب كتاب "أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدّين"³ قد خصّص باباً كاملاً في كتابه يذكر فيه مثالب المرابطين، و في نفس السياق نسجّل عند "المقرّي" رسالة "الشقندي"⁴ التي يهاجم فيها يوسف بن تاشفين و يتّهمه بالجهل، أمّا عن المستشرقين و من نحا نحوهم فقد بالغوا في اعتساف الأحكام و إدانة منهج المرابطين و فلسفتهم الفكرية و الفقهية، فهذا "كلود كاهين" يحكم على عقيدة المرابطين بالتزمّت و الخشونة و السطحية⁵، و يرى بأنّ الدين قد استبدّ به الفقهاء الفقهاء دون سواهم، أمّا "دي بور" فقد ذهب إلى أنّ زمن البحث الحرّ -بوصول المرابطين- قد ولّى⁶، و أنّ عهدهم كان مؤذناً بالقضاء على التفكير العقلي على حدّ قول "ألفرد بل"⁷، فجردّ الفكر من روح الكشف، و انساق القوم وراء التقليد وابتعدوا عن النظر و الاجتهاد مثلما ادّعى "بروفنسال"، و في ذات الإطار يقول "دوزي" ما نصّه: "كان مجيء المرابطين نذيراً بانقلاب بعيد المدى، فقد دالت دولة الحضارة، و قامت الممجيّة على أنقاضها،

¹ - أقصد المهدي بن تومرت و خلفاؤه.

² - ابن الصيرفي: هو أبو زكريّا يحيى بن محمّد يوسف الغرناطي الأنصاري، المكتّى بأبي بكر و المعروف بابن الصيرفي (ت557هـ)، كان من أعيان شعراء الدولة المرابطية، و اشتغل كاتباً عند الأمير "تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين"، للمزيد ينظر حاجي خليفة: المصدر السابق، ج1، ص279.

³ - رغم ما في الكتاب من مبالغة و تحويل و سذاجة و نسب للكثير من الخوارق و المعجزات إلى المهدي بت تومرت، إلّا أنّه يعتبر كتاباً قيماً من الناحية التاريخية لما فيه من الدقّة و التفاصيل، ذلك أنّ مؤلّفه يعتبر أحد الأقطاب التي قامت على سواعدها الدولة الموحدية، و مادّته العلمية كان مشاركاً بنفسه في صنع وقائعها، و هو تلميذ المهدي بن تومرت المرغبي مؤسس الدولة، و رفيق خليفته عبد المومن بن علي الكومي، للمزيد ينظر البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، مقدّمة المحقّق عبد الوهاب بن منصور.

⁴ - اسماعيل الشقندي: هو أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي، أديب و شاعر أندلسي، ولد بـ"شقندة" من بلاد الأندلس، و توفي بإشبيلية سنة629هـ، للمزيد ينظر الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ص323.

⁵ - كلود كاهين: تاريخ العرب و الشعوب الإسلامية (منذ ظهور الاسلام حتّى بداية الامبراطورية العثمانية)، تر بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، لبنان، ط1، 1972م، ص371.

⁶ - دي بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، تر و تع محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1374هـ/1954م، ص300، 301.

⁷ - خصّص "ألفرد بل" في كتابه الفرق الإسلامية بالشمال الإفريقي، فصلاً كاملاً بعنوان "المرابطون يفرضون على المغرب و الأندلس إسلاماً سنيّاً على مذهب مالك"، ناقش فيه مذهب المرابطين في الفقه و العقيدة، انطلاقاً من نصّ للمراكشي في كتابه "المعجب"، زاعماً أنّ الفقه -عندهم- تحجّر في القالب الثابت الذي صنعه مؤسس المذهب "مالك بن أنس"، ممّا أدّى حسب رأيه إلى القضاء على التفكير العقلي للبحث، للمزيد ينظر ألفرد بل: الفرق الإسلامية، مرجع سابق، ص239 و ما بعدها.

و حلّت الخرافات و ذهب التسامح، و سيطر التعصّب تحت نير الفقهاء و العسكر، و حلّت أصوات صليل السيوف و خرافات الفقهاء محلّ المحاورات الفلسفية...¹.

وبرغم تعدّد الإساءات التي وُجّهت للمرابطين² والتي كانت سببا في زوال ملكهم وضياع سلطانهم، إلّا أنّ الذي يهّمنا هنا يتمثّل فيما فسحوا من مجالٍ لفقهاء المالكية من نفوذ و سلطة، لذلك سنقوم بسرد أهمّ القرائن والحجج والنصوص المصدّرية التي ساقها أصحاب هذا الطرح، ثمّ نعرضها على ميزان النقد الموضوعي، لتبيان نسبة حجّيتها، ومدى قطعيتها، وهذه بعض الأمثلة عنها:

1 - دعوى استئثار فقهاء المالكية بالسلطة والسلطان، وتقلّدهم المناصب والوظائف الرّاقية دون سواهم، في مقابل اضطهادٍ فكري لأصحاب العلوم و المعارف الأخرى لاسيما الكلامية منها و الفلسفية، في محاولةٍ لترسيخ صورة - يبدو أنّها غير واقعية- عن العصر المرابطي عموما، و تصوير أرائه بأنهم أجيال متعصّبون لمذهب مالك، واقفون في وجه الفلسفة مانعون لتدريس علم الكلام و علوم الطبيعة و غيرها، وهذا كلام يحمل يحتاج إلى تفصيل، فدولة المرابطين قامت على أساس العلم، و مؤسّسها و خلفاؤه كانوا فقهاء، فلا غرو أن نرى هذا الميل و التبجيل لعلم الفقه و طبقة الفقهاء، و هو ما أثمر نتائج طيبة على بلاد المغرب و الأندلس تغيض المستشرقين و المستغربين، كإذكاء روح الجهاد في وجه النصارى و القضاء على الفرق المبتدعة و الضالة، و توحيد بلاد المغرب تحت راية المذهب المالكي السيّ، و مع ذلك نجد من فقهاء المدرسة المالكية من نأى بنفسه عن تولّي المناصب و الخطط، بل و منهم من باح بمعارضته لبعض فتاوى و سياسات المرابطين، كالفقيه أبي علي المتيجي الذي عارض سلاطين المرابطين في تحديد اتجاه القبلة في مساجد المغرب و الأندلس، و صنّف المخطّئين إلى ثلاثة أصناف، أهلٌ سوء في التأويل، و حجاجٌ مخطئون، و أهل أهواء من الفقهاء، حيث نسجّل قوله عن الصنف الأخير: "و الصنف الثالث من الغالطين للقبلة هم أهل الأهواء، يدعون معرفة العلم طلبا للتأمين، و حرصا على الدنيا..."³، أمّا ما قيل - تعميما- باختصاص الفقهاء دون غيرهم من أساطين المعارف و العلوم المختلفة، أو أنّ اضطهادا فكريا و تحجيرا علميا كان ينال الفلاسفة وعلماء الكلام و أصحاب المذاهب الأخرى، فهذا كلام تردّه النصوص المصدّرية، والجيشوش المائلة من العلماء و الأعلام الذين برعوا في غير صنف من فنون المعرفة في العصر المرابطي خير شاهد على

¹ - محمود إسماعيل: فكرة التاريخ بين الإسلام و الماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1988م، ص69، 70.

² - لعلّ أهمّ الادّعاءات و المؤاخذات التي رمي بها المرابطون تمثّلت -بداية- في اتّهام زعيمهم الأوّل يوسف بن تاشفين بالغلظة و الجهل، و رمي ابنه باللين و عدم القدرة على القيام بشؤون البلاد، إضافة إلى فضاضة الجند و أكابر المرابطين و نخبهم لخبرات الأندلس، زيادة على غلبة التّساء واستيلائهنّ على أحوال البلاد، واستقواء الفقهاء و تسلّطهم على زمام الأمور، للمزيد ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص135. عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و بداية الموحدين، مرجع سابق، ص25.

³ - أبو علي المتيجي: المصدر السابق، ص172.

ذلك، فصاحب الحلل الموشية يقول عن يوسف بن تاشفين أنه "كان يقرب الفقهاء ويعظم العلماء [عامّة]، ويصرف الأمور إليهم¹"، ويضيف "المراكشي" أنه "اجتمع له ولابنه من بعده من أعيان الكتّاب، وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصر²"، وهذا دليل على رواج سوق المعارف و انتصار الأمراء لها، و حسبنا في هذا كله الفقيه "مالك بن وهيب"، الذي كان من أبرز متكلمي ذلك العصر، حتّى وصفه الحجاري بأنّه "فيلسوف المغرب"³، وذكر المراكشي أنّه رأى بخطّه كتاب الثمرة لبطليموس، و كتاب المجسطي في علم الهيئة، و أنّه أخذ من كلّ علم و فنّ، و أنّه برع في علوم اللغة و تفوّق فيها⁴، و هو من هو، هو الجليس و المستشار و الوزير للأمير "علي بن يوسف"، وهنا يمكن أن نستشفّ التناقض الصريح الذي وقع فيه "المراكشي" حين يذكر في نصّ آخر أنّه: "لم يكن يقرب من أمير المسلمين، و يحظى عنده بالزلفى إلّا من علم الفروع" أي فروع مذهب مالك، في حين نسجل استوزار الأمير علي بن يوسف ذاته للفيلسوف و المتكلم ابن باجة (ت533هـ/1139م)، و عن عدم خضوعه التام للفقهاء نسجل رفضه لاقتراح وزيره "مالك بن وهيب" الذي طلب منه سجن "ابن تومرت" قبل أن يستشري أمره⁵.

2 - ظاهرة تعصّب فقهاء المالكية لفروع المذهب و إهمالهم الأصول واستغنائهم على مصادر التشريع من قرآن و سنّة و غيرهما، التي نصّ عليها "المراكشي" و تداولها المستشرقون من بعد، كـ "جولد تريهر" -مثلا- و الذي أشار إلى أنّ أمير المسلمين لم يحظ عنده إلّا من علم الفروع و نبذ ما سواها، و يذهب "بروفنسال" إلى أنّ علم أصول الفقه قد ألغي و حلّ محله الاعتماد على الفروع حتّى نسي الناس النظر في كتاب الله و سنّة رسوله، ممّا أدّى إلى الانسياق وراء التقليد، فهذا -على ما يبدو- كلام عام مبالغ فيه تدحضه كثرة تصانيف فقهاء المدرسة المرابطية في أصول الفقه و غيره من العلوم النقلية بل و العقلية كذلك، حيث يحدّثنا صاحب الديباج عن الفقيه أحمد بن عبد الله بن خميس الأزدي الذي استوطن جزائر بني مزغنة و بها توفّي سنة 548هـ/1153م، و الذي كان عارفا بالأصول و التحو، مجيدا في نظم الكلام و الأدب⁶، و عن الفقيه عبد الحقّ بن عبد الرحمان بن سعيد الأزدي (ت581هـ/1185م) الذي سكن بجاية و وليّ الخطبة بجامعها، و له من التآليف كتاب الأحكام الكبرى و

¹ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص82.

² - عبد الواحد المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص123.

³ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج3، ص479.

⁴ - عبد الواحد المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص140.

⁵ - ينظر البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت، مصدر سابق، ص27.

⁶ - ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص46.

الصغرى، وكتاب في الجمع بين مصنفات كتب الحديث الستة، وكتاب في الرقائق¹، أما خزانة العلم وقطب المغرب و ختام أئمتها القاضي و الفقيه أبو بكر بن العربي (ت543هـ/1148م)² و الذي كانت له بصمات في بجاية وتلمسان حاضرتي المغرب الأوسط أثناء رحلته إلى المشرق، فقد اعتلى قمة علماء الفقه تأليفا و تدريسا، و كان إماما في الأصول و الفروع، قضى أربعين سنة من عمره في الإملاء و التدريس و نشر ما خبره من علوم، فكان من المصنفين المكثرين المجيدين في شتى الفنون، له في علوم القرآن "أنوار الفجر" و الناسخ و المنسوخ و قانون التأويل، و له في علوم الحديث "عارضة الأحوزي" و غيرها، و كتب في أصول الدين "العواصم من القواصم" و "النواهي و الدواهي"، كما ألف في الرقائق و الزهد كتبها منها "سراج المريدين في سبيل المهتدين"، و أملى في أصول الفقه كتابه "المحصول" و في فروعه "المسالك في شرح موطأ الإمام مالك"³....³، و على نهج ابن العربي سار تلميذه القاضي عياض (ت543هـ/1148م)، و سبقهم في ذات الاتجاه، أي الاهتمام بعلم الأصول الإمام ابن رشد الجد (ت520هـ/1126م)⁴، و هو ما يثبت أن المدرسة الفقهية المرابطية كانت تضمن الاختلاف، و تضم طائفة الأصوليين و الفرعيين جميعا. و أن ظاهرة التعصب لفروع فقه مالك كانت سائدة عند فقهاء المغرب حتى قبل مجيء المرابطين، و هو ما أشار إليه ابن عبد البر (ت463هـ/1071م) في وصفه لحالة الفقه بالأندلس بقوله: "و من خالف عندهم الرواية -أي رواية تلاميذ مالك- فكأنه قد خالف نص كتاب أو ثابت سنة"⁵

¹ - ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص175، 176.

² - ينظر ترجمته عند ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص281. المقرئ: فنج الطيب، مصدر سابق، ج2، ص26. أبو بكر بن العربي: **العواصم من القواصم**، تص عبد الحميد بن باديس، المطبعة الجزائرية الإسلامية، ط1، 1345هـ/1926م، ص "و".
³ - لمزيد الاطلاع على مؤلفات ابن العربي و آثاره ينظر سعيد أعراب: **مع القاضي ابن العربي**، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ/1987م، ص121 و ما بعدها. عمّار طالبي: آراء ابن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، دت، ج1، ص65 و ما بعدها.

⁴ - **ابن رشد الجد (ت520هـ)**: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة، زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه. كان إليه المفعز في المشكلات بصيراً بالأصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم. يلقب بالجد للتفريق بينه وبين حفيده ابن رشد الحفيد (الفيلسوف ت595هـ)، مولده في شوال سنة خمس وأربعمائة (405هـ)، وتوفي - رحمه الله - ليلة الأحد ودفن عشية الحادي عشر لذي القعدة سنة عشرين وخمسائة (520هـ) ودفن بمقبرة العباس وصلى عليه ابنه القاسم وشهده جمع عظيم من الناس وكان الثناء عليه حسناً جميلاً، قال ابن بشكوال: "كان فقيها عالماً، حافظاً للفقه، مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى، بصيراً بأقوال أئمة المالكية، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرئاسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدي الصالح، ومن تصانيفه كتاب "المقدمات" لأوائل كتب المدونة، وكتاب "البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل". للمزيد ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص278. ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص546. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج14، ص358.

⁵ - ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت463هـ): **جامع بيان العلم وفضله**، تح أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة السعودية، ط1، 1414هـ/1994م، ص1134.

3 - قضية إحراق كتاب "الإحياء" للإمام الغزالي¹، أو ما يُعرف بمحنة التيار الغزالي سنة 503هـ/1110م، والتي استغلّها الموحدون للإطاحة بدولة الملثمين، وجعل منها ابن تومرت -بدهائه- ستارا لدعوته، وصال فيها المؤرخون وجالوا تعظيماً² وتبسيطاً³، هي في حقيقة الأمر فتوى -لها حيثياتها الزمانية والمكانية- أصدرها فقهاء قرطبة وعلى رأسهم الفقيه "ابن حديد"⁴ قاضي قضائها، ونقّذها الأمير علي بن يوسف دون تريث أو تردّد⁵ نظراً للمكانة العلمية والاجتماعية التي كان يتبوّؤها ابن حديد عنده وعند المجتمع الأندلسي بصفة عامة⁶، أمّا عن تداعيات هذه الفتوى فلعلنا نذهب إلى ما رجّحه الدكتور حسن إبراهيم حسن من أنّ سببها يعود لكون الاتجاه الفقهي للكتاب يسير على منحى المذهب الشافعي، وهو ما يخشاه الفقهاء المالكية بالمغرب على مذهبهم من جهة، إضافة

¹ - الغزالي: هو الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، الفقيه الشافعي الملقّب بحجّة الإسلام، كانت ولادته سنة 450هـ في الطابران بطوس من إقليم خراسان، في بيت خير وفقير، وكانت رغبة والده الأُمّي أن ينشأ ابنه متعلّماً، فأقبل على مدارس طوس وحرجان، ثم انتقل إلى نيسابور و مكث بها منقطعاً إلى الدراسة والتحصيل، حتّى تخرّجه من المدرسة النظامية بها على يد أستاذه إمام الحرمين، وبقي على هذا الوضع دارساً منكبّاً على المطالعة والطلب دون أن يدرّس أو يؤلّف حتّى وفاة شيخه أبي المعالي الجويني سنة 484هـ، حيث نودي به خليفة له لينتصب على كرسيه في المدرسة النظامية ببغداد حتّى سنة 488هـ، و هي الفترة التي أظهر فيها معظم مؤلفاته ذات النزعة الكلامية، ككتابه "كيمياء السعادة" و "إحياء علوم الدين" و "جواهر القرآن"، ثم انقطع عن الحياة وعكف -معتزلاً بالناس- على السياحة والتجوال، فحجّ وطاف في مصر والشام أين ألّف كتابه "المنقذ من الضلال"، ليعود إلى العراق مُدرّساً لأصول الفقه ووضع كتابه "المستصفى في أصول الفقه"، ليشد الرحال سنة 491هـ إلى خراسان حيث موطنه الأصلي، فأقام هناك بين طوس ونيسابور يدرّس و يدير معاهد التعليم حتّى سنة 495هـ، لينقطع بعدها إلى العزلة الناقّة والخلوة المطلقة حتّى وفاته يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة 505هـ. للمزيد ينظر ابن حلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج4، ص216. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج6، ص18. الغزالي، أبو حامد(ت505هـ): إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م، ص05. محمد الفاضل بن عاشور: ومضات فكر، مرجع سابق، ص99 وما بعدها.

² - من المؤرخين الذين هؤلوا هذه الحادثة، مؤرّخ الموحدين "ابن القطان"، حيث نسجل له في هذا الإطار نصّاً يقدّس فيه و يعظّم كتاب الإحياء، و ينعت فيه المرابطين و فقهاءهم بالجهل، فيقول: "و قد كان إحراق هؤلاء الجهلة لهذا الكتاب العظيم الذي ما ألّف مثله، سبباً لزوال ملكهم، وانتشار سلكهم..."، ينظر ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي المراكشي(ت7ق هـ): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان، تق و تح محمود علي مكّي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2، د ت، ص71، 72.

³ - يرى بعض المؤرخين أنّ ظاهرة إحراق الكتب ظاهرة مألوفة لاسيما ببلاد المغرب و الأندلس، فقد أحرقت مكتبة المعصومة بتيهت، كما أحرقت كتب ابن حزم، و مكتبة الحكم المستنصر بالأندلس.

⁴ - ابن حديد(ت508هـ): هو قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حديد التغليبي الأندلسي المالكي، ولد سنة 439هـ، تفقه عن أبيه وعن علماء بلده، روى عنه القاضي عياض وعظّمه، تولّى قضاء قرطبة ليوسف ابن تاشفين اللمتوني ثم لولده علي بن يوسف، و توفي سنة 508هـ، كان يخطّ على طريقة أبي حامد في التصوف، وألّف في الرد عليه، واشتهر بفتوى إحراق كتابه إحياء علوم الدين. ينظر ترجمته عند ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص539. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج14، ص319.

⁵ - عن حرق الإحياء يقول ابن القطان الذي يعدّ صاحب أقدم مصدر تاريخي تعرّض للحادثة: "في أوّل عام ثلاثة و خمسمائة عزم علي بن يوسف عن عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حديد و فقهاءها على حرق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسّمّى بالإحياء، فأحرق في رجة مسجدها..." للمزيد ينظر ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص70، 71. عبد الواحد المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص131. مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص104، 105.

⁶ - يذكر ابن القطان أنّ الفقيه ابن حديد حاز على ثقة المرابطين و نال في المكانة لديهم ما لم ينل غيره ممّن سلف، ذلك أنّه كان ساعياً في الخير، فقيها فقيها في الدين، ورعا في الأخلاق، محبياً لكلّ طريقة جميلة و سيرة حسنة، و كان ابن تاشفين لا يخالفه في شيء...، للمزيد ينظر ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص74.

إلى أن الطابع الصوفي الفلسفي الذي كان يغلب على الكتاب جعل الفقهاء ينقرون منه العامة خوفاً عليهم، ذلك أن الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام كان مقتصرًا — كما أشار المقرئ في حديثه عن التصوف عند الأندلسيين — على الخاصة من العلماء، إذ يقول: "وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، وإنّ لهما حظًا عظيمًا عند خواصهم، ولا يُتظاهر بهما خوف العامة...¹"، والجدير بالذكر أن هذه الفتوى لم تكن ملزمة، فقد أبدى فقهاء المدرسة المالكية المرابطية بتلمسان معارضة لها، وتعاملوا معها بنوع من التحفظ، ومع ذلك لم تُصادر آراؤهم ولم يُحكم على أصحابها بالسجن أو التنفي، حيث نسجل في رسالة منهم إلى الفقيه أبي زكريا يحيى بن أبي ملول الزناتي² لما كان مقيمًا بالإسكندرية، ورد فيها ما نصّه: "ما يقول الفقهاء السادة وفقهم الله لطاعته في كتاب الفقيه أبي حامد الغزالي المسمّى بإحياء علوم الدين، هل النظر فيه جائز، وهل وضعه على مذهب أهل السنة، و غير مخالف لفقهاء الأمة الذين تقدّموه...³" وكان ردّ الفقيه أبي زكريا مفصّلًا معمّقًا، حيث خاض في تحليل ومناقشة الاعتراضات والنقود التي طالت كتاب الإحياء، ولامست إجابته جوانب مختلفة تعلّقت بالفقه وأصوله، والزهد وعلم الكلام وغيرها.

رابعًا: الحضور المالكي بحواضر المغرب الأوسط في العهد الموحد

ارتبط تأسيس دولة الموحدين باسم شخصية محمّد بن عبد الله (ت524هـ/1130م)، الشهير بابن تومرت⁴ والملقب بالمهدي، حيث تمكّن هذا الأخير — بعد رحلة علمية تكوينية في الأندلس المشرق⁵ — من الانقلاب على دولة الملثمين، وبناء كيانه السياسي الجديد، ساعده على ذلك وجود أرضية مهيّأة ارتكز عليها، تمثّلت فيما عرّفه أواخر الحكم المرابطي من غلبة للنساء، واستقواء للفقهاء، وتسليط للكبراء⁶... أمّا عن ارتباط المغرب الأوسط بهذه الدولة فقد تجلّت ملامحه منذ الخطوات الأولى لابن تومرت، وذلك من خلال نزوله على الفقيه عبد الرحمان الميلي

¹ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج1، ص221.

² - ينظر ترجمته عند الأصهباني، أبو طاهر السلفي (ت576هـ): معجم السّفَر، تح عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة، السعودية، د ت، ص438. ابن ماكولا: الإكمال في رفع الأرتياب، مصدر سابق، ج4، ص235.

³ - محمّد المغراوي وآخرون: متنوّعات محمود حجّي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص125.

⁴ - "تومرت" كلمة بربرية تعني "الفرح"، ذلك أن أمّه فرحت بمولده كثيرًا، فكانت كلّما سئلت عنه أجابت "ديك تومرت" بمعنى "صار فرحًا"، للمزيد عن اسمه، لقبه، كنيته، مولده و نسبه ينظر ابراهيم ارحومة سالم أمهيري: محمّد بن تومرت و آراؤه الفكرية، رسالة ماجستير، إشراف أ.د عبد الفتاح محمّد العيسوي، قسم التفسير، كلية الآداب، جامعة سيها، دولة ليبيا، 2006م، ص 08 و ما بعدها.

⁵ - عن رحلة ابن تومرت و أبرز محطاتها ينظر سعد زغلول: محمّد بن تومرت و رحلته العلمية في المغرب و الأندلس و المشرق، ندوة بلاد المغرب المغرب و علاقتها بالشرق حتّى أواخر ق9هـ/15م، اتّحاد المؤرّخين العرب، القاهرة، مصر، 1997م، ص261-278. ابراهيم ارحومة سالم أمهيري: المرجع السابق، ص21 و ما بعدها.

⁶ - ينظر المراكشي: المصدر السابق، ص140.

بقسنطينة أثناء عودته من المشرق، ثم توجهه إلى بجاية ونزوله بمسجد الرحانة، فبنائه لمسجد ملالة¹ حيث التقى بعدد المؤمن بن علي الكومي (ت558هـ/1163م)²، هذه الشخصية التي سيكون لها -ولبنيه- الوزن الأثقل والدور الأهم في بناء الدولة وتوطيد أركانها، حيث استطاع بداهته أن ينتزع الأمر من أهل السوس قوم ابن تومرت، ويجعله في أهله وذويه من زناته، فجعل بذلك من الدولة الموحدية دولة مغرب أوسطية، حتى إنّ بعض المصادر تسميها بالدولة المؤمنية نسبة لعبد المؤمن بن علي، اعترافا بجهوده وأبنائه في تأسيسها وتشديد حضارتها.

1. تحدّيات المذهب المالكي في الفترة التومرتية (المرحلة الانتقالية بين المرابطين و الموحدّين)

ما إن وطئت قدما ابن تومرت أرض المغرب عائدا من جولاته المشرقية حتى لاحت في الأفق مقدّمات المواجهة بين وبين فقهاء المالكية الذين كانت لهم الخطوة والمكانة في ظل الدول الصنهاجية التي كانت تتقاسم بلاد المغرب، الزيرية والحمادية والمرابطية، كيف لا وقد أبدى ردود فعل سريعة، وحرصا متزايدا في تتبّع المنكرات التي لامسها في المدن التي كان ينتقل فيها ابتداء من طرابلس وحتى بجاية، صاحبها طعنه وتوبيخه للفقهاء وتأنيبه لهم على صمتهم، وهو ما أشار له رفيقه البيذق³ الملازم له في رحلته، حيث يذكر أنّه كان يمكث في الحواضر أياها، يقصد فيها مراكز الإشعاع الديني والاجتماعي كالمساجد والأسواق، يناظر الفقهاء والأئمّة، ويعمد إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأسلوبه وطريقته، غير مكترث بالسلطة الحاكمة، التي كان يعمل على تأليب العاقبة عليها، والدعوة إلى الالتفاف حوله، ذلك أنّه كان يعمد إلى إراقة أواني المشروبات المحرّمة، وكسر أدوات اللهو، وتفريق الجموع التي تكون مظنة اختلاط الرجال بالنساء⁴، متّخذا من تواضعه في العيش واللباس حجة يقنع بها الناس بأنّه بأنّه صادق القول والعمل، مخلص النية، هدفه الإصلاح والمحافظة على الأعراض والحرمات والمقدّسات... ولا شك أنّ رحلته المشرقية ولقائه الإمام الغزالي⁵، عاد منها -كما يقول ابن خلدون- "بجرا متفجّرا من العلم وشهابا واريبا

¹ قرية صغيرة بظاهر بجاية، حوالي 07 كم إلى الجنوب منها، كانت تسمّى بالبربرية "تامالالت"، ينظر البيذق: المصدر السابق، ص13. عثمان الكعاك: تلمسان و نشأة الدولة الموحدية، مجلّة الأصاله، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، ع26، س1975، ص121.

² عبد المؤمن بن علي: هو أبو محمد، عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، التاجري الكومي الندرومي، ولد سنة 487هـ بتاجرا من أرض ندرومة على بعد ثلاثة أميال من حاضرة تلمسان، توفّي خلافة الموحدين بعد وفاة المهدي سنة 524هـ، و دامت مدّة ولايته ثلاثة و ثلاثون سنة و بضعة أشهر، توفّي برباط سلا متوجّها إلى الجهاد بالأندلس، و نقل جثمانه إلى "تينملل" حيث دفن إلى بجوار ضريح المهدي بن تومرت، للمزيد حول ترجمته ينظر عبد الرحمان الجليلاني: المرجع السابق، ج2، ص294، 295. عادل نويهض: المرجع السابق، ص218.

³ عن علاقة البيذق بابن تومرت ينظر عبد القادر زمامة: البيذق و المهدي بن تومرت، مجلّة المناهل، وزارة الشباب و الثقافة و الرياضة، المغرب، ع16، ش12، س1979م، ص204 و ما بعدها.

⁴ البيذق: المصدر السابق، ص13.

⁵ أسالت قضية حدوث اللقاء التومرتي الغزالي من عدمه، حبر كثير من المؤرخين القدامى و الباحثين المتأخرين، ففي حين يؤكّد ابن أبي زرع حضور المهدي لحققات الغزالي، لمّا أشار إلى فراسة الغزالي في ابن تومرت حينما قال "لا بدّ لهذا البربري -يقصد ابن تومرت- من دولة"، نجد في الوقت نفسه أنّ المراكشي ومن بعده ابن خلدون يوردانها بنوع من الشكّ و الريبة، أمّا ابن الأثير فقال أنّ الصحيح لم يجتمع به، و في ذات الشأن ذهب بعض

من الدين¹، إضافة إلى ما أضفى على شخصيته من القداسة بادعاء النسب الشريف²، واكتساب صفة العصمة وأتته المهدي المنتظر³، هو ما مكّنه من قلوب الناس، وجعل أفكاره تلقى -لدى الذهنية المغربية- الرواج والقبول دون شك فيها أو نقاش⁴.

وبرغم اتفاق المصادر وإثباتها لسلوكات ابن تومرت وآلياته في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنّها لم تفصل في منحاه المذهبي، الفقهي والعقدي، واختلقت القراءات حول ملامح المسلك التومرتي؛ أهو تطوّر على مستوى السّاحة الفكرية المغاربية نتج عن التواصل الثقافي مع المشرق؟ أم هو مذهب تلفيقي استخدمه ابن تومرت لتحقيق مآرب سياسية؟ ففي الجانب العقدي يبدو أنّ اتّصاله بأعلام المدرسة الأشعرية بالمشرق وتلقّيه الفكر الأشعري عنهم، واستحسانه طريقتهم في الذبّ عن العقائد بالحجج العقلية، جعله يحمل أهل المغرب -بعد عودته- على الأخذ بالمذهب الأشعري وتأويل المتشابه⁵، بل وذهب إلى أبعد من ذلك في نفيه -حسب المراكشي- للصفات وموافقة في ذلك للمعتزلة⁶، ما جعله ينعت المرابطين بالمجسّمة وكفرهم لإلصاقهم الصفات الانسانية -حسبه- بالذات الإلهية، كمسألة اليمين والعينين والجلوس...، وفي ذات التوجّه منح ابن تومرت لنفسه لقب المهدي⁷، ما جعل المراكشي يذهب إلى القول بأنّه كان يطن شيئا من التّشيع لم يظهره للعامة⁸، وهو ما أكّده ابن أبي زرع عندما أشار إلى إشاعته بين الناس بأنّه الإمام المهدي المنتظر المخبر به في آخر الزمان، والذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا⁹، وحتّى وإن كانت فكرة المهديّة من عقائد أهل السنّة¹ فإنّ ما ينمّ عن البعد الشيعي له هو إقرارها بالعصمة التي

الباحثين إلى مقارنة التواريخ التي كان فيها ابن تومرت بالمشرق مع تنقّلات الإمام أبي حامد الغزالي فوجدوها لا تنطبق، و هو ما يجعلنا نميل إلى الرأي الذي يرى استحالة وقوع هذا اللقاء... لأكثر تفاصيل ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص136. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص302. ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج8، ص654. ابن القطّان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص72. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص172. الطاهر المعموري: الغزالي و علماء المغرب، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990م، ص25 و ما بعدها.

¹ ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص302.

² لعلمه مدى أهمية ادّعاء النسب الشريف عند الذهنية المغربية عمد إلى رفع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب و فاطمة الزهراء، للمزيد ينظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص103.

³ ممّا زاد في ترسخ تسميته بالمهدي المعصوم لدى أنصاره و أتباعه، ما كان مسيطرا في الموروث الشرعي على ذهنية المجتمع المغربي من أنّ المهدي من طابق اسمه النبي و اسم أبيه و اسم جدّه، و أنّه يكون من ولد فاطمة، ينظر ابن القطّان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص109. ابن الكردبوس، عبد الملك بن محمد التوزري(ت بعد575هـ): الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط1، 1429هـ/2008م، ج1، ص25.

⁴ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج14، ص377 و ما بعدها.

⁵ ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص167، ص302.

⁶ المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص141.

⁷ ابن القطّان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص125.

⁸ المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص141.

⁹ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص173.

التي تبناها ابن تومرت، وهي الصفة التي لازمتها في مؤلف صاحبه أبي بكر بن علي الصنهاجي (البليدق)، وهو المؤلف ذاته الذي نتلمس فيه -من خلال تتبعنا لمخطّاته في المدن والحوضر المغربية- البعد الخارجي له، والمتمثل في الدعوة إلى خلع طاعة المرابطين والخروج عليهم، واستحلال تكفير الفقهاء وقتالهم²، وإظهاره التقشّف والزهد في الدنيا³، وهو السلوك الذي يوحي -في ذات الوقت- بمنحاه الصوفي.

ولئن كانت هذه السلوكات والصفات التي جمع فيها ابن تومرت بين الأفكار المتناقضة، وقطف فيها من البساتين الأشعرية و الاعتزالية والشيعية الخارجية والهرطقية⁴ والصوفية... تدلّ بما لا يدع مجالا للشكّ على أنّه عمل على توظيف مكتسباته العلمية لأجل خدمة قناعاته وطموحاته السياسية، فإنّ منحاه في الفقه، ومن خلال نصوص كتبه "أعزّ ما يطلب، الموطأ..."⁵ يبدو أنّه قد اعتمد -أساسا- على التنكّر للفقه الفروع المالكى، والاعتماد على الأصول، أي الرجوع بفروع الفقه إلى أصولها المستنبطة منها⁶، إذ لا يثبت فرع دون أصل، وأنّ الأحكام الشرعية تستقى من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لا غير، ما جعل بعض المؤرخين والباحثين يجعلون منه فقيها ظاهريا⁷، في حين يذهب فريق من الباحثين إلى أنّ ابن تومرت ظلّ يقتفي آثار مالك لكن دون الإحالة إليه⁸، وأنّ موطأه ما هو إلّا

¹ - تقوم فكرة "المهدي" عند المسلمين على الإيمان برجل منتظر في آخر الزمان، يعود نسبه إلى آل البيت، و يكون مخلصا للأمة من الظلم و الطغيان... و حتّى و إن كان أول ظهور لهذه الفكرة كان عند الشيعة، فإنّ كثيرا من كتب الصّحاح السّنية -عدا صحيح البخاري و مسلم- روت جملة من الأحاديث المتعلّقة بخروج "المهدي المنتظر"، لأكثر تفاصيل ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ص388. عبد الحميد النّجار: المهدي بن تومرت، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ/1983م، ص240، 241.

² - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص173.

³ - ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص173.

⁴ - من هرطقته أنّه كان يلقي في روع أصحابه أنّه يعلم الأمور الغيبية، و أنّه قادر على كشف مسائل مستقبلية، ينظر عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دت، ص69.

⁵ - ترك المهدي بن تومرت عدّة مؤلفات في أصول الدين، الفقه و أصوله، الحديث...، أوردها في آخر كتابه "الموطأ"، و ذكرها محقّق كتاب "أعزّ ما يطلب" في مقدّمته، للاطلاع عليها ينظر المهدي بن تومرت: أعزّ ما يطلب، تق و تح عبد الغني أبو العزم، ص10، 11. عبد الحميد النّجار: المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص149، 150.

⁶ - عبد الحميد النّجار: المرجع نفسه، ص284.

⁷ - يبدو أنّ المراكشي هو أول من أصدر هذا الحكم على خلفاء الموحدين بصفة عامّة، و تابعه فيه كثيرون، و هو ما يستشفّ من قول أبو زيد عبد الرحمان صاحب كتاب "بيوتات فاس": "إنّ ملوك الموحدين قد تحلّوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأى في الفروع الفقهيّة، و العمل شرعا على محض الظاهرية، و جروا على ذلك سنين بطول إياهم إلى أن انقضوا، أوّلهم في ذلك مهديهم أول ملوكهم"، للمزيد ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص204. محمد المنوبي: العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين، دار المغرب، الرباط، المغرب، ط2، 1397هـ/1977م، ص51، 52.

⁸ - المهدي، محمد بن تومرت(ت524هـ): أعزّ ما يطلب، تق و تح عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، المغرب، ص27.

اختصار لموطأ الإمام مالك، وأنه - كما يقول عبد الله علام - صنع لنفسه ولأتباعه فقها مأخوذاً من مذهب مالك، وكذلك عاش يُكِنّ للمذهب المالكي الإجلال والإعجاب¹.

أما ما وقع بينه وبين فقهاء المالكية من سجال وصراع، كالذي حدث بينه وبين الفقيه المازري (ت536هـ/1142م)² بالمهدية على عهد أميرها يحيى بن تميم الزيري (ت515هـ/1121م)، أو الذي حصل حصل بينه وبين طلبة بجاية وفقهائها³ على عهد أميرها الحمادي العزيز بن المنصور بن الناصر (ت515هـ/1121م)، الناصر (ت515هـ/1121م)، أو تلك المناظرة الشهيرة⁴ التي وقعت بينه وبين فقهاء مراكش وأشباه ملتونة والتي شهدها شهدا بلاط الأمير المرابطي علي بن يوسف (ت537هـ/1143م)، فإنه صراع ذو منحنيين، منحى سياسي جلي، الغرض منه إسقاط نظام الحكم، وهو ما لحّصته نصيحة مالك بن وهيب⁵ للأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، الذي - يبدو أنه - فهم مقصد الرجل وهدفه: "هذا الرجل اجعله في بيت من حديد وإلا ستنفق عليه بيتا من ذهب"⁶، ومنحى ثانٍ فقهي، الأرجح أنه مالكي مالكي، بين منهج مالكي تقليدي فروعى على النسق المرابطي، ومنهج مالكي جديد متحرّر، أحدثته ثورة ابن تومرت القادمة من المشرق متأثرة بالمدرسة الشافعية في علم الكلام والمدرسة الحزمية الأندلسية في الاجتهاد والتأصيل⁷.

2. المذهب المالكي بعد ابن تومرت

اختلف المؤرخون في مذهبية الخلفاء الموحدون بعد المهدي، ومدى موافقتهم أو مجابتههم لمذهب الإمام مالك وإخلاصهم للخط الذي رسمه ابن تومرت كمؤسس لهذا الكيان بالرغم من عدم توافر معالم واضحة لمذهبه، فذهب

¹ - عبد الله علي علام: الدعوة الموحّدية بالمغرب، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1964م، ص303.

² - الإمام المازري: هو الفقيه المالكي المحدث هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المعروف بالإمام المازري، أصله من مازر بفتح الزاي وكسرهما مدينة ساحلية بجنوب صقلية، نزل المهدية بسواحل أفريقية، و بها نشأ و تعلّم، حتّى غدا إمامالبلاد أفريقية، وهو آخر من اشتغل فيها بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر، أخذ عن اللخمي، وعبد الحميد السوسي المعروف بابن الصائغ وغيرهما، ولم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه، ولا أقوم لمذهبه منه، لم تشر المصادر إلى مكان مولده بدقة، و الأرجح أنه وُلد بإفريقية سنة 443هـ، أما وفاته فكانت بالمهدية سنة 536هـ و دُفن بالمستير. للمزيد ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص374. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج14، ص482. الحجوي: الفكر السامي، مصدر سابق، ج2، ص258. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج6، ص186. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج4، ص285. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص186. وعن تفاصيل المناظرة التي جرت بينه و بين ابن تومرت ينظر ابن القطّان: المصدر السابق، ص92، 93.

³ - ابن القطّان: المصدر السابق، ص93، 94.

⁴ - عن مجريات و تفاصيل هذه المناظرة ينظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص49. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص174 و ما بعدها.

⁵ - مالك بن وهيب: فقيه و فيلسوف إشبيلي، كان مستشارا و وزيرا للأمير علي بن يوسف، ينظر المراكشي: المصدر السابق، ص140. البيدق: المصدر السابق، ص27.

⁶ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص101.

⁷ - ينظر أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1405هـ/1985م، ص220، 221.

البعض إلى أنهم أرادوا الرجوع بالناس إلى الكتاب والسنة بينما رأى آخرون أنهم أرادوا التمهيد بالمذهب الظاهري¹ كبديل عن المذهب المالكي، فما إن انتقل ابن تومرت إلى الرفيق الأعلى سنة 524هـ/1130م حتى عمد خليفته عبد المؤمن بن علي إلى جمع آثاره وإملاءاته العلمية في الأصول والفقه والحديث والتوحيد وغيرها، وقام بترتيبها وتدوينها في كتابٍ وسمه بـ "أعز ما يطلب"²، وبذلك يكون -على ما يبدو- قد وضع دليلاً ومرجعاً شاملاً ترجع إليه الأمة بفقهائها وعامتها في مختلف نواحي الحياة الفقهية والعقدية وحتى السياسية، لكن الظاهر أن عبد المؤمن لم يوفق في رد علماء المالكية وفقهائها عن التمسك بفروع المذهب المالكي، فبادر إلى الأمر بحرق كتب الفروع، ورد الناس إلى الاقتصار على قراءة الأحاديث النبوية، حيث ذكر صاحب الأنيس المطرب أنه لما دخلت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين -أي عبد المؤمن- بإصلاح المساجد في جميع بلاده، و تغيير المنكر و تحريق كتب الفروع، و رد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة³، غير أنه -وللحقيقة التاريخية- لم تفدنا المصادر بتنفيذ هذا القرار من عدمه، وذلك راجع -ربما- لنفوذ بعض الفقهاء المالكية في البلاط الموحدية كما سنبينه من بعد، أو أن الخليفة عبد المؤمن لم يرد أن يفتح على نفسه جبهة الفقهاء في الوقت الذي كان يسعى فيه لغزو الأندلس وتحقيق طموحاته في جعل الخلافة في عقبه، وتوحيد المغرب والأندلس تحت رايته، بل إن "التويري" ذهب إلى خلاف ذلك تماماً، وأشار إلى أن عبد المؤمن جمع الناس على مذهب مالك بن أنس في الفروع، وطريقة أبي الحسن الأشعري في الأصول⁴، يعزز هذا الطرح تواجد عدد من كبار فقهاء المالكية في البلاط الموحدية، إن على مستوى الخطابة، أو

¹ - **المذهب الظاهري**: هو مذهب فقهي أسسه بالمشرق الإمام أبو سليمان داود بن علي بن خلف الاصبهاني (ت270هـ)، و بناه على قوله: "إن المصادر الشرعية هي النصوص، فلا علم في الاسلام إلا مع النص"، و ذهب إلى الأخذ بظاهر الكتاب و السنة، و إلغاء ما سوى ذلك من رأي و قياس، و ضيق حدود الإجماع، فلم يعتد إلا بما أجمع عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم، وانتشر مذهبه ببغداد و بلاد فارس، و وطّد دعائمه بالأندلس الإمام علي بن أحمد بن حزم (ت456هـ)...، للمزيد عن المذهب الظاهري وانتشاره بالمغرب و الأندلس ينظر طاهر بن علي: **تاريخ المذهب الظاهري بالأندلس**، مجلة إسهامات للبحوث و الدراسات، كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية، جامعة غرداية، مج04، ع02، س2019، ص09 و ما بعدها.

² - هو عبارة عن مجموعة من الرسائل في الفقه و الأصول، و التوحيد و الحديث، و السياسة و الجهاد، سَمّاه بأول عبارة وردت في أول كتاب فيه، و هي "أعز ما يطلب و أفضل ما يكتسب و أنفس ما يدّخر و أحسن ما يعمل العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير" و يدلّ على ذلك ما جاء في عنوانه من أنه: "سفر فيه جميع تعاليم الإمام المعصوم المهدي المعلوم رضي الله عنه ممّا أملاه سيّدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمّد عبد المؤمن بن علي"، للمزيد ينظر محمّد بن تومرت: **أعز ما يطلب**، تق و تح عمّار طالي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص07.

³ - ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص195.

⁴ - التويري: نهاية الإرب، مصدر سابق، ج24، ص318.

على مستوى الكتابة، أو الوفود الرسمية، كالفقيه أبي بكر بن ميمون القرطبي (ت567هـ/1172م)، والفقيه أبي العباس بن صقر (ت569هـ/1174م).¹

أمّا خليفته وابنه يوسف (ت580هـ/1184م)² فما إن أتته البيعة، وهنّاه الفقهاء والقضاة وخطب له الخطباء، واستشعر السلطة والنفوذ، حتّى همّ بتنفيذ مقصد أبيه الرامي إلى إلغاء العمل بكتب الفروع والعودة في استنباط الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة، فقد أورد المراكشي في معجمه أنّ الحافظ أبا بكر بن الجدد (ت589هـ/1193م) قال: "لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس³، فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله؛ أرايت يا أبا بكر، المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا؛ فأني هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك؛ فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف".⁴

ولما تولّى الحكم الخليفة يعقوب المنصور (ت595هـ/1199م)⁵ عمد إلى الحسم والتنفيذ الفعلي لما عزم أبوه وجده على فعله، فعمل على محو مذهب مالك وإزالته من المغرب، وهذا مقصد أبيه وجده يقول المراكشي، إلّا أنّهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا⁶، وحتّى لا يؤلّب فقهاء المالكية عليه فقد مهّد لهذا القرار بأن أحسن إليهم وأجرى على أكثرهم الأرزاق من بيت المال، كما عمل على رعاية الضعفاء والعامة بأن بادر إلى توزيع آلاف الدنانير الذهبية عليهم، وأطلق سراح جميع المسجونين، وردّ المظالم التي أحدثت أيتام أبيه⁷، فجعل الجميع ينظر إليه بعين المهابة والإجلال، ممّا خوّل له اتّخاذ القرارات الحاسمة دونما خوف من الفقهاء أو رجوع إليهم، ففي أيتامه انقطع

¹ ينظر بولطيف، لخضر: فقهاء المالكية و التجربة السياسية الموحدية في الغرب الاسلامي، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فرجينيا، و م أ، ط1، 1429هـ/2009م، ص188.

² ينظر ترجمته عند لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج4، ص307. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج7، ص130. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج29، ص112. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص241.

³ ابن يونس: هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلّي القيرواني (ت451هـ)، صاحب الكتاب الشهير في الفقه المالكي "الجامع لمسائل المدونة و المختلطة"، و هو الكتاب الذي كان يسمّى مصحف المذهب لصحة مسأله ووثوق صاحبه، للمزيد عن الكتاب و صاحبه ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج8، ص114. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص274. الثعالبي، محمد بن الحسن بن العربي بن محمد الحجوي (ت1376هـ): الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ/1995م، ج2، ص245. ميكوشموراني: دراسات في مصادر الفقه المالكي، تع سعيد بحيزي و آخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988م، ص16.

⁴ المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص204.

⁵ ينظر ترجمته عند راغب كحالة الدمشقي، عمر بن رضا (ت1408هـ): معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج13، ص255. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج28، ص98. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص203.

⁶ المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص204.

⁷ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص217.

علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن مجرد ما فيها من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والقرآن، فاحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادير أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب¹، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، يقول المراكشي لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار²، هذا ما يعني - صراحة - أنه وإلى عهد المنصور كانت كتب المذهب المالكي هي السائدة في أوساط المجتمع المغربي، وأن المذهب المالكي كان مهيمنا بلا منازع، مما جعل المنصور يبادر إلى تقديم البديل، فأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع أحاديث الصلاة وما تعلق بها من كتب السنة العشرة³، وحمل الناس على ظاهرها، ما جعل عددا من قدامى المؤرخين والفقهاء يذهبون إلى ظاهرية مذهبه⁴، عزز ذلك -ربما- وقوفه يوما على قبر "ابن حزم"⁵ بالأندلس وقوله: "كل العلماء عيال على ابن حزم"⁶، غير أن البعض يرى بأن المنصور إمام مجتهد غير مقلد، حريص على العمل بالكتاب والسنة، وأنه المجدد لهذا الدين على رأس المائة السادسة⁷، فهو -كما أشار

¹ عبد الملك بن حبيب: هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهدة بن عباس بن مرداس السلمي، ولد بألبيرة سنة 174هـ، وسكن قرطبة، أخذ العلم ببلده عن صعصعة بن سلام والغازي بن قيس وغيرهما، ثم ارتحل إلى المشرق فحج وأخذ عن ابن الماجشون وأصغ وغيرهما، ثم عاد إلى الأندلس بعلم غزير، ألف كتباً كثيرة في الفقه والأدب والتاريخ منها الواضحة في الفقه والسنن لم يؤلف مثلها وكتاب في فضل الصحابة وكتاب في غريب الحديث وكتاب في تفسير الموطأ وكتاب حروب الإسلام وكتاب طبقة الفقهاء والتابعين وكتاب الفرائض وكتاب مكارم الأخلاق، توفي في ذي الحجة من سنة 238هـ. للمزيد ينظر الشيرازي: طبقات الفقهاء، مصدر سابق، ص162. ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، مصدر سابق، ج1، ص312. الضبي: بغية الملتبس، مصدر سابق، ص377.

² المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص202.

³ فعل ذلك اقتداء بما فعله ابن تومرت حين جمع أحاديث الطهارة من كتب الحديث العشرة، صحيح البخاري و صحيح مسلم، موطأ مالك، سنن الترمذي، سنن أبي داود، سنن النسائي، سنن البزار، مسند ابن أبي شيبة، سنن الدارقطني، سنن البيهقي، ينظر المراكشي: المصدر نفسه، ص203.

⁴ عن تبيي المنصور للمذهب الظاهري و حملته الناس عليه ينظر ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج10، ص161. ابن جزري، أبو القاسم محمد بن بن أحمد(ت741هـ): القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، ص276. ابن الأحرر، إسماعيل(ت807هـ): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، المغرب، 1972م، ص19.

⁵ ابن حزم: هو الإمام العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، عالم الأندلس في زمانه، و إليه المنتهى في الذكاء و حدة حدة ذهن و سعة العلم بالكتاب و السنة و المذاهب و الملل و النحل و العربية و الآداب و المنطق و الشعر، كان شافعي المذهب ينافح العلماء عن مذهبه، ثم تحول إلى الظاهرية، فألف الكتب في هذا المذهب، و بقي عليه إلى أن مات، ولد بقرطبة سنة 383هـ و توفي بالبادية سنة 456هـ، روي عن ابنه الفضل قوله أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو 400 مجلد، لعل من أشهرها "الفصل في الأهواء و الملل و النحل"، "المحلى"، "طوق الحمامة" الذي كتب فيه كثيرا عن نشأته و حياته بقرطبة... ينظر ترجمته عند الحموي، ياقوت(ت626هـ): معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م، ج4، ص211. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج3، ص325. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص373. الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص247.

⁶ المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج3، ص238.

⁷ يبدو أن أصحاب هذا الرأي يعتمدون في روايتهم على شهادة الأديب و المؤرخ ابن حموية الدمشقي(ت642هـ)و الذي زار المغرب و لبث به (594-600هـ)، و قدر له أن يحظى بخدمة الخليفة المنصور، و هذا ما يضع شهادته موضع الشك و الرية، ينظر ابن سعيد المغربي الأندلسي، أبي الحسن علي بن موسى(ت685هـ): الغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، د ت، ص30.

المراكشي - أول من استخفّ بالمهدوية والعصمة التي كانت تسيطر على عقول العامة¹، وبدأت ملامح التحوّل المذهبي تبدو بشكل جليّ في عهده، ثمّ ازدادت جلاء في عهد الخلفاء الذين جاءوا من بعده²، فأخذت التأثيرات التومرتية في التراجع وأخذ التقارب والتعايش بين السلطة الموحدية وفقهاء المالكية يزداد شيئاً فشيئاً³.

ولما ترعّ الخليفة المأمون (ت630هـ/1233م)⁴ على عرش الموحّدين، عرفت السّاحة الفكرية عودة أقوى للمذهب المالكي وفقهائه، فقد أحدث المأمون انقلاباً عامّاً على التومرتية، وصرف عزمه على محو آثار دولة الموحّدين، وتغيير رسمها، وحذف اسم المهدي من الأذان والخطبة، بل ولعنه جهاراً، وأزال اسمه من السكّة التي صارت تحمل عبارة "القرآن إمامنا" بدل "المهدي إمامنا"⁵، ووضع حدّاً لبعض الأعراف والتقاليد التي سطرّها ابن تومرت، فقطع النداء عند الصلاة باللسان الأمازيغي، وبعض مراسيم صلاة الجمعة وطرق إنفاذ بعض العقوبات ... وهذا - ممّا لاشكّ فيه - بعد استشارة الفقهاء المالكية الذين علا شأنهم في فترة حكمه من جهة، ولضمان التفافهم حوله من جهة أخرى⁶.

خلاصة الفصل:

بعد عرضنا لأهمّ الأحداث التاريخية ذات العلاقة بالحياة المذهبية بالمغرب الأوسط في الفترة الممتدّة بين القرنين الرابع والسادس الهجريين تبينّ لنا أنّ أبرز مظاهر إرهابات تشكّل المدرسة المالكية تجلّت فيما يلي:

1. بروز فئة من فقهاء المالكية بالمغرب الأوسط خلال العهد الفاطمي، عُرفوا بمناهضتهم لدولة بني عبيد ومذهبها الإسماعيلي، والذبّ عن المذهب المالكي بالتأليف والتدريس، كأحمد بن علي الربيعي الباغائي (ت401هـ/1011م)، وأبي جعفر الداودي (ت402هـ/1012م) الذي اشتهر بفتواه المخالفة لفقهاء

الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، ص200. سعيد أحمد أعراب: موقف الموحّدين من كتب الفروع و حمل الناس على المذهب الحزبي، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، ع249، ش رمضان/جوان، س1405هـ/1985م.

¹ - المراكشي: المعجب، المصدر السابق، ص206.

² - يبدو أنّ الأوضاع الخارجية كان لها تأثير على الحياة المذهبية الداخلية للدولة الموحدية، فكما استفاد المنصور من نصر موقعة الأرك 591هـ في بعث مشروع تقليص النفوذ المالكي، كانت هزيمة العقاب 609هـ ضربة قاصمة آذنت بنهاية هذا المشروع، ذلك أنّه بانقضاء عهد التّاصر حتّى أخذ فقهاء المالكية يستعيدون مواقعهم، و يتصدّرون للتدريس و الإفتاء بمقتضى المذهب، للمزيد ينظر لخضر بولطيف: فقهاء المالكية و التجربة السياسية الموحدية في الغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص320.

³ - ينظر محمد المغراوي: الموحّدون و أزمت المجتمع، جذور للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2006م، ص145.

⁴ - المأمون الموحّدي: هو أبو العلا المأمون إدريس بن المنصور، ولد بمدينة مألقة سنة 581هـ، و عقدت له البيعة بإشبيلية سنة 624هـ، و كانت وفاته بوادي أم الربيع في ذي الحجة من سنة 629هـ، و قيل 630هـ، ينظر السلاوي: الاستقصا، مصدر سابق، ج2، ص233. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج1، ص222. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ص281.

⁵ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، مصدر سابق، ص164، 165.

⁶ - كانت كلّ هذه الإجراءات على حساب أشياخ الموحّدين، ينظر محمد المغراوي: الموحّدون و أزمت المجتمع، مرجع سابق، ص146.

القيروان، والتي أنكر فيها عليهم سكناهم بين ظهري بني عبيد، كما أفتى بأن الخطيب الذي يخطب لهم ويدعو يوم الجمعة كافر، يُقتل ولا يُستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولا يرث ولا يورث ماله في المسلمين، وأحكامه كلّها أحكام كفر، فإن تاب و أظهر الندم، ولم يكن أخذ دعوة القوم، قُبِلت توبته، ومن صَلَّى الجمعة وراءه خوفاً، أعاد ظهراً أربعاً¹.

2. الدعم السياسي الذي حضى به فقهاء المالكية بالمغرب الأوسط خلال العهد الحمّادي (398-547هـ/1008-1152م) منذ بناء القلعة والإعلان عن قرار الانفصال، ولا أدلّ على ذلك من قول مؤسسها حمّاد بن بلقين (ت419هـ/1028م) في أول اجتماع له بفقهاء القلعة "عالم أهل المدينة يكفيننا"، بل وذهب إلى أبعد من ذلكمّا دعا إلى إخراج أتباع المذاهب الأخرى منها قائلاً: "لا أحبّ أن يكون في عملي مذهبان"²، ومن مظاهر هذا الدعم السياسي تعيين الفقهاء في الخطط والمناصب السياسية، وتقليدهم الوظائف العليا في البلاط الحمّادي، كما هو شأن الفقيه أبي القاسم بن أبي مالك الذي عيّنه القائد بن حمّاد (419-446هـ/1028-1054م) سفيراً ليمثّله عند المعزّ بن باديس بالقيروان

3. من مظاهر إرهابات تشكل المدرسة المالكية -كذلك- في الحقبة الحمّادية، ما سجّلناه -خلال تفحصنا لسير وتراجم أعلام هذه الفترة- من تنامي ظاهرة الرحلة إلى الحواضر الأندلسية حيث السيطرة وقتئذ للمدرسة المالكية³، والأخذ عن أعلامها كابن عبد البر (ت463هـ/1071م) وابن رشد الجد (ت520هـ/1126م) وابن العربي (ت543هـ/1148م) وغيرهم، كما سجّلنا بداية انتشار المؤلفات المالكية المشرقية كتلقين عبد الوهاب البغدادي (ت422هـ/1031م)⁴، إضافة إلى ما لاحظناه من تصدر الفقه المالكي في الانتاج التألفي لأعلام هذه المرحلة⁵، رغم أنّه لازال الاعتماد في الغالب على الذاكرة والرواية الشفوية.

4. إنّ قيام دولة المرابطين ببلاد المغرب وتبنيّ أمرائها للمذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة، إضافة إلى التبجيل الذي حظيت به طبقة الفقهاء، أثمر نتائج طيبة على بلاد المغرب عامّة وبلاد المغرب الأوسط خاصّة، حيث أبان هامش الحرية الذي حظي به فقهاء المالكية عن بدايات ظهور ملامح مدرسة مالكية مغرب أوسطية، إن على مستوى التأليف كما هو الشأن بالنسبة للفقيه أبي علي المتيجي في كتابه "دلائل القبله" الذي أنكر فيه على

¹ - الداودي: كتاب الأموال، مصدر سابق، ص 54.

² - عبد الرحمان كريب: الأثر الحضاري للمذهب المالكي في المغرب الأوسط من ق5-ق9هـ، مرجع سابق، ص 47.

³ - ينظر عبد القادر بوعقادة: الحركة الفقهية في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 352، 353.

⁴ - من ذلك ما ذكره ياقوت الحموي من أنّ هارون بن النضر الريغي كان يقرأ التلقين من حفظه، كما يقرأ أم الكتاب، ينظر معجم البلدان، مصدر سابق، ج3، ص 113.

⁵ - عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و الغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص 110.

سلاطين المرابطين خطأهم في تحديد اتجاه القبلة في مساجد المغرب و الأندلس، أو على مستوى الفتوى كما هو الشأن بالنسبة لفقهاء تلمسان الذين راسلوا الفقيهين أبي الفضل بن النحوي، وأبي زكريا القلعي المقيم بالإسكندرية(ت) بشأن كتاب "إحياء علوم الدين"¹.

5. إنَّ أهمَّ ما لاحظناه من خلال تتبُّع طريق المهدي بن تومرت أثناء عودته من المشرق، هو نزوله عند فقهاء المغرب الأوسط في محطات متعدّدة، وإقبال الطلبة عليه، ففي قسنطينة نزل عند الفقيه عبد الرحمان الميلي، وفي بجاية نزل بمسجد الريحانة وأقبل إليه فقهاؤها، و في متيجة كان مبيته عند الفقيه أبي زكريا وأخيه، وبالشفل عند الفقيه أبي الربيع....، وهذه قرائن توحى بوجود أرضيةٍ ساهم ابن تومرت في تهيئتها لميلاد مدرسة مغرب أوسطية، مالكية الفقه، أشعرية العقيدة، صوفية السلوك.

¹ - للاطلاع على المراسلة ونص الفتوى ينظر الملحق رقم 05.

الفصل الثاني

المراكز الفقهية بالمغرب
الأوسط، ومرحلة التمكين
للمدرسة المالكية

(ق 7-8هـ / 13-14م)

تمهيد:

شهد مطلع القرن السابع الهجري بدايةً نهايةً التجربة الموحدية التي نجحت -إلى حدّ بعيد- في إدماج المغارب الثلاث سياسياً ومذهبياً، واستطاع قائدها عبد المؤمن وخلفاؤه تنظيم هذه الأقطار تحت ظلّ امبراطورية واسعة الأرجاء، فأنشأوا المدارس، وعمروها بالطلبة والشيخوخ، وشجّعوا التدوين والترجمة، وعقدوا المناظرات، وجمعوا المجمع العلمية المتنوعة، وأسّسوا خزائن الكتب، وشيّدوا القصور والمدن العلمية¹، وسبقوا للتعليم الإلزامي والمجاني، ونشروا الفقه وعلوم القرآن باللسانين العربي والبربري²، ورغم أنّ هذه التجربة لم تعمّر طويلاً إلا أنّ بذور المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط نمت وترعرعت فيها، بفضل ما وفّره من هامشٍ واسعٍ للحرية الفكرية من جهة، إضافة إلى الوحدة السياسية مع بلاد الأندلس التي سهّلت من عملية الرحلة بينه وبين حواضر المغرب الأوسط من جهة ثانية.

ثمّ ما كادت المائة السابعة تنتصف حتّى غدت بلاد المغرب مقسّمة بين ثلاث دول، خضعت فيها الحواضر الغربية للمغرب الأوسط للحكم الزيّاني، بينما كانت حواضره الشرقية تابعة للدولة الحفصية، وعرفت فيهما المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط عدّة تغيّرات، إنّ على مستوى البرامج أو على مستوى المنشآت، فكيف بدت صورة المدرسة المالكية مع مطلع المائة السابعة؟ وما هي الصورة التي آلت إليها نهاية المائة الثامنة؟

أولاً: صورة المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط نهاية العهد الموحيدي

ما أن يبيع عبد المؤمن بن علي بالخلافة عقب وفاة المهدي³، حتّى أخذ على عاتقه تشييد صرح دولته الناشئة، وتحقيق طموحاته الرامية إلى توحيد الغرب الاسلامي، بل والسّعي إلى ضمّ مصر وما وراءها من بلاد الاسلام، فما لبث أن بدأ في تنفيذ خطّته، وإرساء دعائم ملكه... فلم توافه المنية حتّى عمّ سلطانه جميع أنحاء الغرب الإسلامي، وصارت حدود مملكته ممتدّة من البحر المحيط غرباً إلى إقليم برقة شرقاً، ومن جبال البرانس بأقصى شرق بلاد الأندلس شمالاً إلى تخوم الصحراء الكبرى جنوباً، فكانت بذلك أعظم مملكة إسلامية شهدتها بلاد

¹ - من أشهر المنشآت العمرانية التي أسّسها الموحدون في المغرب الأوسط، قصر المشور بتلمسان سنة 540هـ، وبناء المسجد الجامع بندرومة، وتحديد قصري "الرياض الرفيع" و"الرياض البديع" بجاية، وتشييد مدينة "البطحاء" على نحر الشلف شمال شرقي "غليزان"، ينظر ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص199، 200. عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ج2، ص318.

² - محمّد المنوني: حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م، ص16 وما بعدها. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص316.

³ - عن تاريخ بيعته ينظر البيذق: أخبار المهدي، مصدر سابق، ص34. روجي لي تورنو: حركة الموحدين في المغرب، تر أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م، ص58.

المغرب¹، استمر حكمها ما يقرب من قرن من الزمان (539-633هـ/1145-1236م)²، وحتى هذا العهد ظلت حاضرتا بجاية وتلمسان من أكبر وأشهر حواضر المغرب الأوسط علما وعمرانا، فقد كانتا منذ العهد الحمّادي والمرابطي خزانة للعلماء، وعاصمتين للفقه المالكي، ومحجّا لطلبة العلم والفقهاء، فما هو الملمح العام للمدرسة المالكية بهذين الإقليمين؟

1. مدرسة إقليم تلمسان في العهد الموحد (صراع بين التحرر والجمود):

أشاد جغرافيو ومؤرخو هذه الحقبة بمحاضرة تلمسان³، إنّ من النّاحية العمرانية والاقتصادية أو من الجانب الثقافي والعلمي، فعنها يقول صاحب الاستبصار الذي عاش في العهد الموحد، بعد أن ذكر أنّها قاعدة المغرب الأوسط: "ومدينة تلمسان مدينة علم وخير ولم تنزل دار العلماء والمحدثين"⁴، وفي ذات الصّد يقول ابن خلدون عن اهتمام الموحدّين وانشغالهم بها: "وصرفَ ولاية الموحدّين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم بشأنها إلى تحصينها وتشديد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها، والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطّة الدور... ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطّتها تتسع الصروح بها بالآجر والفهر تعالى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم، وكرسيّا لسلطانهم"⁵.

أمّا عن الحركة العلمية والفقهية خصوصا، فإنّ المصادر تشير إلى الجهود التي بذلها ولاّة تلمسان الموحدية - كغيرها من حواضر المغرب- في سبيل نشر دعوتهم وأفكارهم الرامية إلى استخدام الحجج العقلية والتفكير المنطقي، وكسر الجمود الذي فرضه المرابطون وفقهاؤهم على التفكير المغربي ردحا من الزمن، إذ قاموا بترويج كتب الإمام أبي حامد الغزالي (ت505هـ/1112م)، والإمام الجويني (ت478هـ/1085م)⁶ وتدرّسها في حلقات

¹ عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص294.

² الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص8.

³ ذكر ابن أبي زرع نقلا عن صاحب "المنّ بالإمامة" أنّ تلمسان فتحها جيش الموحدّين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة 539هـ، ينظر: الأنيس المطرب، مصدر سابق، ص187.

⁴ مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، ص177.

⁵ ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص104.

⁶ الإمام الجويني (ت487هـ/1085م): هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني، أبو المعالي بن أبي محمد، الفقيه الشافعي الملقب بإمام الحرمين، ولد سنة 419هـ بنيسابور وبها نشأ وتفقّه، توفي والده وهو دون العشرين فأقعد مكانه للتدريس، وحج وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويتعبّد، ثم عاد إلى نيسابور وتولّى التدريس بالمدرسة النظامية ثلاثين سنة، مسلم له الخراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة، وحضر درسه الأكابر، وكان يقعد كل يوم بين يديه ثلاثمائة فقيه، وصنف كتباً كثيرة جليلة في المذهب والخلاف «كنهاية المطلب في دراية المذهب» المشتمل على أربعين مجلدة، وكتاب «الشامل» خمس مجلدات، وكتاب «الأساليب في الخلاف» مجلدان، و«التحفة»، و«الغنية»، و«الإرشاد»، و«البرهان في أصول الفقه»، وفي أصول الدين «غيث الأئم» وغيرها كثير، وتوفي سنة 487هـ، للمزيد عن ترجمته ينظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد وذبوله، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ، ج16، ص43.

الدرس بعد أن كانت محظورة في عهد سابقهم¹، كما عملوا على تضيق الخناق على فقهاء المالكية، ومحاولة تحويلهم عن علم الفروع²، وإرغامهم على اعتناق أفكارهم و تبني آرائهم، غير أنّ هذا الصنيع ما زاد فقهاء تلمسان إلا تمسكاً بمواقفهم، وتشبثاً بمالكيتهم، وهو ما أشار إليه الكاتب "عبد الله كنون" من أنّ المذهب المالكي لم يتقهقر البتة أمام الدعوة إلى الاجتهاد التي كان الموحّدون يتزعمونها، ولا أمام المذهب الظاهري الذي بلغ شأوا عظيما في هذا العصر، وذلك -حقاً- لما ترى أمّهات الكتب التي تمّ إحراقها يعاد نسخها فوراً³، بل توضع حولها المؤلفات والدراسات والشروحات⁴، ثمّ إنك لتُحصي العشرات -بل المئات- من فقهاء المالكية الذين نبغوا بتلمسان في هذا العصر، في الوقت الذي لم يُعرف بها سوى فقيه متحرّر واحد ممّن يميل إلى الرأْي والاجتهاد⁵.

ولعلّ ما يُنبئنا أكثر عن الأهمية الفقهية لهذه الحاضرة، ذلك الكمّ الهائل من فقهاء المالكية الذين اشتهروا بها في هذه الحقبة سواء الذين وُلدوا بها ونشأوا، أم الذين استوطنوها نازلين من حواضر أخرى، ومن بين هؤلاء الفقيه حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي سهيل المكنى بأبي عليّ والمعروف بابن زكون التلمساني(ت 553هـ/1158م)⁶، رحل إلى "فاس" وسمع بها عن عيسى بن يوسف بن الملحوم⁷، وعدّ صاحب سلوة الأنفاس بيتهم من بيوتات الفقه بفاس⁸، ومنهم حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب المعروف بابن الأشيري والمكنى بأبي عليّ(ت بعد 569هـ/1174م)⁹، واشتهر بها الفقيه المحقّق الأصولي، صاحب التآليف الكثيرة، "علي بن أبي القاسم التلمساني" المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن أبي قنون(ت 557هـ/1162م) الذي تولّى قضاءها فعدل وأحسن السيرة¹⁰، كما نزلها من الأندلس وحواضر المغرب الأقصى فقهاء كثر منهم الفقيه الملقب -نسبة إلى

¹ - عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2002م، ج1، ص375.

² - المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص202.

³ - ينظر عبد الله كنون: النبوغ المغربي، مرجع سابق، ص123.

⁴ - للاطلاع على مزيد المؤلفات الفقهية المالكية في العصر الموحدي ينظر لخضر بولطيف: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية، مرجع سابق، ص311، 312. عليّة الأندلسي: شذرات فقهية من الحقبة الموحدية(2)، ميثاق الرابطة، جريدة إلكترونية أسبوعية تصدر عن الرابطة الموحّدية للعلماء، المغرب، ع238، بتاريخ 2016/10/27.

⁵ - سجّلت لنا كتب التراجم -في العصر الموحدي- علماً تلمسانيا وحيدا عُرف بالميل إلى الظاهر، وهو الفقيه والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان الهمداني(ت601هـ)، ينظر رسالتنا، العنوان الموالي: "فقهاء انخرطوا في المشروع الموحدي"، ص

⁶ - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص217. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص159.

⁷ - ابن القاضي: جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص183.

⁸ - الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس(ت): سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، ج1، ص347.

⁹ - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص218. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص16.

¹⁰ - من أشهر مؤلفاته "المقتضب الأشفي في اختصار المستصفى"، ينظر ابن خلدون، أبو زكريا يحيى(ت833هـ): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيبوفونتانا، الجزائر، 1321هـ/1903م، ص24. محمد الحفناوي: تعريف الخلف، مرجع سابق، ص253.

ملقة- صالح بن خلف الأنصاري الأوسي (ت586هـ/1190م)¹، والبلنسي أحمد بن العتيق بن الحسن بن زياد (ت601هـ/1205م)²، والقطب أبو مدين شعيب (ت594هـ/1198م)³.

ويبقى شحّ المصادر وقلة التدوين عائقاً أمام معرفة الواقع الفقهي لكثير من حواضر الجهة الغربية التي كانت تشكّل رافداً فقهياً مُهمّاً لحاضرة تلمسان، فباستثناء حاضرتي وهران⁴ وندرومة لم نعر -في الحقبة الموحدية- على أسماء فقهية بارزة في كلٍّ من مازونة وتنس وونشريس، رغم أنّ المصادر تشير إلى أهليتها بالسكان، وإلى تواصلها مع حواضر الأندلس بحكم قربها من الساحل، فمن حاضرة وهران اشتهر الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد الوهراني (ت601هـ/1205م)⁵ الذي تولّى قضاء مراكش وإشبيلية، وعُرف بتضلّعه في الفقه وحفظه للحديث، كما برز بها الأخوان القاضيان أبو عمران بن مروان (ت608هـ/1211م)، وأبو علي بن مروان (ت628هـ/1231م) اللذين تولّيا منصب القضاء بتلمسان كونهما نشأ بها واشتهرا فيها بالفتيا والتّوازل⁶. أمّا حاضرة ندرومة الضاربة في أعماق التاريخ⁷، فإنّها كانت ولا تزال تُعدّ بمثابة الخزّان العلمي والاقتصادي الذي يمدّ تلمسان بما يلزم من أساسيات التقدّم والرفي، ذلك أنّ كثيراً من فقهاء وأعلام تلمسان ذوو أصول ندرومية، كانوا قد ارتحلوا منها إلى تلمسان بعد أن أخذوا مبادئ العلوم فيها، ومن هؤلاء الفقيه محمد بن عبد الحق بن سليمان الندرومي (ت625هـ/1228م) الذي ارتحل -بعد أن تفقه على أبيه- إلى تلمسان، وسمع من فقهاءها، وانتهى به المطاف إلى خِطّة قضائها⁸.

2. بجاية والحواضر الشرقية (الفقهاء المتصوّفة والأثر المدني):

¹ ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص222.

² ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ): المغرب في حلي المغرب، تح شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1993م، ج2، ص321.

³ يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ص63.

⁴ خضعت وهران لحكم المرابطين بعد حصارها من طرف قوّات عبد المؤمن بن علي، وفرار تاشفين بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المرابطين سنة540هـ، ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص151.

⁵ ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص161. عادل نويهض: المرجع السابق، ص350.

⁶ بوعقادة، عبد القادر: الحركة الفقهية في المغرب الأوسط، ص765.

⁷ يذكر أنّ تأسيسها كان على عهد الرومان، وأنّها تشبه إلى حدّ بعيد مدينة روما، للمزيد عن أصل تسميتها وتاريخ نشأتها ينظر الحسن الوزان: وصف إفريقيا، مصدر سابق، ج2، ص13. البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص217.

⁸ ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص165.

إذا انتقلنا إلى الحديث عن حاضرة بجاية¹، فكما أشرنا سابقا إلى قيمتها العلمية والفقهية كونها عاصمة مالكية لدولة بني حماد فإنها ضلّت كذلك حتى العصر الموحيدي، وكانت يومئذ -على حدّ تعبير الميلي- عاصمة المغرب علما وأدبا لا يفوقها إلا مراكش عاصمة الخلافة²، ولا أدلّ على ذلك من قول ابن تومرت لعبد المؤمن بن علي عند أوّل لقاء معه بها: "العلم الذي تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب"³، بل باتت قبلة للعلماء والفقهاء المالكية الذين لا قوا تضيقا من السلطة الموحدية بالمغرب الأقصى والأندلس، وأصبحت منافسة لكبرى الحواضر الموحدية كتلمسان وفاس ومراكش وإشبيلية، فهذا القطب أبو مدين شعيب (ت594هـ/1198م) الذي وفد إليها من الأندلس ومكث بها خمسة عشر عاما يدرس الفقه والوعظ يقول بأنّها: "معينة على طلب الحلال"⁴، وفي ذات الشأن يقول فقيهها أبو زكريا يحيى بن علي الزواوي (ت611هـ/1214م) أنّه ما من ناحية ببجاية إلا وبها مسجد ومعلّم⁵، أمّا فقيهها وقاضيه ومؤرخها أبو العباس الغبريني (ت714هـ/1314م)⁶ فيقول عنها: "كان الناس بها على اجتهاد، وكان الأمراء لأهل العلم على ما يليق ويراد"، ولعلّ مؤلّفه "عنوان الدراية" يُعتبر -بحق- سجلا حافلا بأعلام هذه الحقبة الذهبية من تاريخ المدينة، إذ ترجم فيه لأكثر من مائة وأربعين من رجالات المئة السابعة، وألحق بهم بعضا من أعلام المئة السادسة ممّن عاصروا العهد الموحيدي⁷، فكان من أشهرهم الأشياخ الثلاثة أعلام الفقه والتصوف ببجاية الموحدية، أولهم الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي (ت594هـ/1198م) الذي كان يتردّد على جامعها الأعظم يلزم كتاب الإحياء ويعكف عليه، وتأتيه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها⁸، وثانيهم الإمام أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي (ت580هـ/1184م)⁹ الملقّب بأبي حامد الصغير، الذي كان له مجلس بجانوت في طرف حارة المقدسي يسمّى "مدينة العلم"¹⁰، أمّا ثالثهم فهو القاضي

¹ - يذكر المراكشي أنّ بجاية آلت إلى حكم الموحيدين بعد حصار طويل سنة 440هـ، حيث خلع عبد المؤمن بن علي سلطانها "يحيى بن العزيز" الذي فرّ هاربا إلى بونة، ووّل مكانه ابنه "أبو محمّد عبد الله بن عبد المؤمن"، ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص153. البيذق: أخبار المهدي، مصدر سابق، ص76.

² - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القدم والحديث، مرجع سابق، ج2، ص337.

³ - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص106.

⁴ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج7، ص141.

⁵ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص127. التادلي: التشوّف، مصدر سابق، ص428.

⁶ - ترجم له الغبريني: عنوان الدراية، ص9. أبو الحسن النباهي (ت792هـ): تاريخ قضاة الأندلس، تح لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط5، 1403هـ/1983م، ص132. ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن حسن (ت810هـ): الوفيات، تح عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط4، 1403هـ/1983م، ص339. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ص90.

⁷ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص8.

⁸ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج7، ص137.

⁹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص33. ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير، مصدر سابق، ص35.

¹⁰ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص36.

والخطيب أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الاشبيلي (ت581هـ/1185م)¹، صاحب التصانيف والتأليف الجليلة، وهو الذي تولّى الخطابة بجامعها الكبير المعروف بمسجد أبي زكريا الزواوي بحومة اللؤلؤة²، ولئن كان هؤلاء الثلاثة من نزلاء بجاية فإنّ من أصلاؤها الكثير، ولا أدلّ على ذلك من قول المسيلي -لَمَّا أُشير إليه بالتوحد في الفهم والتفرد في العلم-: "أدركت ببجاية تسعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي مَن يكون"³.

كما برزت في العهد الموحدى -إلى جانب بجاية- مدن وحواضر فقهية أخرى، كانت -في الحقيقة- أقلّ شأنًا منها، لكن أهميتها كانت تكمن في مساهمتها في تنشيط الحركة العلمية بها، وذلك من خلال رحلة طلبتها وفقهائها لطلب العلم والاستزادة من علمائها، فقلعة بني حمّاد التي أضحت تابعة إداريا لعمالة بجاية، يصنّفها الجغرافيون المعاصرون للدولة الموحدية ضمن أكبر وأهمّ مدن المغرب الأوسط عمرانًا وحضارة وعلمًا⁴، بل ظلّت خلال هذه الحقبة منافسة لحاضرة بجاية، فنسبت إليها كتب التراجم العديد من فقهاء المالكية منهم الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن حمّاد القلعي (ق6هـ)⁵، والفقيه عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي (ت669هـ/1271م)⁶، الذي سكن بجاية ودرّس الفقه بجامعها الأعظم، قال عنه الغبريني: "كان حافظًا للخلاف العالي و المذهب المالكي، وكانت له ببجاية وجاهة ونباهة"⁷، ومنهم محمد بن محمد بن أبي بكر بن المنصور القلعي (ت بعد660هـ/1262م)، الذي نشأ بالقلعة ثمّ انتقل إلى بجاية واستوطنها مدرّسًا للفقه والفرائض إلى أن توفّي بها⁸.

أمّا حاضرة قسنطينة⁹ التي كانت هي الأخرى تابعة لإقليم بجاية لمّا شملها التّفوذ الموحدى¹⁰، فإنّ مكانتها الفقهية تبرز من خلال جامعها الأعظم¹¹ الذي انتصب فيه فقهاء وأعلام أجلاء لتدريس العلوم العقلية والنقلية، كالفقيه أبي محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي، الذي نزل بقسنطينة -قادمًا من بجاية- ومكث بها يقرأ

¹ - ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير، مصدر سابق، ص34.

¹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص36.

² - ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير، مصدر سابق، ص101.

³ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص36.

⁴ - ينظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر السابق، ج1، ص255.

⁵ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع السابق، ص266.

⁶ - عادل نويهض: المرجع نفسه، ص266.

⁷ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص66.

⁸ - التنيكتي: نيل الانتهاج، مصدر السابق، ص381.

⁹ - ذكرها المراكشي بأنّها حدّ المغرب الأدنى (إفريقية)، وأدرجها الإدريسي المعاصر للدولة الموحدية ضمن مدن المغرب الأوسط، ينظر الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر السابق، ج1، ص222. المراكشي: المعجب، مصدر السابق، ص251.

¹⁰ - دخلت قسنطينة في طاعة الموحدين سنة547هـ/1162م، ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، مصدر السابق، ص194.

¹¹ - بناه الحَمّاديون سنة455هـ/1063م، وتمّ ترميمه سنة530هـ/1136م على عهد يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حمّاد (515-547هـ/1121-1152م)، ينظر عبد الحليم عويس: دولة بني حمّاد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ص280، 281.

عليه الناس ويستمعون منه إلى أن توفي سنة 636هـ/1239م¹، وأنجبت حاضرة قسنطينة في هذه الحقبة العديد من الفقهاء والمحدثين منهم أبو العباس القسنطيني، أحمد بن خلف بن بعيش الأزدي (ت بعد 537هـ/1143م)²، والقاضي أبو الفضل قاسم بن علي بن عبدون (ق6هـ/12م)³، ومنهم الفقيه و القاضي المالكي حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني (ت664هـ/1266م)⁴، الذي تولّى الخطابة بالمسجد السالف الذكر نحو خمسين عاما⁵، كما اشتهر منها الفقيه والمحدث أبو زكريا يحيى بن عباس بن أحمد بن أيوب القيسي (ت بعد 649هـ/1251م) الذي رحل إلى الأندلس ثم عاد إلى بجاية فكان من عدول الشهود بها، وقرأ عنه كثير من الناس بها⁶.

وغير بعيد عن قسنطينة حاضرة بونة⁷ والتي كانت تابعة -هي الأخرى- إلى عمالة بجاية، فإنّها تأثّرت بالأحداث التاريخية المتعاقبة⁸ منذ العهد الحمّادي ممّا جعل الحركة العلمية والفقهية بها أقلّ ازدهارا ونشاطا، ونتيجة لذلك نجد كثيرا من الفقهاء الذين نشأوا بها قد ارتحلوا إلى بجاية أو الأندلس أو إلى الحواضر المشرقية، حيث نسجّل رحلة محدّثها علي الترشكي (ت بعد 536هـ/1242م) إلى الأندلس⁹، ورحلة فقيها ومقرئها إبراهيم بن يوسف بن محمد (ت612هـ/1215م)¹⁰ إلى دمشق، أمّا قاضيها أبو الحسن علي بن عبد الله الأنصاري (ق7هـ/13م) فقد ارتحل إلى بجاية وناب عن القضاة هناك¹¹.

3. حاضرة جزائر بني مزغنة وما والاها:

¹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر السابق، ص325.

² - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص260.

³ - ذكر ابن الأبار أنّ الفقيه ابن فرقد الاشبيلي (ت627هـ) نزل عنده بقسنطينة لما كان عائدا من المشرق، وأخذ عنه، ينظر ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص130.

⁴ - هو جدّ ابن قنفذ القسنطيني صاحب كتاب "أنس الفقير"، ينظر ابن قنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص345.

⁵ - ابن قنفذ: المصدر نفسه، ص345. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص270.

⁶ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص271.

⁷ - يذكر المراكشي أنّ المسافة بينهما خمس مراحل، ينظر المعجب، مصدر سابق، ص253.

⁸ - من الأحداث التاريخية التي عرفت حاضرة بونة، الغزو الهلالي ثمّ الاحتلال الصقلي سنة551هـ، ثمّ خضوعها لحكم ابن غانية سنة598هـ، ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص259، 333. روبر بارنشفيلك: تاريخ إفريقيا الحفصية، هامش ص33. رشيد بورويبة: عنابة من الفتح الإسلامي إلى أواخر العهد الموحد، مجلة الأصالة، الجزائر، ع35/34، تا 35/07/01/1976م، ص71، 72.

⁹ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص51.

¹⁰ - ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله الدمشقي (ت842هـ): توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تح محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج1، ص654. ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، مصدر سابق، ج1، ص182.

¹¹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص251.

إذا انتقلنا إلى الحديث عن فقهاء المالكية والحركة الفقهية في حاضرة الجزائر الموحدية، فإننا نستشف من وصف الجغرافيين لها بأن هذه الحاضرة ما أخذت مكانتها بين حواضر المغرب إلا في العهد الحمّادي بعد أن أعيد تشييدها على يد بلكين بن زيري سنة 339هـ/950م¹، ثم ازدهرت مع ازدهار دولة الموحّدين وأفلت مع أفولهم، فالإدريسي الذي عاصر الموحدين يصفها بقوله: "وهي عامرة آهلة، وتجارها مربحة، وأسوارها قائمة، وصناعتها نافقة"²، أمّا صاحب "المعجب" الذي دخلها في آخر العهد الموحدى فقد قال عنها: "من مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تدعى الجزائر، وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنة"³، وليس بعيدا عن زمن المراكشي زارها العبدري (ت720هـ/1320م) وصوّر واقعها العلمي بقوله: "لم يبق من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص من فن من فنون المعرفة محسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، وأديب يؤنس غربة، فكأنّي أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض الأنوق"⁴، وبصرف النظر عن فترة التراجع والأفول فإنّها أنجبت خلال الحقبة الموحدية فقهاء ومحدّثين وقضاة كان لهم بالغ الأثر إن بها أو بحواضر المغرب والأندلس، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الفقيه المالكي أبو يوسف حجاج بن سكّانة الجزائري (ت بعد 561هـ/1156م) الذي وُلد ونشأ بها ولم يُذكر أنّه غادرها⁵، ومنهم أبو محمد عبد المنعم بن عشرين (ت بعد 561هـ/1156م)⁶ الذي عُدّ من أعيان فقهاءها في وقته، ومن الذين وفدوا على الأندلس وحّدث بها وروى عنه جماعة من أهلها المحدث الحافظ أبو محمد عبد المحسن بن ربيع الجزائري (ت بعد 543هـ/1148م)⁷، ومنهم أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر بن السطاح (ت629هـ/1232م) الذي دخل إشبيلية ودرس بها وجالس علماءها وأخذ من مصنّفاتهم وعاد بها إلى المغرب الأوسط⁸، أمّا عن الفقهاء والأعلام الذين نزلوا بحاضرة الجزائر واستوطنوها ودرسوا أو درّسوا بها، فقد وفد إليها من الأندلس أحمد بن عبد الله بن خميس الأزدي (ت547هـ/1252م) تلميذ الفقيه المالكي

¹ - يعتبر ابن حوقل (ق4هـ/10م) من أوائل الجغرافيين الذين أشاروا إليها، وإلا فإنّ جغرافي القرن الثالث هجري لم يتعرّضوا إليها البتة، ينظر ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سابق، ج1، ص76. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص134.

² - الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، ص258.

³ - المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص253.

⁴ - العبدري: رحلة العبدري، مصدر سابق، ص82.

⁵ - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة لكتابي الصلة و الموصول، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1965م، سفر5، ص122. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص99.

⁶ - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة، مصدر سابق، سفر5، ص122.

⁷ - ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ت708هـ/1308م): صلة الصلة، تح عبد السلام المراس وسعيد أعراب، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، 1414هـ/1994م، ق4، ص47.

⁸ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص263.

أبي بكر بن العربي، ومكث بها يدرّس الفقه والأصول والفرائض¹، كما نزل بها من الأندلس أبو محمد عبد الله بن حجاج بن يوسف (ت641هـ/1243م) الذي استوطن بجاية وتولّى قضاءها²، ووفد إليها من بجاية محمد بن حماد الصنهاجي (ت628هـ/1231م) الذي تعلّم بالقلعة وبجاية على يد أبي مدين شعيب، وأبي علي المسيلي وميمون بن جبارة ثم انتقل إلى الجزائر يريد الاستزادة من طلب العلم³.

هذا والجدير بالذكر أنّ المصادر الجغرافية أشارت — كذلك — إلى عدّة حواضر قريبة من جزائر بني مزغنة، كانت أهلة بالسكّان، كمتيجة، ومليانة⁴، وأشير، وسوق حمزة... غير أنّنا لم نعثر في كتب التراجم سوى على بعض أسماء أولئك الفقهاء والأعلام الذين كانت لهم — غالباً — علاقات بالبلاط الموحدية أو أولئك الذين استقروا بحواضر الأندلس أو الحواضر الشرقية، فمن حاضرة متيجة — إضافة إلى الجبارة بن محمد وأبي زكريا⁵ الفقيهيين الذين كان مبيت المهدي عندهما — أتخفتنا المصادر باسم علّمين مالكيين متيجيين، برعا في الحديث والفقه، أمّا الأول فهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت625هـ/1228م) الذي رحل إلى الأندلس ونزل بمرسية وخطب بها، وأقام بمالقة مدّة، ولقي بقرطبة ابن بشكوال وسمع منه، وكتب علماً غزيراً وأخذ عنه كثير من الناس⁶، أمّا الثاني فهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن عيسى (ت636هـ/1239م) الذي رحل إلى المشرق واستقرّ بالإسكندرية وحدث بها⁷، وروى عنه خلق كثير، منهم ابن نقطة البغدادي الحنبلي⁸، ومن حاضرة أشير ذكر ابن الأتار الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله الصنهاجي (ت561هـ/1166م)⁹، والمحدث أبا عمران موسى بن حجاج بن أبي بكر الأشيري (ت589هـ/1193م) الذي رحل إلى الأندلس وتنقّل بين حواضرها وسمع من مشايخها ثم عاد إلى الجزائر ومكث بها إلى أن توفّي¹⁰، كما يحدّثنا ذات المصدر عن فقيه أندلسي المولد، تعود أصوله إلى سوق حمزة، وهو

¹ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص54. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص46.

² - محمّد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مرجع سابق، ص233.

³ - يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، ج1، ص33.

⁴ - مليانة: مدينة رومية فيها آثار، وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء، جدّدها زيري بن مناد وأسكنها ابنه بلكين، وهي عامرة أهلة على نحر، ولها آبار عذبة وسوق جامعة، ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص192، 204.

⁵ - البيدق: أخبار المهدي، مصدر سابق، ص18.

⁶ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص165.

⁷ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص285.

⁸ - ابن نقطة: هو أبو بكر محمد بن عبد الغني الحنبلي البغدادي المعروف بابن نقطة (ت629هـ)، ينظر ترجمته عند ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج4، ص392. الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، ج4، ص138.

⁹ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص304.

¹⁰ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص182.

إبراهيم بن يوسف بن عبد الله بن باديس الوهراني، المعروف بابن قرقول (ت569هـ/1174م) الذي أخذ بالأندلس عن ابن العربي وغيره، وكان مشهودا له بالحفظ والفقه ومعرفة الحديث ورجاله¹، أمّا من حاضرة مليانة فيحدّثنا الغبريني وغيره عن الإمام الفقيه، المحصّل المجتهد أبي العباس، أحمد بن عثمان بن عبد الجبار المتوسي الملياني (ت644هـ/1246م)² الذي رحل إلى المشرق ولقي الأفاضل وجلب معه من العلوم فنونا شتى³، حتّى وصفه أصحاب التراجم بكبير وقته علما ودينا ورواية، من تأليفه "تقييد" على كتاب "التلقين" للإمام المازري (ت536هـ/1142م)⁴، وذكر ابن خلدون أنّ الرئاسة انتهت إليه في بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه⁵، كما أورد صاحب "توضيح المشتبه" اسم فقيه مالكي ملياني رحل إلى المشرق ودخل بغداد ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم، يكتفى رضي الدين ويسمّى سليمان بن يوسف (ت بعد 637هـ/1240م)⁶.

أمّا من حاضرة أشير فقد اشتهر المحدث النحوي أبو عبد الله محمد بن قاسم بن مندا (ت643هـ/1245م) الذي أخذ مبادئ العلوم بمسقط رأسه الجزائر، ثم ارتحل إلى فاس ودخل الأندلس فسمع بمالقة، ثم عاد إلى الجزائر مجتهدا في نشر وتدريس النحو وعلوم الحديث، وكان ممّن أخذ عنه الأديب والمؤرخ الأندلسي ابن الأبار صاحب كتاب "التكملة"⁷

4. فقهاء المالكية والنظام الموحد في المغرب الأوسط

إنّ المتنبّع للحياة المذهبية والحركة الفقهية أيام الموحّدين ليسجّل تغييرا جذريا واضحا عمّا كانت عليه أيام المرابطين، فلم تبق السيادة لذلك الفقه الفروع البسيط الذي يقارن أقوال المذهب المالكي مع بعضها، بل ظهرت توجهات فقهية متعدّدة، منها ما تميّز بالطابع التأصيلي والاعتماد على الأدلّة، ومنها ما تأثّر بالنحلة الظاهرية الحزمية، ومنها ما كان ذا صلة بمذهب الإمام الشافعي في الفقه وبالتيار الأشعري في العقيدة، وهو ما وضع فقهاء المالكية بالمغرب الأوسط أمام أمر الواقع، وأملى عليهم إمّا الانقياد لمذهبية الحكّام الجدد وطاعتهم، أو

¹ - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص130، 131.

² - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص188.

³ - القرافي: توشيح الديباج، مصدر سابق، ص51.

⁴ - صاحب التآليف الكثيرة منها: شرح صحيح مسلم، وشرح البرهان لإمام الحرمين، وشرح التلقين لعبد الوهاب في الفقه، وله كتاب "إيضاح الموصول في برهان الأصول"، لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه ولا أقوم لمذهبه منه، للمزيد عن مؤلفاته ينظر حسن حسني عبد الوهاب: الإمام المازري، مرجع سابق، ص59 وما بعدها.

⁵ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص88.

⁶ - ابن ناصر الدين: توضيح المشتبه، مصدر سابق، ج8، ص257.

⁷ - ابن الأبار: التكملة، ج2، ص168.

المعارضة الخفية والابتعاد عن أعين أصحاب القرار السياسي، وفيما يلي نماذج لأبرز فقهاء المغرب الأوسط مع رصدٍ لصلاتهم مع مختلف أجهزة الحكم الموحدية.

أ. فقهاء انخرطوا في المشروع الموحدية:

من خلال تتبع سير وتراجم هذا الصنف من الفقهاء يمكن أن نتميز بين فريقين منهم، فريق آثر التغلغل في بلاط الحكم الموحدية إلى درجة الالتحام والدوبان فيه، فتقلد الخطط والمناصب الحكومية المختلفة، وهو ما هيأ لهم الاستفادة من الامتيازات المادية والمعنوية، والحفاظ على نفوذهم السياسي، وفريق ثان رغم انخراطه في المشروع الموحدية إلا أنه لم يبلغ درجة الانصهار، وإنما اختاروا موقفا وسطا بين الحكومة والرعية.

فممن أبان ميلا لعلم الظاهر وأكثر من مطالعة كتب ابن حزم، فقيه تلمسان وقاضيهما أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان الهمداني التلمساني (ت601هـ/1205م)¹، الذي صادف انحراف المنصور يعقوب بن يوسف عن كتب الفروع وتوجهه إلى مذهب أهل الحديث، فقرّبه إليه وولاه قضاء قضائته سنة 583هـ، ثم عزله لوشاية حيكت عليه، ولما وُليّ الناصر بن يعقوب ردّه إلى القضاء ولم يزل عليه إلى أن توفي سنة 601هـ/1205م².

ومنهم كذلك الفقيه أبو محمد عبد الكريم بن عبد الملك (ت7هـ/13م)³، أصله من قلعة بني حماد، وهو صاحب الرابطة المعروفة برابطة ابن يكي بداخل باب أمسيون، من أعلى سند ببجاية، كان من أولي العلم والتهى، و ان ممن ينحو للظاهر، فكان من المقرّبين عند خلفاء بني عبد المؤمن⁴، أمّا الفقيه ابن دحية الكلبي (ت633هـ/1236م)⁵ نزيل بجاية وتلمسان، فقد نسبته المقرّبي إلى المذهب الظاهري⁶، غير أنّ الذهبي واعتمادا على شهادة المؤرخ البغدادي ابن الديبشي (ت637هـ/1240م) المعاصر له، يقول عنه بأن له معرفة حسنة بالتحو واللغة، وأنسه بالحديث، وأنه فقيه على المذهب المالكي⁷.

أما من فقهاء المغرب الأوسط الذين تشبّثوا بأصول مذهب مالك وفروعه، رغم تقلدهم للخطط والمناصب الحكومية نجد الفقيه والقاضي أبو محمد عبد الله بن حجاج، الشهير بابن سكات (ت641هـ)⁸، مولده في صفر من سنة 562هـ/1167م، ويعتبر بيته من بيوتات العلم بالمغرب الأوسط، إذ كان والده رجلا صالحا فاضلا من

¹ ينظر ترجمته عند ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة، مصدر سابق، ص339.

² عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص78.

³ ترجمته عند الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص213.

⁴ الحفناوي: تعريف الخلف، مصدر سابق، ص222.

⁵ ترجمته عند ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج3، ص448. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: مصدر سابق، ج7، ص280.

⁶ المقرّي: نفح الطيب، مصدر سابق، ج2، ص99.

⁷ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج16، ص278.

⁸ ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص308.

أهل العلم أخذ عن الفقيه أبي بكر بن العربي، وأخذ عنه ناس كثيرون، أمّا ابنه -مترجمنا- فقد نشأ بالجزائر، ثمّ انتقل إلى بجاية وتولّى قضاءها إلى أن توفّي بها، وخلف خمسة من الأولاد كلّهم من أولى العلم والنّهى¹، وأثر عنه أنّه -مع طول مدّته بالقضاء- كان لا يأكل من مرتّبه شيئاً وإمّا كان يصرفه في الصدقة وأوجه الخير المختلفة، وكان يعيش من فوائد عقّاره الذي ورثه عن أبيه في الجزائر²، ومّا يدلّ على تشبّته -في إصدار أحكامه- بالمذهب المالكي، أن كان يتوقّف أمره ويُصدر حكمه على فتيا الفقيهِين المالكيّين المشاورين³ أبي عبد الله بن أحمد الأريسي⁴، وأبي علي بن عزّون السّلمي⁵.

ومن القضاة الذين لم يركنوا لغير مقرّرات المذهب المالكي في أقضيّتهم نجد قاضي بجاية أبا علي المسيلي (ت بعد 580هـ/1184م)، كان يلقّب بأبي حامد الصغير، وله من المؤلّفات ما يوحي بتشبّته بمذهب مالك، ونبذه للتوجه الظاهري، ككتابه "النبراس في الردّ على منكر القياس"⁶، ويذكر الغبريني أنّه قد عرض له في مدّة ولايته مرض اقتضى أن يستنّيب حفيده، فتحاكت عنده -يوماً- امرأتان ادّعت إحداهما على الأخرى أنّها أعارتها حليّها، وأنّها لم تعده إليها، فأجابتها الأخرى بالإنكار، فشدد على المنكرة وأوهما حتّى اعترفت وأعادت الحلّي، فلمّا أخبر القاضي الحدّ بمسلكه في القضية أنكر عليه العدول عن الحكم بالشاهد واليمين، ولم يكتف بذلك، بل استدعى شاهدين وأشهد بتأخيره، ممّا يفسّر حرص الحدّ على التقيد بمذهب مالك، وإلاّ فإنّ من المذاهب من يميز الإجراء الذي سلكه الحفيد، فالغرض هو الوصول إلى حقيقة الأمر، وبأيّ شيء وصل إليه حصل المقصود⁷. ومنهم قاضي تلمسان وفقيها محمد بن عبد الحق بن سُلَيْمَان اليفري⁸ المعروف بالندرومي (ت 625هـ/1228م)، تولّى قضاء تلمسان مرتّين، وله تواليف في فنون كثيرة منها في الفقه "المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار" وفي

¹ - عن أسماء أولاده و الخطط التي تولّوها، ينظر محمّد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مرجع سابق، ص233.

² - للمزيد ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص245. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص177.

³ - الفقيه المشاور: هو لقب و تقليد مالكي، يحظى صاحبه بتقدير خاص يرتفع به فوق درجة القاضي، و لا يتصدّر لهذه الخطّة سوى كبار أهل العلم و الفقه ممّن هم في مستوى قاضي الجماعة، ممّن أخذ نفسه بحفظ أقوال مالك وأقوال أصحابه في مسائل الفقه، وتفقه في معانيها فعلم الصّحيح منها الجاري على أصوله من السّقيم الخارج عنها، و بلغ درجة التحقيق بمعرفة قياس الفروع على الأصول، لكونه عالماً بأحكام القرآن عارفاً بالناسخ والمنسوخ والمفصل والجمل والخاصّ من العامّ عالماً بالسّنن الواردة في الأحكام ممّيزاً بين صحيحها من معلولها، عالماً بأقوال العلماء من الصّحابة والتابعين ومن بعدهم من فقهاء الأمصار ومما اتّفقوا عليه واختلفوا فيه، عالماً من علم اللّسان بما يفهم به معاني الكلام، بصيراً بوجوه القياس، عارفاً بوضع الأدلّة في مواضعها، ينظر الخطّاب الرعيني، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد (ت954هـ): مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1412هـ/1992م، ج6، ص94.

⁴ - ترجمته عند الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص249.

⁵ - ترجمته عند الغبريني: المصدر نفسه، ص250.

⁶ - الغبريني: المصدر نفسه، ص35.

⁷ - الغبريني: المصدر نفسه، ص34 و ما بعدها.

⁸ - عند الغبريني "اليغبري"، ينظر عنوان الدراية، ص206.

الأصول "مستصفي المستصفي"، وفي الحديث كتاب "غريب الموطأ"، ولتشبته بمذهب مالك كانت له حظوة عند الخاصة والعامة¹.

أما من فقهاء المالكية الذين تولّوا خطة العدالة² بالمغرب الأوسط في العهد الموحد في نجد الفقيه المشار محمد بن محمد بن الحسين الخشني البجائي (ت بعد 603هـ/1207م)³، قال عنه الغبريني بأنه كان إماماً في صناعة التوثيق، وكان عليه اعتماد أكثر أهل بجاية في وقته⁴، كما تولّى هاته الخطة الفقيه القلعي محمد بن محمد بن منصور (ت 660هـ/1262م)⁵ الذي كان عالماً بأحكام الوثائق والشروط، وكان موثق وقته، حتى أنّ القاضي ابن سكات —السالف الترجمة— كان له به اعتناء، وكان يتحرى مشورته⁶.

ب. فقهاء سلكوا طريق المعارضة:

ذهب هذا الفريق من الفقهاء إلى الوقوف بمنأى عن سلطة الموحدين، والاحتفاظ بمسافة فاصلة بينهم وبينها، ثمّ ما فتئوا يعلنون معارضتهم لها، والتّظر إليها بعين الريبة، بل وبلغ الأمر بهم إلى حدّ الفرار منها ومقاطعتها ورفض التعامل معها، يتجلّى ذلك فيما أوردته لنا كتب السير والمناقب من حالات رفض واستعفاء لخطط ومناصب وزارية عرضت عليهم، فقد دُعي الفقيه عبد الحق الاشيلي (ت 575هـ/1179م)⁷ —لما نزل بجاية— إلى خطّي الخطابة والقضاء، فامتنع وأبى، ولما حلّ بنوا غانية⁸ ببجاية في محاولة منهم لإحياء دولة المرابطين سنة 580هـ/1184م بادر بتأييدهم وتولّى القضاء لهم، فحنق عليه الموحّدون وراموا سفك دمه، لكن توقّاه الله قبل أن يستعيد الموحّدون

¹ - ينظر ابن الأثير: المصدر السابق، ج2، ص166. الزركلي: الأعلام، ج6، ص186.

² - خطة العدالة: من الوظائف التابعة للقضاء، وتشمل الشهادة والتوثيق، أي القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها، فهي تحتوي على ضبط أمور الناس على القوانين الشرعية، وحفظ دماء المسلمين وأموالهم والإطلاع على أسرارهم وأحوالهم ومجالسة الملوك والإطلاع على أمورهم وعبادتهم، ولا ينبغي أن ينصب لها إلّا العلماء العدول، كما قال مالك - رحمه الله - لا يكتب الكتب بين الناس إلّا عارف بما عدل في نفسه مأمون على ما يكتبه، للمزيد ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ص280. ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ط1، 1406هـ/1986م، ج1، ص282.

³ - الحفناوي: المصدر السابق، ص489.

⁴ - الغبريني: المصدر السابق، ص252.

⁵ - الحفناوي: المصدر السابق، ص488.

⁶ - الغبريني: المصدر السابق، ص267.

⁷ - ابن شاکر، صلاح الدين محمد بن شاکر (ت764هـ): فوات الوفيات، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1974م، ج2، ص256. الغبريني: المصدر السابق، ص57.

⁸ - بنو غانية: بطن من بطون قبيلة مسوفة الصنهاجية التي ينحدر منها أمراء المرابطين، كانوا ولاية للجزر الشرقية بالأندلس في العهد المرابطي، ولما آلت بلاد المغرب إلى الموحدين قاموا بالثورة عليهم فغزوا بجاية و ما والاها من الجهة الشرقية لدولة الموحدين، ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص252 و ما بعدها. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسس شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، ط2، 1982م، ص716.

بجاية¹، أمّا الفقيه الطاهر عمارة بن يحيى (ت بعد 585هـ/1189م) فقد امتدح بني غانية في خطبة الجمعة قائلاً: "الحمد لله الذي أعاد الأمر إلى نصابه و أزاله من أيدي غصابه"، فلما استعاد الموحدون بجاية قبضوا عليه واعتقلوه²، ويروي لنا الغبريني أنّ الفقيه أبا الفضل بن محشرة (ت 598هـ/1202م) لما استدعي لرئاسة ديوان الإنشاء للخليفة يوسف بن عبد المؤمن، ارتحل عن بجاية "وهو كاره لارتحاله، مع علمه أنّه استدعاه لمنصب يسمو به عن أمثاله"³.

إنّ هذا الفريق من الفقهاء، ولما أدركوا خطورة ما تشكّله الدعوة الجديدة على مكانتهم الاجتماعية وسلطتهم العلمية، باشرُوا الحملة المضادة لهذا المشروع أشهروا سلاح الدعاية ضده، مستفيدين ممّا رُسِّخ في المخيال الثقافي المغربي من إجلال للإمام مالك ومذهبه، وبادروا إلى وضع مؤلفات في الذبّ عن مذهب مالك وتثبيت مرجعيته، وأخرى في الردّ على ابن حزم والمذهب الظاهري، فكما أشرنا إلى كتاب "النبراس في الرد على منكري القياس" الذي ألفه أبو علي المسيلي (ت بعد 580هـ/1184م)، وضَعَ الفقيه أبو زكريا الزواوي (ت 611هـ/1214م)⁴ كتاباً يردّ فيه على ابن حزم حلاه بـ "حجّة الأيّام وقدوة الأنام"، وهو الكتاب الذي استدعاه من أجله الخليفة إلى مراكش وكاد أن يمتحن لولا تدخّل الفقيه أبي محمد عبد الكريم الحسني⁵ ودفاعه عنه⁶، أمّا من الفقهاء الذين ألفوا التصانيف والشروحات حول أمّهات الفقه المالكي، نجد الفقيه محمد بن جعفر بن أحمد القيسي المعروف بابن الرمامة (ت 567هـ/1172م)⁷ ذو الأصول القلعية، الذي سكن مدينة فاس، واستقضي بها زمن المرابطين ثم تفرغ منذ سنة (535هـ/1141م) لتدريس الفقه المالكي بها، وأخذ عنه الكثير من المغاربة والأندلسيين، ومن مصنفاته: "التبيين في شرح التلقين" للقاضي عبد الوهاب في الفقه المالكي، وكتاب "التفصي في فوائد التفصي" لابن عبد البر

¹ - الغبريني: المصدر السابق، ص 57 و ما بعدها.

² - عادل نويهض: المرجع السابق، ص 241، 242.

³ - الغبريني: المصدر السابق، ص 53.

⁴ - يحيى الزواوي (ت 611هـ/1214م): هو أبو زكريا يحيى بن أبي علي الحسني، المشتهر بالزواوي، من أهل ميسون من أقطار بجاية، ولد في بني عيسى من قبائل "زواوة"، قرأ أوّل أمره بقلعة بني حمّاد على الشيخ الفقيه التّحوي أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الخراط، ثم ارتحل إلى المشرق فلقى الفضلاء و الأخيار من الفقهاء و المتصوّفة، ومن أشياخه بالمشرق الفقيه أبو الطاهر اسماعيل بن مكّي بن عوف الزهري الاسكندراني المالكي، روى عنه الموطأ، و القاضي أبو سعيد مخلوف بن جارة الاسكندراني المالكي، و الحافظ أبو طاهر السلفي الأصبهاني، و الفقيهان الأخوان أبو عبد الله و أبو العباس الحضرميان... و بعد رجوعه من المشرق استوطن بجاية و جلس بها لنشر العلم و بثّه إلى أن وافته المنية بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان سنة 611هـ، للمزيد عن ترجمته ينظر التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات (ت 617هـ): التشوّف إلى رجال التصوّف، ص 428، الغبريني: المصدر السابق، ص 127. الحفناوي: المصدر السابق، ص 583.

⁵ - تذكر المصادر أنّه من أصحاب أبي زكريا الزواوي و من قرابته، ينظر القرائي، بدر الدين محمد بن عمر (ت 1008هـ): توشيح الديباج و حلية الابتهاج، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1425هـ/2004م، ص 139. التنبكي: المصدر السابق، ص 285.

⁶ - الغبريني: المصدر السابق، ص 247، 248.

⁷ - أشرنا إليه سابقاً ضمن حديثنا عن: القلعة عاصمة مالكية لدولة بني حمّاد.

القرطبي (ت463هـ/1071م)¹ في الفقه المالكي أيضا؛ كما له كتاب في المذهب المالكي أطلق عليه اسم "تسهيل المطلب في تحصيل المذهب".

أمّا عن ردّ فعل السلطة الموحدية تجاه هذا الصنف من الفقهاء فتحتفظ لنا المصادر الوسيطية بحالات متعدّدة منها، تراوحت بين الامتحان، الاعتقال، التنكيل والتغريب...، فيذكر يحيى بن خلدون النهاية المؤلمة التي قضى فيها الفقيه أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة على يد عبد المؤمن بن علي، هذا الأخير الذي نقّذ فيه وصيّة المهدي التي جاء فيها: "إذا أمكنك الله من ابن صاحب الصلاة فاقتله، فإنّ صغير الصّاد من قوله لي: عليك بخويصة نفسك، لفني أذني حتّى الآن"²، من ذلك ما يرويه ابن الزبير من أنّ الفقيه عبد الله بن أحمد بن عبد الرحمان التميمي البجائي (ت620هـ/1223م)³ دخل الأندلس مُعَرَّباً عن بلده، وحدثت للفقيه أبي عبد الله الأصولي (ت612هـ/1215م) الذي لم تكن علاقته حسنة بولّاة الموحدين حادثة مأساوية، ونهاية مريبة، فقد نقل لنا التنبكي أنّه مات ذبيحاً⁴، ولا شك أنّ الفقيه أبا محمّد بن الأشيري (ت561هـ) فرّ إلى المشرق خوفاً من نفس المصير⁵

وصفوة القول أنّ الفقه المالكي قد استفاد من هذه الثورة —إضافة إلى الانتصار والتمكين— لقاحاً أصلياً لكلّ المذاهب الإسلامية، وهو الرّجوع إلى الكتاب والسنة، فلم يبق —على حدّ تعبير كنّون— ذلك الفقه السّاذج الذي يقارن أقوال أئمة المذهب ببعضها، ويرجعها في النهاية إلى رواية ابن القاسم عن الإمام مالك، بل صار يعتمد على الأدلّة، وينظر في الخلاف العالي، وبذلك أخذ خير ما في الدّعوة المعارضة له وأحرز كيانه⁶.

ثانياً: المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط في العهد الحفصي والزيري

¹ ابن عبد البر القرطبي (ت463هـ/1071م): هو أبو عمرو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، المالكي؛ محدث، حافظ، مؤرخ، عارف بالرجال و الأنساب، مقرئ، فقيه، نحوي. ولد بقرطبة في رجب سنة 368هـ، وتوفي يوم الجمعة آخر يوم من شهر ربيع الآخر سنة 463هـ بمدينة شاطبة من شرق الأندلس، رحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها، واشتغل بالإمامة والتعليم والقضاء، وترك مصنّفات جليلة في فنون عديدة منها "التمهيد" في شرح الموطأ و"الكافي" في الفقه المالكي... وصفه الحافظ الذهبي بقوله: الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف الفائقة، أدرك الكبار، وطال عمره، وعلا سنده، وتكاثر عليه الطلبة، وجمع وصنّف، ووثق وضعّف، وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع لعلمه علماء الزمان، وكان إماماً ديناً، ثقة، متقناً، علامة، متبحراً، صاحب سنة واتباع، وقال أبو الوليد الباجي: هو أحفظ أهل المغرب. للمزيد ينظر الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ص367. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص357. السيوطي: طبقات الحفاظ، مصدر سابق، ص431. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص240.

² يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ص87.

³ ابن الأثير: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص307.

⁴ التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص378.

⁵ القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، مصدر سابق، ج2، ص139.

⁶ عبد الله كنون: النبوغ المغربي، مرجع سابق، ص124.

تُعتبر موقعة العقاب بالأندلس (609هـ/1212م)¹ المعركة الفاصلة التي آذنت بذهاب أيام الموحّدين وزوال ملكهم، فما لبث أن أعلن الحفصيون² -حكام إفريقية- استقلالهم سنة 625هـ/1228م معتبرين أنفسهم الوريث الشرعي لدولة الموحّدين³، وأعقبهم استقلال بنو عبد الواد⁴ الزناتيون بتلمسان وماوالاها من بلاد المغرب الأوسط سنة 633هـ/1236م، ثمّ انتهت مملكة الموحّدين -نهائياً- بسقوط مراکش بأيدي بني مرين⁵ سنة 668هـ/1270م الذين انفردوا بحكم المغرب الأقصى بعد أن استولوا على مكناس وفاس وتازة الرباط وسلا، مُدّعين -كذلك- أحقيتهم بوراثة الموحّدين، فبات مغرب نهاية القرن السابع الهجري (13م) مفكّكا، تتحاذب أطرافه، وتتصارع على زعامته ثلاث دول إسلامية بربرية⁶، وظلّ النزاع بينها نحو قرن كامل لم يخلص بتمامه لأيّ دولة منها، فتوزّعت -مكرهة- بحدود هلامية مطاطة، ومناطق نفوذ موضع جدال قديم متجدّد، غير أنّ الصورة العامة تظهر (كما هو موضّح في الخريطة رقم 03)⁷ مغرب أدنى لبني حفص، وأقصى لبني مرين، وأوسط لبني زيان⁸.

وحتى وإن كان الخوض في التفاصيل المتشعبة للتاريخ السياسي لورثة الدولة الموحدية لا يعطينا بدرجة أكيدة، إلّا أنّنا قصّدنا بالإشارة إليه رصد القرائن والأدلة التي تضبط التقسيمات السياسية والحدود الجغرافية للمغرب الثلاث،

¹ - موقعة العقاب: جرت وقائع هذه المعركة شمال الأندلس، بين الجيش الموحد بقيادة محمد الناصر (595-609هـ/1199-1212م)، و جيش النصارى الأسباني بقيادة ألفونسو الثامن، ينظر المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج4، ص383. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص733.

² - أول من أعلن الانفصال من الحفصيين هو رابع خلفائهم أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد الهنتاقي نسبة إلى قبيلة هنتاتة من المصامدة ببلاد السوس من المغرب الأقصى، و أبو حفص هذا هو أحد خاصة ابن تومرت و مريديه العشرة الذين قامت على كاهلهم أركان دولة الموحّدين، و هو الذي تنسب إليه الدولة الحفصية، و منهم من يردّهم إلى ذرية عمر بن الخطاب، للمزيد ينظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ج1، ص362، ج7، ص507. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص7. روبر برانشفيك: تاريخ إفريقية الحفصية، مرجع سابق، ص42.

³ - ينظر ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص298.

⁴ - بنو عبد الواد: تسمّى دولتهم بعدة تسميات، الدولة العبد وادية نسبة إلى بنو عبد الواد (عابد الوادي) و هم فخذ من قبيلة زناتة البترية، و تسمّى الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والد يغمراسن مؤسس الدولة، كما تسمّى بدولة بني يغمراسن نسبة إلى مؤسسها يغمراسن، ينظر أبو زكريا، يحيى بن خلدون (ت780هـ): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، ج1، ص207. عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزباني، ج1، ص14.

⁵ - بنو مرين: هم فخذ من زناتة، كانت مواطنهم الأولى بلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سلجاسة، بدأ نجمهم في الظهور بعد ضعف الموحّدين وهزيمتهم في معركة العقاب 609هـ، وبرز فيهم أبو محمد عبد الحق بن محيو المريني الذي تنسب الدولة أحيانا إليه، فيقال الدولة "العبد حقية"، هذه الدولة التي استقلّت بالمغرب الأقصى بعد أفول نجم الموحّدين، وامتدّ نفوذهم في فترات كثيرة ليشمل المغرب كلّّه، ودام ملكهم إلى أواسط القرن التاسع الهجري، حيث خلفهم بنو وطلّاس. للمزيد ينظر أبو الوليد، إسماعيل بن الأحمر (ت807هـ): روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1382هـ/1962م، ص08 وما بعدها.

⁶ - عن الصراع الحفصي المريني الزباني ينظر جورج مارسيس: بلاد المغرب و علاقتها بالشرق، مرجع سابق، ص318 و ما بعدها.

⁷ - ينظر الملاحق: خريطة رقم 03 المغرب الاسلامي خلال القرنين السابع والثامن.

⁸ - عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص7.

وبدرجة أولى مغربنا الأوسط مجال الدراسة في هذه الفترة، تلك الحدود هي التي رسمها مؤسس الدولة الزيانية "يغمراسن"¹ وهي حدود طبيعية ثابتة من الجهة الغربية تتمثل أساسا في وادي ملوية (ملوشة) ومنه إلى وادي "صا" جنوبا، أما حدوده الشرقية فإنها وإن تميزت بالمدّ و الجزر خلال كامل الحقبة الوسيطة، فإنها —على الأقل— تمتدّ إلى ما وراء "بونة" شرقا في هذه الفترة (ق7-8هـ/13-14م)، شفيعنا في ذلك مؤلّف قاضي بجاية ومؤرخها أبي العباس أحمد الغبريني(ت714هـ/1314م) "عنوان الدراية" الذي ترجم فيه لفقهاء ومتصوفة من بونة وبجاية وبسكرة وقسنطينة وجزائر بني مزغنة وتنس ووهران وتلمسان باعتبار انتمائهم الجغرافي إلى المغرب الأوسط²، فعند ترجمته —مثلا— لفقهاء بجاية أبي محمد عبد الحق بن الربيع(ت675هـ/1276م) نجده يقول: "لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله"³ في حين نجده يستعمل كلمة "إفريقية" لفقهاء وأعلام المغرب الأدنى (تونس)⁴، أما إذا ترجم لأعلام مراكش أو فاس أو أغمات... فكان يتبعها بعبارة "من المغرب الأقصى"، وعلى نفس النهج سار مؤرّخ الدولة الزيانية يحيى بن خلدون(ت780هـ/1378م) عندما أدرج في مؤلفه "بغية الرواد" تراجم أعلام من قلعة بني حماد والقل و مشدالة وزواوة إلى جانب فقهاء و صوفية تلمسان، هذه التراجم تعبّر بوضوح عن معالم هذا الإقليم الجغرافي، و تُميّز حواضره عن حواضر المغرّين الأدنى و الأقصى، كما تبيّن بما لا يدع مجالا للشكّ بأنّ حدوده تمتد —في هذه الفترة— من بلاد العناب(بونة) شرقا إلى ما وراء تلمسان (نهر ملوية) غربا، ومن بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) شمالا إلى بلاد الصحراء (توات و ورجلان) جنوبا⁵، و علّ أساس هذا التقسيم سندرس المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط خلال القرنين السابع و الثامن الهجريين، مدرسة مالكية حفصية ببجاية و قسنطينة و ما والاها من الحواضر الشرقية، و مدرسة مالكية زّيانية بتلمسان و ما جاورها من الحواضر الغربية.

لكن وقبل الخوض في تفاصيل المدرستين، تجدر بنا الإشارة إلى تاريخ نشأة المدارس ببلاد المغرب التي تبدو أنّها وفدت إلينا مع مخيّلات الرحالة الذين طافوا ببلاد المشرق وزاروا المدارس النظامية التي ظهرت به خلال القرن

¹ —يغمراسن بن زيان(633-681هـ): هو أبو يحيى يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبد الوادي، مؤسس الدولة الزيانية و باني أمجادها، ولد سنة603هـ و قيل 605هـ، و بويع يوم وفاة أخيه أبي عزة زحidan سنة633هـ، و توفيّ سنة681هـ بوادي رهيو بالشلف، ودفن بتلمسان، وكانت مدة ملكه 44 سنة، ينظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مرجع سابق، ج1، ص225 و ما بعدها. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص206.

² —الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص48،

³ —الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص60.

⁴ —الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص119، 294، 298، 307.

⁵ —الطاهر بونايي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ، مرجع سابق، ص33.

الخامس الهجري (11م)¹، حيث أسس الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظامية² ببغداد لتدريس الفقه الشافعي، ثم انتقلت حركة المدارس إلى الشام ومصر بعد حوالي قرن من الزمن مع انتهاء الدولة الفاطمية، أما ببلاد المغرب فقد اختلفت الآراء حول تاريخ نشأتها، فمن الباحثين من يرى أنّ ظهور المدارس كان في العهد المرابطي، ومنهم من ذهب إلى أنّ يعقوب المنصور الموحد (ت595هـ/1199م) كان أول من بنى المدارس في بلاد إفريقية و المغرب و الأندلس³، في حين ترجّح أغلب الدراسات أنّ الحفصيين بإفريقية هم أول من أخذ من المشاركة فكرة إنشاء المدارس الحكومية منتصف القرن السابع الهجري (13م)⁴، أما بالمغرب الأقصى فقد أنشئت أول مدرسة حكومية بفاس حوالي سنة 670هـ/1272م⁵، بينما لم يعرف المغرب الأوسط المدارس الرسمية إلا مطلع القرن الثامن الهجري (14م)⁶.

1. المدرسة المالكية بالحوضر الحفصية:

ركّزت أغلب الدراسات التي تناولت الدولة الحفصية على العاصمة "تونس" و ما والاها من الحواضر الإفريقية، بينما لم تأخذ الأقاليم الغربية و الجنوبية للدولة حضّها من البحث إذا ما استثنينا حاضرتي بجاية و قسنطينة، لذلك أردنا التنقيب عن الحضور المالكي -تأليفاً و تدريسياً- في باقي الحواضر الشرقية للمغرب الأوسط، و التي كانت -أغلب الفترة الوسيطة- تحت ولاية الحفصيين أو شيوخ من أهاليهم، كحاضرة بونة، وحوضر بلاد الزاب، وحاضرة وارجلان و ما والاها من الحواضر الواحية⁷

أ. المدرسة المالكية ببجاية الحفصية: (المنشآت - المقررات - الأعلام والبيوتات)

بلغت حاضرة بجاية -كما أسلفنا- في العهد الموحد شأنا عظيما في مجالات الحياة الثقافية و الفكرية، واحتلّت مكانة مرموقة بين حواضر العلم العتيقة كتلمسان وفاس...، وبعد سقوط المملكة الموحدية و إعلان أبي زكريا الحفصي استقلال الإمارة الحفصية سنة 625هـ/1228م، استمرّ العطاء البجائي و أضحت بجاية عاصمة ثانية،

¹ - من رحالة القرن السادس الهجري (12م)، ابن جبير الذي زار بغداد حاضرة العباسيين حوالي سنة 582هـ، و تحدث عن مدارسها، ومنها المدرسة النظامية، و أطنب في وصفها و الأوقاف التي أوقفت عليها، ينظر ابن جبير، محمد بن أحمد الكنايني الأندلسي (ت614هـ): رحلة ابن جبير، دار و مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ص183

² - ينظر المقرئزي: المواعظ و الاعتبار، مصدر سابق، ج4، ص199.

³ - صالح بن قرية: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، مرجع سابق، ص138.

⁴ - ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص351.

⁵ - حسب ابن مرزوق لم يعرف المغرب المدارس إلا في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب المريني، الذي شيد مدرسة الخلفائين (الصفارين) بفاس و بالعدوة منها، ينظر ابن مرزوق: المسند الصحيح، مصدر سابق، ص405.

⁶ - أول مدرسة أنشئت بالمغرب الأوسط كانت في تلمسان عاصمة الزيانيين، تمّ تشييدها من طرف السلطان الرابع أبو حمّو الأول (707-718هـ)، و تسمّى بمدرسة "ابني الإمام" التي سنأني على ذكرها لاحقا، ينظر ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص353.

⁷ - للمزيد حول حدود المغرب الأوسط في العهد الحفصي ينظر عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ج2، ص11. شكل (03) خارطة المغرب الأوسط في العهد الزياني و الحفصي.

تُنافس العاصمة الأولى "تونس"، حيث أولاها السلاطين و الأمراء الحفصيون عناية فائقة، خاصّة في مجال العمران و العلوم، فانتشرت بها مراكز التعليم كالمدارس والمساجد والكتاتيب والزوايا... وانتهت بذلك إلى شأن كبير لاسيما في مجال العلوم الدينية، وعلى وجه الخصوص ميدان الفقه المالكي الذي صارت له فيها مدرسة بمعالمها وأعلامها، فقد أحصت الدراسات الحديثة اعتمادا على النصوص المصدريّة - لاسيما ما كتبه الرحالة والجغرافيون - تلك المنشآت العمرانية العلمية من دور ومساجد ودكاكين وكتاتيب ما يدلّ على الرقي العلمي المكانة الثقافية التي تبوّأتها هذه الحاضرة¹، وهو ما يتجلّى في كلام العبدري (ت بعد 700هـ/1301م) الذي زار بجاية في رحلته المشرقية، ونصّ على أنها مبدأ الإتقان والتهاية، وأنها بقية قواعد الاسلام، ومحلّ جلة من العلماء الأعلام، وأنّ لها جامعا عجيبا منفردا في حسنه، غريبا عن الجوامع المشهورة، وأنّ أهلها مواظبون عن الصلاة فيه مواظبة رعاية².

أمّا عن العلوم الرائجة في دُور العلم البجائية فلا شكّ أنّ الفقه المالكي -فروعا وأصولا- يحتلّ المرتبة الأولى تدريسا وتأليفا³، شفيعنا في ذلك شهادة فقيه تلمسان أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت 771هـ/1370م)⁴ الذي دخل بجاية في القرن الثامن الهجري، فقال عنها: "وجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء ينبع من حيطانها، فصرت أكتب في كلّ مسجد سؤالاً.... وقد سمعنا أنّ بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة، وأمّا اللاقي يحفظن ابن الحاجب⁵ فلا يعلم عددهنّ إلا الله"¹، هذه الشهادة التي نستشف منها -كذلك- أهمّ

¹ - عن المنشآت العلمية ببجاية ينظر مريم هاشمي: الروابط الثقافية لمدينة بجاية مع حواضر بلاد المغرب الاسلامي (ق6-9هـ/12-15م)، رسالة دكتوراه، إشراف د. عبد الرحمان بالأعرج، جامعة تلمسان، الجزائر، 1439-1440هـ/2018-2019م، ص63 و ما بعدها.

² - ينظر العبدري، أبو عبد الله (ت بعد 700هـ): رحلة العبدري، تح علي إبراهيم كردي، تق شاكور الفحام، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، 1426هـ/2005م، ص82، 83.

³ - عمارة علاوة: دراسات في العصر الوسيط في الجزائر والغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص108.

⁴ - أبو عبد الله محمد الشريف (ت 771هـ/1370م): هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن محمد بن القاسم بن محمود بن علي بن عبد الله بن ميمون بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال ابن خلدون: يعرف بالعلوي، نسبة إلى قرية العلوين بالقرب من تلمسان، وعرف بين معاصريه بالشريف التلمساني، ولد سنة 710هـ بتلمسان ونشأ بها، وأخذ عن علمائها، واختصّ بأولاد الإمام، وتفقه عليهما في الفقه والأصول والكلام، ثم لزم العالم الكبير الأبلّي مدة طويلة، انتقل بعدها إلى تونس سنة 740هـ وأخذ عن كبار علمائها، وفي عام 753هـ ضمّه السلطان المريني أبو عنان مجلسه العلمي، واستدعاه أبو محمّد موسى بن يوسف الزياني بعد أن استرجع تلمسان من المرينين، وقرّبه إلى مجلسه، وزوّجه ابنته وشيد له مدرسة بتلمسان، درّس فيها إلى أن وافاه أجله عام 771هـ، ترك الشريف التلمساني آثاراً كثيرة تدل على مكانته العلمية، منها المطبوع والمخطوط والمفقود، أهمها: كتاب مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، ومثارات الغلط، قال عنه صاحب البستان: "كان آخر الأئمة المجتهدين، نسيج وحده فريد عصره في كل طريقة، انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب، وضربت إليه آباط الإبل شرقا وغربا، فهو علم علمائها ورافع لوائها فحييت به السنة وماتت به البدعة وأظهر من العلم ما بهر به العقول" ينظر التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص179. ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص164. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص536. المقرّي: نفح الطيب، مصدر سابق، ج6، ص25.

⁵ - ابن الحاجب المصري (ت 646هـ/1248م): هو عثمان بن عمرو بن أبي بكر بن يونس الكردي الدويني نسبا، الإسناي مولدا، كنيته أبو عمرو، و لقبه جمال الدّين، واشتهر بابن الحاجب نسبة إلى أبيه الذي كان حاجبا للأمير عز الدين موسك الصّلاحي، نشأ في صغره بالقاهرة حيث

المؤلفات الفقهية التي كانت تدرّس بمساجد وزوايا وحوانيت بجاية، فزيادة على مدوّنة سحنون (ت240هـ/854م)، ومختصر ابن الحاجب (ت646هـ/1248م)² اللذين ذكرهما النص السالف، تُضيف لنا كتب التراجم عددا من أمهات كتب الفقه المالكي التي لاقت رواجاً عند فقهاء وطلبة بجاية، كما تمدّنا بالتقييدات والشروح والمختصرات التي ألّفت حولها، فعند ترجمته للفقيه المالكي أبي الحسن علي الشهير بابن الزيات³، يذكر الغبريني بأنّه كان يُقرأ تهذيب البراذعي (ت بعد372هـ/983م)⁴، وتلقين القاضي عبد الوهاب (ت422هـ/1031م)⁵، وتفريغ الجلاب (ت378هـ/988م)¹، ورسالة ابن أبي زيد

اشتغل بحفظ القرآن الكريم، ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك، رضي الله عنه، ثم بالعربية والقراءات، وبرع في علومها وأتقنها غاية الإتقان، ثم انتقل إلى دمشق ودرّس مجامعها في زاوية المالكية، وصنّف التصانيف البالغة غاية التحقيق والإجادة، منها مختصره الفرعي والأصلي، الأول في الفقه المالكي والثاني في أصول الفقه، وله "الكافية" و"الشافية"، الأولى عبارة عن مقدمة وجيزة في النحو، والثانية مثلها في التصريف، ثم انتقل في شيخوخته إلى الإسكندرية للإقامة بها، فلم تطل مدته هناك، وتوفي بها ضاحي نهار الخميس السادس والعشرين من شوال سنة 646هـ، ودفن خارج باب البحر بترية الشيخ الصالح ابن أبي شامة؛ وكان مولده في آخر سنة 570هـ بأسنا، للمزيد عن ترجمته ينظر الأذفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر (ت748هـ): الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء و الرواة بأعلام الصّعيد، المطبعة الجمالية، حارة الروم، مصر، 1332هـ/1914م، ص188. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص248. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ص241.

¹ يقصد المختصر الفرعي في الفقه المالكي لابن الحاجب المصري السالف الترجمة، ينظر الورثياني، سيدي حسين بن محمد (ت): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والآثار، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908م، ص37.

² مختصر ابن الحاجب أو "جامع الأتمهات"، هو أحد أشهر مصنّفات أبو عمرو عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب المصري (ت646هـ) في فقه الفروع، وهو متن مختصر في الفقه، استخرجه مؤلفه من ستين كتابا في الفقه المالكي، وصنّفه على طريقة "ابن شاس" (ت616هـ) في مؤلفه: "الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة"، إذ لخص فيه طرق أهل المذهب في كلّ باب وعدّد أقوالهم في كلّ مسألة، فكان بمثابة البرنامج للمذهب، وفيه ظهرت براعة صاحبه في التوبيع والترتيب، والجمع بين الأقوال والترجيح، مع حسن الصياغة والتنظيم، فأثنى عليه العلماء من المالكية وغيرهم، وتواترت الأخبار في الإشادة به والتنويه بمميّزاته، فهذا أحد أعلام الشافعية، الشيخ تقي الدين، ابن دقيق العيد (ت702هـ) وهو أحد شراح الكتاب يقول فيه: "أثنى فيه بالعجب العجاب، ودعا قصي الإجابة فكان المجاب." وقال صاحب الديباج قال والدي علي بن محمد بن فرحون رحمه الله تعالى قال لي الإمام العالم الفاضل العلامة القاضي فخر الدّين المصريّ كان شيخنا كمال الدّين الزمלקاني يقول ليس للشافعية مثل مختصر ابن الحاجب للمالكية، ينظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص570. ابن فرحون: الديباج المذهب، ص190.

³ ابن الزيات (ق7هـ): هو أبو الحسن علي، الشهير بابن الزيات، من فقهاء وحفاظ المذهب المالكي، أصله من الأندلس بها ولد وتعلم ثم ارتحل إلى بجاية واستوطنها، فأقرأ بها وانتفع الناس بعلمه، ثم ارتحل إلى إفريقية، وبها توفي ودفن، للمزيد عن ترجمته ينظر الغبريني: المصدر السابق، ص197.

⁴ البراذعي (ت بعد372هـ): هو أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي القيرواني المعروف بالبراذعي، صاحب كتاب "التهذيب" في اختصار المدوّنة، وُلد ونشأ في القيروان، ثم خرج إلى صقلية وحصلت له شهرة هناك وجاء عظيم وهناك ألّف غالب كتبه، قال القاضي عياض: كان من كبار أصحاب ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وعلى كتابه المعول بالمغرب، سكن صقلية واشتهرت كتبه هناك، وقرب من السلطان، لم أظفر بوفاته. للمزيد ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص182. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص194. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص157.

⁵ القاضي عبد الوهاب (ت422هـ/1031م): هو إمام المالكية، القاضي أبو محمد، عبد الوهاب بن علي ابن نصر بن أحمد بن حسين بن هارون بن مالك بن طوق، التغلبيّ العراقيّ، وُلد ببغداد سنة 363هـ، أخذ عن أبي بكر الأُمريّ وحَدّث عنه وأجازته، وتفقه عن كبار أصحابه كابن الجلاب والباقلاني وغيرهم، ثم رحل إلى الشام فمرّ بمصر النعمان واجتمع بأبي العلاء. وتوجه إلى مصر، فعلت شهرته وتوفي بها في شهر صفر من سنة 422هـ، ألّف تأليف كثيرة في فنون مختلفة منها ككتاب "التلقين" من أجود المختصرات في الفقه المالكي، وكتاب "المعرفة" في شرح الرسالة، قال الخطيب البغدادي: كتب عنه وكان ثقة ولم تلق من المالكيين أحدا أفقه منه. للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص220.

القيرواني (ت386هـ/996م)...، أما ابن خلدون وفي معرض حديثه عن دخول "مختصر ابن الحاجب" إلى المغرب الأوسط، والتقلّة التي أحدثها في ميدان الفقه المالكي بـ "بجاية" تحديداً، فقد أشار إلى كبير فقهاء الذي حاز قصب السبق في جلب هذا الكتاب إلى بلاد المغرب وحثّ طلبة العلم على مدارسته وترغيبهم فيه، إذ يقول في ذلك: "ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السّابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصاً أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو عليّ ناصر الدّين الزّواوي (ت731هـ/982م)² هو الذي جلبه إلى المغرب. فإنّه كان قرأ على أصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلاميذه، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغرّبية، وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثّر عن الشّيخ ناصر الدّين من التّروغيب فيه"³، ونظراً للمكانة التي حضّي بها مؤلّف ابن الحاجب عندهم، لم يكتف فقهاء بجاية بقراءته ومدارسة مسائله في حلق العلم، بل بلغ بهم الأمر إلى حفظه عن ظهر قلب، وكانت أغلب مؤلفاتهم في المائة الثامنة شروحا وتعليقات وحواشي وإملاءات عليه، ومن أبرز من كتّب عنه نذكر:

— عيسى أبو الروح بن مسعود الزواوي (ت743هـ/1342م): كان يحكي أنه حفظ مختصر ابن الحاجب في الفروع في مدّة ثلاثة أشهر ونصف، وله عليه شرح في سبع مجلدات وصل فيه إلى كتاب الصّيد⁴.

— محمد بن يحيى الباهلي البجائي، المعروف بابن المسفر (ت744هـ/1343م): جاء في شجرة النور الزكية: "له إملاء عجيب على مختصر ابن الحاجب الفرعي..."⁵

الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص142. ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص159. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج4، ص184.

¹ — الجلاب (ت378هـ): هو الفقيه المالكي البصري، أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب، تفقّه بالقاضي أبي بكر الأبهري وكان من أحفظ أصحابه، وبه تفقّه القاضي عبد الوهاب وغيره، له كتاب في مسائل الخلاف وكتاب "التفريع" مشهود معتمد في الفقه المالكي، مات عائداً من الحج سنة 378هـ. للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص76. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج4، ص193. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج12، ص372. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص137.

² — ناصر الدين المشذالي (ت721هـ/1321م): أبو علي ناصر الدين، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشذالي، الشيخ الأصولي، والفقيه المشاور، والإمام الفذ، من أهل الفتوى في العلوم والتّوازل، ولد سنة 631هـ، ورحل صغيراً مع أبيه إلى المشرق، وأقام في رحلته نحو من عشرين عاماً، ولقي الأفاضل وأخذ عنهم، كالعز بن عبد السلام، وصدر الدين سليمان الحنفي، و شرف الدين بن السبكي، و شمس الدين الاصبهاني، و روى عن ابن الحاجب، و هو أوّل من أدخل مختصره إلى بجاية، ومنها انتشر بسائر بلاد المغرب، توفي سنة 721هـ، اشتغل بالتدريس ولم يترك من المؤلفات إلا شرحاً غير تام على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، للمزيد ينظر الغبريني: المصدر السابق، ص229، ترجمة رقم62. التبنكي: المصدر السابق، ص609، ترجمة رقم750. مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص312، ترجمة رقم796.

³ — ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص570، 571.

⁴ — ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص182.

⁵ — مخلوف: شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ج1، ص315.

— أحمد بن إدريس البجائي (ت بعد 760هـ/1359م): له تعليق على بيوع الآجال من مختصر ابن الحاجب¹، وله "شرح على ابن الحاجب" نقل عنه جماعة من الفقهاء منهم ابن عرفة الورغمي²، وأحمد بن زاغو، ومحمد بن بلقاسم المشدالي وغيرهم³.

— أحمد بن عمران البجائي اليانوي (ق8هـ/14م): له شرح على مختصر ابن الحاجب في ثلاثة أسفار⁴. — ومما تميّزت به مدرسة بجاية المالكية وفقهاؤها، توجّهاها الصوفي الذي يعدّ من أهمّ روافد المدرسة البجائية منذ العهد الحمّادي ثمّ الموحدية، مثّل ذلك التوجّه الفقيه أبو علي حسن بن علي المسيلي (ت580هـ/1184م) الذي كان يلقّب بأبي حامد الصغير، والفقيه أبو زكريا يحيى بن أبي علي الشهير بالزواوي (ت611هـ/1214م)، إذ يذكر صاحب كتاب "التشوف" المعاصر له، بأنّ أبا مدين شعيب كان يقول للفقيه الزواوي: "لا تُقنط الناس وذكرهم بأنعم الله" فيقول له: "لا أقدر إلا على هذا"، ويحدّثنا الغبريني عن شيخه أبي محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي الذي تصدّر للإقراء والتدريس بجامعها الأعظم، فيقول أنه كان يبدأ بالرقائق، وبعد ذلك بقراءة الفقه والحديث والرواية⁵، كما أنّ مؤلّف "المقدّمة الوغليسية" الفقيه أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد الوغليسي البجائي (ت786هـ/1384م)⁶ قدّم لها بالحديث عن بعض الرقائق والمواعظ¹، ولم يقتصر فيها على أحكام

¹ ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص81.

² ابن عرفة الورغمي (ت803هـ/1401م): هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي، والورغمي بفتح الواو وسكون الراء وفتح المعجمة وتشديد الميم نسبة إلى ورغمة قبيلة زناتية، وقرية من إفريقية، ولد سنة 716هـ، وتفقه ببلاده على أبي عبد الله بن عبد السلام الهواري شارح مختصر ابن الحاجب الفرعي وعنه أخذ الأصول وقرأ القراءات على ابن سلامة الأنصاري وسمع على جماعة هناك ومهر في المعقول والمنقول، انتشر علمه شرقاً وغرباً فأليه الرحلة في الفتوى والاشتغال بالعلم والرواية حافظاً للمذهب ضابطاً لقواعده إماماً في علوم القرآن مجيداً في العربية والأصليين والفرائض والحساب وعلم المنطق وغير ذلك. وله في ذلك تأليف مفيدة، تولى إمامة الجامع الأعظم بتونس سنة 750 هـ وقدم لخطابته سنة 772 هـ وللفتوى سنة 773 هـ، وحج سنة 792 هـ، وأخذ عنه في طريقه المصريون والمديون. وتخرج على يديه جماعة من العلماء الأعلام وقضاة الإسلام، وتوفي في جمادى الثانية سنة 803 هـ، وقبره بالجلاز معروف. للمزيد ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص337. الشوكاني، محمد بن علي اليمني (ت1250هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د ت، ج2، ص255. الحجوي: الفكر السامي، مصدر سابق، ج2، ص293. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج9، ص61. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص326.

³ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص33.

⁴ التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص94.

⁵ الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص65، 66.

⁶ — عبد الرحمان الوغليسي (ت786هـ/1384م): هو الفقيه الأصولي والحدّث المفسر أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، نسبة إلى بني وغلّيس جنوب بجاية، كان عمدة أهل زمانه وفريد عصره وأوانه، شيخ الجماعة ببجاية، أخذ عن أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي وأحمد بن عيسى بن سلامة وغيرهم. وعنه عدد غفير من الفقهاء والعلماء منهم أبو القاسم المشدالي ومحمد بن عمر الهواري وغيرهم. له تأليف كثيرة منها الأحكام الفقهية تسمى "الوغليسية" ومقدمة في الفقه وفتاوى مشهورة مدوّنة في كتب النوازل جاءت من مختلف أنحاء بلاد المغرب، وتوفي ببجاية سنة 786هـ، للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص248. ابن قنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص376. عمر كحالة: معجم المؤلفين، مصدر سابق، ج5، ص123. محمد مخلوف، شجرة النور، مصدر سابق، ج1، ص342.

العبادات، وكان ممن قرأها عنه الفقيه بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشدالي (ق8هـ/14م) الذي كان موصوفاً بحفظ المذهب²، قرأ عليه الكثير، منهم ابنه محمد بن بلقاسم (ت866هـ/1462م)³ صاحب تكملة حاشية المدونة للوانوغي⁴، والفقيه الأندلسي أبو عبد الله المجاري صاحب برنامج المجاري الذي قال: "وَمَنْ قَرَأَتْ عَلَيْهِ بِحَاجَةِ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ النَّظَارِ أَبُو الْقَاسِمِ الْمَشْدَالِيِّ تَلْمِيزُ الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ الْوَرَعِ الرَّاهِدِ أَبِي زَيْدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوُغْلَيْسِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَفَعَ اللَّهُ بِهَمَّا قَرَأَتْ عَلَيْهِ حَظًا وَافِرًا مِنْ بَيُوعِ ابْنِ الْحَاجِبِ بِالْجَامِعِ الْأَعْظَمِ تَفَقَّهًا، وَسَمِعْتُ عَلَيْهِ بِمَدْرَسَةِ اقْرَائِهِ بَعْضَ تَلْخِيصِ ابْنِ الْبَنَاءِ كَذَلِكَ"⁵.

- أمّا إذا انتقلنا للحديث عن الأعلام وبيوتات⁶ الفقهاء، فقد عرفت مدرسة بجاية عدّة عائلات وبيوتات⁷ اشتهرت بتفوّقها ونبوغها، إن في مجالات العلوم النقلية أو العقلية، فبرز منها العديد من الفقهاء والأصوليين والأدباء والشعراء وغيرهم من الذين تصدروا للتدريس والإفتاء والقضاء وغيرها من الخطط الإدارية، ولعلّ من أبرز هذه العائلات عائلتا المشداليين والمنجلاتيين اللتان ينتسبان إلى قبيلة زواوة، وأنجبتا جلة من حفاظ المذهب وفقهائه، فممن تصدر بيت المشداليين الفقيه المحصل أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي (ت731هـ/1331م)، الذي يُعدّ ركيزة من ركائز تيار الاجتهاد بالمدرسة المالكية البجائية، فهو تلميذ

¹ - تعكس "المقدمة الوغليسية" منهج المدرسة المالكية البجائية في الفقه والتصوف، فالوغليسية مقدمة في فقه العبادات اقتصر فيها مؤلفها على القول المشهور في المذهب المالكي، مركزاً على أسرار أحكام العبادات، فقدّم بذلك نموذجاً يثبت فيه إدماج التصوف في المنظومة السنية المالكية، من خلال ممارسته ضمن فقه العبادات، للمزيد ينظر الطاهر بوناوي: أبو زيد عبد الرحمان الوغليسي الفقيه الصوفي، مجلّة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، ع07، سبتمبر 2007م، ص89 وما بعدها.

² - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص150.

³ - ترجم له عادل نويهض نقلاً عن نيل الابتهاج وشجرة النور، ينظر معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص301.

⁴ - الوانوغي: محمد بن أحمد بن عثمان التوزري التونسي الوانوغي، نزيل الحرمين، عالم بالتفسير والفرائض والحساب، ولد في تونس، ومات بمكة. له "كتاب على قواعد ابن عبد السلام" و"عشرون سؤالاً" من المشكلات، ينظر حاجي خليفة: كشف الظنون، مرجع سابق، ج1، ص81. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج5، ص331.

⁵ - المجاري، أبو عبد الله محمد (ت862هـ): برنامج المجاري، تح محمد أبو الأحناف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص137.

⁶ - البيوتات جمع الجمع، فالمفرد بيت والجمع بيوت، وجمع الجمع بيوتات، ومصطلح "بيوتات الفقهاء" للدلالة على تميّز بعض العائلات والأسر على غيرها في المجال الفقهي تحديداً، وتوارث هذا التخصص جيلاً بعد جيل، واستعمل هذا المصطلح أي البيوتات في العصر الوسيط بدل الأسر أو العائلات، تميّناً بشرف بيت النبي صلى الله عليه و سلم في قوله تعالى: ((إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)) سورة الأحزاب، الآية33. إذ يذهب أهل اللغة أنّ كلمة البيت تعني الشرف، فمثلاً قولك فلان من أهل البيوتات أي من بيت شريف أو كريم، وهذا البيت من بيوتات العرب أي بيت شريف، للمزيد ينظر ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص14. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (ت538هـ): أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، ج1، ص86.

⁷ - وهي المتعارف عليها ببيوتات العلم، والتي يقول بشأنها روبر برنشفيك: "ظهر اتجاه جديد أبرز ممّا كان في الماضي، يتمثّل في تكوين عائلات مشهورة من العلماء، إذ برزت في كل مدينة من المدن الثقافية الكبرى بعض السلالات من الفقهاء..." ينظر روبر برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص331.

الفقيه الشافعي العز بن عبد السلام¹ صاحب الحجج والبراهين، وهو الذي يرجع إليه الفضل —أي المشدالي كما أشرنا— في إدخال مختصر ابن الحاجب لبلاد المغرب، قال عنه ابن مرزوق الجدي: "قد وصل شيخنا أبو علي درجة الاجتهاد"²، وقال عنه التجيبي: "كان يحرق ويقرّر ويمهّد، ويرجّح ويؤيّد، واشتهر بذهنه القوي، وصحّة استنباطه للأحكام وثقوب في الفهم"³، أمّا صهره، الفقيه الأصولي أبو موسى عمران بن موسى المشدالي (ت745هـ/1344م) فقد كان أعرف عصر أهله بمذهب مالك، ولمّا رحل إلى تلمسان قرّبه سلطانهما أبو تاشفين، وولّاه —كما أسلفنا— التدريس بالمدرسة التاشفينية، فصار مدرّسا بها للفقه والحديث، كما نبغ بذات البيت فقيهين جليلين، تركا آثارا جمّة، وصارا مضرب الأمثال في المجتمع البحائي، وهما الأب وابنه، وإن شئنا المعلّم وتلميذه، الفقيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشدالي (ق8هـ/14م)، وولده محمّد بن أبي القاسم (ت866هـ/1462م)، فأما الوالد فقيل عنه "كان في بجاية كالبرزلي"⁴ في تونس⁵، وأمّا الولد فقد تقلّد الخطابة بالجامع الأعظم، وصار مفتي بجاية في زمانه⁶.

أمّا من البيت المنجلاقي فقد برز الفقيه محمد بن يعقوب بن يوسف الزواوي، المكّي بأبي عبد الله المنجلاقي (ت730هـ/1330م)، الحافظ لمسائل المذهب، المستبحر في فروعها، ما أهله لتولّي خطّة القضاء ببجاية، كما

¹ العز بن عبد السلام: هو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام ابن أبي القاسم بن الحسن، الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، السلميّ الدمشقيّ ثم المصريّ الشافعي، ولد سنة سبع وسبعين وخمسائة، وسمع من عبد اللطيف بن أبي سعد، والقاسم بن عساكر، وتفقه على فخر الدّين بن عساكر، والقاضي جمال الدّين بن الحرستاني. وقرأ الأصول على الآمدي، وبرع في الفقه، والأصول، والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم، من التفسير، والحديث، والفقه، واختلاف أقوال الناس، وآخذهم. وبلغ رتبة الاجتهاد، رحل إلى بغداد فأقام بها أشهراً، ثم عاد إلى دمشق فولّي الخطابة بزاوية الغزالي ثم بالجامع الأموي، ولما سلّم الصالح إسماعيل قلعة الشّقيف وصفد للفرنج، نال منه الشيخ على المنبر، ولم يدع له. فغضب الملك من ذلك وعزله وسجنه، ثم أطلقه. فتوجه إلى مصر، فولّاه صاحبها الصّالح أيوب القضاء والخطبة، ثم اعتزل ولزم بيته، وفي مصر رحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنّف التصانيف المفيدة، منها "الفوائد في اختصار المقاصد" و"قواعد الأحكام في مصالح الأنام"... وروى عنه الدّمايطي وخرّج له أربعين حديثاً، وابن دقيق العيد، وهو الذي لقّبه بسلطان العلماء... توفي بمصر في جمادى الأولى من سنة ستّين وستمائة، وحضر جنازته الخاصّ العام، السلطان فمّن دونه، ودفن بالقرافة في آخرها، للمزيد ينظر السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ): **طبقات الشافعية الكبرى**، تح محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلّو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، ط2، 1413هـ، ج8، ص209. ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج7، ص522.

² التنبكي: **نيل الابتهاج**، ص610.

³ لقيه ببجاية في رحلته، ينظر التنبكي: **المصدر السابق**، ص609.

⁴ أبو القاسم البرزلي: هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي، ولد سنة740هـ، وهو أحد كبار أئمة المذهب المالكي، سكن تونس وانتهت إليه الفتوى فيها، وبها توفي سنة844هـ، وخلف ديواناً ضخماً في الفقه والفتاوى. للمزيد ينظر ابن مريم: **البيستان**، ص150، 151. التنبكي: **نيل الابتهاج**، ص370.

⁵ المصدر نفسه، ص150.

⁶ ترجمته وآثاره عند الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت914هـ): **وفيات الونشريسي**، تح محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، ص99.

اشتهر من ذات البيت والده وولده، فأما والده فهو يعقوب بن يوسف، وهو الذي ورث عليه علم الفقه، وأما الولد فهو أبو يوسف يعقوب، فقد كان فقيها معظماً فاضلاً خيراً، كيف لا وهو الفقيه بن الفقيه بن الفقيه¹، ومن تلامذته المنجلاتيين نجد الفقيه أبا الروح عيسى بن مسعود المنجلاتي (ت743هـ/1342م) كان فقيها عالماً متفنناً في العلوم تفقه ببجاية على أبي يوسف يعقوب الزواوي وقدم الإسكندرية وتفقه بها ثم رحل إلى قابس فأقام بها مدة وولي القضاء بها ثم رحل إلى الإسكندرية فأقام بها مدة يسيرة ثم رحل إلى القاهرة فأقام بها يشغل الناس بالعلوم بالجامع الأزهر وسمع كتب الحديث الستة قديماً، وحديث عن شرف الدين الدمياطي وولي نيابة القضاء بدمشق نحو ستين ثم رجع إلى الديار المصرية فولي نيابة القضاء بها، ثم ولي تدريس المالكية بمصر بزاوية المالكية وترك ولاية الحكم وأقبل على الاشتغال والتصنيف، فشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلد، وسمّاه "إكمال الإكمال" جمع فيه أقوال المازري والقاضي عياض والنووي وأتى فيه بفوائد جلييلة من كلام ابن عبد البر والباجي وغيرهما وشرح مختصر أبي عمرو بن الحاجب في الفقه فوصل فيه إلى كتاب الصيد في سبع مجلدات واختصر جامع ابن يونس شرح المدونة وصنّف في الوثائق والمناسك وفي علم المساحة، وردّ على تقي الدين بن تيمية في مسألة الطلاق وألف مناقب مالك وألف تاريخاً في نحو عشر مجلدات بيض منه نصفه ذكر فيه من أول بدء الدنيا وقصص الأنبياء وأخبار الأمم من آدم إلى زمانه وكانت له اليد الطولى في علم الفقه والأصول والعربية والفرائض وكان يحكى أنه حفظ مختصر ابن الحاجب في الفروع في مدة ثلاثة أشهر ونصف ثم عرضه وحفظ موطأ مالك وكان إماماً في الفقه وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية وكان مولده سنة أربع وستين وستمائة وتوفي في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بالقاهرة².

كما اشتهر في بجاية بيت "آل الغبريني"³ الذي أنجب عدداً من الفقهاء والقضاة والمفتين⁴، الذين ساهموا في تنشيط الحركة الفقهية ببجاية، كان أبرزهم صاحب "عنوان الدراية" الفقيه والقاضي أبو العباس أحمد بن أحمد⁵ الغبريني (ت714هـ/1314م)، حلاه ابن خلدون بكبير بجاية وصاحب شوارها⁶، وقال عنه ابن القنفذ بأنه فقيه

¹ - ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، ص390.

² - ينظر ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص182.

³ - نسبة إلى "بني غبري" بطن من قبائل البربر الذين ينتجعون أعلى وادي سيباو بأحواز عزازقة بالقرب من بجاية، ينظر الغبريني: عنوان الدراية، ص9. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص248.

⁴ - للمزيد عن فقهاء و أعلام البيت الغبريني ينظر مريم هاشمي: بيوتات العلماء بمدينة بجاية، أسرة بني غبرين نموذجاً، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي تلمسان، الجزائر، مج16، ع01، ص2024م، ص47 وما بعدها.

⁵ - على خلاف في اسم أبيه أحمد ومحمد، ينظر نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص248.

⁶ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص462.

محدث فاضل حافظ ومدرس¹، تولى قضاء بجاية فُعرف بشدته في الأحكام كما اشتهر بقيامه على التّوازل وأصول الفقه، وورث هذا العلم لبنيه كما ورثه هو عن أبيه، فاشتهر من أبنائه أبو القاسم وأبو سعيد، فأما أبو القاسم أحمد بن أحمد الغبريني (ت بعد 770هـ/1369م) فكان أحد كبار فقهاء عصره، تولى الفتوى والخطابة بتونس وتصدّر للتدريس بها²، وأما أبو سعيد (ت 775هـ/1374م) فكان من كبار المحدثين، قال عنه تلميذه ابن علوان: "هو شيخنا الفقيه الرئيس الإمام الخطيب الموقر المشاور المسند المحدث بقیة المشايخ"³.

وبما أنّ عالم الاسلام الوسيط لا حديث فيه عن الحدود السياسية بين الحواضر الاسلامية، فقد وفد إلى بجاية طلبة وأعلام من مختلف الحواضر لا سيما من بلاد الأندلس التي كانت تربطها ببجاية علاقات علمية وثقافية خلال أغلب الفترة الوسيطة، لذلك فقد نبغ بها علماء وفقهاء ذوو أصول أندلسية وتقلّدوا بها مناصب وخطط إدارية هامة، ذلك هو شأن بيت بني سيد الناس اليعمري، البيت الذي اشتهر فيه الحافظ المحدث أبو بكر محمد بن أحمد بن سيد الناس (ت 659هـ/1261م)⁴، وهو الذي نزح إلى بجاية فولّاه واليها الإمامة والخطابة بجامعها الأعظم⁵، وتفيد النصوص المصدّرية بأنّ له من الأبناء ثلاثة حصلوا على نصيب وافر من العلم، إلّا أنّ محمّدا المكّي بأبي عمر هو من سلك طريق والده، بينما سلك أخواه طريق المناصب العليا واشتغلا حجّابا ووزراء عند السلطان الحفصي⁶.

ب . حاضرة قسنطينة الحفصية:

تمثّل حاضرة قسنطينة —بعد بجاية— العاصمة المالكية الثانية للمغرب الأوسط الحفصي، ساهم في ذلك التوجه الفقهي الذي كان يتمتع بها ولّاة المدينة وأمرؤها الذين كانوا ينحدرون —أحيانا— من بعض البيوتات العلمية القسنطينية المشهورة بالعلم والفقه والأدب، لا سيما وأنّ المجتمع القسنطيني —كما أشرنا إلى ذلك في العهدين الموحد والحمادي— مجتمّع عريق في الثقافة والعلم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية موقعها الاستراتيجي بين حاضرتين فقهيتين هامتين، تونس من الشرق وبجاية من الغرب، أهلها لتبوء هذه المكانة، ولعلّ ما زاد هذه الحاضرة إشعاعا وتوهّجا، موجات العلماء الأندلسيين الذين حطّوا رحالهم بها ترافقهم مؤلفاتهم ومكتباتهم، خاصّة بعد

¹ - عبد القادر بوعقادة: الحركة الفقهية، مرجع سابق، ص 564.

² - التنبكي: نيل الانتهاج، مصدر سابق، ص 104.

³ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 249.

⁴ - ابن قنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص 326.

⁵ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 291.

⁶ - للمزيد عن بيت ابن سيد الناس ينظر فوزية لزغم: البيوتات العلمية بقسنطينة و بجاية في ظل الحفصيين، مجلة عصور جديدة، جامعة وهران، الجزائر، ع14-15، س1435هـ/2014م، ص 209.

سقوط دولة الموحّدين وتزايد نشاط حروب الاسترداد التي قادها نصارى شبه الجزيرة الأيبيرية مثل ما يوضح ذلك ابن القنفذ في قوله: "فكان منهم الجند ومنهم الكتّاب والعلماء والأدباء...¹" ثمّ يقول: "كانت هذه الجالية الأندلسية مجموعة من أدباء ومؤرخين وفقهاء ومحدّثين ومسندين، حملوا معهم ما تلقّوه من الأندلس"² ولا شكّ في أنّ الدعوة الموحّدية كانت —هي الأخرى— سببا من أسباب النهضة الفقهية والفكرية بحاضرة قسنطينة، فقد أطلق أمراؤها العنان للبحث والتنقيب والدرس، ووفّروا الجو المناسب لعقد الجلسات العلمية، والمناظرات الفقهية بين العلماء والفقهاء والأدباء، لمناقشة مختلف المسائل العقلية والنقلية، التي تخدم عقيدتهم الموحّدية ذات الميولات الأشعرية³، محاولين في ذات الوقت إبعاد الفقهاء عن فقه الفروع المالكي الذي غالى المرابطون و—بدرجة أقل— الحمّاديون في فرضه وتطبيقه⁴، فلمّا جاء الحفصيون ورثة الموحّدين فتحوا الباب على مصرعيه للتيارين، تيّار الاجتهاد وتيار التقليد، وأبانوا عن تسامح كبير تجاه المذهب المالكي وعلم الفروع⁵ في فترة أولى انتقالية، ثمّ ما لبث سلاطينهم وولايتهم يعطون المكانة الأولى لتدريس الفقه طبق المذهب المالكي آخذين بأيدي الفقهاء حتّا وتشجيعا على تدريس الموطأ وأمهات كتب الفقه المالكي⁶، فكانت حلق الدرس والمجالس العلمية تعقد في بلاط الأمير الحفصي بقسنطينة، كما في المساجد⁷ والزوايا⁸ والمدارس الرسمية التي يعود إليهم قصب السبق في إنشائها ببلاد المغرب⁹، وفي هذا المجال أشار "الحسن الوزان" عند حديثه على قسنطينة إلى وجود مدرستين وثلاث أو أربع زوايا، وجامع كبير¹⁰، ويذكر ابن القنفذ أنّ هذا الجامع وسّع فيه الأمير الحفصي أبو

¹— ابن القنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن الحسين (ت810هـ): *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*، تح محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م، ص28.

²— ابن القنفذ القسنطيني: *الفارسية*، مصدر سابق، ص29.

³— ابن خلدون: *العبر*، مصدر سابق، ج6، ص166.

⁴— ينظر محمود إسماعيل: *فكرة التاريخ بين الاسلام و الماركسية*، مرجع سابق، ص74.

⁵— ألفرد بل: *الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي*، مرجع سابق، ص300.

⁶— ابن القنفذ: *الفارسية*، مصدر سابق، ص34. ألفرد بل: *الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي*، مرجع سابق، ص306، 307.

⁷— ذكرت المصادر بصريح العبارة مسجدا صغيرا واحدا بقسنطينة في العصر الحفصي، وهو مسجد الشيخ الفاضل أبي عبد الله الصغار الذي دفن فيه سنة 749هـ/1349م داخل باب القنطرة، مع أنّه يرجع إلى العصر الوسيط كذلك مسجد سيدي أبي الحسن علي بن مخلوف، هذا الأخير الذي عاصر حصار ابن غانية لمدينة قسنطينة آخر القرن 6هـ/12م، ومسجد سيدي نقاش الذي استخرجت منه في العصر الحديث بعض شواهد قبور عدد من رجال الدين الذين عاشوا في القرنين 7 و 8هـ/13-14م، للمزيد ينظر روبر برنشفيك: *تاريخ إفريقية في العهد الحفصي*، مرجع سابق، ص421.

⁸— من بين أقدم الزوايا التي تشير إليها المصادر بحاضرة قسنطينة، زاوية الفكون نسبة لبيت آل الفكون، ينظر عبد الكريم الفكون (ت1073هـ): *منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية*، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1980م، مقدمة المحقق ص7، 8.

⁹— عن تاريخ بناء المدارس ببلاد المغرب ينظر صالح بن قرية: *تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر*، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية، الجزائر، 2007م، ص137.

¹⁰— الحسن الوزان: *وصف إفريقيا*، مصدر سابق، ص428.

سنة 683هـ/1284م، ولشدة إعجابه بالمجتمع القسنطيني، فقد كان يقسم مكوته في العام بين قسنطينة وبجاية، وكان لقسنطينة أكثر ميلا¹.

ولقد عرّف عدد من أسر المجتمع القسنطيني - في العهد الحفصي وقبله - الاشتغال بالعلوم الدينية و الاهتمام بها، وتوارث أفرادها الوظائف السلطانية كالقضاء والحسبة، والإمامة والإقراء، والتعليم والكتابة، وكانت الشهرة الأكثر في الفقه المالكي لبيتين عريقين، وهما البيت "الباديسي"، وبيت "آل القنفذ"²، فمن البيت الباديسي اشتهر الفقيه حسن بن بلقاسم بن باديس (ق7هـ/13م)³ المكنى بأبي علي، لقيه العبدري في رحلته وقال عنه بأنه من أهل العلم، له فقه بالمسائل وعناية بالحديث دراية ورواية، وله سمت وهيبة ووقار عند أهل قسنطينة، وأنه ليس في البلد من يُذكر في العلم سواه⁴، كما اشتهر من ذات البيت في القرن الثامن الهجري (14م) الفقيهان القاضيان، ابنا العمّ والخالة⁵، اللذان ارتحلا إلى المشرق ونحلا من معينه، يُعرف الأول منهما بأبي علي حسن بن خلف الله بن حسن بن باديس (ت784هـ/1382م)⁶ رحل إلى المشرق لطلب العلم وأداء فريضة الحج، فروى عن ابن غريون البجائي (731هـ/1331م) ومحمد بن عبد السلام (ت749هـ/1348م) قاضي الجماعة بتونس⁷، ثم عاد إلى قسنطينة فتولّى منصب القضاء، وأدركته المنية وهو يشغل هذه الخطّة، قال عنه السراج في فهرسته: "كان ذا سمت حسن وحال متحسن له اعتناء بالعلوم ومشاركة فيها، لقي في رحلته للحجاز أعلاما كثيرا، أخذ عنهم وأجازوه"، وأما الثاني فهو القاضي والمحدث والفقيه المالكي أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس (ت787هـ/1385م)⁸ عُرف بغزارة علمه وكثرة شروحه، تعلّم على يد فقهاء قسنطينة وبجاية، ثم ارتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج والاستزادة في طلب العلم، تولّى منصب قاضي الجماعة بتونس ثم بقسنطينة، قال عنه ابن القنفذ: "وأدرك في حداثة سنّه من المعارف العلمية ما لم يدركه غيره في كبر سنّه"، له من الشروحات شرح لكتاب "أوجز السر لخير البشر" للقزويني، وشرح آخر لكتاب في السيرة النبوية لـ "ابن فارس"، حلاه بـ "فوائد الدرر وفوائد الفكر في شرح مختصر السير"⁹.

¹ - ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، مصدر سابق، ص148.

² - عن أصل التسمية و جذورها التاريخية ينظر ابن القنفذ: الفارسية، مصدر سابق، ص39.

³ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص155.

⁴ - ينظر العبدري: الرحلة، مصدر سابق، ص95.

⁵ - ابن القنفذ: الفارسية، مصدر سابق، ص55.

⁶ - ابن القنفذ: شرف الطالب، مصدر سابق، ص27. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص160.

⁷ - ابن القنفذ: الفارسية، مصدر سابق، ص54.

⁸ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص160.

⁹ - ابن القنفذ: شرف الطالب، مصدر سابق، ص27، 28.

ولا يقل مكانة وعِلما عن البيت الباديسي، بيت "آل القنفذ"، فكان من أبرز أعلامه في القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14م) ابن الخطيب مؤلف "شرف الطالب" ووالده وجدّه، فأما الجدّ فهو الفقيه والمحدّث علي بن الحسن بن علي بن ميمونة بن قنفذ (ت733هـ/1333م)، كان خطيباً وقاضياً من فقهاء المالكية، تولّى الخطابة بالجامع الأعظم نحوًا من خمسين سنة¹، وهو والد المحدّث والفقيه المالكي حسن بن علي بن الحسن (ت750هـ/1349م) الذي تعلّم بقسنطينة وبجاية على يد ناصر الدين المشدالي وابن غريون وغيرهم، ثمّ رحل إلى المشرق للحج وطلب العلم، من مؤلّفاته "المسنون في أحكام الطاعون"²، و"المسائل المسطرّة في النوازل الفقهية"، وأمّا أشهرهم على الإطلاق فهو الحفيد الفقيه والمحدّث والقاضي أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن الخطيب (ت810هـ/1407م)³، وممّا زاده وزاد عائلته شهرة ونفوذاً، مصاهرتهم —كما اشرنا— للعائلة المالكية، فقد أخذ العلم بمسقط رأسه على يد والده وجدّه لأمه المكنّى بالملاّري⁴، ثمّ ارتحل إلى المغرب الأقصى ومكث بها ما يزيد عن ثماني عشرة سنة، وأخذ عن علمائها وتولّى القضاء بها سنة 769هـ/1368م، ثمّ عاد إلى قسنطينة فتولّى خطّة القضاء والخطابة والتدريس، وألّف ما يزيد عن الثلاثين مؤلفاً في ضروب شتى كالفقه والأصول والمنطق والتاريخ والفرائض والحساب وغيرها⁵.

كما عُرفت بقسنطينة أُسرٌ علمية أخرى لم تكن أقلّ شأنًا من التي ذكرنا⁶، إلّا أنّ المقام لا يكفي لرصد أعلامها كاملة، كأُسرة ابن عبدون، وأُسرة المقراني، وأُسرة سيدي عبد المؤمن، وأُسرة ابن الكمّاد، وأُسرة "آل الفقون"⁷ القسنطيني التي أنجبت جلّة من الفقهاء، وذوي النفوذ العلمي، وقد أشارت المصادر إلى أحد فقهاءهم في

¹ - ابن القنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص345.

² - ذكر ابنه في "الوفيات" أنّ سبب تأليفه هذا الكتاب هو اختلاف طلبته في الفرار من هذا الوباء، و يتعلق الأمر بالطاعون الأسود (الطاعون الجارف) الذي ضرب بلاد المغرب بل و العالم أجمع سنة 749هـ، قال عنه صاحب شذرات الذهب: "و فيها أي في سنة 749هـ كان الطاعون العام الذي لم يسمع بمثله، عمّ سائر الدنيا، حتّى قيل أنّه مات نصف النّاس، حتّى الطيور و الوحوش و الكلاب"، للمزيد ينظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج8، ص271. ابن القنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص355.

³ - ينظر الزركشي: تاريخ الدولتين، مصدر سابق، ص123. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص109.

⁴ - هو الفقيه الصوفي أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عمران الملاّري، نسبة إلى زاوية "ملارة" التي دفن بها سنة 764هـ، و هي تقع غرب مدينة قسنطينة و تبعد عنها بمرحلتين، أو بضعا و ثمانين كيلومترا، ينظر ابن القنفذ: الوفيات، ص362. عادل نويهض: معجم أعلام الجائر، مرجع سابق، ص314.

⁵ - للمزيد عن مصنّفاته ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص308.

⁶ - للمزيد عن بيوتات العلم بقسنطينة ينظر: عبد العزيز فيلالي، أبرز علماء قسنطينة و أثرهم، مرجع سابق، ص18. فوزية لزغم: البيوتات العلمية بقسنطينة و بجاية في ظل الخفصيين، مرجع سابق، ص198 و ما بعدها.

⁷ - كتبت في المصادر آل الفقون، و آل الفكون، للمزيد عن مكان نفوذهم بقسنطينة ينظر عبد العزيز فيلالي: أبرز علماء قسنطينة و أثرهم في بلاد المغرب و المشرق خلال العهد الحفصي (ق7-10هـ/13-16م)، مجلة العلوم الانسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع01، جوان 1990م/ ذو القعدة 1410هـ، ص23.

العصر الموحد، يسمّى حسن بن علي بن الفقون، ويكنّى بأبي علي (ت602هـ/1206م) كان فقيهاً وأديباً غزير النظم والنثر¹، لقيه العبدري في رحلته وقيد عنه قصيدته الشهيرة التي ضمّنها رحلته من قسنطينة إلى مراكش².

ج . الحواضر الواحية الحفصية:

ظلّ الشريط الواحي لبلاد المغرب الأوسط ملجأً للإباضية بعد سقوط الإمامة الرسمية تيهرت (296هـ/909م)، ذلك أنّهم وجدوا فيه ما يرومونه من بُعدٍ عن مواقع القرار السياسي وعُزلة توقّر لهم — بعد العودة إلى إمامة الكتمان — الأمن والاستقرار، وحتى وإن عازتنا المصادر في التحديد الدقيق لتاريخ انضواء مجتمعات هذه المجالات تحت راية المذهب المالكي، فإنّ الثابت تاريخياً أنّ هذه المجالات كانت — على الأقل — ضمن مجالات الدولة الموحدية سياسياً³، ففي حديثه عن قدوم الموحدين إلى ورجلان يقول الدرجيني أنّ أول داع وصل إلى وارجلان من دعاة الدعوة المهدية: العيتورسي، وصلها في خيل، فلما قدم إليهم دعاهم إلى إجابة الدعوة، فتشاوروا فيما يأتون وما يذرون... فقال لهم الفقيه يوسف ابن إبراهيم الوجلاني (ت570هـ/1175م) هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في أيامهم عزا وإقبالا، وتلقون منهم في بلادكم خير لقاء، وإكراما وإحسانا، أكثر مما تلقونه في بلادكم، فأجيبوا دعوتهم تفلحوا فليس بالذين يخربون بلدكم⁴

حاضرة ورجلان:

— جاءت حاضرة "ورجلان" في كتابات الجغرافيين المشاركة بعدّة أشكال ك: واركلان، واركلا، وارجلان، ورجلان، ورجلن، وارقلان...، فضبطها ياقوت الحموي "ورجلان بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر..."⁵ ورسمها الإدريسي "وارقلان" وقال عنها: "ومن مدينة المسيلة إلى وارقلانتا عشرة مرحلة كبار وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتحولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيُخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهيبة إباضية نكار خوارج في دين الإسلام."⁶ ودوّنها الحميري "واركلان" وقال: "هو بلد خصيب كثير النخل والبساتين، وفيه سبع مدائن مسورة حصينة بعضها قريب من بعض، وهي كثيرة الزرع والضرع والبساتين والمياه... وتضرب ببلد واركلان دنانير على نوع المرباطية، وهي مشهورة، وبين واركلان والجريد أربعة وعشرون يوماً، ومن بلاد الجريد إلى

¹ — ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص334

² — العبدري: الرحلة، مصدر سابق، ص97.

³ — ينظر الملاحق: خريطة رقم04، المناطق الواحية ضمن مجالات الدولة الموحدية

⁴ — ينظر الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، مصدر سابق، ج2، ص494.

⁵ — ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج5، ص371.

⁶ — الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ج1، ص296.

125هـ/723-743م) فأسلم بإسلامهم المرابطون¹، أو أنّها عرفت الإسلام عن طريق الدعاة الإباضية مطلع القرن الثاني الهجري، لاسيما وأنّ عاصم السدراتي (ت141هـ/758م) أحد حملة العلم الخمسة إلى بلاد المغرب، وصاحب الدور الأبرز في نشر الأفكار الإباضية بين القبائل المنتشرة جنوب المغرب الأوسط أصيل سدراته الوارجلانية على حدّ قول بعض المؤرّخين²، "سدراته" المدينة التي تضاربت آراء المؤرّخين أيضا -لقلة المادّة الخبرية- بشأن تأسيسها، بل و حتّى التفريق بين أن تكون النسبة لسدراتة المدينة أو سدراتة القبيلة³ فيذهب أغلب المؤرخين الإباضيين إلى أنّ تأسيسها كان مطلع القرن الثاني للهجرة⁴، ويرى فريق ثان أنّها أنشئت مطلع القرن الرابع الهجري بعد سقوط تيهرت 296هـ/909م و فرار سكّانها إلى ورجلان، و هناك على بعد 14 كلم جنوبا أخذوا في تخطيط عاصمتهم الجديدة "سدراته"⁵.

- اكتست حاضرتا "ورجلان" و "سدراته" أهميتهما الحضارية والفكرية من موقعهما الجغرافي على الطريق الرابط بين المغرب الأوسط وبلاد السودان، فورجلان حسب ابن خلدون: "بابٌ لؤلؤ المسافرين من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان"⁶، وذات الحديث ينطبق على "سدراته"، فالحضارة التي أسّسها الإباضيون بها لا يمكن أن يتغافل عنها باحث، لاسيما بعد نزوح الرستميين إليها مطلع القرن الثالث الهجري، إذ استحدثوا فيها القصور البديعة والمنازل الرفيعة، وبنوا بها المنشآت العلمية والثقافية، حتّى أصبحت تحاكي كبريات المدن بأسوارها وقلاعها وأزقتها ودروبها ومنظومة الري الدقيقة المنتشرة فيها⁷، وغدت الحاضرتان محجّا للعلماء ولرجال الفكر و السياسة رغم ما تعرّضتا له من حملات تخريب خلال العهد الحمّادي (ق5هـ/11م)⁸، كما أسهم

¹ الطاهر طويل: المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط، من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، الجزائر، ط 1، 2011 م، ص 348، 349.

² علي يحيى معتر: الإباضية في موكب التاريخ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط 3، 1429هـ/2008م، ج 2، ص 93، 94.

³ أشار البكري إلى أنّ سدراتة اسم لقبيلة بربرية كانت تستوطن مدينة بسكرة، وهي بطن من بطون لواتة من زناتة، للمزيد ينظر البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج 2، ص 170. و لتفاصيل أكثر ينظر عمّار غرائسة: المدينة الدولة في المغرب الأوسط، ورجلان نموذجا (ق4-6هـ)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2007/2008م، ص 44.

⁴ -ينظر إبراهيم أعزام: غصن البان، مصدر سابق، ص 104.

⁵ - حول موضوع بناء مدينة سدراته قدّم لنا الباحث مسعود مزهودي دراسة قيّمة رجّح فيها أنّ تأسيس المدينة كان قبل قدوم الرستميين إليها، و اعتمد فيها على رواية للشّخاخي تنصّ على مشاركة عدد -غير قليل- من السدراتيين مع عاصم السدراتي في حصار القيروان الذي قُتل فيه عاصم مسموماً 2هـ/8م... للمزيد ينظر مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ/1996م، ص 35، 36.

⁶ ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج 7، ص 70.

⁷ رشيد بورويّة: الفنّ الرسمي بتيهرت و سدراتة، مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ع 41، 1397هـ/1997م، ص 188.

⁸ - من ذلك الحملة التي قادها المنصور بن الناصر الحمّادي زمن حكم أبيه سنة 468 أو 470هـ ينظر محمّد بلغراد: الحركة الإباضية في تيهرت و سدراته، مجلّة الأصالة، العدد 41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ/1997م، ص 49.

أعلامهما في تطوير الفكر الإباضي ونظرياته حتى أواخر القرن (7هـ/13م) حيث تعرّضت المدينتان لعملية تخريب ثانية¹ على يد يحيى بن إسحاق الميورقي²، و بخرابهما هجرهما أهلها إلى وادي ميزاب، وهناك قاموا بإنشاء قراهم وعمدوا إلى تعميرها، فأفل نجم "ورجلان" و سدراتة" بعد أربعة قرون من العطاء العلمي والفكري.

حاضرة أسوف:

تُشكّل بلاد أسوف منطقة عبورين بلاد الجريد بالمغرب الأدنى ومنطقة الواحات بالمغرب الأوسط، إذ تتوسط الطريق التجارية الرابطة بين حاضرتي "ورجلان" و "القيروان"³، غير أنّ المصادر الجغرافية ورغم أهميّة موقعها لم تتكلّم في معظمها إلّا على طرفيّ هذا الطريق، يرجع ذلك ربّما كون المنطقة مغمورة غير مشهورة آنذاك أو لعدم معرفتهم بها⁴، وتُعدّ المصادر الإباضية الأقدم والأكثر ذكرا لهذه المنطقة، وذلك -ربّما- لكونها كانت ضمن المجال الجغرافي للتجمعات الإباضية بواحات المغرب الأوسط، فكتاب شرائع الإسلام للوالب بن سلام بن عمرو اللواتي (ق3هـ/9م) أوّل مصدر -على الأرجح- ذُكرت فيه بلاد أسوف بهذا الشكل⁵، فأبو زكريا (ق5هـ/11م) في كتابه "سير الأئمّة" أشار إلى التواصل الذي كان بين إباضية جربة وبلاد الجريد، وبين إباضية أسوف وأريغ ووارجلان، ويذكر في إحدى رواياته أن جماعة من أهل المذهب خرجوا سنة 449هـ/1057م قصد زيارة إخوانهم من أهل دعوتهم، فانطلقوا من جربة ثمّ مرّوا بإخوانهم بقسطيلية؛ ثم قنطرة؛ ثم نفطة، حتى وصلوا "أسوف" فمكثوا بهما شاء الله أن يمكثوا عند إخوانهم؛ ثم خرجوا منها إلى وغلانة؛ ثم تماسين؛ حتى انتهى بهم الطريق إلى وارجلان⁶، أمّا البكري في مسالكة ورغم كونه معاصرا لأبي زكريا، فقد أشار إلى هذا الطريق ومدى أهميته في الربط بين المغربين، لكننا لمنسجّل عنده ذكرا لبلاد "أسوف" حينما بيّن الطريق الرابط بين القيروان

¹ - حدّد بعض المؤرّخين سنة تخريب سدراتة 626هـ، بينما يرى آخرون أنّها كانت في سنة 673هـ، ينظر

- BOUROUIBA Rachid: Cites disparues, Tahert-Sedrata- Achir – Kalaâ des Beni Hammad, "Art et culture", Ministère de l'information, Alger. p 50-51.

² - هو يحيى بن إسحاق الميورقي المشهور بابن غانية، من قبيلة مسوفة المرابطية، قام بثورة بمعيّة بني هلال ضدّ الموحدين، تعرّضت خلالها كثير من مدن المغرب الأوسط للنهب و التخريب، و كان من بين المدن التي خربها ورجلان وسدراتة التي وصف لنا ابن خلدون الخراب الذي ألحقه بها بقوله: "خرب عمرانها، و اجتثّ شجرها، و غور مياهها، و يشهد بذلك آثار العمران بما في أطلال الديار، و رسوم البناء و أعجاز النخل المنقعر" ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص64.

³ - مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 138.

⁴ - عبد الرزّاق خالدي: دور الطرق التجارية في إنشاء المدن بالمغرب الأوسط في العهد الوسيط - مدينة وارجلان أنموذجا رسالة ماجستير في الآثار الاسلامية، إشراف بويحيوي عز الدين وخالف محمد نجيب، معهد الآثار جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2008 / 2009. ص40

⁵ - ذكر تاديوس ليفتسكي أنّ صاحب هذا الكتاب "كتاب فيه بدء الإسلام و شرائع الدين" كان قد أقام بتوزر قبل 240هـ/854م، أي أنّه كان قريبا من مجال أسوف و مطلعا عن أحواله، لتفاصيل أكثر ينظر تاديوس ليفتسكي: دراسات شمال إفريقية، تر أحمد بومرقو، مكتبة الضامري للنشر و التوزيع، المسيب، سلطنة عمان، ط2، 2008م، ص28.

⁶ - أبو زكريا: سير الأئمّة و أخبارهم، مصدر سابق، ص 160، 163، 185، 186.

وهران عبر بلد قسطنطينية مروراً بتيهت وبنطوس وبسكرة ونفطة وصولاً إلى بلاد الجريد¹، أمّا صاحب الاستبصار (ق6هـ/12م) فقد أشار إلى موضع أسوف من غير ألف وجعلها ضمن إقليم قسطنطينية فقال: "وأخر بلاد الجريد مدينة درجين : وهى مدينة قديمة بقرب نفطة، وهى مدينة كبيرة وفيها تصنع الكسى الدرجيني، وهو يشبه السجلماسي في ثوبه ولونه، ولكنه دونه في الجودة. وبالقرب منه بلد سوف، ولا يعرف خلفه عمران ولا حيوان إلا جبال من رمل يصاد فيها الفنك الذي لا يوجد لجلده نظير في الدنيا. وأهل تلك البلاد يخبرون أن قوما أرادوا معرفة ما وراء قسطنطينية مثل توزر وغيرها، فاستعدوا بالأزودة والمياه، وذهبوا في تلك الصحارى والرمال أياماً، فلم يروا أثراً لعمران وهلك أكثرهم في تلك الرمال"²

وإذا عدنا بالتاريخ إلى بدايات الفتح الإسلامي لبلاد سوف فإنّ المؤرخ السّوفي "إبراهيم العوامر" أشار - مستنتجاً من أحد النصوص المصدرية- أنّ عقبة بن نافع في حملته الأولى (46هـ/667م) أو أحد قادته وصلوا إلى سُوف وفتحوا قراها³ التي كانت أهلة بالقبائل الزناتية في هذه الفترة على حدّ وصف المؤرخ "محمد العدواني"⁴، ورغم علمنا بأنّ معظم القبائل الزناتية اعتنقت المذهب الإباضي منذ بدايات ظهوره بالمنطقة، إلّا أنّ "العوامر" لم يشير إلى تأبّض سكّان "سوف" لا تصريحاً ولا تلميحاً، في حين تذكر المصادر الإباضية أنّ أهل أسوف كانوا على المذهب الإباضي وأنّ عبد الرحمان بن رستم مرّ بها في طريقه من القيروان إلى جبل سوفجج⁵، وأصبحت بعد قيام الدولة الرستمية ضمن الامتداد الجغرافي لها⁶، أمّا بعد سقوط تيهت فقد أضحت إلى جانب ورجلان وأريغ من أهمّ الحواضر التي حافظت على المذهب بل وساهمت-بفضل علمائها- في تطوير أفكاره، وفي ذلك يقول علي يحيى معمر: "ولقد كان بلد أبي عمرو السوفي -أسوف- بالنسبة للإباضية خير مكان لمن يقوم بالدعوة، لأنّه جاء متوسّطاً بين الأماكن العامرة بهم كأنّه نقطة ارتكاز، فيرتحل منها الدّاعية مغرباً فيزور بلاد أريغ ورجلان وبادية ميزاب وجبال أوراس وما ولاها، يخلّق عليه الطلبة، ويجتمع به المشايخ ويستمع إليه العوام، ويساعد على حل ما

¹ - البكري: المسالك والممالك، مصدر سابق، ج2، ص207.

² - مؤلّف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، مصدر سابق، 1986م، ص159.

³ - ينقل إبراهيم العوامر في هذا الشأن نصّاً من كتاب "المؤنس في تاريخ إفريقية و تونس" جاء فيه: "أنّ غدامس فتحت في أيام عقبة، و لكن في ولايته الأولى عام46هـ...فقتل و سبي و بلغ في غزوته عامّة بلاد البربر، وفتح فزان و ودان و قفصة و قسطنطينية و ما حولها..." للمزيد ينظر إبراهيم العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء و سوف، ص145.

⁴ - أشار العدواني إلى أنّ قبائل زناتة هم آخر من سكن المنطقة قبل الوجود الهلالي، ينظر محمد العدواني: تاريخ العدواني، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995م، ص134.

⁵ - محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص85

⁶ - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، مرجع سابق، ص154.

يجده من المشاكل ويعود إلى مركزه فيستقر قليلا ثم يتجه مشرقا فيزور بلاد الجريد(نفطة وتوزرودرجين والحامة وجربة وجبال دمر) حتى يبلغ جبال نفوسة وما ولاها ثم يعود¹

حاضرة أريغ:

تعدّ المصادر الإباضية بلاد ريغ أو أريغ-شأنها شأن أسوف- من ضمن المجال الجغرافي لتجمّعات القبائل الإباضية بواحات بلاد المغرب منذ مطلع القرن الثاني الهجري، لذلك فقد أمدّتنا بمادّة مصدرية هامة عن تاريخ المنطقة و أتحفّتنا بتراجم لمشاهير أعلامها و الحركة العلمية التي عرفتها المنطقة لاسيما فترة التواجد الإباضي بها²، أمّا عن تحديد هذا المجال جغرافيًا و عن القبائل التي يعود إليها فضل تأسيسه فقد ربط ابن خلدون -كعاداته- الزاوية الجغرافية بال عمران البشري، و أرجع تسميته تحديدا إلى قبائل بني ريغة -من بطون زناته- المنتشرين عبر طول مجرى الوادي، فقال عنهم: "ونزل أيضا الكثير منهم ما بين قصور الزاب وواركلا، فاخبطوا قصورا كثيرة في عدوة واد ينحدر من المغرب الى المشرق يشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد زفّ عليها الشجر ونضدت حفافيهما النخيل، وانساحت خلالها المياه، وزهت ينابيعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران منريغهمؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد"³، و نظرا لقرب هذا الإقليم من بلاد الزاب⁴ و وقوعه على الطريق التجاري المؤدّي إلى ورجلان فقد عرف الإسلام مبكّرا عن طريق الدّعاة و التّجار⁵ ثمّ اعتنق سكّانه المذهب الإباضي منذ عهد أبي الخطّاب، حيث كان عاصم السدراتي قائما بالنّشاط الدعوي في هذا الإقليم⁶، و في العهد الرستمي يتحدّث الدرجيني عن أريغ بأنّه بلد متكامل العمران يقصده المشايخ مثله مثل ورجلان⁷، و يذكر الباحث في التاريخ الإباضي الأستاذ "إبراهيم بخّاز" أنّ واحات أسوف و أريغ أصبحت تشكّل مع بلاد الجريد و قسطيلية شريطا عموديا في الصّحراء الكبرى الشرقية، و أنّ الرستميون هم من أحيائها بواسطة أتباعهم من الإباضيين،

¹ - علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، ج2، ص168.

² - ينظر أبو زكريّا: سير الأئمّة و أخبارهم، مصدر سابق، ص58، 143، 175، 177. الوسياني: سير الوسياني، تح عمر سليمان بوعصبانة، وزارة التراث و الثقافة، مسقط، عمان، ط1، 2009م، ج1، ص350.

³ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص64.

⁴ - يذكر الرقيق القيرواني أنّ حول الزاب ثلاثمائة قرية كلّها عامرة (ولا شك أنّ منها قرى وادي ريغ)، ينظر الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية و المغرب، تحقيق المنجي الكعي، الدار العربية للكتاب، ط2، 2005م، ص60.

⁵ - موهوبي عبد القادر: ومضات تاريخية واجتماعية لمدين وادي ريغ وميزاب وورقلة والطيبات والعلية والحجيرة، دار البصائر، الجزائر 2011م، ص28.

⁶ - علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، مرجع سابق، ج2، ص-ص250، 255.

⁷ - الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، مصدر سابق، ج2، ص331.

فغرسوا فيها النّخيل واهتمّوا بالتّمور، و حفروا الآبار و أجرؤا بها المياه¹، أمّا بعد سقوط تيهرت فكانت بلاد أريغ وجهة للكثير من الرستميين الفازيين من بطش العبيديين²، واختطّوا بها مُدناً و قرى³، لعلّ من أشهرها مدينتا "تقرت" و "تماسين" التي يقول بشأهما ابن خلدون: "وأكبر هذه الأمصار يسمّى تقرت، مصر مستبحر العمران بدويّ الأحوال، كثير المياه والنخل، ورياسته في بني يوسف بن عبد الله كانت لعبيد الله بن يوسف، ثم لابنه داود، ثم لأخيه يوسف بن عبيد الله... وبنو يوسف بن عبد الله هؤلاء من ريغة، ويقال إنهم من سنجاس، وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير، وأكثرهم على دين العزابية⁴ ومنهم النكارية، وأقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام. ثم بعد مدينة تقرت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطة ورياسته لبني إبراهيم من ريغة وسائر أمصارهم كذلك."⁵

2. المدرسة المالكية بالحواضر الزيانية:

رغم أنّنا لا نقصد في دراستنا هذه "المدرسة المالكية" بالمعنى المعماري للكلمة، أي تلك المؤسسة التي تضمّ بيتا للصلاة و الدراسة في آن واحد و تعرف باسم "القبة"، و صحناً مكشوفاً واسعاً و سكنى للطلبة تتألف من طابق أو طابقين بمها غرف أو حجرات صغيرة وما يتبعها من مرافق ضرورية أخرى مثل خزانة الكتب أو المكتبة و غيرها⁶، إلّا أنّنا و لمّا لاحظنا أنّ المدارس الزيانية مدارس حكومية مالكية، وجدت من أجل ترسيخ مبادئ المذهب المالكي، تحت إشراف رسمي للدولة⁷، فإنّنا آثرنا رصد عيّنات من شيوخها و طلبتها و المقررات الفقهية التي كانت تدرّس بها، معرّجين قبل ذلك على دور سلاطين الدولة الزيانية في إنشائها و استقطاب الفقهاء لتثبيت و ترسيخ مبادئ المذهب المالكي.

أ. عناية سلاطين بني زيان بالمذهب المالكي:

على خلاف أغلب دول المغرب، لم يؤسس يغمراسن (633-681هـ/1236-1282م) دولته على دعوة دينية مذهبية لتعزيز عصبية قبيلته بني عبد الواد، فالمصادر التي ترجمت له تشير إلى أنّه —نعم— يملك مقوّمات

¹ - إبراهيم بخاز: الدّولة الرّستمية، مصدر سابق، ص154.

² - عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 2001م، ص117.

³ - من هذه القرى منطقة تاندلاتوتالة، وتبسيست، ، وتينسلي، وأجلو الغربي، وجغراف، ومنطقة توغلانت، وطويجين، وتامرنة و غيرها، للمزيد ينظر موهوبي عبد القادر: ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ وميزاب، مرجع سابق، ص35.

⁴ - يقصد بها نظام العزابة الذي أسسه " الفرسطائي " عندما التجأ إلى قبيلة مغراوة بوادي ريغ سنة409هـ.

⁵ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص65.

⁶ - صالح بن قربة وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، مرجع سابق، ص139.

⁷ - ألفرد بل: الفرق الاسلامية بالشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص356.

الزعامة الشخصية، شجاعة و جرأة، طموحا و عزيمه¹... غير أنه في ذات الوقت ليس فقيها كعبد الله بن ياسين المرابطي و لا متكلم كالمهدي بن تومرت الموحد، لذلك كانت أولى اهتماماته أن أحاط نفسه بالعلماء و الفقهاء و الأدباء²، وأغدق عليهم الأموال و الهدايا و الجرايات، و رغبهم في التدريس و التأليف، بل و عقد المجالس العلمية في قصره، واهتم برعاية المذهب المالكي و نشره أيما اهتمام، فقد عمل على استقدام أبي إسحاق إبراهيم بن يـخلف التنسي (680هـ/1281م)³ إلى مدينة تلمسان لتولي الإقراء بها⁴، و كان أبو إسحاق هذا فقيها مالـكيا شهيرا، تأتيه الفتاوي من إفريقية و تلمسان، و له مؤلف من عشر مجلدات يشرح فيه رسالة أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي (ت422هـ/1031م)⁵ "تلقيـن المبتدي و تذكرة المنتهي" في الفقه المالكي، كما أمر يغمراسن ببناء مئذنتين لأقدم مسجدين بتلمسان، و هما مسجد تلمسان القديمة (أجادير) الذي أسسه إدريس الأول، و مسجد تاجرات الذي أسسه المرابطون⁶، و سار على نهجه ابنه السلطان عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1282-1304م)، حيث استبقى كل من كان في بلاط أبيه من فقهاء المالكية، أمّا السلطان أبو حمّو موسى الأول (707-718هـ/1308-1318م) فأليه يرجع الفضل في تأسيس أول مدرسة بالمغرب الأوسط، حبّا في العلم و إكراما لأهله، فقد وفد إليه الفقيهان المالكيان البرشكيان⁷ أبو زيد و أبو موسى ابنا الإمام⁸، فكان

¹ - يقول ابن خلدون بشأنه: "كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشدّ هذا الحيّ بأسا، وأعظمهم فيالنفوس مهابة وإجلالا وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلا على حمل الملك واضطلاعا بالتدبير والرئاسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده. وكان مرموقا بعين التجلّة مؤملا للأمر عند المشيخة وتعتظمه من أمره عند الخاصّة، ويفزع إليه في نوائبها العاتقة. فلما ولي هذا الأمر سنة ثلاث وثلاثين قام به أحسن قيام"، و يقول عنه صاحب البغية: "كان كريما شجاعا فاضلا حليما، متواضعا سؤوسا، ذا سؤدد و عفاف و مجد و علاء، يؤثر الصالحين و العلماء و يجالسهم كثيرا"، ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر السابق، ج7، ص105، 106. يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج1، ص225.

² - ألفرد بل: الفرق الاسلامية بالشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص311.

³ - إبراهيم بن يـخلف التنسي (ت680هـ/1281م): هو أبو إسحاق إبراهيم بن يـخلف بن عبد السلام التنسي المظمطي، إليه انتهت رئاسة الفتوى و التدريس بأقطار المغرب كلها، أخذ عن ناصر الدين المشذالي البجائي، ورحل إلى المشرق فأخذ عن القرافي وابن دقيق العيد و غيرها، ذكر "نويهض" في معجم أعلام الجزائر أنه توفي سنة 670هـ لكنّه يبدو أنّ وفاته بعد هذا التاريخ، لأنّ العبدري صاحب الرحلة ذكر أنّه لقيه بمصر في طريقه إلى الحج سنة 677هـ، و الراجح أنه توفي سنة 680هـ بتلمسان و قبره بالعبّاد. للمزيد ينظر العبدري: رحلة العبدري، مصدر سابق، ص53، ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص66. يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج1، ص48. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص38.

⁴ - يذكر صاحب نظم الدر و العقيان أنّ السلطان يغمراسن لما علم بقدوم الفقيه ابراهيم التنسي إلى تلمسان ركب بنفسه و جاء إليه واجتمع معه بالجامع الأعظم، و أكثر من الإلحاح عليه لأجل البقاء بتلمسان، ينظر التنسي، محمد بن عبد الله (ت899هـ): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر و العقيان) تح محمود آغا بوعيداد، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص126، 127.

⁵ - ترجمته عند القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص220. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص159.

⁶ - كما شيّد ابنه إبراهيم الجامع المجاور للقصر القديم، الذي يسمّى جامع سيدي بالحسن، ينظر ألفرد بل: المرجع السابق، ص313.

⁷ - نسبة إلى مدينة "برشك" مسقط رأسيهما، و هي مدينة ساحلية بناها الرومان تقع بين شرشال و تنس، ينظر الحسن الوزان (ت957هـ): وصف إفريقيا، تر عبد الرحمان حميدة، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، 2005م، ص401.

⁸ - الفقيهان أبو زيد عبد الرحمان، و أبو موسى عيسى، ابنا الإمام محمد بن عبد الله بن الإمام، من بلدة برشك سافرا إلى تونس ثمّ إلى المشرق فأخذوا علوما كثيرة، و كان لهما بمصر و الشام و الحجاز صيت عظيم، ثمّ رجعا إلى المغرب و نزلا بتلمسان أيام السلطان أبو حمّو الأول، فكانت لهما الرئاسة،

كثير الجلوس إليهما، تبجيلا لهما واقتداء بهما، و بنى لهما المدرسة التي ذكرنا، ليجعل بذلك من عاصمته تلمسان منارة للفقه المالكي يقصدها الطلبة و العلماء من كل مكان، ولما تولى السلطان أبو تاشفين عبد الرحمان الأول (718-737هـ/1318-1337م) زمام الحكم، و كما كان مولعا بالعلم مبعجلا للفقه¹، كان مولعا بتشديد المباني و القصور، فأسس مدرسة جديدة بجانب الجامع الأعظم، و لما وفد عليه الفقيه أبو موسى عمران المشدالي (ت745هـ/1345م)² و كان أعرف عصر أهله بمذهب مالك، أكرمه و أحسن وفادته، و ولّاه التدريس بها.

ولما استولى السلطان أبو الحسن المريني³ على تلمسان و المغرب الأوسط 737هـ/1337م، رأى أنه من كمال سلطانه الإحسان إلى بني عمومته من بني عبد الواد، و إقامتهم على مراتبهم، حتى يعد له في مفاخره جمع القبيلين مرين و عبد الواد⁴، كما سار على نهجه —من بعده— ابنه و خليفته أبو عنان سنة 752هـ/1351م، كيف لا و قد كانا من علماء عصرهما⁵، واكتسبا ثقافة واسعة، و أسهما في تنشيط الحركة العلمية بتلمسان و أحوازها، فقد

واختصهما بالفتوى و الشورى، و كانت وفاة عبدالرحمان سنة 743هـ، و توفي أخوه سنة 749هـ، قال عنهما صاحب البغية: "إمامان مشهوران بالعلم و الرئاسة، و لهما في بلدهما سلف صالح... و بتلمسان خلف كثير ينتحلون العلم كبيرا و صغيرا بلغ كثير منهم مقام التدريس نجابة درس و نظر"، للمزيد عن ترجمتهما ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 123-127. يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج 1، ص 71. ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص 152. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج 7، ص 516.

¹ يذكر صاحب البغية أنه عيّن الفقيه أبا عبد الله بن مدورة كاتبا له، و ولّى أشغاله الفقيه أبا عبد الله محمد بن سعود، و أبا المكارم منديل بن المعلم، واستقضى الفقيه أبا عبد الله محمد بن منصور بن هدية، و الشريف أبا علي حسن بن محمد الحسيني، ينظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج 1، ص 239.

² عمران المشدالي (ت745هـ/1344م): هو أبو موسى عمران المشدالي أصيل زاوية ببجاية، كبير فقهاء عصره، و أعرفهم بمذهب مالك، ولد سنة 670هـ، و توفي عائدا من مراكش سنة 745هـ، قال عنه صاحب البغية: "لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك و حفظا لأقوال أصحابه و عرفانا بنوازل الأحكام و صوابا في الفتيا"، للمزيد عن ترجمته ينظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج 1، ص 72. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 350. المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج 5، ص 218.

³ أبو الحسن المريني (ت752هـ/1351م): هو أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، كان يُلقَّب بالمنصور بالله، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل، لسمرة لونه، وأمه حبشية، وُلد سنة 697هـ، وبيع له بفاس سنة 731هـ بعد وفاة أبيه. كانت حياته حافلة بالأحداث السياسية والعسكرية. وامتد سلطانه إلى تلمسان «عاصمة بني زيان» وتونس «عاصمة الحفصيين». وبلغ ملكه من مصراته إلى السوس الأقصى، وأجد الأندلس بجيوشه وأساطيله بعد اشتداد حملات النصارى عليه، توفي سنة 752هـ، ودفن بمراكش ونقل بعد ذلك إلى فاس. ويُعدّ أبو الحسن المريني من أشهر ملوك المرينيين، وأبعدهم أثرا في الحضارة والعمران. ينظر أبو الوليد، إسماعيل بن الأحمر (ت807هـ): أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري، تح محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 2، 1407هـ/1987م، ص 68. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج 4، ص 311.

⁴ يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج 1، ص 143.

⁵ عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج 2، ص 101.

أنشأ السلطان أبو الحسن المريني بتلمسان جامع القصبه، وآخر بجانب ضريح الشيخ أبي مدين شعيب¹، و أسس بها مدرسة العباد سنة 748هـ/1347م، و أجرى على طلبتها المرتبات و المنح²، كما أسس أبو عنان مسجدا و مدرسة بجانب ضريح سيدي الحلوي سنة 754هـ/1353م، و يذكر أنّ الجامع الكبير بقسنطينة هو ممّا أخرجته يد الفن المعماري المريني على عهده كذلك³.

أمّا سلاطين نهاية القرن الثامن الهجري(14م)، فإنّ عنايتهم بالعلم و أهله أمر يقصر اللسان عن حصره و وصفه، فقد عرف عن الشاعر و الأديب السلطان أبي حمّو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) مجدّد دولة بني زيان، وابنه أبي تاشفين الثاني(791-795هـ/1389-1393م) تبجيلهما للعلم وتوقيرهما لأهله، و نال العلماء و الفقهاء —في عهدهما— العطف و الكرم، و حازوا الخطوة و المكانة، يذكر التنسي أنّ الفقيه المتكلم أبو عبد الله الشريف التلمساني(ت771هـ/1370م)، عاصر دولة السلطان أبي حمو الثاني فكان له محبّا و معظّما، و بنى له مدرسة و عهد له فيها بالتدريس و رتبّ له الجرايات و المنح، و كان يحضر مجلس إقراءه جالسا على الحصير⁴، تواضعا للعلم و تقديرا له.

ومن مظاهر اهتمام سلاطين بني زيان بالعلم، و عنايتهم بالفقهاء، إنشاء المكاتب و توفير الكتب و تشجيع صناعتها تأليفا و نسخا و جمعا، فقد أنشأ السلطان أبو موسى حمّو الثاني مكتبة على يمين محراب المسجد الأعظم، و زوّدها بالكتب النفيسة التي كان يستفيد منها الطلبة⁵ كالكتاب الذي ألّفه السلطان ذاته، و سمّاه "السلوك في سياسة الملوك" إضافة إلى كتب الفقه المالكي ككتاب "مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول" للشريف التلمساني، كما أسس السلطان أبو زيان محمد الثاني(796-801هـ/1394-1399م) مكتبة بالجامع الأعظم بتلمسان، و شجّع الفقهاء و الأدباء على التأليف و نسخ الكتب و وقفها بمكتبته⁶، وتشير المصادر إلى أنّه صنّف كتابا نحى فيه منحى التصوف سمّاه "الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة و النفس الأمّارة"، و

¹ - ورد في مسند ابن مرزوق أنّه بنى كذلك مسجدا في مدينة الجزائر، و آخر في هنين، للمزيد عن المساجد التي بناها أبو الحسن المريني بالمغرب الأوسط، ينظر ابن مرزوق، محمد(ت): **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، تح ماريا خيسوسبيغيرا، تق محمود بوعيداد، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1401هـ/1981م، ص402، 403.

² - عبد العزيز فيلاي: **تلمسان في العهد الزياني**، مرجع سابق، ج1، ص322.

³ - عبد الرحمان الجيلاني: **تاريخ الجزائر العام**، مرجع سابق، ج2، ص96.

⁴ - التنسي: **تاريخ بني زيان**، مصدر سابق، ص180.

⁵ - غير أنّ هذه المكتبة هدمت و فقد ما فيها من كتب حوالي سنة 1266هـ، عندما قامت مصلحة الآثار التابعة للاستعمار الفرنسي بترميم المسجد الأعظم بتلمسان، ينظر لحضر عبدلي: **تاريخ مملكة تلمسان**، ص538.

⁶ - عبد العزيز فيلاي: **تلمسان في العهد الزياني**، مرجع سابق، ص323.

أنه نسخ بيده الشريفة نسخة من القرآن الكريم حبسها على مكتبته، وأن هذه المكتبة احتوت -كذلك- على نسخة من صحيح البخاري، و نسخة من كتاب "الشفاء" للقاضي عياض¹.

ب . مدرسة تلمسان الزيرية: (المنشآت - المقررات - الأعلام² والبيوتات)

على غرار المدارس النظامية التي أنشأت في المشرق، شكّلت مدارس تلمسان الزيرية إحدى أهم المؤسسات الثقافية والفكرية في الحقبة الوسيطة ، فكانت -بحق- معاهد عليا للتعليم أضفت المشروعية العلمية والحضارية للدولة التي أحيت المغرب الأوسط على حدّ تعبير ابن الأحمر الذي أشاد بمنشآتها التعليمية قائلا "ويكفي أن نذكر المدارس الخمس الكبرى التي أنشأت فيها، في أيام تلك الأسرة الطويلة العمر"³، أمّا الحسن الوزان فوصفها بقوله : "خمسة مدارس بديعة حسنة البناء جدّا، و مزدانة بالبلاط الملون و سواه من الأعمال الفنية، شيّد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس"⁴

وأولى هذه المدارس بناء، مدرسة ابن أبي الإمام، أمر بتشييدها- كما أشرنا- السلطان أبو حمو موسى الأول (ت 718هـ/1318م) ، وعيّن على رأس هيئة التدريس بها ابن أبي الإمام، أبا زيد عبد الرحمان (ت 743هـ/1342م) وأخاه أبا موسى عيسى (ت 749هـ/1348م)، وكلّفهم بإدارة التعليم والتدريس بها ، فحملت المدرسة اسميهما، وكانت أوّل مدرسة حكومية نظامية بتلمسان⁵، ذكر التنسي ظروف بنائها و الهدف منه في قوله: "كان أبو حمو محبّا للعلم معتنيا به قائما لحقه، ابنتى مدرسة لابني الإمام تكرما لهما واحتفاء بهما، و شكر الله على نعمته عليه، لقتل عدوه أبي يعقوب المريني و تخلص تلمسان منه"⁶، ويذكر يحيى بن خلدون أن ابن أبي الإمام "نزل تلمسان في أيام السلطان المرحوم أبي حمو بن السلطان أبي سعيد ، فأكرم مثواهما وابنتى لهما المدرسة المسماة بهما داخل باب كشوطة، فرأسا التّاس، وجالسا الملوك ، على هدي العلماء وسمّة الرؤساء"⁷، و في ذات الشأن يقول ابن مريم بأن: "أبا حمو اغتبط بهما واختطّ لهما . هذه . المدرسة وأقاما عنده على هدي أهل العلم وسننهم ، ثمّ مع ابنه أبي

¹ - ينظر التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص211. و للمزيد عن مكتبات العهد الزياني ينظر جلّول هادي: دور المكتبات في نشر العلوم في تلمسان في العهد الزياني، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية المتوسطية، جامعة الشلف، الجزائر، ع2، س1436هـ/2015م، ص161.

² - عن أهمّ و أبرز فقهاء مدرسة تلمسان المالكية، ينظر جدول رقم03 (الملاحق).

³ - ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تح هاني سلامة، مكتبة الثقافة الإسلامية، بور سعيد، مصر، ط1، 1421هـ/2001م، ص48.

⁴ - الحسن الوزان: وصف إفريقية، مصدر سابق، ص390.

⁵ - عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، ع26، جويلية1975م، ص138.

⁶ - التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص139.

⁷ - يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج1، ص169.

تاشفين ، إلى أن ملك أبو الحسن المربني تلمسان سنة سبع وثلاثين أي و سبعمائة¹ "كما اختطّ إلى جانب المدرسة . مسجداً ومنزلين ، وكلّ هذا كان سنة 710هـ/1310م.

أما عن تدريس الفقه بها والعلوم النقلية عامّة، فقد تولى ذلك عدد كبير من الفقهاء الذين طبقت شهرتهم الآفاق، و تخرّج عليهم عشرات الطلبة الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة و شيوخا في شتى فنون المعرفة، و تذكر المصادر أنّ من بين أشهر مدرّسيها الأخوين ابني الإمام، أبا زيد عبد الرحمان، و أبا موسى عيسى، فاضلي المغرب في وقتهم²، اللذين بلغت شهرتهما الأرض شرقا و غربا³، و خلّفا تآليف و تصانيف ذكرها المؤرخون، منها شرح على ابن الحاجب لأبي زيد، وتخرّج على يديهما أجلة علماء المغرب الأوسط⁴، كالشريف التلمساني، و المقرّي و أبي عثمان العقباني و الخطيب بن مرزوق الجد و أبيه و عمّه، و قال أبو العباس الونشريسي في فضلهم و مكانتهما: "و أمّا بنو الإمام فأعلاهم طبقة الشيوخان الراسخان الشاخصان، العالمان المفتيان الشقيقان، الفقيه العلامة آخر صدور أعلام المغرب بشهادة أهل الانصاف شرقا و غربا أبو زيد، و العلامة النظّار آخر أهل النظر، و جامع أشتات المعارف أبو موسى، ابنا الإمام"⁵، و لعلنا نستشفّ من نص الونشريسي هذا -الذي يثبت فيه موسوعية هذين العلمين- بأنّ المواد الدراسية التي كانت تناقش في المجالس العلمية تشمل علوما مختلفة كالفقه و التفسير و الحديث إضافة إلى المنطق و الحساب و الميقات و غيرها، أمّا إذا تصفّحنا كتابه "المعيار" فإننا ندرك - لا محالة- أنّ مستوى التكوين كان عاليا جدّا، لا سيما إذا حُضنا في تلك المناظرات و الجحالات التي كانت تطرح في القضايا الفقهية النوازلية، و الأصولية ، و اللغوية⁶.

أمّا ثاني مدرسة شُيّدت في تلمسان فهي المدرسة التي بناها ابن تاشفين بن أبي حمو موسى الأوّل (ت737هـ/1337م)، فكانت تسمّى في حياته باسمه ، ثمّ دُعيت بالمدرسة الجديدة بعد وفاته ، ربما تمييزاً

¹ - ابن مريم : البستان، مصدر سابق، ص126.

² - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص152.

³ - رحلا إلى المشرق و ناظرا شيخ الاسلام ابن تيمية، و كان قاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت750هـ) يثني عليهما كثيرا و يقول: "بمثلهما يفخر المغرب"، ينظر ابن مرزوق: المسند، مصدر سابق، ص265، 266.

⁴ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص133.

⁵ - ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص248.

⁶ - من تلك المناظرات ما نقله صاحب "نفح الطيب" عن أحد المجالس التي حضرها الإمام محمد المقرّي الجد (ت759هـ)، و كان قد تكلم فيها أبو زيد عبد الرحمان بن الإمام (ت741هـ) في الجلوس على الحرير، فاحتج إبراهيم السلوي للمنع بقول أنس: فقامت إلى حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراض فحسب، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، وذكر حديثاً في تغطية الحصير، فقلت: كلا الأمرين يسمى لباساً، قال الله عز وجل ﴿هَؤُلَاءِ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُمْ﴾ (البقرة: 187) ، ينظر المقرّي: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص220.

لها عن مدرسة أولاد الإمام التي تسبقها¹، بناها بجانب الجامع الأعظم ، تكريمًا للفقيه أبي موسى عمران المشدالي، وسخر لبنائها فنانيين ومهندسين في الزخرفة والتزيين والبناء ، فجاءت هذه المدرسة نموذجًا فريدًا للزخارف التي احتوتها قصور ومدارس تلمسان في ذلك العهد ؛ تدل على ولع هذا السلطان بالعمارة والتفنن فيه، فجعلها قصرًا من قصور الملوك تضمّ عدّة بنايات ورواقات²، ذلك ما أشار إليه التنسي من أنّ عبد الرحمان بن تاشفين كان : "مولعًا بتجوير الدور وتشيد القصور، مستظهرًا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأساري، بين نجارين، وبنائين، وزواقين، فخلد آثارًا لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده... وحسن ذلك كله ببنائه المدرسة الجلييلة العديمة النظر، التي بناها بإزاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئًا مما احتضنت به قصوره المشيدة إلاّ وشيد مثله بها"³.

وحثّى و إن لم تفدنا النصوص المصدريّة بالأسباب والظروف التي رافقت تأسيس هذه المدرسة، فإنّ بعض الإشارات توحى بأنّ أحد أهمّ الدوافع هو رغبة مؤسسها في الوصول بعاصمة دولته إلى مصاف الحواضر الكبرى كفاس وتونس وغرناطة.... وجعلها قبلة للعلماء والطلبة، كما أنّ من بين الأسباب -ربّما- قد تكون مدرسة ابني الإمام ضاقت ذرعًا بمرتاديها، فشيدت المدرسة الجديدة كمتنفس لها، ومن المصادر التي أشارت إلى التاشفينية "نفع المقرّي" الذي قال عنها: "رأيت مكتوبًا بأعلى دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني ، وهي من بدائع الدنيا ، وهذه الأبيات⁴ :

انظر بعينك مهجتي وسنائي وبديع إتقاني وحسن بنائي

وبديع شكلي واعتبر فيما ترى من نشأتي بل من تدفّق مائي

جسم لطيف ذائب سيلانه صاف كذوب الفضة البيضاء

لكن ومن المؤسف له أنّ التاشفينية تعرّضت للهدم والتخريب من قبل الإدارة الفرنسية سنة 1873م⁵، فاختفت كلّ التفاصيل التي تخصّ هذه المدرسة إن من حيث هيكلها أو من حيث نظام تسييرها الإداري والتربوي (طرائق التدريس)، أمّا من ناحية الأعلام الذين تولّوا التدريس بها، فإنّا لاحظنا بصفة عامّة أنّ النصوص التاريخية

¹ - عبد العزيز لعرج: المدارس الإسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، ع01، س1421هـ/2001م، ص120.

² - عبد العزيز فيلاي: تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، ص142.

³ - التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص140، 141.

⁴ - المقرّي: نفع الطب، مصدر سابق، ج6، ص47.

⁵ - و نقلت بعض زخارفها إلى متحف كلوني بباريس في فرنسا، ينظر التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص141 (تحميش المحقق). صالح بن قربة: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، ص145.

التي تحدّثت عن المدارس الزيدانية تكتفي — في مجال التدريس — بالإشارة إلى فقيه أو عالم واحد، كما مرّ معنا في مدرسة ابن أبي الإمام، ولا أدلّ على ذلك ما نسجّله عند التنسي في حديثه عن المدرسة التاشفينية قوله: "وضع للتدريس بها الفقيه العالم أبو موسى عمران المشذلي إكراما لنزوله عليه"¹، غير أنّ الاطلاع على القيمة العلمية والفقهية لهذا العالم تجعلنا ندرك المستوى التعليمي — خاصة في مجال الفقه المالكي الذي أسّست من أجله — الذي تقدّمه هذه المدرسة، فالتنسي يصفه بالفقيه العالم المفتي قاضي الجماعة²، من أكبر فقهاء عصره بمذهب مالك، وصاحب البغية يقول عنه: "لم يكن في معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك"³، كما أنّ إشارة المصادر إلى ولع السلطان أبي تاشفين — مؤسس هذه المدرسة — بالعلم وإيثاره للفقهاء⁴ توحى بالدور الفعّال الذي لعبته التاشفينية في المجال التعليمي والفكري ليست على مستوى تلمسان فحسب، بل على مستوى المغرب الأوسط وبلاد المغرب والأندلس عامّة، خاصّة إذا علمنا أسماء الفقهاء الذين عاصروا التاشفينية ممّن نشأوا بتلمسان، من أمثال أبي عبد الله محمد المقرئ (ت759هـ/1358م)⁵، ومحمد بن أحمد بن عمرو التميمي (ت756هـ/1355م)⁶، و محمد بن يحيى بن علي النّجار (ت749هـ/1348م)⁷، أو من الوافدين إليها من الخواضر الأخرى كأبي العباس أحمد بن

¹ - التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص141.

² - التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص141.

³ - يحيى بن خلدون: البغية، مصدر سابق، ص170.

⁴ - قال عنه التنسي: "كان له بالعلم وأهله احتفال، وكانوا منه محلّ تهمّم واهتمام"، ينظر التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص141.

⁵ - محمد المقرئ (ت759هـ/1358م): هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقرئ، نسبة لمقرّة قرية من قرى الزاب سكنها سلفه، ثمّ تحوّلوا لتلمسان التي بها وُلد ونشأ وتعلّم، قال ابن خلدون: "أخذ العلم بتلمسان عن السلوي ولازم الآبلي وأبناء الإمام واستبحر في العلوم وتفتّن"، رحل إلى تونس ومصر والحجاز والشام وأخذ عن أعلامهم، ثمّ عادو عبر إلى المغرب ثمّ الأندلس، تولّى الإقراء بغرناطة، ثمّ القضاء بفاس، و بها توفي سنة759هـ، ونقل رفاته إلى تلمسان، من تلاميذه الإمام الشاطبي وابن خلدون وابن جزى الغرناطي وغيرهم، ومن آثاره "القواعد"، "شرح التسهيل"، "الحقائق والرقائق" وغيرها، وقد ألّف ابن مرزوق الحفيد جزءا في ترجمته سمّاه "النور البدر في تعريف الفقيه المقرئ". للمزيد ينظر لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج2، ص116. المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص203. التنبكي: كفاية المحتاج، مصدر سابق، ج2، ص66. ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص154. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص420. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، مصدر سابق، ج10، ص06. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص298، 299. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص312.

⁶ - محمد التميمي (ت756هـ/1355م): هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن أبي عمرو التميمي، ولد بتلمسان من أسرة اشتهرت بالعلم والأدب، وأصل سلفه من الأندلس، قدّمه السلطان أبو عنان حاجبا له في فاس، ثمّ أسند إليه ولاية بجاية، فاستمر عليها إلى أن توفي بها سنة756هـ، ونقل جثمانه إلى تلمسان، و دفن بها في زاويته الكائنة بطريق العباد، قال عنه ابن مريم: "له همة عظيمة وعلم وشأن كبير"، للمزيد ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص228. عادل نويهض: المرجع السابق، ص84.

⁷ - محمد بن يحيى النّجار (ت749هـ/1348م): هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النّجار، من أهل تلمسان، تلمذ على الآبلي الذي قال عنه: "ما قرأ أحد علي حتى قلت له: لم يبق عندي ما أقول لك غير ابن النّجار"، ارتحل إلى المغرب فأخذ عن أعلام سبتة و مراكش ثمّ رجع إلى تلمسان، ولما تولّى السلطان أبو الحسن المريني دخل معه إفريقية، فهلك أيام الوباء (الطاعون)، وصفه ابن خلدون بشيخ التعاليم، و حوّله المقرئ بنادرة الأعصار، للمزيد عن ترجمته ينظر ابن خلدون (ت808هـ): التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا، تع محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة لجنة

عمر البجائي (ق8هـ/14م)¹ الذي قدم من بجاية، و لعل ما ذكره لنا الإمام الشاطبي (ت790هـ/1388م) نقلا عن شيخه منصور الزواوي (ت بعد770هـ/1369م)² يؤكد ما قلناه عن المستوى التعليمي والعلمي لهذه المدرسة وأعلامها³

وعلى نفس النهج سار المرينيون—كما أشرنا—لما استولوا على تلمسان سنة737هـ/1337م، فقد أحسن السلطان المريني "أبو الحسن" إلى سكّانها وعاملهم معاملة حسنة، واتّخذ من مدينة المنصورة مقرا لسكناه، وأتبع ذلك بتدشين مشروعه العلمي والعمراني الكبير، والذي تمثّل في منشآت دينية وعلمية وقصور ودور سكنية، أهمّها المدرسة⁴ والجامع اللذان حملا اسم سيدي أبي مدين، واتّخذ لها موقعا هاما خارج أسوار تلمسان جنوب شرق قرية العباد، أمّا خلفه السلطان أبو عنان، فقد دشّن سنة754هـ/1353م مشروعه العلمي—هو الآخر—

التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1370هـ/1951م، ص47. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص404. المقرّي: فنجح الطبيب، مصدر سابق، ج5، ص236.

¹ - أحمد بن عمران البجائي (ق8هـ/14م): هو الإمام العلامة المحقق أبو العباس أحمد بن عمران البجائي البانوي، أخذ عن ناصر الدين المشدالي، و شرح ابن الحاجب في ثلاثة أسفار، عاش في القرن الثامن الهجري، للمزيد عن ترجمته ينظر التنسي: تاريخ بني زيان، مصدر سابق، ص142. يحيى بن خلدون: البغية، مصدر سابق، ص172. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص94.

² - منصور الزواوي (ت بعد770هـ/1369م): هو أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي، من أكابر فقهاء المالكية، ولد ببجاية سنة710هـ، وبها نشأ وتعلّم، أخذ عن أبيه ومنصور بن أحمد المشدالي وغيرهما، ثم رحل إلى الأندلس سنة753هـ فجلس للتدريس والإفتاء، ثم غادرها سنة765هـ لحنة امّحن بها، واستقرّ بتلمسان يُقرئ ويدرس، قال عنه ابن الخطيب "حريص على الإفادة والاستفادة ماثب على تعليم العلم، له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية، درس في التفسير والفقه وغير ذلك". للمزيد ينظر ابن الخطيب: الإحاطة، مصدر سابق، ج3، ص248. ابن حجر: الدرر الكامنة، مرجع سابق، ج6، ص127. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص166.

³ - قال الإمام الشاطبي: "حدثنا الأستاذ أبو علي الزواوي، قال لما رحل أبو العباس أحمد بن عمران البانوي من بجاية إلى تلمسان تاجرا لم يلبث أن جاء إلى مجلس أبي زيد بن الإمام مشتملا في زي التجار، فجلس حيث انتهى به المجلس، فألفاهم يتكلمون في كتاب أبي عمرو بن الحاجب الأصلي في قوله في حد العلم صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض فلما أتموا البحث فيه نادى أبو العباس يا سيدنا هذا الحد غير مانع، فإنه ينتقض عليه بالفصل والخاصة. فقال له أبو زيد عرفنا من أنت؟ فقال له محبكم أحمد بن عمران. فقال له نشغل الآن بضيافتك وحينئذ يقع الجواب، فأنزله منزل الكرامة وسأله عن حاجته وسبب قدومه من بجاية، فأخبره بأنه أتى متجرا، فأخبر أبو زيد بذلك السلطان أبا تاشفين سلطاننا في ذلك الزمان وعرفه به وأجل قدره، فرفع عنه السلطان كلف المغارم ووظائف السلع ونقد له إلى ذلك مائتي دينار من الذهب، ثم قال له أبو زيد إن خف عليك أن تسلم على أخي فعلت. فلي دعوته وأتى معه إلى أخيه عيسى فلما رآه قال له سمعنا عنك أنك أوردت على الأخ سؤالا ارتفع به شأنك، وحظي عند السلطان مكانك، فأورده علينا حتى نتكلم فيه، فقرره بين يديه، فقال له يا فقيه إنما قال ابن الحاجب توجب تمييزا، والفصل والخاصة إنما توجبان تمييزا لا تمييزا، وهذا جوابك" ينظر الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد (ت790هـ): الإفادات والإنشادات، تح محمد أبو الأجناف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ص103.

⁴ - هي مدرسة العباد، و تعرف أيضا بمدرسة سيدي أبي مدين، ثم أطلق عليها في فترة لاحقة المدرسة الخلدونية، ربّما لتعلّم ابن خلدون فيها، أسّسها السلطان أبو الحسن المريني إلى الغرب من الجامع الأعظم في قرية العباد التي تقع على بعد كيلومترين شرقي تلمسان حيث ضريح الولي أبي مدين شعيب و عدد من الصلحاء والعلماء والسلاطين، للمزيد ينظر التنسي: تاريخ بني زيان، ص286. صالح بن قرية: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط، ص170.

ببناء مدرسة¹ لا تقل أهمية عن سابقتها، و لعل رمزية الموقع أضفت على المنشأة قيمة دينية وروحية، ذلك -في الحقيقة- ما لمسناه من تقدير للفقهاء و الأولياء من طرف سلاطين بني مرين بالمغرب الأوسط، فقد اختارا لمشروعيهما تخليد ذكرى فقيهين متصوفين، ذاع صيتهما ببلاد المغرب و حتى المشرق الإسلامي، و هما الفقيه أبو مدين شعيب (ت594هـ/1198م)²، و الشيخ أبو عبد الله الشوزي الشهير بالحلوي (ت737هـ/1337م)³.

أما آخر مدارس القرن الثامن الهجري بتلمسان فهي المدرسة اليعقوبية التي شيدها السلطان أبو حمو موسى الثاني (ت791هـ/1389م) تخليداً لوالده أبي يعقوب حاكم إقليم الجزائر الذي أدركته الوفاة سنة 763هـ/1362م، وكان أبوحمو الثاني قد أمر بدفن أبيه برياض يقع بالقرب من باب إيلان، ونقل رفاة عميه أبا سعيد وأبا ثابت من مدفنيهما القديم بالعباد إلى جوار ضريح والده، ثم شرع في بناء مدرسة بإزاء أضرحتهم، و هو ما نقله لنا التنسي في تاريخه "بنى مدرسته الكريمة حين توفي والده بتلمسان ودفن بباب إيلان، ثم نُقل إلى جوار أخويه السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت، فلما كملت المدرسة نقلوا ثلاثتهم إليها، واحتفل بها وأكثر عليها من الأوقاف، ورتب فيها الجرايات"⁴، و قد استغرق بناء المدرسة أكثر من سنة ونصف، حيث انتهى من إنجازها سنة 765هـ/1364م، ووصفها صاحب زهر البستان وصفاً دقيقاً يدل على أهميتها وعمارتها وسعة فنائها وزخرفتها فقال: "وأنشأ مدرسة القرآن والعلوم، وأنفق فيها من الحلال المعلوم، فأقيمت مدرسة مليحة البناء، واسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات ووضعت في أبداع الموضوعات، سمكها بالصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم، غرس بإزائها بستانا يكتنفها، وضع فيها صهريجاً مستطيلاً وعلى ظرفيه من الرخام... فيها لها من بنية ما أبعجها"⁵، ومن مساوئ الأقدار أنّ هذه المدرسة اندثرت، كما لم يبق أثر لغيرها من المدارس ما عدا مدرسة العباد⁶.

¹ - هي مدرسة سيدي الحلوي نسبة إلى الفقيه المتصوف أبي عبد الله الشوزي الحلوي، بناها السلطان أبو عنان المريني بريض سيدي الحلوي حذاء الضريح، الذي يقع شمال المدينة، حيث يوجد المسجد، للمزيد ينظر عبد العزيز فيلاي: المرجع السابق، ص144.

² - أبو مدين شعيب: هو الفقيه المتصوف أبو مدين، شعيب بن الحسين الأندلسي الأنصاري، أصله من حصن قطنية من عمل إشبيلية، تتلمذ بفاس عن أبي الحسن علي بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، و أبي يعزى بلنور، ثم ارتحل إلى بجاية فمكث بها معلماً، و لما اشتهر أمره بها سعي به عند خلفاء عبد المؤمن، فامر بطلوعه لمراكش و كتب لوالي بجاية بذلك، فخرج قاصداً مراكش، و لما وصل تلمسان نزل بالموضع المسمى "العباد" فوافته المنية سنة 594هـ، و قبره إلى اليوم هناك معتر مشهود، للمزيد عن ترجمته ينظر ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقي و عز الحقيز، ص11. ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف، ص319. الغبريني: عنوان الدراية، ص22. يحيى بن خلدون: البغية، ج1، ص164.

³ - أبو عبد الله الشوزي: هو أبو عبد الله الشوزي الإشبيلي المعروف بالحلوي، من فقهاء مرسية، و الشوزي نسبة إلى الطريقة الشوزية للمزيد عن ترجمته ينظر يحيى بن خلدون: البغية، ج1، ص165. لسان الدين ابن الخطيب: نفح الطيب، ج5، ص260.

⁴ - التنسي: تاريخ بني زيان، ص179.

⁵ - مؤلف مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، تح بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013م، ج2، ص336.

⁶ - ينظر عبد المجيد حاجيات: الحياة الفكرية في تلمسان، ص139.

أما عن هيئة التدريس بهذه المدرسة فتذكر المصادر أنه أوكل ذلك للشریف أبي عبد الله (ت 771هـ/1370م)¹، جاء عند صاحب البستان أنه: "استدعى الشریف من فاس... فانطلق إلى تلمسان... وتلقاه أبو حمو بإحسان وأصهر له ابنته فزوجها إياه وبنى له مدرسة وأقام الشریف يدرس العلم بها إلى وفاته"²، و بطبيعة الحال لم يكن اختيار الشریف التلمساني عبثاً واعتباطاً، فقد كان من كبار المالكية و باحثيهم، و إليه انتهت إمامتهم بالمغرب، و ضربت إليه آباط الإبل شرقاً و غرباً، فهو علم علمائها و رافع لوائها، فحيت به السنة و ماتت به البدعة³، قال عنه الخطيب بن مرزوق: "فقد بلغ درجة الاجتهاد"، و لا أدلّ على ذلك من أنّ شيخ علماء الأندلس أبو سعيد بن لب كان كلّما أشكلت عليه مسألة فقهية كاتبه بها، و كان لسان الدين بن الخطيب كلّما ألّف كتاباً بعثه إليه و عرضه عليه طالباً منه أن يكتب عليه بخطّه⁴.

ولقد برزت بالمجتمع التلمساني في العهد الزياني —و الموخّدي من قبل— عائلات علمية ساهمت في نمو الحركة الفقهية بتلمسان، وجعلت منها عاصمة مالكية بامتياز، ونالت شهرة علمية نافست بها الحواضر الأخرى أو فاقت، ومن أشهر هذه البيوتات وأرفعها مكانة، بيت المرازقة، وبيت المقرّي، وبيت العقباني.

فأما بيت المرازقة، فقد كان من البيوتات التي لها شأن كبير بتلمسان، وسمّوا كذلك نسبة إلى جدّهم "مرزوق"⁵ الذي يرجع نسبه إلى قبيلة "عجيسة"⁶ البرنسية، و هو أوّل من قدم من القيروان —موطنهم الأصلي— إلى تلمسان أيّام الحصار المرابطي لها⁷، واشتهر من هذا البيت الكثير، لكنّ أبرزهم في القرن السابع الهجري، العالم الولي، بركة هذا البيت محمد بن مرزوق⁸، الذي وُلد و عاش بتلمسان، و لم يُذكر أنّه خرج منها حتّى وافاه الأجل

¹ - ترجمنا له سابقاً، أنظر (مدرسة بحاية الحفصية).

² - ابن مريم: البستان، ص 165، 166.

³ - ابن مريم: المصدر السابق، ص 167.

⁴ - ينظر ابن مريم: البستان، ص 175. عادل نويهض: المرجع السابق، ص 187.

⁵ - ينظر ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 305. بن داود نصر الدين: علماء أسرة المرازقة و دورهم الثقافي بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى 10هـ/16م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2002/2003م، ص 45.

⁶ - هكذا يقول ابن مرزوق الخطيب: "رأيت بخط جدي الأقرب، نفع الله به، العجيسي"، و عجيسة من بطون البرانس، للمزيد ينظر ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد (ت 781هـ): المناقب المرزوقية، تح سُلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، ط 1، 1429هـ/2008م، ص 145. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 6، 192. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456هـ): جمهرة أنساب العرب، تح لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1403هـ/1983م، ص 495.

⁷ - كان ابتداء الحصار الجيش المرابطي لتلمسان سنة 472هـ بقيادة مزدلي بن تليكان، إلى أن فتحها سنة 475هـ، ينظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 247.

⁸ - محمد (الأول) بن مرزوق: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي، ولد بتلمسان سنة 629هـ، و بها نشأ و تعلّم، و لم يغادرها إلى أن توفّي شهر رجب من سنة 681هـ، و دفن بدار الراحة من جامعها الأعظم. للمزيد ينظر ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص 149 و ما بعدها.

سنة 681هـ/1282م¹، قال عنه ابن مريم: "كان من العلماء الزاهدين والعلماء العاملين"²، و منهم كذلك أبو عبد الله محمد بن مرزوق (ت بعد 747هـ/1346م)³، وأبو العباس أحمد بن مرزوق (ت 741هـ/1341م)⁴، أما في القرنين الثامن والتاسع الهجريين فقد اشتهر منهم أربعة، وهم الخطيب (ت 781هـ/1379م)⁵، والحفيد (ت 842هـ/1439م)⁶، والكفيف (ت 901هـ/1496م)⁷، والسبط (ت بعد 920هـ/1514م)⁸.

¹ - ابن مرزوق الخطيب: المصدر السابق، ص166.

² - ابن مريم: المصدر السابق، ص226.

³ - محمد (الثاني) بن مرزوق (ت بعد 747هـ/1346م): هو أبو عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، عمّ بن مرزوق الخطيب، ولد و نشأ بتلمسان، و بما تعلّم، أما عن تاريخ مولده و وفاته فيبدوا أنّه ولد قبل 681هـ و توفّي بعد 747هـ. للمزيد ينظر ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص49.

⁴ - أحمد بن مرزوق (ت 741هـ/1341م): هو أبو العباس أحمد (الأول) بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، والد أبي مرزوق الخطيب، ولد بتلمسان سنة 681هـ و بما نشأ و تعلّم، و تزوّج ابنة الفقيه أبي إسحاق التنسي، و في سنة 736هـ توجه إلى البقاع المقدسة فحج و حاور، و سكن المدينة المنورة، إلى أن وافاه الأجل هناك سنة 741هـ، و دفن بمكة المكرمة. للمزيد ينظر ابن مرزوق: المسند، ص18، 19.

⁵ - ابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م): هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق العجيسي، الشهير بالخطيب و الجد و الرئيس، ولد بتلمسان سنة 710هـ و بما نشأ و تعلّم، ثمّ رحل إلى المشرق فأخذ عن علماء القاهرة و الحرمين و بيت المقدس، ثمّ ولى راجعا للمغرب و طاف بين حواضره و حواضر الأندلس خطيبا و مدرّسا، و في سنة 770هـ ركب البحر صوب الاسكندرية، فولّاه ملكها التدريس و القضاء إلى أن توفي بها سنة 781هـ، و دفن في مقبرة القرافة الصغرى بين قبري أبي القاسم و أشهب. للمزيد ينظر المقرئ: نفح الطيب، ج5، ص390. ابن مريم: البستان، ص184. مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص340. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت 852هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح محمد عبد المعيد ضان، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ط2، 1392هـ/1972م، ج5، ص93. الحفناوي: تعريف الخلف، ج1، ص136. مخلوف: شجرة النور، ج1، ص340. عادل نويهض: المرجع السابق، ص289.

⁶ - ابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ/1439م): هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بالحفيد، ولد بتلمسان سنة 766هـ و بما نشأ و تعلّم، ثمّ تنقّل طالبا للعلم بين حواضر العالم الاسلامي، مشرقه و مغربه، و خلف أثارا جمة في فنون مختلفة منها ما طبع و منها مازال مخطوطا ومنها ما عدت عليه عوادي الزمن، قال عنه التنبكتي: "الآخذ من كل فنّ بأوفر نصيب، الراعي في كل علم مراعاة الخصب، حجة الله على خلقه، المفتي الشهير...سليل أفاضل الأكابر...الجامع بين المعقول و المنقول، و الحقيقة و الشريعة بأوفر محصول"، أما عن وفاته فقد نقل لنا تلميذه القلصادي في رحلته أنّ شيخه توفي عصر خميس الرابع عشر من شعبان من سنة 842هـ، و صلّي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة، و دفن بالروضة غربي المسجد. للمزيد ينظر القلصادي، أبو الحسن علي (ت 891هـ): رحلة القلصادي، تح محمد أبو الأحنان، الشركة التونسية للتوزيع، ص96 و ما بعدها. المقرئ: نفح الطيب، ج5، ص420. التنبكتي: نيل الابتهاج، ص499. الحفناوي: تعريف الخلف، ج1، ص124. عادل نويهض: المرجع السابق، ص290.

⁷ - ابن مرزوق الكفيف (ت 901هـ/1496م): هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، ولد سنة 824هـ بتلمسان، و بما نشأ و تعلّم، حفظ القرآن و قرأ الصحيحين و الموطأ على يد والده أبي مرزوق الحفيد، رحل إلى المشرق فأخذ عن علماء الحرمين و جلس للتدريس هناك، ثمّ عاد إلى تلمسان فجلس للتدريس و الإقراء، قال عنه تلميذه أبو العباس التلمساني: "علم الأعلام، حجة الاسلام، آخر حقاظ المغرب"، من آثاره شرح لكتاب أبيه المستمى "شرح مختصر الحاوي للفتاوي"، كما حفظ لنا المازوني عددا من فتاويه في نوازل، و كانت وفاته في تلمسان سنة 901هـ، و بما دفن في موكب جنازي مهيب. للمزيد ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص250، 251. الحفناوي: تعريف الخلف، مصدر سابق، ج1، ص145، 146. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص292. نصر الدين بن داود: أبو عبد الله بن مرزوق الكفيف، قراءة عن سيرته و نشاطه، مجلّة أنثروبولوجيا الأديان، جامعة تلمسان، الجزائر، ع10، س2011م، ص408.

⁸ - ابن مرزوق السبط (ت 920هـ/1514م): هو محمد (الثامن) بن أحمد بن محمد بن أبي يحيى بن أحمد بن مرزوق الخطيب، اشتهر بالخطيب الثاني، و عرف بالسبط أي سبط ابن مرزوق الحفيد، لأنّه ابن بنته حفصة، ولد بتلمسان و بما نشأ و تعلّم، أخذ العلم على يد خاله "الكفيف" و علماء

ساهم فقهاء بيت المرازقة —بصفة عامة— في تنشيط الحياة العلمية و الدينية، داخل تلمسان و خارجها، ففي مجال التعليم برز ابن مرزوق الخطيب كمدرس شهير في حواضر المشرق و المغرب الاسلامي، تخرّج على يديه جلة من علماء المغرب و الأندلس أمثال لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1374م)¹، وابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م)²، وأبي القاسم البرزلي (ت844هـ/1440م) وغيرهم، وكانت بدايته من مدرسة العباد بتلمسان، ثم المدرسة الرسمية بغرناطة³، ومنها إلى مدرسة الشّماعين بتونس⁴، و لما ارتحل إلى القاهرة أكرمه سلطانها بالتدريس في أشهر مدارسها⁵، كما اشتهر "الحفيد" في ذات المجال، حيث جلس —بعد رحلته العلمية— للتدريس أكثر من خمسين سنة، وتخرّج على يده الكثير من أمثال عبد الرحمان الثعالبي (ت875هـ/1471م)⁶، أبي الحسن القلصادي (ت891هـ/1486م)⁷، ويحيى المازوني (ت883هـ/1478م)¹ وغيرهم، أمّا الإمامة والخطابة

آخرين، توفي بتلمسان في حدود العشرين و تسعمائة على حدّ قول التنبكي. للمزيد ينظر ابن مريم: البستان، ص258. عادل نويهض: المرجع السابق، ص292.

¹ لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1374م): هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل (نسبة إلى مدينة لوشة التي ولد بها)، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب: وزير مؤرخ أديب، ولد سنة 713هـ، و تولى الوزارة سنة 733هـ، و مات مقتولا في سجنه سنة 776هـ، و دفن في مقبرة "باب المحروق" في فاس، كان يلقّب بذي الوزارتين السيف و القلم، و يقال له "ذي العمرين" لاشتغاله بالتصنيف في ليله، وبتدبير المملكة في نهاره، خلّف نحو ستين مؤلفا، أكثرها في التاريخ و الأدب، منها "الإحاطة في أخبار غرناطة" و "نفاضة الجراب"...، للمزيد عن ترجمته ينظر المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص7. ابن قنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص370. مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص330. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج6، ص235.

² ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م): هو الإمام العلامة، المحدث المصنف، أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب، الشهير بابن قنفذ القسنطيني، ولد عام 740هـ، و توفي سنة 810هـ، أخذ الحديث و الفقه على ابن مرزوق الخطيب في مدينة فاس، و خلّف تآليف غزيرة و شروحا كثيرة، منها "أنس الفقير و عز الحقير" و "الوفيات"...، ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص109. مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص360.

³ المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص392.

⁴ المقرئ: المصدر نفسه، ج5، ص408.

⁵ ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، مصدر سابق، ص54.

⁶ عبد الرحمان الثعالبي (ت875هـ/1471م): هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي، نسبة إلى قبيلة الثعالبة أبناء ثعلب بن علي من عرب المعقل، ولد سنة 786هـ بناحية وادي يسر بأحواز الجزائر، و بما نشأ و تعلّم، ثم ارتحل إلى بجاية فأخذ عن علمائها، ومنها إلى تونس، و فيها أخذ عن ابن مرزوق الحفيد، ثم واصل رحلته إلى المشرق ليعود بعدها إلى الجزائر و يعتكف على التدريس و التأليف، توفّي الخطابة بالجامع الأعظم بالجزائر كما توفّي قضاءها عن غير رغبة، و توفي في رمضان من سنة 875هـ، و دفن ببجاية الطلبة، مخلّفا وراءه إرثا غزيرا في شتى ضروب المعرفة أهمّها في التفسير و القراءات و الفقه و التصوف، للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص257. السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج4، ص152. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج2، ص280. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص90.

⁷ أبو الحسن القلصادي (ت891هـ/1486م): هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي، القرشي البسطي، الشهير بالقلصادي نسبة إلى قلصادة من بلاد الأندلس، ولد سنة 815هـ بمدينة بسطة الأندلسية، و بما نشأ و تعلم، ثم ارتحل إلى المشرق فمرّ بتلمسان و أخذ الفقه و الحديث و التفسير و الفرائض عن عالمها ابن مرزوق الحفيد، و منها إلى تونس فأخذ عن أعلامها، ثم إلى المشرق فحج و لقي أعلاما، ثم عاد إلى المغرب، أدركته المنية بباجة سنة 891هـ، مخلّفا وراءه إرثا عظيما لا سيما في الحساب و الفرائض. للمزيد ينظر القلصادي: رحلة القلصادي، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص30 و ما بعدها. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص339. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج5، ص10.

فللمرازة فيها تاريخ وعادة، شفيعنا في ذلك ما نصّ عليه ابن خلدون عند حديثه عن محمد بن مرزوق (ت بعد 747هـ/1346م) عمّ ابن مرزوق الخطيب، بقوله: "و كان عمّه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم بالعباد"²، و قد كان —حقاً— جدّهم الأول محمد بن مرزوق (ت681هـ/1282م) يؤم المصلين في مسجد مرسى الطلبة، و كان السلطان يغمراسن يزوره و يصلي وراءه³، حتّى عُرف المسجد بمسجد ابن مرزوق، أمّا خطيب خطبائهم و الذي اشتهر بهذا اللقب (ابن مرزوق الخطيب) فيقول عن نفسه: "و في سنة سبع و ثلاثين عدت إلى المغرب و أقمت بتلمسان أخطب بالعباد..."⁴، فُعُرف بفصاحة لسانه و ببيان خطبه و جزيل عباراته حتّى قال عنه صاحب البغية: "الخطيب المصقع ذو وجهة عند السلطان"⁵، و شغل "الخطيب" هذه الخطة بعدّة مساجد، كمئبر جامع الحمراء، و جامع غرناطة، و جامع الموحدين بتونس...وفي ذلك يقول في مسنده: "فارتقيت إحدى و خمسين منبرا في بلاد شتّى من أقصى المغرب و وسطه و عدوة الأندلس و الزاب و إفريقية، فما من قاعدة و حضرة ملك في هذه البلاد إلّا و علوت على منبرها، و أخلصت الدّعاء لمقلدها"⁶، و إلى جانب التدريس و الخطابة فقد شغل بمصر خطّة القضاء، حيث وّلاه ملكها "الأشرف"⁷ منصب قاضي المالكية، فاستمرّ فيه حتّى وفاته سنة 781هـ/1379م⁸.

أمّا ابن مرزوق "الكفيف" فحتّى و إن لم تذكر لنا المصادر المنابر التي اعتلاها، فإنّ ابن غازي في فهرسته حاله بفخر خطباء الاسلام⁹، كما حلّى التنبكي "الحفيد" بفارس الكراسي والمنابر¹⁰، ودوّن له تلميذه "يحيى

¹ — يحيى المازوني (ت883هـ/1478م): هو أبو زكريا يحيى بن أبي عمران (موسى) بن عيسى المغيلي المازوني، نسبة إلى مازونة (قرية بنواحي الشلف) التي ولد و نشأ بها ثمّ تولّى قضاءها، أخذ العلم عن والده و أئمة وقته كابن مرزوق الحفيد و قاسم العقباني و غيرها، توفي بتلمسان سنة 883هـ، واشتهر بكتابه "الدرر المكنونة في نوازل مازونة". للمزيد ينظر التنبكي: المصدر السابق، ص637. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج8، ص175. عبد الرحمان الجيلاني: المرجع السابق، ج2، ص286. عادل نويهض: المرجع السابق، ص281.

² — ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص529.

³ — ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص153، 154.

⁴ — ابن مرزوق: المصدر نفسه، ص304.

⁵ — يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ج1، ص153.

⁶ — ابن مرزوق: المسند، مصدر سابق، ص487.

⁷ — الملك الأشرف (ت778هـ/1376م): هو أبو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، ولد سنة أربع و خمسين وسبعمئة، و تولّى الحكم بعد خلع ابن عمه، الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي، في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمئة، وعمره إذ ذاك عشر سنين، ومات في ليلة الثلاثاء خامس ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمئة، للمزيد عن ترجمته ينظر ابن تغري بردي، جمال الدين (ت874هـ): المنهل الصافي و المستوفي بعد الوافي، تح محمد محمد أمين، تق سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج6، ص233.

⁸ — التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص452.

⁹ — ابن غازي، أبو عبد الله محمد (ت910هـ): فهرس ابن غازي، تح محمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة و النشر، تونس، د ت، ص169.

¹⁰ — التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص499.

المازوني "كثيراً من فتاويه في الطهارة والصلاة والبيوع واليمين والذبائح والسقايات...¹ كما خلّف الحفيد ثروة علمية كبيرة في شتى ضروب المعرفة²، ذكرت منها الأستاذة سلوى الزهري (محققّة المناقب المرزوقية) نحو أربعة عشر مؤلّفاً أغلبها شروح و حواشي، منها في الفقه المالكي "المنزع النبيل في شرح مختصر خليل³ وتصحيح مسائله بالنقل والدليل" و "روضة في شرح التهذيب"⁴.

وأما بيت المقرّي⁵ فقد أنجب ثلّة من الفقهاء ممن سطّروا تاريخ عائلتهم الفقهي بماء من ذهب، منذ قدومهم إلى تلمسان، ولعلّ أولهم ذكرنا الفقيه المجتهد محمد المقرّي الجد (ت759هـ/1358م) الذي ولد بتلمسان أيام السلطان أبي موسى حمّو الأول (707-718هـ/1308-1318م)، وبها نشأ وتعلّم على يد أساطين الفقه المالكي وعلى رأسهم البجائي عمران المشدالي نزيل تلمسان، كما لزم مجلس الشيخ الآبلي⁶ ومجالس ابني الإمام ومجلس ابن هدية⁷، ثمّ سلك سبيل الرحلة لاكتساب الفوائد، و الكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال¹، فطاف ببجاية و

¹ - ينظر المازوني، أبو زكريا يحيى (ت883هـ): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح الكريف محمد رضا، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2016/2015م، ص86، 252، 327، 358...

² - للاطلاع على مؤلفات ابن مرزوق الحفيد ينظر نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من ق7هـ/13م إلى 10هـ/16م، رسالة دكتوراه، إشراف الدكتور محمد بن معمر، جامعة تلمسان، الجزائر، 2010/2009م، ص233 و ما بعدها

³ - خليل بن إسحاق (ت767هـ/1366م): هو خليل بن إسحاق بن يعقوب بن موسى الكردي المصري، المعروف بالجندي، كان يستقّى محمداً ويلقب بضياء الدين، الإمام الفقيه الحافظ المجمع على جلالته وفضله الجامع بين العلم والعمل، درس بالمدرسة الشيعونية بمصر، وأفتى وأفاد ولم يُغيّر رِيّ الجندية، وله تأليف مفيدة دالة على فضل، وسعة اطلاع ونبل، منها شرح مختصر ابن الحاجب الأصلي والفرعي المسمى بـ "التوضيح" وضع عليه القبول، ومختصر في المذهب مشهور بـ "مختصر خليل" أقبل عليه الطلبة من كل الجهات واعتنوا بشرحه وحفظه ودرسه، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة 767هـ. للمزيد ينظر السيوطي: حسن المحاضرة، مصدر سابق، ج1، ص460. ابن حجر: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج2، ص207. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص115. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص168. محمد مخلوف: شجرة النور، ج1، ص321.

⁴ - ينظر ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، مصدر سابق، ص90، 91.

⁵ - نسبة إلى "مقرة" قرية من قرى بلاد الزاب، سكنها سلفهم ثم تحوّلوا إلى تلمسان مع نهاية القرن السادس الهجري (12م)، و "مقرة" ذكرتها كتب الرحالة والجغرافيين في القرنين الرابع والخامس الهجريين (10-11م) بأنّها مدينة عظيمة، أمّا مصادر القرن السادس الهجري و ما بعد فإنّها أشارت إلى كونها قرية صغيرة (قد تكون تعرضت للتخريب)، حتّى أنّ الوزان (ق10هـ) لم يذكرها نهائياً، للمزيد عن وصفها و موقعها ينظر اليعقوبي: البلدان، مصدر سابق، ص191. البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص170. الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر سابق، ج1، ص263. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص420.

⁶ - محمد بن إبراهيم الآبلي (ت757هـ/1356م): هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي، التلمساني، و الآبلي بالمد نسبة إلى أبلة (Avila) من بلاد الأندلس إلى الشمال الغربي من مدريد، قال عنه التنبكي هو أعلم خلق الله بفنون المعقول، درّس بتلمسان وقرأ عليه خلق كثير منهم المقرّي الذي قال عنه هو الإمام نسيج وحده و رحلة وقته في القيام على الفنون العقلية، وابن خلدون الذي قال عنه "شيخ العلوم النقية"، توفي بفاس سنة 757هـ، للمزيد عن ترجمته ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص411. المقرّي: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص244. ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، مصدر سابق، ص33. ابن القاضي: درة الحجال، مصدر سابق، ج2، ص265.

⁷ - محمد بن منصور بن هدية (ت735هـ/1335م): هو أبو عبد الله، محمد بن منصور بن علي بن هدية، القرشي، التلمساني، من ذرّة عقبة بن نافع، ولد بتلمسان و بها نشأ و تعلّم، و تولّى المناصب العليا لسلطين بني زيان، و توفي سنة 735هـ و حضر جنازته السلطان أبو تاشفين، للمزيد ينظر المقرّي: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص234. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص336.

تونس والمغرب الأقصى، ثم عاد إلى تلمسان أين انتصب للتدريس والإقراء، وفي سنة 744هـ/ ولى وجهه شطر المسجد الحرام لأداء فريضة الحج²، فأخذ في طريقه عن علماء مصر³، وبالحجاز لقي أئمة الحرمين، ثم انتقل إلى الشام فزار دمشق وبيت المقدس وأخذ عن علمائهما، ومن الشام عاد إلى المغرب ثم قطع إلى الأندلس فنزل بغرناطة سنة 756هـ/1355م⁴، ومنها عاد إلى فاس وتولّى قضاء الجماعة، وبها توفي سنة 759هـ/1358م، ونُقل جثمانه إلى تلمسان تربة أجداده⁵.

عُرف المقرئ بآرائه ومواقفه الاجتهادية، فقد قارن بين فروع المذاهب الأربعة، وناقش من سبقه في مقاصد الشريعة وقواعدها وأحكامها، وربط الفروع بالقواعد، وكان يقدم خلاصة عمله النقدي لأقوال الفقهاء، لذلك فلا غرابة أن يُعدّ من العلماء المجتهدين⁶، كما خلف المقرئ آثارا جليلة في شتى ضروب المعرفة⁷، وألف -مع ذلك- رجالا خلّدوا ذكره في العالمين، فكتب ابن مرزوق الحفيد مصنفًا في سيرته سَمّاه "النور البدرى في التعريف بالفقيه المقرئ"⁸، وقال عنه ابن الخطيب: "هذا الرجل مشار إليه بالعدوة المغربية اجتهدا ودؤوبا وحفظا وعناية واطّلاعا ونقلًا ونزاهة"⁹، كما قال عنه الونشريسي: "كان رحمه الله تعالى عالما عاملا ظريفا نبيا ذكيا نبيلًا فهما متيقظا جزلا محصلا"¹⁰.

- كما أنجب بيت المقرئ فقهاء أجلاء من أهل القرنين التاسع و العاشر، غير أننا سنشير إليهم عرضا كونهم خارج الإطار الزمني لدراستنا، و لعلّ أشهرهما المقرئ (ت1041هـ/1632م)¹¹ صاحب "نفح الطيب" و عمّه

¹ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص745.

² - التنبكتي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص422.

³ - عن محطته بمصر والعلماء الذين لقيهم ينظر نواف عبد العزيز الجحمة: صورة الغربة المغاربة في مصر و الشام خلال عصر الحروب الصليبية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، سوريا، ع101، 102، س1429هـ/2008م، ص173.

⁴ - ابن الخطيب: الإحاطة، مصدر سابق، ج2، ص197.

⁵ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص312، 313.

⁶ - عبد العزيز فيلاي: المرجع السابق، ج1، ص379.

⁷ - عن آثاره العلمية ينظر الكتاني، سلوة الأنفاس، مصدر سابق، ج3، ص342 و ما بعدها.

⁸ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص312.

⁹ - ابن الخطيب: الإحاطة، مصدر سابق، ج2، ص118.

¹⁰ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص207.

¹¹ - أحمد بن محمد المقرئ (ت1041هـ/1632م): هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمان بن أبي العيش بن محمد المقرئ، يلقب العباس، و يكنى بشهاب الدين، ولد بتلمسان سنة 986هـ، و توفي بمصر سنة 1041هـ، و دفن بمقبرة المجاورين بالقرب من جامع الأزهر، من آثاره التي اشتهر بها "نفح الطيب" و "أزهار الرياض في أخبار عياض" و "روضة الآس العاطرة الأنفاس"، للمزيد ينظر المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج1، ص1 (مقدمة المحقق). بن فضل الله، محمد أمين (ت1111هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1، ص302.

سعيد بن أحمد المقرئ (ت بعد 1011هـ/1602م)¹، عالم تلمسان في وقته، و مفتيها ستين سنة، و خطيب مسجدها الأعظم خمسا و أربعين سنة².

- و من البيوتات التي سطع نجمها في سماء تلمسان، وأضاف فقهاؤها لبنة في بناء المدرسة المالكية بها، "بيت العقباني"³، ذو الأصول الأندلسية⁴، و النسب التحيبي⁵، و الذي أنجب ثلثة من الفقهاء الذين كان لهم إسهام حضاري في العاصمة الزيانية و خارجها، خاصة لما نعلم أنهم قدموا من الأندلس التي عرفت حواضرها ازدهارا حضاريا فاق حواضر بلاد المغرب، و كان من أشهر من أنجب هذا البيت الفقيه القاضي سعيد بن محمد العقباني (ت811هـ/1408م)⁶ الذي وُلد بتلمسان سنة 716هـ/1316م على أرجح الأقوال، و بها نشأ و تعلّم، حتّى صار من كبار فقهاءها، تولى التدريس بالتاشفينية، و تتلمذ على يديه الكثير من الطلبة منهم ابنه قاسم العقباني و الإمام أبو الفضل ابن الإمام الآتي ذكرهما، ثمّ تولى القضاء بعدة حواضر مغربية، و توفّي سنة 811هـ/1408م و دُفن بمقبرة السلاطين الزيانيين، و ترك مؤلفاتٍ في شتّى ضروب العلم المختلفة، أهمّها في الفقه المالكي "شرح الحوفي" في الفرائض (الموارث) على مذهب الإمام مالك، قال عنها ابن فرحون: "لم يؤلف عليها مثله"⁷، كما خلّف العالم المدرّس تلميذه و فلذة كبده "قاسم بن سعيد العقباني (ت854هـ/1450م)"⁸

¹ - سعيد بن أحمد المقرئ (ت بعد 1011هـ/1602م): هو أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرئ، ولد بتلمسان سنة 928هـ، و بها نشأ و تعلّم، و توفّي بعد 1011هـ، و لم تذكر المصادر أنّه خلّف أثرا غير الفتوى و الخطابة و التدريس، للمزيد ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص104. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ص520

² - محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص427.

³ - بيت العقباني، نسبة إلى "عقبان" على الأشهر، و هي قرية من قرى الأندلس، ذهب إلى ذلك التنبكي في نيل الابتهاج، و ابن مريم في البستان، وابن القاضي في درّة الحجال، بينما ذهب القراقي في التوشيح و السخاوي في الضوء اللامع إلى أنّ بيت العقباني نسبة لبني عقبة، للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص190. ابن مريم: البستان: مصدر سابق، ص107. القراقي: توشيح الدياج، مصدر سابق، ص152، السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج6، ص181

⁴ - أحجمت المصادر عن تحديد تاريخ هجرة آل العقباني إلى تلمسان، غير أنّه من المرجح أن يكون ذلك خلال القرن السابع الهجري (13م) بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب 609هـ، و تزايد حروب الاسترداد المسيحية، خاصة و أنّ أوّل أعلام هذا البيت شهرة "سعيد العقباني"، كان مولده سنة 720هـ، ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص190.

⁵ - نسبة إلى "بنو تجيب"، بضم التاء و كسر الجيم و سكون الياء المثناة، هم بطن من كندة و كندة له من الولد أشرس و عدي، و تجيب أمهما، عرف بنوها بها، و هي بنت ثوبان بن سليم بن رها بن مذحج، للمزيد ينظر القلقشندي: نهایة الإرب في معرفة أنساب العرب، مصدر سابق، ص185.

⁶ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص106.

⁷ - ابن فرحون: الدياج المذهب، مصدر سابق، ص124.

⁸ - قاسم بن سعيد العقباني (ت854هـ/1450م): هو قاسم بن سعيد بن محمد بن محمد العقباني، يكتّى بأبي الفضل، و أبي القاسم، ولد بتلمسان سنة 768هـ، و بها نشأ و تعلّم و درّس فتخرّج على يده الكثير، وصفته المصادر بالمعمر لطول عمره، توفّي بتلمسان سنة 854هـ و حضر جنازته السلطان و من دونه و دفن بالروضة غرب الجامع الأعظم، للمزيد عن حياته و آثاره ينظر السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج6، ص181. ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص124. القراقي: توشيح الدياج، مصدر سابق، ص152.

الذي لم تذكر له المصادر شيخا إلا والده، و رغم ذلك فقد أحرز قصب السبق في العلم و حازه— كما قال التنبكتي- و قطع فيه صدر العمر واستقبل أعجازه¹، فبلغ درجة عالية من التحصيل و الفهم العميق، و كانت له اختيارات خارج المذهب، فلا غرو أن يُعدّ من المجتهدين الاجتهاد المطلق²، أمّا عن آثاره الفقهية فقد ذكر التنبكتي أنّه خلّف تعليقا عن ابن الحاجب الفرعي³، و لأنّه كان يحنح حياة الزهد و التصوف فقد ترك أرجوزة في الذكر عند المتصوفة⁴، فضلا عن أنّه ترك من بعده فقيهين بلغا بعلمهما شأوا كبيرا، وهما الفقيه أحمد بن قاسم العقباني(ت840هـ/1437م)⁵، وقاضي الجماعة إبراهيم بن قاسم العقباني(ت880هـ/1475م)⁶.

كما عرفت حاضرة تلمسان بيوتات فقهية أخرى أقلّ شهرة ومكانة من التي ذكرنا، كبيت الشريف وبيت أولاد الإمام وبيت ابن هديّة...، فأما بيت الشريف فقد بزغ فجرها في القرن الثامن الهجري عندما تالّأ نجم عالمها أبو عبد الله محمد(ت771هـ/1370م)، أوّل من دُكر بالشريف⁷، وأحد الثلاثة الذين شرفوا هذا البيت بفقههم واجتهادهم، إلى جانب ابنه أبو محمد عبد الله الشريف(ت792هـ/1390م)⁸، وأبو يحيى عبد الرحمان بن محمد الشريف(ت826هـ/1423م)⁹، ومن إسهاماتهم في مجال التدريس ما ذكره ابن خلدون عن أبي عبد الله الشريف

¹ - التنبكتي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص365.

² - التنبكتي: المصدر نفسه، ص365.

³ - التنبكتي: المصدر نفسه، ص366.

⁴ - ينظر التنبكتي: المصدر نفسه، ص366.

⁵ - أحمد بن قاسم العقباني(ت840هـ/1437م): هو الفقيه القاضي أحمد بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، لم تورد المصادر معلومات عن مولده و لا عن حياته و نشأته، غير أنّه عدّ من فقهاء تلمسان و قضائها، و توفّي على الأرجح سنة840هـ، للمزيد ينظر التنبكتي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص118. ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص51، عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص236.

⁶ - إبراهيم بن قاسم العقباني(ت880هـ/1475م): هو أبو سالم، إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، ولد بتلمسان عام808هـ، و تعلّم بها عن والده و غيره من العلماء، تولّى القضاء و تدرّج فيه حتّى أصبح يعرف بقاضي الجماعة، أثنى عليه الونشريسي ونقل له فتاوى كثيرة في معياره، توفّي بتلمسان سنة880هـ، للمزيد ينظر التنبكتي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص65. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص236.

⁷ - ترجمنا له سابقا، أنظر الفصل الثالث (المدرسة المالكية ببجاية الحفصية)

⁸ - عبد الله الشريف(ت792هـ/1390م): هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد الشريف الحسني التلمساني، بثّر به والده -في المنام- العام الذي ولد فيه 748هـ، ولما بلغ من العمر خمس سنين رحل مع والده إلى فاس أين تلقّى العلوم الأولية كالقرآن و النحو و الحديث، ثمّ لزم حلقة أبيه و أخذ عنه التفسير و الأصول و التصوف...، و لما توفّي أبوه سنة771هـ جلس مكانه و نحا نحوه نظرا و نقلا و تحقيقا، ثمّ انتقل إلى الأندلس و أقام بغرناطة مدرّسا، و لما قفل راجعا وافته أجله، فمات غريقا في البحر سنة792هـ. للمزيد ينظر التنبكتي، أحمد بابا(ت1036هـ): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فيالديباج، تح محمد مطيع، وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية، المغرب، 1421هـ/2000م، ج1، ص245. مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص337.

⁹ - عبد الرحمان بن محمد الشريف(ت826هـ): هو أبو يحيى عبد الرحمان بن محمد بن أحمد الشريف، ولد بفاس سنة757هـ، و نشأ و تعلّم بتلمسان على يد والده، و أخذ الفقه و الأصول و التفسير على فقيه تلمسان سعيد العقباني، و لما مرض أخوه سنة784هـ جلس للتدريس مكانه، فسمع منه كثيرون وكان آية في التحقيق و الاتقان، و مكث على كرسي التدريس إلى أن توفّي في رجب من سنة 826هـ. للمزيد ينظر التنبكتي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص252. مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج1، ص362.

قوله: "انتصب لتدريس العلم وبثه، فملاً المغرب معارف و تلاميذ¹"، فكان نموذجاً يحتذى به، و تخرّج على يده الكثير من العلماء منهم ابنه أبو محمد عبد الله، و ابن السكّاك (ت818هـ/1415م)² الذي لازمه بالمدرسة يعقوبية حتّى وفاته، ومنهم كذلك إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت790هـ/1388م)³ صاحب كتاب "الموافقات" الذي يعتبر —بلا ريب— حسنة من حسنات أستاذه أبي عبد الله الشريف و اقتداء بمؤلّفه في الأصول "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول" الذي قال عنه محقّقه: "من أجود المصنّعات في أصول الفقه، ألّفه على منهج جيّد، مرّتب منظّم، قويّ العرض دقيق النظر...، على طريقة الفقهاء لا على طريقة المتكلّمين، و جمع فيه بين منهج الحنفية و الشافعية و المالكية في هذا الفنّ"، أمّا ولده عبد الرحمان الشريف (ت826هـ/1423م)، فتذكر المصادر أنّه لم يشغل بوظيفة عدا التدريس، و أنّه قضى ما يربو عن الأربعين سنة معلّماً، فتخرّج على يده علماء فطاحل أمثال ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ/1439م)⁴، وأبي العباس أحمد بن زاغو (ت845هـ/1441م)⁵، وقد روى لنا التنبكي شهادة أبي يحيى المطغري عن بيت الشريف في ميدان التدريس فقال: "حضرت مجالس العلم شرقاً وغرباً فما رأيت ولا سمعت مثل أبي عبد الله وولديّه⁶"

وأمّا بيت بني الإمام فهو من البيوتات الراسخة و العريقة في العلم حتّى قبل قدومهم إلى تلمسان، فقد كان أبوهم إمام مدينة برشك وفقهها وخطيبها، وكذلك جدّهم، ويُعرف كذلك ببيت ابني الإمام، نسبة لأبي زيد عبد

¹ ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج7، ص537.

² ابن السكّاك (ت818هـ/1415م): هو أبو يحيى محمد بن أبي البركات، و قيل ابن أبي غالب، المعروف بابن السكّاك، لم أقف على تاريخ مولده، ولد بفاس و غادرها صغيراً —مع والده— إلى تلمسان، أين نشأ و تعلّم على شيخه كالأبلي و أبي عبد الله الشريف، توفّي قضاء سبتة و قضاء الجماعة بفاس، له شرح على شفاء عياض، وكتاب في الأدعية، توفّي في الثمانين من عمره سنة 818هـ. ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص481. مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج1، ص362.

³ إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت790هـ/1388م): هو الفقيه الأصولي و المحدث اللغوي، و المفسر البياني، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي، نسبة إلى شاطبة من بلاد الأندلس، ولد بغرناطة و نشأ و تعلّم بها، غير أنّ المصادر لم تفدنا بتاريخ ميلاده و لا بنشأته في صغره، إذ يبدو أنّه اشتهر بعد مؤلّفاته الغزيرة، و أبحاثه النفيسة، واستنباطاته الدقيقة، أخذ عن أئمة كثر منهم الشريف أبي عبد الله التلمساني، و أبي عبد الله المقرئ، وابن مرزوق الخطيب، و أبي العباس القباب... و أخذ عنه أئمة أجلة منهم الأخوين أبو بكر و أبو يحيى ابني عاصم، توفّي في شعبان من سنة 790هـ تاركاً وراءه تآليف قلّ نظيرها إفادة و إجادة كالموافقات، الاعتصام، المجالس، و غيرها. للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص48. مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج1، ص332.

⁴ ترجمنا له سابقاً عند الحديث عن بيت المرازقة، ينظر ص

⁵ أحمد بن زاغو (ت845هـ/1441م): هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمان المغراوي التلمساني، الشهير بابن زاغو، ولد بتلمسان في حدود سنة 782هـ، و بما نشأ و تعلّم، و لم تذكر المصادر أنّه رحل منها، أخذ العلم عن أبي عثمان سعيد العقباني، و أبي يحيى عبد الرحمان الشريف، و أخذ عنه الحافظ التنسي وأبو الحسن القلصادي ويحيى المازوني وغيرهم، له تآليف كثيرة و فتاوى عدّة، أثبت منها الكثير صاحب المعيار و كذا صاحب الدرر المكنونة، توفّي في شهر ربيع الأوّل من سنة 845هـ، و كانت جنازته مهيبة مشهودة. للمزيد ينظر الحفناوي: تعريف الخلف، مرجع سابق، ج1، ص42. مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج1، ص366. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص156.

⁶ التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص253.

الرحمان، و أبي موسى عيسى، و أنجب هذا البيت إلى جانب أبي زيد و أبي موسى، العالم الفاضل إبراهيم بن أبي موسى، و عبد الحق بن أبي موسى، و محمد بن إبراهيم، و لقد أشار الونشريسي إلى فقهاء هذا البيت فقال: "و أمّا بنو الإمام فأعلامهم طبقة الشيخان الراسخان الشاخصان العالمان المفتيان الشقيقان، الفقيه العلامة آخر صدور أعلام المغرب بشهادة أهل الإنصاف شرقاً و غرباً أبو زيد، و العلامة النظار آخر أهل النظر، و جامع أشتات المعارف أبو موسى، ابنا الإمام، ثمّ الشيخ أبو سالم إبراهيم بن أبي زيد، وابن عمّه الشيخ الصالح أبو محمد عبد الحق بن أبي موسى، ثم العلامة القاضي الرحال أبو الفضل بن أبي سالم...¹"، ويعود الفضل إلى علمي هذا البيت في وضع اللبنة الأولى للتعليم المدرسي بتلمسان، حيث كان لهما قصب السبق — كما أشرنا — في التدريس بأول مدرسة أنشأت بتلمسان، وتحديد طرائق التدريس التي نقلها من المشرق وإفريقية، فتخرج على أيديهما أشهر أعلام تلمسان من أمثال الآبلي (ت759هـ/1358م)، وأبي عبد الله الشريف (ت771هـ/1370م)، وابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/1379م)، وسعيد العقباي (ت811هـ/1408م).

أمّا بيت ابن هديّة ذو الأصول القرشية، فيبدو أنهم — حقاً — هديّة الله لتلمسان، إذ أنجب هذا البيت ثلاثة من كبار فقهاء المالكية الذين نقشوا أسماءهم في ذاكرة المدرسة التلمسانية الزيانية، فأولهم ذكرنا القاضي محمد بن هدية، الذي تولّى منصب إمامة الجامع الأعظم فبرز خطيباً بليغاً متفناً في مذاهب القول، قال عنه صاحب البغية: "هو الفقيه الخطيب من أئمة اللسان و الأدب"، وبلغت شهرته السلطان أبا تاشفين عبد الرحمان الأول، فقرّبه إليه وولّاه قضاء تلمسان فأحسن السيرة وكان من قضاة العدل على حدّ تعبير يحيى بن خلدون، أمّا صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس فقد وصفه بكبير قضاة قطره في عصره، نباهة، ووجاهة، وقوّة في الحقّ وصرامة...، ثمّ خلفه ابنه ثاني أعلام هذا البيت، الفقيه منصور بن هدية في الإمامة و القضاء، إذ تولّى إمامة الجامع الأعظم بأجادير وقضاء تلمسان منذ وفاة والده سنة 735هـ/1335م فنال ثقة الناس ورضاهم، شفيعنا في ذلك شهادة يحيى بن خلدون في عدله و إنصافه، إذ يقول: "ولّى القضاء بعد أبيه، فقام به خير قيام"، أمّا ثالثهم فهو الحافظ علي بن هدية، ابن منصور وحفيد محمّد السالفي الذكر، فهو الفقيه بن الفقيه، قال عنه يحيى بن خلدون: "الفقيه أبو الحسن علي خطيب الجامع الأعظم الآن على هدي السلف الصالح من الدين والعلم والفضل ونزاهة الهمّة، صدر من صدور الدراية والتدريس، والحلّق العظيم، حفظه الله".

ج . حاضرة إقليم توات المالكية:

¹ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص248.

قبل الخوض في تفاصيل وخصائص المدرسة المالكية بحاضرة توات و أبرز أعلامها، حريّ بنا التطرق إلى تحديد الموقع الجغرافي لهذه الحاضرة، و تأصيل المدلول التاريخي لتسميتها، فقد اختلف المؤرخون كما الجغرافيون في أصل التسمية إلى عدّة روايات من أشهرها ما ذهب إليه صاحب "فهرست الرصاع" من أنّ "توات" اسم لقبيلة بربرية تنحدر من قبائل المثلثين، كانت تنتجع المنطقة، و يقول في ذلك: "و المثلثون هم قبائل الصحراء بالجنوب عُرفوا بهذا الاسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق، و منهم طوائف الطوارق و لمطة و ملتونة و التوات...¹"، بينما أرجعها صاحب كتاب "تاريخ السودان"² إلى اسم مرض أصاب أفراد قبائل من "مالي"، كانوا يعبرون المنطقة قاصدين الحج، وفي ذات السياق ذهب آخرون إلى أنّ أصل التسمية يرجع إلى عهد الدولة الموحدية، حيث دأب سلاطينها على أخذ "الإتاوات" من أهل هذه المنطقة نظرا لما تحتويه واحاتها من خيرات، فصار أهلها يُعرفون بأهل الإتاوات.³

أمّا جغرافيًا فيقع إقليم توات بين خطيّ طول أربع درجات غربا ودرجة شرق خط غرينيتش، وبين دائريّ عرض 26° و 30° شمال خط الاستواء، حيث يحده من الشمال العرق الغربي الكبير، و من الجنوب صحراء تنزروفت، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير المحاذي لواد الماية، ومن الغرب واد الساورة و روافده،⁴ و يتوزّع على ثلاث مناطق من الشمال إلى الجنوب متّخذة شكل هلال⁵، و تضمّ عدّة واحات و قصور، عاصمتها في القديم تمنطيت⁶، و اليوم أدرار، أشار إليها جغرافيو و رحالة الفترة الوسيطة المتأخّرة بكثرة خيراتها و ثمارها، فيقول ابن خلدون: "وفواكه بلاد السودان كلّها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدراين ووركلاّن"⁷، ويقول ابن

¹ - الرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري: فهرست الرصاع، تح محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م، ص127.

² - السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله بن عامر: تاريخ السودان، مطبعة بردين، باريس، فرنسا، 1898م، ص7.

³ - للمزيد عن أصل تسمية "توات" ينظر بودواية مبخوت: العلاقات الثقافية و التجارية بين المغرب الأوسط و السودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر، 2006/2005م، ص238.

⁴ - محفوظ رموم: توات الجغرافيا و المصطلح من خلال المونوغرافيا المحلية و الأجنبية، مجلّة الحوار الفكري، جامعة أدرار، مج11، ع12، س2012م، ص83.

⁵ - هذه المناطق الثلاثة هي تيكورارين شمالا و عاصمتها تيميمون، و منطقة توات في الوسط و عاصمتها تمنطيت، و منطقة تيديكلت و عاصمتها عين صالح، ينظر محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ج1، ص28 و ما بعدها.

⁶ - تمنطيت أو تمنطيط لفظ بربري مرّكب من كلمتين "أتما" و "تيط" و معناه حاجب العين، و هي عاصمة إقليم توات، أشاد بها الرحالة و المؤرخون في الفترة الوسيطة، و أعجبوا بها بما إعجاب، فقال عنها ابن خلدون المهتم بالعمارة: "يسمى وطن توات، وفيه قصور متعدّدة تناهز المائتين، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمّى تمنطيت، وهو بلد مستجر في العمران، وهو محط ركاب التجار المتزّدين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد"، للمزيد ينظر المهدي البوعبدلي: أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط و دور الإمام المغيلي بها في قضية اليهود، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر، ع94، جويلية، أوت1986م، ص83، 84. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج7، ص76.

⁷ - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج1، ص70.

بطوطة الذي زار هذا الإقليم: "ودخلنا بوده وهي من أكبر قصور توات، وأرضها رمال وسبخة، وثمرها كثير...¹". و تعتبر القبائل البربرية من أول القبائل التي استقرت بالمنطقة قبل دخول الاسلام إليها، دلّت على ذلك النقوش الموجودة على صخورها، وأسماء القصور التي كانت باللغة الزناتية، بالإضافة لما عُرف عن هذه القبائل بعدها عن السلاطين، و نبذ قبائلها للحياة المقيّدة، ثمّ شهد إقليم توات توافد القبائل الصنهاجية خاصّة بعد أن أصبح تحت حكم "يوسف بن تاشفين" سنة 456هـ/1064م، وازداد توافد اللمتونيين إليه بعد سقوط دولة المرابطين، و كان أكثر استقرارهم بالعاصمة تمنطيط، كما وفدت إلى المنطقة جماعات من عرب المعاقيل مع مطلع القرن السابع الهجري(13م)، وكان أكثر استقرارهم بمنطقة "بودة" التي أسّسوا بها زاوية لحفظ القرآن و طلب العلم، وفي سنة 665هـ/1267م دخلت القبائل الهلالية² إلى المنطقة واستقرت بتاسبيت و رقان و تمنطيط، كما دخل العرب الأشراف إلى المنطقة سنة 817هـ/1414م و نالوا احترام القبائل التواتية، أمّا اليهود فترجع بداية ظهورهم بتوات إلى القرن الثامن الهجري(14م) بعد أن أصبحت الطريق التجارية التي تربط منطقة السوس بمملكة غانا غير آمنة فقصدوا تمنطيط و كان لهم بها حي خاص، و كان أكثر نشاطهم التجارة، حيث يذكر صاحب كتاب " القول البسيط في أخبار تمنطيط " أنّ بالسوق ثلاث مائة وستون صائغا يهوديا³.

أمّا عن انتشار الاسلام و دخول اللغة العربية لإقليم توات فإنّ الروايات التاريخية تشير إلى أنّ أهل المنطقة عرفوا الاسلام عن طريق التجّار المسلمين أكثر منه عن طريق الفاتحين، و كان ذلك منذ حملة عقبة بن نافع الثانية على بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرابع هجري(10م)⁴، إذ كان إقليم توات مركز عبور، و ممراً حتمياً للتجّار القادمين من شمال المغرب الاسلامي في اتجاه بلاد السودان، و مثل بذلك مجالا مفتوحا على عالمين مهتمّين في ديار الاسلام، الغرب الاسلامي شمالا، و السودان الغربي جنوبا، و في ذلك يقول ابن خلدون: "وهو بلد مستبحر في العمران، وهو محط ركاب التجار المتردّدين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد⁵"، و منذ ذلك التاريخ أي القرن الرابع الهجري، و حتّى نهاية القرن الثامن الهجري(14م) لم تفدنا المصادر بنصوص واضحة تبين تبعية هذا الإقليم لأيّ من دويلات الغرب الاسلامي عدا ما ذكرته من فرار القبائل الزناتية إليها عندما سيطر

¹ - ابن بطوطة: المصدر السابق، ج4، ص279.

² - R. pottier: histoire du Sahara, nouvelles éditions latines, paris, 1947, p 6

³ - ابن بابا حيدة: القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص14. و للمزيد عن تركيبة المجتمع التواتي في الفترة الوسيطة ينظر محفوظ رموم: المرجع السابق، ص89. عائشة بوشقيف: إسهامات علماء تلمسان في الحياة الفكرية بإقليمي توات و السودان الغربي من 8-10هـ/14-16م، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر، 2017/2018م، ص111 و ما بعدها.

⁴ - Echallier(J.C): Village désertes et structures agraires anciennes du Touat, Gourara, Algerien, Paris ,AMG , 1972 , p 16 .

⁵ - ابن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص77.

المرابطون على المغرب الأوسط، ثم القبائل الصنهاجية الفارة من بطش الموحدية في القرن السادس الهجري، بحكم أنّها أرض أمانة وعافية وأهلها مسالمون، أهل طيبة وضيافة على حد تعبير صاحب القول البسيط¹، وهو ما جعلهم -ربما- يتقبلون دفع الضرائب للسلطة الموحدية من بعد، في حين أنّ الدويلات التي قامت على أنقاضها لم تعرف السيطرة على هذا الإقليم، بسبب الحروب والصراعات التي قامت فيما بينها، ومع ذلك تبدو ملامح تبعيته المعنوية لسلطة تلمسان بحكم تأمين هذه الأخيرة للطريق التجاري الرابط بينها وبين السودان الغربي²، يعزز كلامنا ما ذكره "الفشتالي" من أنّ السلطان الزياني أبو حمّو موسى الأول (707-718هـ/1307-1318م) فرّ لاحقاً إلى تيكورارين، هارباً من بطش السلطان المريني عبد العزيز بن أبي الحسن³.

غير أنّه من المؤسف له أنّ جُلّ المصادر التي أُرخت للمنطقة -فترة الدراسة- لم تفصّل في الحركة الفقهية بها ولم تُقضى إلى أسماء الأعلام الذين برزوا فيها، ربما لندرة المادة العلمية أو نتيجة تردّي الأوضاع السياسية بها⁴، لكن ومن خلال تتبعنا لبعض الإشارات الواردة في المادة المصدرية للحواضر الشمالية للمغرب الأوسط تبين لنا وجود علاقات علمية تمثّلت في تلك الجموع من العلماء والشيخوخ والصالحاء الذين يمتّوا وجوههم شطر إقليم "توات" رغبة أو رهبة، فيما سُمّي بـ "الوفادة العلمية" التي أشارت إليها المصادر نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع الهجري، خاصّة لما عُرف عن أهل توات من تكريم للغرباء، وتبجيل لأهل العلم لا سيما العلوم الدينية، كما شهد بذلك الرحالة الألماني "جيرهارد رولف" في قوله: "إنّهم قوم يحبّون الغرباء ويحترمون رجال الدين"⁵. ومن أبرز العلماء والفقهاء الذين دخلوا المنطقة وساهموا في وضع قواعد المدرسة المالكية بالمنطقة نذكر:

- الشيخ أبو داود سليمان بن علي بن عمر الإدريسي، المولود بالمغرب الأقصى سنة 546هـ/1251م⁶، والذي ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب و فاطمة الزهراء، تتلمذ على يد الشيخ علي بن حرزهم، وهو الذي أمره بشدّ الرحال إلى توات، فوصلها سنة 580هـ/1184م، ليستقر بمنطقة "أولاد وشن" سنة 595هـ/1199م أين

¹ - ابن بابا حيدة: المصدر السابق، ص40.

² - عبد الكريم عباس، الخفاجي: الصلات التجارية بين المغرب و السودان الغربي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، مج01، ع04، سبتمبر/أيلول 2010م، ص47، 48.

³ - الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز (ت1031هـ): مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح عبد الكريم كريم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية و الثقافة، المغرب، ص74.

⁴ - لمعرفة المزيد عن الأوضاع السياسية بإقليم توات قبل ق8هـ، ينظر زينب سالمي: الحياة العلمية بمنطقة توات خلال ق8 و9هـ، مجلّة الحكمة للدراسات التاريخية، الجزائر، مج05، ع12، ديسمبر 2017م، ص144.

⁵ - Gerhard Rolfs: Voyages et exploration au sahara, Draa, Tafilelet, sud orenais, tout tidikelt, 1861-1864, P204.

⁶ - أحمد أبّا الصافي، جعفري: من تاريخ توات، أبحاث في التراث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 2009م، ص41.

أسس زاويته التي كانت مدرسة للعلم و ملجأ للغرباء و عابري السبيل، و كانت له فيها خزانة عامرة بالمخطوطات، يقال أنه أول من أدخل رسالة ابن أبي زيد القيرواني إلى المنطقة، كما عُرف إلى جانب العلم بالزهد و التبتل، فكان صاحب آيات و كرامات، له منزلة عظيمة في النفوس، توفي سنة 670هـ و قبره أحد المزارات¹.
— القاضي عيسى بن محمد البطوي (ت بعد 714هـ/1314م): لم تذكر المصادر تاريخ و مكان مولده بالضبط، كما لم تسعفنا بتاريخ وفاته، غير أنه نزل توات في حدود سنة 714هـ/1314م، و يذكر أنه كان عالما فاضلا تقيا ورعا، مشهود له بأخلاقه المحمودة، لذلك اختير لأن يكون قاضي الجماعة بتمنيط، فأحسن السيرة، و قضى بينهم بالعدل و الإنصاف².

ولقد نالت العاصمة تمنيط النصيب الأوفر و الدور الريادي العلمي، فقد أصبحت مع مطلع القرن الثامن الهجري تمثل مركزا إشعاعيا هاما، حيث وصفها صاحب القول البسيط بقوله: "واعلم أن تمنيط اسم لمدينة في إقليم توات، و بها قاعدة اجتمع فيها العلم و الإمارة و الديانة و الرياسة... و كاد لا يستغني عنها غني و لا زاهد لما فيها من الدين و البركات و المنافع و الحاجات، فهي مورد الركبان و محشر العريان و رئيسة البلدان..."، ثم ازدادت شهرتها في القرن التاسع الهجري لوفود عدد كبير من العلماء بها، ممن يرجع إليهم الفضل في وضع اللبنة الأولى للمدرسة المالكية بالمنطقة، و من الأسماء التي أفصحت عنها المصادر نذكر محمد المنياري (ت 840هـ/1437م)³، ميمون بن عمرو بن محمد الباز (ت 872هـ/1468م)⁴، يحيى بن يدير

¹ - بوكرابلية الزهرة: البيوتات العلمية بإقليم توات ما بين ق7-11هـ/13-17م، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر، 2018/2017م، ص78.

² - عبد الحميد البكري: النبذة في تاريخ توات و أعلامها من ق9هـ إلى ق14هـ، دار الغرب للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 2007م، ص80.
³ - محمد المنياري: هو أبو يحيى محمد بن محمد المنياري، نسبة إلى بني منيار، وفد على توات سنة 815هـ، و عرف بالصلاح و النبوغ في العلم، تولى قضاء الجماعة و بقي به إلى أن وافته المنية سنة 840هـ، للمزيد ينظر ابن بابا حيدا: المصدر السابق، ص12. إبراهيم بلالي: التأثير الثقافي و الفكري لحاضرة تلمسان على توات في القرن 9هـ من خلال نوازل الونشريسي، الملتقى الوطني الأول حول العلاقات الحضارية بين إقليم توات و حواضر الغرب الاسلامي، أدرار، 2009م، ص226.

⁴ - ميمون بن عمرو الباز: هو عمر بن محمد بن عمرو بن عمار الباز، قدم إلى إقليم توات سنة 809هـ فارا بدينه و علمه من ملوك المغرب الأقصى، و معه ولديه الشيخ ميمون، و الشيخ التهامي، يعود نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، و إليه تنتسب "الأسرة البكرية" أحد أكبر بيوتات العلم بتوات، كما ينسب إليه إدخال مختصر خليل إلى إقليم توات، ينظر بوكرابلية الزهرة: المرجع السابق، ص76. تقرووت عبد الرؤوف: دور علماء مالكية المغرب الأوسط في التمكين الحضاري و الثقافي في بلاد السودان الغربي من نهاية القرون الوسطى إلى بداية العصر الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة الوادي، الجزائر، 2023/2022م، ص149.

التادلسي (ت877هـ/1472م)¹، عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1504م)²، عبد الله العصنوني (ت927هـ/1521م)³،

د . التواصل الفقهي بين أعلام المدرسة الزيدانية والمدرسة الحفصية:

بالرغم من أنّ الحواضر الشرقية للمغرب الأوسط كانت تحت النفوذ الحفصي بينما كانت الحواضر الغربية خاضعة للدولة الزيدانية، إلا أنّ ذلك لم يكن مانعا من تنقل الفقهاء وتبادل الزيارات والأفكار لا سيما بين الحواضر الفقهية الكبرى، بل كانوا يتقلدون الخطط والمناصب ويعقدون المناظرات ويقومون بالتدريس والخطابة إذا

¹ - يحيى بن يدير: هو أبو زكريا يحيى بن يدير (بدير) بن عتيق التادلسي التلمساني، وفد على إقليم توات بين 840 و845هـ، تولّى قضاءها و جلس على كرسي التعليم بها، و كان عالما مفوها في الفقه المالكي، تعلّم على يديه الكثير منهم الشيخ عبد الله العصنوني و الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، توفي سنة 877هـ، واختلف في مكان وفاته و دفنه، و الأرحح أنه توفي بقسنطينة و بها دفن، للمزيد ينظر ابن القاضي، أبو العباس أحمد الكناسي (ت960هـ): **درة الحجال في أسماء الرجال**، تح محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، مصر، ج3، ص336. التنبكي: المصدر السابق، ص637.

² - محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909هـ/1504م): هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، نسبة إلى قبيلة "مغيلة" البربرية، ولد بأحواز تلمسان من عائلة علم و صلاح على اختلاف بين المؤرخين في تاريخ مولده، و الأرحح أنّه في عشرينيات القرن التاسع الهجري (820-830هـ)، تلقّى علومه الأولى على يد علماء عائلته بتلمسان كالشيخ موسى بن يحيى المغيلي قاضي مازونة، و الشيخ المغيلي الجلاب... ثمّ انتقل إلى بجاية و أخذ عن علمائها كالشيخ أبي زيد الوغليسي، و منها سافر إلى مدينة الجزائر و أخذ عن عالمها الشيخ عبد الرحمان الثعالبي علوم الحديث و التفسير و القراءات، و لما رأى فيه من صلاح و ذكاء زوجّه ابنته و أشار عليه بالتوجه إلى توات و نشر تعاليم المذهب المالكي بها، فتوجّه إلى توات آخذا بنصيحة شيخه الثعالبي، و اختلف المؤرخون في تاريخ وصوله إليها، و الأرحح أنّها في سبعينيات القرن التاسع الهجري (870-880هـ)، فجلس للاستزادة من قاضيه يحيى بن يدير التلمساني، واستقرّ بها مدرّسا و مفتيا و مصلحا، فترك بها أثرا بارزا، ثمّ زار بلاد السودان واجتمع بسلطان "كانو" و كتب له رسالة في أمور السلطنة، و منها ارتحل إلى بلاد "تكور" لنشر تعاليم الدين الاسلامي، وتوفّي على الأرحح سنة 909هـ و دفن بتوات، خلفا وراءه تأليف غزيرة في شتى ضروب المعرفة، و لعلّ أهمّ ما اشتهر به من أدوار إصلاحية تمثّلت في محاربه ليهود توات بعد أن عمّ فسادهم و تمردوا عن أحكام أهل الذمة و رفضوا دفع الجزية، و صنّف في ذلك مؤلّفه الشهير "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" و أرسله إلى علماء الغرب الاسلامي لتدعيم رأيه، أنّى عليه معاصره جلال الدين السيوطي رغم مخالفته له في علم المنطق بقوله: ((سلام على هذا الإمام فكم له...لدي ثناء واعتراف بفضله))، كما أنّى عليه جميع من ترجم له اعترافا بفضله و علمه، كابن عسكرك الذي حلّاه بالفقيه الصدر الأوحد، و التنبكي الذي وصفه بخاتمة المحققين و غيرهما، للمزيد عن حياته و مؤلفاته ينظر ابن عسكرك، محمد الحسني الشفشاوني: **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تح محمد حجي، دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، المغرب، ط2، 1397هـ/1977م، ص130. التنبكي: نيل الابتهاج، ص576. ابن مريم: البستان، ص253. عادل نويهض: المرجع السابق، ص308. مصطفى الحكيم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، معالم من رؤيته الدينية و السياسية، مجلة المنهل، جامعة الوادي، الجزائر، ع04، س03، 2017م، ص172 و ما بعدها.

³ - عبد الله العصنوني (ت927هـ/1521م): هو عبد الله بن أبي بكر بن عثمان بن أبي بكر العصنوني، يرجع نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب و فاطمة الزهراء، و تعدّ عائلتهم من بيوتات العلم التلمسانية التي ساهمت في تنشيط الحياة الثقافية بإقليم توات، لم تسعنا المصادر بتاريخ ميلاده بالضبط، كما اختلفت في تاريخ نزوله مع أخيه إلى إقليم توات، و الأكيد أنّه نزّلها قبل 877هـ تاريخ وفاة قاضيه يحيى بن يدير، لأنّه كان يحضر حلقات درسه ثمّ تولّى قضاء تمطيط بعد وفاته، و بقي بهذا المنصب حتّى سنة 914هـ حيث سلّمه لابن أخيه، واشتهر بمخالفة المغيلي في نازلة يهود توات، أمّا وفاته فكانت سنة 927هـ. للمزيد ينظر الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت914هـ): **المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب**، تح محمد حجي، وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م، ص214 و ما بعدها. بوكرايلية الزهرة: المرجع السابق، ص86. المهدي البوعبدلي: المرجع السابق، ص81.

اقتضت الحاجة لذلك، فهذا الفقيه المتحدث أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف المكّي بأبي فارس (ت686هـ/1287م) وُلد بتلمسان وبها نشأ وتعلّم، ثمّ انتقل إلى حاضرة بجاية فأخذ عن شيوخها من العلوم النقلية والعقلية، والتقى بجملة من فضلائها، كأبي الحسن الحرالي وأبي العباس الملياني وغيرهم، وصفه الغبريني بأنّه خزنة مالك، وقال قرأت عليه الجلاب، وحضرت دروسه وسمعت منه كثيرا، أُسند إليه قضاء الأنكحة ببجاية ثمّ غادرها إلى بسكرة و تولّى قضاءها، ثمّ إلى قسنطينة التي تولّى بها منصب القضاء كذلك، وتوفي بالجزائر سنة ستة وثمانين وستمائة¹، أمّا فقيه تلمسان وقاضيتها الشهير سعيد العقباني (ت811هـ/1408م) فقد أفاد بخبرته في القضاء كثيرا من حواضر المغرب الأوسط والأقصى، إذ تذكر المصادر أنّ له في ولاية القضاء ما يزيد عن أربعين سنة متنقلا بين بجاية ووهران وتلمسان ومراكش و سلا².

خلاصة الفصل:

أبانت المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن الهجريين عن عدّة تغيّرات وتطوّرات جوهرية، يمكن حصر أهمّها في النقاط التالية:

1. من أبرز ملامح المدرسة المالكية نهاية العصر الموحّدي انتشار المصنّفات الأصولية وكتب التصوّف والعقيدة الأشعرية ككتب أبي حامد الغزالي (ت505هـ/1111م)، والإمام الجويني (ت487هـ/1094م) وغيرها، وهي المؤلفات التي ساهم ولّاة الموحّدين في الترويج لها من خلال الدعوة إلى التحرر واستخدام الحجج العقلية والتفكير المنطقي، كما ساهم في ذلك نزول القطب أبي مدين شعيب ومكوته خمس عشرة سنة ببجاية يدرّس الفقه والتصوّف، لذلك فقد ميّزنا في هذه الفترة صنفين من الفقهاء، صنف ساير الطرح الموحّدي وصنف ثان تشبّث بمالكه وكتب الفروع، أمّا عن المنشآت التعليمية فقد سجّلنا انتشارا واسعا للمساجد والجوامع لاسيما بالحواضر الكبرى، ذلك ما أشار إليه —مثلا— الفقيه أبو بكر الزواوي بقوله "ما من ناحية ببجاية إلّا وبها مسجد ومعلّم"، إضافة إلى التعليم في البيوت والحوانيت والكتاتيب والزوايا.

2. من أهمّ ما ميّز المدرسة المالكية الحفصية ببجاية والحواضر الشرقية هو فتحها الباب على مصرعيه لتيّاري الاجتهاد الذي دعا إليه الموحّدون، وتيّار التقليد والتشبّث بعلم الفروع الذي نادى به المرابطون والحماديون— بدرجة أقل— من قبل، غير أنّ هذا التوجّه سرعان ما تحوّل لصالح التيّار الثاني بإيعاز من السلاطين والولّاة الحفصيين الذين أعطوا المكانة الأولى لتدريس الفقه طبق المذهب المالكي آخذين بأيدي الفقهاء حتّا وتشجيعا على تدريس الموطأ وأمّهات كتب الفقه المالكي خاصّة بعد إنشائهم للمدارس الرسمية، كما سجّلنا استمرار التوجّه

¹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص63.

² - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص237.

الصوفي المدني لدى أعلام وتلاميذ المدرسة المالكية الحفصية، تجلّى ذلك في المصنّفات التي جمعت بين الرقائق والفقه كالمقدّمة الوغليسية ، أو في تأسيس الزوايا كالزاوية المالارية.

3. شهدت المدرسة المالكية بالحوضر الكبرى للمغرب الأوسط خلال المائتين السابعة والثامنة بروز عدّة عائلات وبيوتات اشتهرت بتفوّقها ونبوغها في العلوم النقلية، واشتهر منها العديد من الفقهاء والأصوليين الذين تصدرّوا للتدريس والإفتاء والقضاء، وغيرها من الخطط الدينية، ولعلّ من أبرزها عائلة المشذليين و المنجلايين ببجاية، وبيت آل القنفذ والبيت الباديبي بقسنطينة، أمّا بتلمسان فقد اشتهر بيت المرازقة وبيت المقرري وبيت العقباني وغيرها.

4. عرفت المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط -نهاية المائة السابعة وبداية المائة الثامنة- حدثين هامّين، ساهما في تطوّرها، إن من حيث المناهج، أو من حيث المنشآت التعليمية، أمّا الحدث الأوّل فهو دخول مختصر ابن الحاجب -الفرعي- إلى بجاية، ومنها إلى حواضر المغرب الأوسط، واعتكاف الفقهاء على قراءته وحفظه ومدارسة مسأله في حلق العلم، فكانت أغلب مؤلفاتهم في المائة الثامنة شروحا وتعليقات وحواشي وإملاءات عليه، وأمّا الحدث الثاني فهو انتشار المدارس النظامية وإنشاء المكتبات وتوفير الكتب ووقوف السلاطين والولاة -لاسيما الزيانيين- على صناعتها تأليفا ونسخا وجمعا، واستقطاب الفقهاء لتثيبت وترسيخ مبادئ المذهب المالكي.

الفصل الثالث

المدرسة المالكية بالمغرب

الأوسط

(الخصائص والمميزات)

تمهيد:

عالج لفيف من الباحثين الظروف والعوامل التي ساعدت على تأسيس مدرسة مالكية بالمغرب الأوسط، أو بالأحرى الأسباب التي مكّنت للمذهب المالكي بهذا المجال الفسيح، وحصرت أغلب هذه الدراسات جُلّ العوامل في الرحلة إلى الحواضر الإسلامية المشرقية والمغربية، إضافة إلى دعم الأمراء والسلاطين من جهة، ثمّ تقديس ساكنة المغرب الأوسط لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبجيل إمامها من جهة أخرى، غير أنّها أحجمت في ذات الوقت عن إبراز السمات التي ميّزت هذه المدرسة والخصائص التي خُصّصت بها، لذا أردت أن أتجاوز هذه العوامل الروتينية المستهلكة، وأتناول الموضوع من زاوية أخرى باحثاً عن أهمّ الخصائص والمميزات التي اشتهرت بها المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط في مجال التدريس والتصنيف والإفتاء وغيرها، فبدأ لي منها مايلي:

أولاً: الانفتاح والتواصل مع المدارس الفقهية المجاورة

مما لا شكّ فيه أن دراسة المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط لا يمكن أن يكون بمعزل عن دراسة وإبراز الصّلات الخارجية التي ساهمت في تحديد اتجاهاتها الفقهية وتوجيه الدراسات المتعلقة بالفقه، ويبدو جلياً في هذا المجال تأثير المدرسة الإفريقية التي كان للقيروان قصب السبق في التأسيس لها في مرحلة أولى، ثم حاضرة "تونس" التي برزت -في مرحلة ثانية- كمنارة علمية استقطبت العديد من الفقهاء، كما يظهر لنا في الضفّة الأخرى أثر المدرسة المالكية الأندلسية التي عُرفت بالاستقلالية عن باقي المدارس، وساهم في إرساء معالمها طبقة مميزة من الفقهاء الذين تتلمذوا للإمام مالك، وساهموا عن طريق مؤلفاتهم الفقهية في دعم الحركة الفقهية بالمغرب الإسلامي عموماً والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، ساعدها في ذلك حركة الارتحال والنزوح والهجرات التي عرفت الأندلس على فترات متعددة وكانت موانئ المغرب الأوسط الوجهة المفضلة لهذه النخب المالكية الأندلسية التي حملت معها المؤلفات والمصنفات الفقهية، لتفرض لنفسها مكاناً ضمن حلقات العلم والدرس بالمغرب الأوسط، وهي ذات المكانة التي تبوّأتها -في مرحلة متأخرة- المدرسة المالكية المصرية التي شكّلت خزاناً للنخب الفقهية المالكية، وإليهم كانت رحلات طلبة العلم المغاربة للقراءة والتحصيل وأخذ الإجازة والحصول على السند العالي.

1. أثر المدرسة المالكية الإفريقية :

تعتبر المجالات الشرقية للمغرب الأوسط -منذ القرون الهجرية الأولى- امتداداً جغرافياً وطبيعياً للمغرب الأدنى، فحدود إفريقية -على حدّ رواية سحنون- من إطرابلس إلى طبنة¹، ولما كانت القيروان آنذاك تمثّل المرجعية الدينية لبلاد المغرب الإسلامي قاطبة، وهي المنارة الأولى التي انطلق اشعاعها نحو باقي حواضر المغرب، فلا غرابة أن

¹ - ينظر الداودي: كتاب الأموال، مصدر سابق، ص 79.

نجد أبناء المغرب الأوسط يقصدونها للترؤد بالعلوم والمعارف والتلقي عن علمائها فضلا عن المشاركة في الحياة الفكرية والعلمية بها¹، خاصة خلال القرن المجري الثاني (8م) حيث كانت هذه الأخيرة بمثابة مركز الثقل العلمي لبلاد المغرب، والعاصمة السياسية الممثلة للخلافة العباسية في بغداد من جهة، إضافة إلى الرمزية الدينية التي اكتسبتها هذه المدينة، والراجعة بالأساس إلى الأعداد الهامة من الصحابة والتابعين الذين وفدوا عليها².

لقد انعكس الازدهار الذي شهدته الدراسات الفقهية بالقيروان على كافة الحواضر المغربية وبالأخص حواضر المغرب الأوسط، فكانت الكتب والمؤلفات بل حتى المناظرات التي تقع هناك تجد طريقها إلى حلق الدرس بالمغرب الأوسط، ولاشك أن القرب الجغرافي إضافة إلى توسّط حواضره بين المغربين، ووقوعها ضمن المسالك التجارية المؤدية إلى بلاد السودان، كان العامل الأساس في انتقال فقه المدرسة المالكية القيروانية، ورواج مصنفاتها بمجالاته.

ورغم أسبقية علي بن زياد (ت183هـ/799م) في الأخذ عن الإمام مالك، وإدخال موطنه إلى إفريقية³، إلا أن أغلب النصوص التاريخية تذهب إلى أن التمكين للمذهب المالكي بإفريقية راجع بالأساس إلى أعمال تلميذه الفقيه سحنون بن سعيد التنوخي (ت240هـ/854م)، وأنه واضع أول لبنة في صرح المدرسة المالكية القيروانية، تمثّل ذلك في جهوده التي ارتكزت أساسا على ركيزتين اثنتين، أولاهما حزمه وصرامته تجاه المخالفين وثانيهما إسهامه في حركة التأليف ومحاولته توحيد المقررات الفقهية، فأما الركيزة الأولى فشفيغنا فيها ما أورده الدباغ والقاضي عياض من محاربته وتفريقه لأهل البدع والأهواء من الإباضية والصفوية والمعتزلة بعد أن كانوا حلّقا يتناظرون في الجامع ويظهرون بدعهم فيه، ومنعهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين لصبيانهم أو مؤذنين و"أمرهم أن لا يجتمعوا، وأدّب جماعة منهم بعد أن خالفوا أمره، وأطافهم وتوبّ جماعة منهم فكان يقيم من أظهر التوبة منهم على المنبر وغيره فيعلن بتوبته عن بدعته"⁴، وأما الركيزة الثانية فتمثّلت في مساهمته في التأليف الفقهي من خلال كتابه المشهور "المدونة" التي جمع فيها الآراء الفقهية للإمام مالك، قال عنه الشيرازي: "وصنّف المدونة وعليها يعتمد أهل القيروان، وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك، وعنه انتشر علم مالك بالمغرب"⁵.

¹ - محمد، محمد زيتون: القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1988م، ص432.

² - ترجم الدباغ في معالمة لثلاثين صحابيا من كبار الصحابة الذين دخلوا القيروان، أما عن صغار الصحابة الذين وُلدوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يروه، فقد أحصى منهم اثنا عشر صحابيا دخلوا القيروان، ينظر الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج1، ص33 وما بعدها.

³ - ينظر المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج1، ص234.

⁴ - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص60. الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص87.

⁵ - ينظر الشيرازي: طبقات الفقهاء، مصدر سابق، ص157.

ويتجلى تأثير مدرسة سحنون في المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط بدءاً بتلاميذه الذين صحبوه وأخذوا عنه ولزموا حلقة التي كانت تُعَصَّ بالطَّالِب من شتَّى الأصقاع، و الذين قال فيهم القاضي عياض: "ما بورك لأحد بعد أصحاب الرسول الله صلى الله عليه وسلم ما بورك لسحنون في أصحابه، إنهم في كل بلدة أئمة"¹، وزكاهم ابن الحارث فيما نقله عنه الدبَّاغ بقوله: "كأنَّ أصحابه مصابيح، عُدَّ له في كل بلدة نحو سبعمائة رجل ظهوروا بصحبته وانتفعوا بمجالسته"²، لذلك قد لا نجانب الصَّواب إن قلنا أنَّ تلامذته من المغرب الأوسط أكثر من أن يختصرهم الباحثون في إسحاق بن عبد الملك الملبشوي، الذي لقي سحنون سنة 226هـ/841م³، وبكر بن حماد التاهري، الذي أخذ عن سحنون بالقيروان سنة 239هـ/853م⁴، كما أنَّه من البديهي أن تكون مدوَّنته حاضرة بجواضره، وتمَّ تداولها في حياة مؤلِّفها، كيف لا، و قد كانت هي المرجعية التي حوت ما يناهز الأربعين ألف مسألة⁵ جُمعت فيها آراء أقطاب المذهب مرتَّبة و مَبَّوَّبة ما جعلها تتفوق على المؤلَّفات الفقهية التي تزامنت معها كالأسدية والواضحة والعنينة....، فقال عنها الشيرازي: "واقصر الناس على التفقه في كتب (مدوَّنة) سحنون...وهي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها، عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم، وبها مناظرهم ومذاكرتهم، ونُسيت الأسدية فلا ذكر لها الآن"⁶، بل قال فيها مؤلِّفها: "إنَّما المدوَّنة من العلم بمنزلة أمَّ القرآن، تُجزئ في الصلاة عن غيرها، ولا يجزئ غيرها عنها"⁷، وهو ما لمسناه فعلاً عند تتبُّع النصوص المصدرية التي تتناول المدوَّنة في حلق العلم بالمغرب الأوسط مدارس وحفظاً وتألِيفاً⁸.

أمَّا في العهد الفاطمي فقد برز جيل آخر من فقهاء المدرسة المالكية الإفريقية⁹ يتصدَّروهم ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م) الذي حاز الرئاسة في الفقه وإليه انتهت رحلة المغاربة، فكان يُلقَّب بمالك الصغير،

¹ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص74.

² - الدبَّاغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج2، ص98.

³ - أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص98.

⁴ - عبد الرحمان الجليلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص241، 242.

⁵ - ينظر بشير ضيف: مصادر الفقه المالكي أصولاً وفروعاً في المشرق والمغرب قديماً و حديثاً، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ/2008م، ص43.

⁶ - ينظر الشيرازي: طبقات الفقهاء، مصدر سابق، ص156. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص300.

⁷ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص300.

⁸ - أشرنا إلى ذلك في الفصل الثاني عند حديثنا عن "أعلام المدرسة المالكية في الحواضر الحمادية"، كما تعرَّضنا إليه في الفصل الثالث تحت عنوان "المدرسة المالكية ببجاية الحفصية".

⁹ - من أشهر أعلام المدرسة المالكية الإفريقية في العهد الفاطمي: ابن اللبَّاد (ت333هـ)، ابن سعيد بن الحداد (ت بعد 320هـ)، الممسي (ت333هـ)، أبو العرب (ت333هـ)، ربيع القطَّان (ت334هـ)، الإبياني (ت352هـ)، القلانسي (ت359هـ)... وغيرهم، للمزيد ينظر المهادي روجيه إدريس: الدولة الصنهاجية، مرجع سابق، ج2، ص330، 331.

يشهد على ذلك ما بذله من جهد في جمع الفقه المالكي وترتيبه وتبويبه ونشره في الأوساط الشعبية¹، وفي ذلك يقول القاضي عياض: "له كتاب النواذر والزيادات على المدونة، مشهور. أزيد من مائة جزء. وكتاب مختصر المدونة، مشهور، وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب في التفقه، وكتاب الاقتداء بأهل السنة، وكتاب الذب عن مذهب مالك، وكتاب الرسالة، مشهور...²"، هذه المؤلفات التي لقيت رواجاً بشي حواضر العالم الاسلامي، حيث يذكر لنا الدبّاغ أنّ مؤلفه "الرسالة" بلغت شهرته العراق، و اليمن و الحجاز...³، فكيف لا يذيع صيتها في في بلاد المغرب الأوسط، كما تمثّلت جهود ابن أبي زيد القيرواني في تلاميذه⁴ الذين أكملوا مسيرته في إرساء و ترسيخ قواعد المذهب -تدريسا و تأليفا- رغم التضيق الفاطمي، ولعلّ من أشهرهم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بالبراذعي(ت بعد372هـ/982م) صاحب كتاب "التهذيب" الذي نال شهرة واسعة وكان ضمن المقررات الفقهية بحواضر المغرب الأوسط⁵، ثمّ تواصل عطاء المدرسة الإفريقية وتأثيرها على مدرسة المغرب الأوسط الأوسط ببرز الفقيه اللخمي(ت498هـ/1105م)⁶ بمؤلفاته وتلاميذه كالإمام المازري(ت536هـ/1142م)⁷ الذي فاق معلّمه شهرة، لنبوغه وتأليفه في الأصلين، أصول الفقه و أصول الدين⁸، وكان ممّن أخذ عنهما من فقهاء المغرب الأوسط أبو الفضل بن النّحوي(ت513هـ/1119م)⁹.

¹ - عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، مرجع سابق، ص133.

² - أحصى له القاضي عياض في مداركه حوالي ثلاثين مصتفا في شتى فروع العلوم النقليّة، ينظر: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج6، ص217، 218.

³ - الدبّاغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص138.

⁴ - لم تشر المصادر -صرّاحة- إلى أسماء تلامذته من المغرب الأوسط، عدا ما ذكره صاحب "الصلة" من أنّ عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الوهراني كانت له رواية واسعة عن شيوخ إفريقية كأبي محمد ابن أبي زيد ونظرائه. للمزيد ينظر ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص287. عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص360. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص349.

⁵ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص197.

⁶ - أبو الحسن اللخمي(ت478هـ/1085م): هو أبو الحسن علي بن محمد الربيعي المشهور باللخمي، أصله من القيروان و نزل صفاقس، تفقه بآب محرز و السيوري، و أخذ عنه المازري و ابن النحوي و غيرهم، كان حسن الفقه جيد الفهم، حاز رئاسة بلاد إفريقية في وقته، و له تعليق على المدوّنة سماه "التبصرة" له فيه خيارات واجتهادات خارجة عن قواعد المذهب، توفيّ و قُبر بصفاقس سنة478هـ. للمزيد ينظر الدبّاغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص199. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص173.

⁷ - نسبة إلى مازر: أو "مازرة" بفتح الزاي، مدينة على الساحل الجنوبي من جزيرة "صقلية"، و هي أول بلدة افتتحها الجيش الأغلي بقيادة "أسد بن الفرات" سنة212هـ، وكانت -كذلك- آخر معقل للإسلام هناك، حيث سقطت على يد "روجار" ملك النورمان سنة464هـ، للمزيد ينظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج5، ص40. حسن حسني عبد الوهاب: الإمام المازري، مرجع سابق، ص49.

⁸ - ينظر الهادي روجيه إدريس: الدولة الصنهاجية، مرجع سابق، ج2، ص348.

⁹ - ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص622.

ورغم ما شهدته فقهاء المالكية من تضيق في العهد الموحد، إلا أنّ المذهب المالكي بقي متجذراً في الأوساط الشعبية بإفريقية، وظلّ يُنظر للمذهب الموحد نظرة الغريب¹، واستمرت المدرسة المالكية الإفريقية في إنجاب وتكوين النخب الفقهية في العهد الحفصي الذي باتت فيه الحاضرة "تونس" عاصمة مالكية بامتياز، وغداً مسجدها "الزيتونة" منارة دينية ومركزاً تعليمياً يقصده الطلبة ويؤمّه الفقهاء، وبرز فيه من الفقهاء مفتيها وقاضيها الشيخ محمد بن عبد السلام التونسي (ت749هـ/1348م)²، وتلميذه ابن عرفة الورغمي (ت803هـ/1401م) الذي كان على حدّ قول السخاوي "أفقه أهل المغرب"³، تفرّد بشيخوخة العلم والفتوى، وله التصانيف الغزيرة⁴ والفضائل العديدة، تتلمذ عليه الكثير من فقهاء المغرب الأوسط منهم ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) الذي قرأ عليه مختصره، و"أنعم بمناولته وإجازته، وذلك سنة سبع وسبعين بدويرة جامع الزيتونة"⁵، ومنهم محمد بن عبد الرحمان البوني المراكشي (ت807هـ/1405م)⁶، وأبو عبد الله الشريف (ت771هـ/1370م)....، وغيرهم ممّن ارتحلوا إلى تونس ونهلوا من معين أعلام مدرسة الزيتونة التي كان "ابن عرفة" يتصدّر مجالسها.

وصفوة القول أنّ المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط تأثّرت منذ القرون الأولى بالمدرسة المالكية الإفريقية، أو بالأحرى المدرسة القيروانية التي اتّسمت بالجمود والانصياع التام لفقه المدينة في عهد زعيمها "سحنون"، واستمرّ التواصل في الفترة الأغلبية ثمّ الفاطمية والتي تميّزت بالجدل والمناظرة، وبرز فيها "ابن أبي زيد القيرواني" بمؤلّفاته التي بدا فيها المزج بين التوجّه النقلي والعقلي في التعاطي مع القضايا الفقهية، ثمّ زاد هذا التوجّه وضوحاً في مؤلّف

¹ ينظر روبر بارانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، مرجع سابق، ج2، ص301.

² بن عبد السلام التونسي (ت749هـ/1348م): هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير الهواري التونسي، قاضي الجماعة بها وعلّامتها، مجدد الحركة الفقهية، وشيخ الجيل الآتي بعده، وُلد ونشأ وتعلّم بتونس، ولم تحلنا المصادر إلى تاريخ مولده، تولّى التدريس والفتوى، فكان من أشهر تلاميذه ابن عرفة و عبد الرحمان بن خلدون، وله من التآليف شرح على مختصر ابن الحاجب، ذكر ابن فرحون أنّه أحسن شروحه، و ذكر محمد مخلوف أنّه بالنسبة للشروح الأخرى كالعين من الحاجب، توفيّ سنة 749هـ بالطاعون الجارف، وكان حينها يشغل قاضي الجماعة التي تولّاها سنة 734هـ. للمزيد ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص336. الحجوي: الفكر السامي، مصدر سابق، ج2، ص283. ابن قنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص354. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص301.

³ ينظر السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج9، ص242.

⁴ من مؤلّفاته: المختصر في الفقه، كتاب "التنبيهات" على الكتب المدوّنة في الفقه، و "الحدود" في التعريفات الفقهية، و شرح مختصر ابن الحاجب، و "المختصر الشامل في التوحيد"... ينظر ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ج2، ص332. أحلام صالح وهب: ابن عرفة الورغمي التونسي، دراسة في سيرته و علومه الشرعية، مجلّة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، مج6، ع04، ص178 و ما بعدها.

⁵ ينظر ابن قنفذ القسنطيني: الوفيات، مصدر سابق، ص380.

⁶ محمد بن عبد الرحمان الضرير: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيد الضرير، المراكشي مولداً، القسنطيني نشأة، البوني وفاة، أديب من فقهاء المالكية المفتين العارفين بالحدّث. له نظم جيد وأراجيز، وُلد كفيفا بمراكش في جمادى الآخرة سنة 739هـ، وسكن قسنطينة وقرأ على علمائها، وورد تونس، وأملّى كتباً، منها "إسماع الصم في إثبات الشرف من جهة الأم"، و توفيّ ببونة سنة 807هـ. للمزيد ينظر السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج8، ص48. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ج6، ص193.

الإمام "المازري" الموسوم بـ "المعين على التلقين" الذي شرح فيه كتاب "التلقين" للقاضي عبد الوهاب، فجمع فيه بين الأقوال الواردة في أمّهات الكتب كالمُدَوَّنَة والواضحة مع التأصيل لها بالدليل من الكتاب والسنة والقياس، وكان من ثمرات هذا التوجه تلميذه أبو الفضل بن النحوي الذي كان معارضا للتوجه التقليدي، ميّالا للتّيار الاجتهادي الأصولي¹.

2. المدرسة المالكية الأندلسية: التأثير و التّأثر

تجلّت بالأندلس -ومنذ القرن الثاني هجري (8م)- ملامح مدرسة مالكية تميزت عن باقي مدارس الفقه المالكي الأخرى، مدرسة قائمة على التوجه الحديثي الأثري المدني، المخالف لنظيره المبني على الرأي و القياس، وكما هو معلوم فإنّ الأندلسيين ورثوا هذا التوجه عن المدرسة الأوزاعية التي ساروا على مذهبها زماناً²، قبل أن يتحوّلوا إلى المذهب المالكي الذي حمل لواءه جيل من الفقهاء ممّن تتلمذوا للإمام مالك و عادوا برصيد فقهي وفير مكّنهم من تصدّر حلق العلم تدريسا وتأليفا وفتيا، فكان في مقدّمهم زياد بن عبد الرحمان (ت193هـ/809م) وتلميذه يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ/849م) الذي تُعدّ روايته للموطأ من أشهر وأوسع الروايات³، وهو الذي كانت له اليد الطولى في ترسيخ المذهب المالكي وتشييته بالأندلس⁴، كما ساهمت الأجيال المتعاقبة في حركة التأليف الفقهي الفقهي التي كان لها الدور الكبير في إرساء قواعد المذهب، بدايةً بعبد الملك بن حبيب (ت238هـ/852م) مؤلّف "الواضحة"، وتلميذه أبي عبد الله العتيبي (ت255هـ/869م) جامع "المستخرجة"، إلى ابن عبد البر (ت463هـ/1071م) صاحب الانتاج الفقهي الغزير، وأبي الوليد الباجي (ت474هـ/1081م) المشهود له بالفقه والحفظ وقوة المناظرة، ثمّ ابن رشد (ت520هـ/1126م) زعيم فقهاء وقته، والحفيد (ت594هـ/1198م) صاحب "بداية المجتهد"، إلى ابن العربي (ت543هـ/1148م) الفقيه الرحالة، الجامع بين السياسة والعلم، وصولاً إلى أعلام القرن الثامن الهجري (14م) كابن جزري الغرناطي (ت741هـ/1341م) مؤلّف كتاب "القوانين الفقهية"، وأبي إسحاق الشاطبي (ت790هـ/1388م) صاحب "الموافقات"، وغيرهم من أساطين الفقه المالكي الذين شكّلوا بمؤلّفاتهم معينا خصبا وموردا هاما أساسيا لازدهار الدرس الفقهي بحواضر الأندلس.

¹ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص300.

² - ينظر أنجلبالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، تر حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، د ت، ص413، 414.

³ - ينظر مصطفى الهروس: المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، مرجع سابق، ص370.

⁴ - ينظر عبد الهادي الحسيّن: دخول المذهب المالكي إلى بلاد الغرب الاسلامي، أسباب ذبوعه وانتشاره، مجلّة دار الحديث الحسنية، المغرب، ع03، س1982م، ص533.

ولقد كان لطلبة العلم و فقهاء المغرب الأوسط الحظ الأوفر للنهل من هذا المعين منذ القرون الأولى، لا سيما أولئك المنتسبين للمراسي و الحواضر الغربية القريبة منه، فقد حدّثتنا المصادر عن كثيرٍ من تلك النماذج التي هاجرت أو هُجّرت إلى الحواضر الأندلسية وأخذوا عن علمائها وسمعوا من فقهاءها، ثمّ تبنّوا الرتب العلمية فضلاً عن المناصب السياسية، فمن حاضرة "تيهت" دخل قاسم بن عبد الرحمان التميمي (ت395هـ/1005م) قرطبة صغيراً مع والده، ومكث بها طالباً للعلم فسمع من قاسم ابن أصبغ¹، ومن حاضرة "تلمسان" يحدّثنا ابن الأبار عن الفقيه "ابن زَكُون" (ت553هـ/1158م) الذي دخل الأندلس وسمع من فقهاء قرطبة ومرسية، وله في ذلك تأليف²، كما ترجم صاحب "الصلة" لعلمين من حاضرة "وهران" وفدا على الأندلس و أخذوا عن علمائها، وهما عبد الرحمان بن عبد الله المعروف بابن الخراز (ت411هـ/1020م)³، وعبد الله بن يوسف بن طلحة الوهراني الذي استوطن إشبيلية واشتهر بها⁴، وتجدر الإشارة إلى أنّ النزول إلى الأندلس شمل —كذلك— الحواضر الشرقية للمغرب الأوسط، فقد حدّثتنا المصادر عن وفود أسرى من حاضرة "طبنة" كبيت آل الطيني الذين كان منهم زيادة الله التميمي (ت415هـ/1024م)، وأبناءؤه الذين اشتهر منهم عبد الرحمان، وأبو مروان عبد الملك، وعبد العزيز، حيث سكنوا قرطبة وسمعوا من فقهاءها و برعوا في فنون عدّة⁵، ويضيف لنا "ياقوت الحموي" في معرض حديثه عن "باغاية"، شخصية أحمد بن علي بن أحمد الربيعي الباغائي (ت401هـ/1011م)، الذي دخل قرطبة عام 376هـ/986م، فدرس بها ودرّس وكان من أهل العلم والفهم والذكاء، حتّى غدا لا نظير له في علوم القرآن والفقه على مذهب مالك⁶.

أمّا في الجهة المقابلة فيتجلّى تأثر المدرسة الأندلسية بنظيرتها المغرب أوسطية في تلك الوفود من فقهاء المغرب الأوسط الذين يّمّموا وجوههم شطر الحواضر الأندلسية و شاركوا بمؤلّفاتهم ووظائفهم التعليمية و الدينية في إثراء الحياة الفكرية بها، ذلك ما سجّلناه —مثلاً— عند تتبعنا لترجمة أبرز فقهاء وعلماء الأندلس في القرن الخامس الهجري (11م) كالإمام ابن عبد البر (ت463هـ/1071م)، الذي كان قد أجازته الشيخ أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت440هـ/1048م)، وروى الموطأ عن الفقيه أبي الفضل أحمد بن قاسم التيهري

¹ - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص86.

² - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص217.

³ - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص305.

⁴ - ابن بشكوال: المصدر نفسه، ص287.

⁵ - ينظر ابن بشكوال: الصلة، المصدر نفسه، ص297، 343، 345، 352.

⁶ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص325.

البرزاز (ت395هـ/1005م) بالسند المتصل إلى الشيخ يحيى بن يحيى الليثي¹، كما أخذ عن الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن خالد الوهراي (ت411هـ/1020م) لما قدم من المشرق²، وهذا خير دليل على أثر مالكية المغرب الأوسط الذين لم يقتصر تأثيرهم في المجال الفقهي فحسب، بل كان منهم المختصّ في القراءات كأحمد بن محمد بن سعيد المعروف بالمسيلي (ت539هـ/1145م) الذي سكن إشبيلية وله تصنيف في القراءات السبع سَمَّاه "التقريب"³، وأبي علي حسن بن عبد الله الأشيري (ت569هـ/1174م)⁴ الذي كان عالماً بالقراءات و اللغة و النسب⁵... ومنهم من كانت عنايته بالحديث وعلومه، كجابر بن أحمد الحسيني التلمساني الذي دخل إشبيلية سنة 578هـ/1182م⁶، ومحمد بن إسماعيل الحضرمي المتيشي البجائي (ت625هـ/1228م) الذي نزل مرسية وكانت له مشاركة في الحديث، وروى عنه الكثير إلى أن توفّي بها⁷، أمّا في تخصّص الفقه و أصوله فقد قدّمت لنا كتب التراجم عدداً من فقهاء وأصوليي المغرب الأوسط الذين وفدوا على الأندلس⁸ وكان لهم بها أثر ونشاط، منذ منذ مرحلة متقدّمة كإبراهيم بن الزهري المعروف بالأشيري (ت435هـ/1044م) الذي عمل على اختصار كتاب ابن أبي زيد في المدوّنة⁹، والفقيه الحافظ أيوب بن أحمد بن رشيق التغلي، الذي سكن شاطبة وكان له تصنيف في النفقات والحضانات¹⁰، كما وفد إليها في القرن الثامن الهجري (14م) اثنين من أبرز فقهاء المغرب الأوسط وهما الفقيه منصور بن علي بن عبد الله الزواوي (ت بعد 770هـ/1369م)، والفقيه أبو عبد الله محمد المقرئ الجدي (ت759هـ/1358م)، وكان من أشهر تلامذتهما الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت790هـ/1388م) صاحب التصانيف الأصولية الغزيرة¹¹، هذا العِلْم الذي نبغ فيه عدد من علماء المغرب الأوسط، وحملوه معهم إلى الأندلس وعملوا على نشره وتدريسه، فألّف فيه علي بن أبي قاسم المعروف بابن أبي جنون (ت

¹ - ينظر ابن خير الإشبيلي: فهرسة ابن خير، مصدر سابق، ص71.

² - ينظر الحميدي: جذوة المقتبس، مصدر سابق، ص275. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص90. ابن خير الإشبيلي: فهرسة ابن خير، مصدر سابق، ص117.

³ - ينظر ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص47.

⁴ - أبو علي الأشيري: هو أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب المعروف بابن الأشيري، وُلد بتلمسان، و بها نشأ و تعلّم، كان من أهل العلم بالقراءات واللغة والغريب يغلب عليه الأدب وكان ناظماً ناثراً وله مجموع في غريب الموطأ ومختصر في التاريخ سَمَّاه بنظم اللآلئ، توفّي سنة 569هـ.

ينظر ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص218.

⁵ - ينظر ابن القطان: نظم الجمان، مصدر سابق، ص211.

⁶ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج1، ص201.

⁷ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص165.

⁸ - للمزيد عن فقهاء المغرب الأوسط الذين نزلوا بجواضر الأندلس وكان لهم بها أثر، ينظر جدول رقم 04 (الملاحق).

⁹ - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص96.

¹⁰ - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص98.

¹¹ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص265.

بعد 580هـ/1184م) كتابا سماه "المقتضب الأشفى من أصول المستصفى"¹، ويذكر ابن الأتبار في هذا الشأن كذلك أن الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري البجائي (ت 612هـ/1215م)² الذي تولى قضاء مرسية، كانت له تقايد مفيدة على "مستصفى" الغزالي³، كما برزت في ذات المجال شخصية الإمام عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 792هـ/1390م) الذي استوطن غرناطة، وكان من المشاركين في أصول الفقه وعلم الكلام بها⁴.

ويتجلى أثر التلاقح الفكري بين المدرستين -أكثر- في تلك النخب المالكية الأندلسية التي هاجرت -طوعا أو كرها- واستوطنت حواضر المغرب الأوسط، قصد التعلم أو التعليم، هذا التواصل الذي كان حاضرا في ضلّ خضوع المجالين لسلطة واحدة (المرابطين ثم الموحدّين)، بل وحتى قبل ذلك، ثمّ ازداد حضورا عند وقوع الأندلس تحت تأثير الزحف المسيحي، وسقوط بعض الحواضر الأندلسية تحت قبضة النصارى، كقرطبة 633هـ/1236م، وبلنسية 636هـ/1239م، وغيرهما، ذلك ما استخلصناه -بغضّ النظر عن دوافع وأسباب هذه الهجرات- من تفحص المصادر التاريخية لهذه الحقبة، والتي أظهرت لنا مدى استقطاب حواضر المغرب الأوسط -لا سيما بجاية و تلمسان- لتلك النخب العلمية⁵، سواء الذين استقرّوا بها أم الذين واصلوا الرحلة إلى المشرق، و لعلّ من أولى هذه هذه النماذج ما حكاه لنا "ابن فرحون" عن الفقيه "فضل بن سلمة بن جرير" (ت 319هـ/931م) الذي تعود أصوله إلى "ألبيرة" بالأندلس، وأنّه قطن بجاية في أوائل القرن الرابع الهجري (10م) ودرّس بمسجدها الجامع⁶، و يحدّثنا ذات المصدر عن الفقيه أحمد بن عبد الله بن خميس (ت 548هـ/1153م)، الذي وفد من بلنسية و سكن جزائر بني مرزغنة، ومكث بها يعلّم أهلها الفقه و الأصول و الآداب و غيرها⁷، كما يبرز في هذا المجال عدد من فقهاء المدرسة المالكية الأندلسية كابن العربي (ت 543هـ/1148م) الذي نزل بجاية أثناء رحلته المشرقية، ودرّس

¹ ابن الأتبار: التكملة، مصدر سابق، ج 3، ص 246.

² محمد بن إبراهيم الفهري: هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري المعروف بالأصولي، من أهل بجاية، و أصله من إشبيلية، رحل إلى المشرق فروى عن كثير من أقطاب المحدثين، و برز في علم الكلام و أصول الفقه حتّى اشتهر بالأصولي، تولى قضاء بجاية و مرسية، وامتحن في أواخر حياته فكفّ بصره، و توفي سنة 612هـ بين عيد الفطر و عيد الأضحى. للمزيد ينظر القرافي: توشيح الديباج، مصدر سابق، ص 224.

³ ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 207.

⁴ ينظر التنبكتي: كفاية المحتاج، مصدر سابق، ج 1، ص 247.

⁵ للمزيد عن أبرز فقهاء الأندلس الذين حطّوا رحالهم بحواضر المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة ينظر جدول رقم 05 (الملاحق).

⁶ هذه الإشارة من "ابن فرحون" توحى بأنّ مدينة "بجاية" كانت عامرة قبل بنائها على يد الناصر بن علناس الحمّادي سنة 460هـ، وهو ما يؤكّده تعريف "البكري" المعاصر لبنائها، من أنّها مدينة أولية أهلة عامرة، أي أنّها عامرة قبل قدوم الحمّادين إليها، ينظر البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج 2، ص 224. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 219.

⁷ ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 46. ابن الأتبار: التكملة، مصدر سابق، ج 1، ص 54.

الفقه و الأصول، وجلس للوعظ و التفسير¹، ووفد إليها من إشبيلية الفقيه المحدث عبد الحق بن عبد الرحمان الإشبيلي (ت581هـ/1185م) والفقيه المتصوّف "أبو مدين شعيب" (ت594هـ/1198م) و عملا على نشر الفقه والتصوّف بمسجدها بحومة اللؤلؤة²، ونزل على قسنطينة الفقيه الأصولي أبو مطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة (ت658هـ/1260م) و تولّى قضاءها بعد أن مكث ببجاية يدرّس طلبتها تنقيحات السهروردي في الأصول³، كما نزل بتلمسان الفقيه محمد بن عبد الرحمان بن علي التحجّبي (ت610هـ/1213م) الذي كانت له عناية بعلوم الحديث، حيث يذكر صاحب "التكملة" أنّه سمع من أكثر من مائة وثلاثين محدّث ودوّن عنهم، وأنّه خلّف تآليف كثيرة من أشهرها برنامج الأصغر والأكبر الذي يُعدّ من أهمّ المصادر التي تُبرز معالم الحركة العلمية بالغرب الاسلامي في تلك الفترة.⁴

وبما أنّ النصّ الفقهي التوازي يُعتبر مادّة خصبة ومرجعية هامة يمكن أن نستشفّ منها حقائق تاريخية مفيدة في مجال التواصل بين حواضر المدرستين، فإنّ تفحصنا لبعض منها بيّن لنا أنّ التأثير —وحتى القرن 7هـ/13م— كان أندلسيا —في الغالب— سواء على مستوى تلقّي العلوم الفقهية أم على مستوى الفتاوي والاستشارات، لكن ومع مطلع القرن 8هـ/14م بدا أنّ التأثير المغرب أوسطي كان الأكثر حضورا، حيث سجّلنا في هذا السياق نازلتين وقعتا في القرن 5هـ إحداهما من بجاية⁵ و الثانية من تلمسان⁶ أستاذ فيهما قاضيا مالقة وألمرية على التوالي، بينما بينما تشير المصادر في الجهة المقابلة إلى أنّ علماء الأندلس كـ "لسان الدين بن الخطيب" كانوا يرسلون تصانيفهم إلى "أبي عبد الله الشريف التلمساني" (ت771هـ/1370م) لإضفاء نوع من الشرعية العلمية عليها، بل إنّ شيخ علماء الأندلس ومفتيها الإمام "فرج بن قاسم" (ت782هـ/1380م)⁷ كان إذا استُشكّل عليه الأمر راسل

¹ - ينظر سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر ابن العربي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ/1987م، ص14.

² - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص25، 41.

³ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص298.

⁴ - ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص102.

⁵ - النازلة الأولى في قضايا الميراث و الوصايا، اختلف فيها فقهاء بجاية، وسُئل عنها القاضي أبو المطرف الشعي (ت449هـ)، ينظر تفاصيلها عند

الونشريسي: المعيار المغرب، مصدر سابق، ج9، ص167.

⁶ - نازلة في قضايا الجرح و التعديل و الشهادة، استشار فيها قاضي تلمسان ابن عمّه قاضي ألمرية عن "شهود الطريق"، ينظر الونشريسي: المعيار المغرب، المغرب، المصدر نفسه، ج10، ص95.

⁷ - فرج بن قاسم: هو أبو سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي الغرناطي، إمام الأندلس ومفتيها وعالمها الفهامة، من أكابر العلماء ومحققهم، ومحققهم، قلّ من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته، له تآليف كثيرة و فتاوى شهيرة، وُلد سنة 701هـ و توفّي في ذي الحجة من سنة 782هـ، للمزيد

ينظر ابن الخطيب، لسان الدين (ت776هـ): الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، تح إحسان عباس، دار الثقافة،

بيروت، لبنان، ط1، 1963م، ص67. لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، مصدر سابق، ج4، ص212. ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق،

ص220. الزركلي: الأعلام، ج5، ص140. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص331.

الشريف التلمساني بذلك، إقرارا بفقّه وعلمه¹، ثمّ إنّ كثيرا من أقطاب المدرسة المالكية الأندلسية في القرن 8هـ/14م كأيّ إسحاق الشاطبي (ت790هـ/1388م) وابن زمرك (ت بعد 792هـ/1390م)² كانوا تتلمذوا على أعلام بجاية وتلمسان³، كما لاحظنا أنّ التأثير الأندلسي كان في مجال القراءات وعلم الحديث دراية ورواية باعتبار أنّ توجّه المدرسة الأندلسية - كما أشرنا - حديثي نقلي، بينما غلب على مدرسة المغرب الأوسط التوجّه العقلي لاسيما بعد دخول مصنفات "أبي حامد الغزالي"، ثمّ مصنفات "ابن الحاجب" المصري، كما سنفضّله لاحقا.

3. التواصل المشرقي وأثره على مدرسة المغرب الأوسط:

مثّلت رحلات المغاربة إلى المشرق - بتعدّد أنواعها - مظهرا من مظاهر الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، فإلى جانب الرحلات الدينية المرتبطة بالحج وزيارة البقاع المقدّسة، والرحلات التجارية ذات المسعى الاستزاقى، تأتي الرحلة العلمية القائمة أساسا على نقل المعارف والعلوم، كتداول المصنّفات لنشر المذاهب والأفكار، وإرسال الطلبة للاستزادة في العلم أو طلبا للفتوى...، وهو المنحى الذي لم تحد عنه حواضر المغرب الأوسط منذ القرون الهجرية الأولى، فقد عرف علماءها وطلبتها تواصل علميا وثقافيا مع شتّى الحواضر العلمية المشرقية؛ ثمّ إنّ الخطوات الأولى وإن كانت تقتضي المرور - كما أشرنا - عبر إفريقية والمكوث بمحاضرها إن لزم الأمر، بحكم الجوار من جهة وبحكم الوحدة المذهبية و السلطة السياسية من جهة ثانية، فإنّ حواضر مصر، والحجاز، ثمّ الشام، والعراق - هي الأخرى - شهدت توافدا علميا، ساهم - إلى حدّ كبير - في تشكيل الملمح الفقهي العام للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، وإذ لا يسع المجال لذكر مساهمة كلّ هذه الحواضر بمدارسها وأعلامها ومصنّفاتهم فإنّنا سنقتصر على دور المدرسة الفقهية المصرية، كونها كانت جامعة لمذاهب الفقه المالكي والحنفي والشافعي، ولما كان لها من أثر جليّ في تحديد المعالم الكبرى للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، خاصّة بعد دخول مصنّفات الفقيه أبي عمرو بن الحاجب (ت646هـ/1248م) أواخر القرن السابع الهجري (13م)⁴.

تعتبر "مصر" المحطّة المشرقية الثانية التي يؤمّها فقهاء وطلبة المغرب الأوسط، سواء أكانت الرحلة مقصدا إلى حواضرها وغاية في حدّ ذاتها، أم كانت محطّة توقّف وعبور، باعتبار وقوعها في طريقهم نحو الحجاز والعراق وبلاد الشام، لذا فقد

¹ - ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص175.

² - ابن زمرك: هو أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصّريحي، المعروف بابن زمرك، وزير من كبار الشعراء والكتاب في الأندلس. أصله من شرقها، ولد بروض البيازينبغراطة في شوال سنة733هـ، أخذ عن لسان الدين بن الخطيب وابن مرزوق الجد وروى عنه، و الشريف التلمساني و أبي علي الزواوي وغيرهم، و قال ابن القاضي كان حيا سنة792هـ. للمزيد ينظر ابن الخطيب: الإحاطة، مصدر سابق، ج2، ص196. الزركلي:

الأعلام، مصدر سابق، ج7، ص154. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص333.

³ - ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص166.

⁴ - ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص570، 571.

ارتبطت حواضر المغرب الأوسط بها ارتباطاً قوياً منذ القرون الهجرية الأولى، حيث يذكر "أبو العرب" أنّ "يحيى بن خالد السّهمي" (ت245هـ/859م) الذي ولّاه "سحنون" قضاء الزّاب، كان قد دخل "مصر" وقرأ على علمائها¹.

كما هو معلوم فإنّ الخريطة المذهبية في مصر منذ مطلع القرن الثالث الهجري باتت موزّعة بين ثلاثة مذاهب كبرى² -المالكي والشافعي و الحنفي- واستمرّ الحال كذلك إلى سقوط الدولة في أيدي العبّديين سنة 358هـ/969م، حيث عملوا على إفشاء المذهب الشيعي بالديار المصرية والعمل به في القضاء والفتيا وأنكروا ما خالفه، وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة، قتلاً ونفيّاً وتشريداً، وأقاموا مذهب الرّفض والشيعة، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب، ولم يزلوا منها إلى أواخر القرن السادس³، حيث عمل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب منذ تولّيه الوزارة في جمادى الآخرة سنة 564هـ/1169م على القضاء على المذهب الشيعي وإزالة الدولة الفاطمية، فاعتنى ببناء "المدارس" التي لم يكن لمصر عهد بها قبل الحكم الأيوبي، و فوّض أمر القضاء و الفتوى لعلماء المذهب الشافعي و بدرجة أقل لفقهاء المذهب المالكي، و بقي الأمر على ذلك إلى أواخر الدولة الأيوبية حيث اشتهر المذهب الحنفي⁴ و بدرجة أقل مذهب الإمام أحمد، و لما تولّى المماليك حكم مصر ساروا على نهج سلفهم -أي الأيوبيين- فقهاً، وحملوا الجميع على الأشعرية عقيدةً، و هو ما أشار إليه "المقريزي" عند حديثه عن سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ سنة 665هـ/1267م، فولي بمصر والقاهرة أربعة قضاة، وهم شافعيّ ومالكيّ وحنفيّ وحنبليّ⁵.

ولقد ساهمت عدّة عوامل -بعد سقوط دولة الفواطم - في تشجيع طلبة العلم و الفقهاء المغاربة على الرحلة إلى مصر، ولعلّ من أبرزها ازدهار الحياة العلمية و الأدبية و نشاط حركة التأليف بها، وذلك راجع إلى اهتمام الدولة النورية و سلاطنها نورالدين زنكي، ثمّ سلاطين الدولة الأيوبية، وسلاطين دولة المماليك بالحياة الثقافية، حتّى أنّهم كانوا لينزلون إلى المساجد و المرافق التعليمية لمشاركة العلماء في حلقاتهم العلمية⁶، هذا فضلاً عن التوافق المذهبي بين بلاد المغرب ومصر الأيوبية، التي دعى سلاطينها المذهب السنيّ وعملوا على التمكين له في مصر، سعياً منهم

¹- أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص120.

²- أشرنا إلى ذلك في الفصل الأوّل تحت عنوان: "المذهب المالكي من المدينة إلى إفريقية عبر مصر"

³- جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، مصدر سابق، ج1، ص40.

⁴- زادت شهرة المذهب الحنفي زمن الملك المعظم عيسى، أحد أبناء الملك الكامل محمّد، و لعلّه الوحيد الذي انفرد بالمذهب الحنفي من ملوك الدولة الأيوبية، للمزيد يُنظر ابن تغري بردي، جمال الدين(ت874هـ): التّجويد الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، دار الكتب، القاهرة، مصر، د ت، ج6، ص211.

⁵- ينظر المقريزي: المواعظ و الاعتبار، مصدر سابق، ج4، ص166.

⁶- أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام، مكتبة التّهضة، القاهرة، مصر، د ت، ص10.

لمجاهدة بقايا دعاة الدولة الفاطمية، والتصدي للفكر الشيعي الذي كان سائدا من قبل¹، فعملوا على استجلاب طلبة العلم والفقهاء المغاربة، كونهم أعداء تقليديين للفواطم، إضافة إلى تشبّعهم بأفكار المذهب المالكي السني المنتشر في حواضره، كبحاية التي أضحت منارة مالكية منذ تأسيسها في العهد الحمّادي، وتلمسان التي لم تزل دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك، على حدّ وصف البكري²، ومّا زاد الحواضر المصرية استقطابا لطلبة وفقهاء المغرب عموما، عناية سلاطين مصر بالحياة الثقافية، وتشجيعهم لطلبة العلم من خلال تشييد وبناء المرافق التعليمية كالمدارس³ والمساجد والزوايا والخوانق وغيرها⁴، وتخصيص بيوتات للغرباء والمسافرين من طلبة العلم، وتوفير الراحة والعناية الصحيّة ومختلف الخدمات الاجتماعية لهم⁵، بل وتقليدهم المناصب العليا في الدولة كالقضاء والتوثيق والحسبة وغيرها، وإتاحة فرصة التدريس لهم في المساجد والزوايا، ولا أدلّ على ذلك من تصدر الشيخ يحيى بن محمد بن أحمد العجيسي⁶ البجائي المغربي لتدريس المالكية في الجامع المأويدي بجوار باب زويلة⁷، كما هو الشأن بالنسبة للفقهاء عيسى أبي الروح بن مسعود الزواوي (ت743هـ/1342م) الذي رحل إلى مصر فأقام بالقاهرة مشغولا بالتدريس وولي نيابة القضاء بها، ثمّ ولي التدريس بزواوية المالكية وترك ولاية الحكم وأقبل على الاشتغال والتصنيف، فشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا، واختصر جامع ابن يونس، وشرح المدوّنة، وحفظ موطأ مالك وكان إماما في الفقه وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية⁸، أمّا أبرز

¹ صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة و الأندلسيين في العصور الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1963م، ص22.

² البكري: المسالك و الممالك، مصدر سابق، ج2، ص213.

³ من أشهر هذه المدارس، المدرسة "القلمية" التي أقامها صلاح الدين الأيوبي للمالكية، وتُسمّى كذلك نسبة للقمح الذي كانت تغلّه الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين بالفيوم على تلك المدرسة، والمدرسة "الكاملية" التي أنشأها السلطان الكامل سنة 621 هـ، و المدرسة "الصالحية" التي أقامها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة 639 هـ، وهي أول مدرسة في مصر تجمع بين مذاهب السنّة الأربعة... للمزيد عن المدارس التي شيدها السلاطين الأيوبيون و المماليك من بعدهم ينظر المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي المتوفى 845 هـ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مصدر سابق، ج4، ص200 و ما بعدها.

⁴ ينظر عاشور سعيد عبدالفتاح: الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1996م، ص320.

⁵ هذا ما شاهدته ووثّقه الرحالة الأندلسي ابن جبير (ت614هـ) عندما زار الاسكندرية بقوله: "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعب، يقدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ومُدْرَسًا يُعلِّمه الفن الذي يريد تعلّمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بمؤلاء الغرباء الطائرين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مَرَض منهم، ووكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم تُخدّم يأمرهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وعذاء" للمزيد ينظر: رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص15.

⁶ ينظر ترجمته عند نويهض، عادل: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص229.

⁷ أحمد شامخ الحميد العنزي: الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني في مصر و الشام و الحجاز، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، ط1، 2010م، ص195.

⁸ ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص182.

من احتضنت الحواضر المصرية في القرن الثامن الهجري (14م) فهو الشيخ الفقيه محمد بن مرزوق الشهير بالخطيب (ت781هـ/1379م) الذي ارتحل إلى المشرق سنة 770هـ/1369م فدخل الاسكندرية ثم انتقل إلى القاهرة فقرّبه سلطانها وولّاه المناصب العليا و أغدق عليه الأعطيات، فقام أحسن قيام، إن على القضاء أو على التدريس حتّى وفاته هناك¹.

ولئن كان أحد أبرز الأهداف المتوخّاة من الرحلة هو " لقاء الأكابر، والتطوّف على أبوابهم طلبا لمزيد الدّراية، والإحراز على الرواية، و عالي الإسناد و تتبّع طرقه بقدر ما أوتيّه من قوّة، فيؤوب صاحبها مملوء الجراب بما يلدّ ويستطاب²"، فقد لمع بمصر في القرن السابع الهجري - كما أشار الشيخ محمد الفاضل بن عاشور³ - أعلامٌ طال باعهم في تحرير المذهب المالكي واختصاره، زيادة على أعلام المدرسة المصرية الشافعية الذين كان لهم و لمصنّفاتهم بالغ الأثر في فقهاء المغرب الأوسط الذين تتلمذوا لهم، ولعلّ من أبرزهم الفقيه الشافعي المجتهد "العزّ بن عبد السّلام" (ت660هـ/1262م)⁴، وتلامذته، والمتأثرين به من الأعلام المشهورين كابن الحاجب (ت646هـ/1248م)⁵، وابن دقيق العيد (ت702هـ/1303م)⁶، وشهاب الدين

¹ - ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مصدر سابق، ج5، ص93.

² - الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، مطبوعات عكاظ، الرباط، المغرب، 1990م، ص95

³ - محمد الفاضل بن عاشور (ت1390هـ): هو محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور، أديب و فقيه تونسي معاصر، وُلد سنة 1327هـ/1909م بتونس، و بها توفي سنة 1390هـ/1970م، نشأ في بيئة علمية، حيث عاش في حياة أبيه العلامة الفقيه المفسّر محمد الطاهر بن عاشور، مسترشدا بتوجيهه، و مغترفا من مكتبته الحافلة بالتفائس، و تخرّج بالمعهد الزيتوني، ثم أصبح أستاذا فيه، فعميدا له، و شغل خطة القضاء بتونس ثمّ منصب مفتي الجمهورية، كما شارك في مؤتمرات علمية عديدة، و ألقى محاضرات بجامعة السوربون بفرنسا، واستانبول بتركيا... وكان عضوا في الجمع اللغوي بالقاهرة، و عضوا برابطة العالم الاسلامي بمكّة، له عدّة مؤلفات مطبوعة منها "التفسير و رجاله" و "أركان النهضة الأدبية بتونس" ... للمزيد ينظر محمد الفاضل بن عاشور: روح الحضارة الاسلامية، تق عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فرجينيا، و م أ، ط2، 1413هـ/1992م، ص2.

⁴ - ترجمنا له سابقا في الفصل الثالث، تحت عنوان "بيوتات الفقهاء في حواضر المغرب الأوسط".

⁵ - ترجمنا له سابقا في الفصل الثالث، تحت عنوان "المدرسة المالكية ببجاية الحفصية".

⁶ - ابن دقيق العيد (ت702هـ/1303م): هو الفقيه العلامة، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري الشافعي، أحد علماء وقته، بل أجلّهم وأكبرهم علما ودينا وورعا وتقشفا ومداماة على العلم في ليله ونهاره مع كبر السن والشغل بالحكم، وله التصانيف المشهورة، والعلوم المذكورة، وُلد بمدينة "ينبع" من أرض الحجاز في يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين وست مائة، ونشأ بديار مصر، واشتغل أولا بمذهب الإمام مالك، ودرس فيه بمدينة قوص، ثم تمذهب للشافعي رحمه الله، حصل فيه الغاية دراية ونقلًا وتوجيها، ويرع في علوم كثيرة لا سيما في علم الحديث، فاق فيه أقرانه، وبرز على أهل زمانه، ورحل إليه الطلبة من الآفاق، ووقع على علمه وورعه وزهده الاتفاق، وكانت وفاته يوم الجمعة الحادي عشر من شهر صفر سنة ثلاث وسبع مائة بالقاهرة، ودفن بالقرافة الصغرى. للمزيد ينظر ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ): طبقات الشافعيين، تح د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية 1413 هـ / 1993 م، ص952.

القراقي (ت 684هـ/1285م)¹ وغيرهم، حيث تذكر المصادر أنّ سلطان العلماء "العزّ بن عبد السلام" تتلمذ عليه من بلاد المغرب خلق كثير، منهم أبو العباس أحمد بن عيسى الغماري البجائي (ت 682هـ/1283م)²، وأبو إسحاق إبراهيم بن ميمون الزواوي (ت 686هـ)³، أمّا صاحب "نبيل الابتهاج" فيذكر عند ترجمته لإبراهيم بن يخلف التنسي (ت 680هـ/1281م) أنّه رحل إلى مصر و لقي كبار فقهاء عصره كالقراقي وابن دقيق العيد، بل وذكر "العبدري" أنّ التنسي لازم ابن دقيق العيد مدّة وأخذ عنه كثيراً⁴، ويضيف "ابن خلدون" في ذات السياق أنّ محمّد بن إبراهيم الآبلي التلمساني (ت 757هـ/1356م) لما قدم مصر جالس ابن دقيق العيد، وصفي الدين الهندي، والتبريزي وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول⁵.

أمّا الرحلة الأبرز و الأبلغ أثراً في هذه المئة فهي رحلة الفقيه أبي علي ناصر الدين المشذلي (ت 731هـ/1331م) الذي رحل صغيراً مع أبيه، وأقام بالمشرق نحو من عشرين عاماً، و لقي الأفاضل و أخذ عنهم، كالعزّ بن عبد السلام، وصدر الدين سليمان الحنفي، و شرف الدين بن السبكي، و شمس الدين الاصبهاني⁶، وقرأ مع شهاب الدين القراقي على شيخه ابن الحاجب في مجلس واحد، و حذق في العقلية و النقلات⁷، و هي الرحلة التي تجلّى فيها تأثير المدرسة الشافعية الأصولية من خلال رواية المشذلي عن ابن الحاجب المتأثر تأثراً بالغاً بالفقيه الشافعي العز بن عبد السلام تلميذ الأمدي (ت 631هـ/1234م)⁸ صاحب كتاب الأحكام، وواضع المعالم

¹ - شهاب الدين القراقي (ت 684هـ/1285م): هو الإمام العلامة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن يلين الصنهاجي، وُلد بمصر، وتوفي في آخر يوم من جمادى الآخرة بدير الطين بالقرب من مصر القديمة عام أربعة وثمانين وستمائة، ودفن بالقرافة. كان إماماً بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية وله معرفة بالتفسير وتخرج به جمع من الفضلاء، وإليه انتهت رئاسة الفقه على مذهب مالك رحمه الله، أخذ كثيراً من علومه عن الشيخ الإمام العلامة الملقب بسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعي، خلف عدّة مؤلفات منها كتاب الدّخيرة في الفقه من أجلّ كتب المالكية وكتاب القواعد الذي لم يسبق إلى مثله ولا أتى أحد بعده بشبهه وكتاب شرح التهذيب وكتاب شرح الجلاب وكتاب شرح محصول الإمام فخر الدين الرازي وكتاب التعليقات على المنتخب وكتاب التّنقيح في أصوله الفقه، ودرّس بالصّالحية بعد وفاة شرف الدين السبكي، ثم أُخذت منه، فولّيه قاضي القضاة نفيس الدين، ثم أعيدت إليه، ومات وهو مدرّسها. للمزيد ينظر الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مصدر سابق، ج 51، ص 176.

² - ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 93.

³ - ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 205.

⁴ - ينظر العبدري: رحلة العبدري، مصدر سابق، ص 53.

⁵ - ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته، مصدر سابق، ص 34، 35.

⁶ - ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 229.

⁷ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج 1، ص 545.

⁸ - سيف الدين الأمدي (ت 631هـ/1234م): هو الفقيه الأصولي المتكلم أبو الحسن سيف الدين، علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي (الثعلبي) الأمدي، الحنبلي ثم الشافعي، وُلد سنة 551هـ بمدينة "آمد" (ديار بكر)، تعلم في بغداد والشام. ثم انتقل إلى القاهرة، فدرّس فيها واشتهر، وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفياً إلى "حماة" ومنها إلى "دمشق" فتوفي بها في رابع صفر، سنة إحدى وثلاثين وست مائة، وله ثمانون سنة. وخلف نحو عشرين مصنفاً، منها "الإحكام في أصول الأحكام" و"لباب الألباب"

الكبرى لمقاصد الشريعة من خلال كتابيه "القواعد الكبرى" و "القواعد الصغرى"، ثم إنَّ صاحب الرحلة رجع إلى المغرب - كما يقول ابن خلدون - بعلم كثير و تعليم مفيد، و نزل بجاية واتصل سند تعليمه بطلبته¹، إذ كان له قصب السبق في إدخال كتاب "جامع الأمتهات" المعروف بالمختصر الفرعي في الفقه المالكي لـ "ابن الحاجب"، وكتاب "منتهى السؤل و الأمل في علمي الأصول و الجدل" المعروف بالمختصر الأصلي لذات المؤلف، وعكف على تدريسهما، فانتشرا بقطر بجاية في تلاميذه، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربيّة، وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونها لما يؤثر عن الشّيخ ناصر الدّين من التّغريب فيه²، و يصوّر لنا الشّيخ محمد الفاضل بن عاشور التحوّل الذي عرفته المدرسة المالكية ببلاد المغرب عموماً بعد دخول مختصر ابن الحاجب، في قوله: "كان دارسو الفقه إذ ذاك يطبّقون الأحكام الشرعية على الوقائع بمراعاة الظروف الزمانية و المكانية التي فرضت فيها تلك الأحكام، فإذا رأوا أنّ بعض تلك الظروف تبدّل، مالوا إلى العدول عن القول المشهور إلى قول غيره اجتهداداً منهم و استحساناً و اعتباراً للمصالح الشرعية، و هذا كلّ ناتج عن الطريقة التي أحدثها مختصر ابن الحاجب الفقهي...³"، أمّا الأثر الثاني فيتمثّل في انفتاح المغاربة على المؤلّفات المشرقية، لاسيما وأنّ ابن الحاجب اعتمد في مؤلّفه على مصنّفات أصولية مشرقية غير مالكية⁴، كالبرهان للجويني الشافعي، و المعتمد لأبي الحسين البصري المعتزلي (ت436هـ/1045م)⁵.

ثانياً: تنوع المقررات الفقهية و الأصولية المتداولة بمدرسة المغرب الأوسط

و "دقائق الحقائق"، قال عنه شيخ الإسلام العز ابن عبد السلام ما علمنا قواعد البحث إلّا من سيف الدّين الآمديّ ولو ورد على الإسلام متزندق يشكك ما تعين لمناظرته غير الآمديّ لاجتماع أهليّة ذلك فيه، ويحكى أن الآمديّ رأى في منامه حجّة الإسلام الغزاليّ في تابوت وكشف عن وجهه وقبله فلمّا انتبه أراد أن يحفظ شيئاً من كلامه فحفظ المستصفى في أيّام يسيرة. للمزيد ينظر السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، مصدر سابق، ج8، ص306. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج16، ص263. ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت668هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د ت، ص650.

¹ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص545.

² - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص570، 571.

³ - بلميهوب حفيفة: مدرسة بجاية و إسهامها في خدمة المذهب المالكي، الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي (فقه النوازل في الغرب الإسلامي)، 14-15-16 أفريل 2009م، دار الثقافة، عين الدفلى، الجزائر. ص101-102.

⁴ - ينظر ابن الحاجب، جمال الدين أبو عمرو (ت646هـ): مختصر منتهى السؤل و الأمل في علمي الأصول و الجدل، تح نذير حمادو، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، مج1، ص85.

⁵ - أبو الحسين البصري (ت436هـ/1045م): هو أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري، الأصولي المتكلم، شيخ المعتزلة وإمامهم، ولد في البصرة وسكن بغداد، و بما درس إلى أن توفّي يوم الثلاثاء الخامس من شهر ربيع الآخر سنة436هـ، له من المصنّفات الأصولية: المعتمد، تصفّح الأدلّة، شرح الأصول الخمسة...، للمزيد ينظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مصدر سابق، ج4، ص168. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج13، ص230. محيي الدين الحنفي، عبد القادر بن محمد (ت775هـ): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانة، كراتشي، باكستان، د ت، ج2، ص93.

إنّ الحديث عن مدرسة فقهية مالكية بالمغرب الأوسط يوجب علينا التعريف بأهمّيات الكتب المالكية التي على قواعدها بُني المذهب وانتشر، والتي كان يتدارسها الفقهاء والطلبة بالمغرب الأوسط، وفي ظلّ غياب لأصولٍ مصدريةٍ متخصصة تؤرّخ لتلك المدوّنات المتداولة، فإنّ الإحاطة بها تُحتمّ علينا التنقيب في كتب البرامج و الفهارس أو كتب التراجم و الرحلات، إذ هي الكفيلة بتقديم مادّة تاريخية هامة يمكن أن نستنبط منها المستوى الثقافي والتعليمي و برامج التدريس في المنشئات التعليمية بهذا المجال، غير أنّ هذا النوع من المصنّفات لم يعرف اهتماما واضحا من طرف علماء المغرب الأوسط - لاسيما في القرون الهجرية الأولى - فكانت استفادتنا ممّا توفّر منها في الفترة المتأخّرة، كالبرنامج الذي ختم به "الغبريني" كتابه عنوان الدراية، ورحلة ابن خلدون غربا وشرقا، ومسند ابن مرزوق ومناقبه، إضافة إلى ما كتبه الأندلسيون أو علماء المغرّبين الأقصى و الأدنى في هذه الفنون، و التي من أهمّها برنامج التحجّي¹ الأندلسي (ت730/1330م)، وكتاب عبد الواحد بن الطوّاح التونسي (ت بعد 718/1318م) الموسوم بـ "سبك المقال لفك العقال"² والذي يندرج - كذلك - ضمن دائرة كتب البرامج و المشيخات التي سنورد من خلالها أهمّ المصنّفات³ الفقهية و الأصولية وكذا كتب القواعد الفقهية⁴ التي شكّلت أهمّ المقرّرات الدراسية بالمغرب الأوسط مفصّلة كما يلي:

1. أهمّيات كتب الفقه المالكي:

من بين أهمّ المدوّنات الفقهية التي لاقت اهتمام طلبة المغرب الأوسط، والتي كانت عليها أهمّ شروحاتهم واختصاراتهم وتعليقاتهم نذكر:

أ. موطأ الإمام مالك (ت179هـ/795م):

¹ - يُعطي برنامج التحجّي صورة حيّة للأوضاع العلمية بالحواضر التي مرّ بها خلال رحلته إلى الحجّ، كحاضرة بجاية التي أشار إلى عدد من مشايخها و جملة من المصنّفات و العلوم المتداولة بها، ينظر التحجّي، القاسم بن يوسف (ت730هـ): برنامج التحجّي، تح عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981 م

² - تكمن أهمية هذا الكتاب في أنّه يعكس بجلاء صورا من الحياة العلمية للمغرب الأوسط من خلال رحلته التي نزل فيها بعثابة سنة 698هـ، ومرّ فيها بقسنطينة، ثمّ عاد إلى بجاية أين التقى بفقيهها أبي علي منصور المشذالي، كما شهد بجامعها مجلس الفقيه المؤرخ أبي العباس الغبريني صاحب عنوان الدراية. ينظر عبد الواحد محمد بن الطوّاح (ت بعد 718هـ): سبك المقال لفك العقال، تح محمد مسعود جبران، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط2، 2008م، ص30.

³ - للاطلاع على أهمّ المصنّفات الفقهية و الأصولية التي كانت متداولة بالمغرب الأوسط، إضافة إلى الشروحات و الاختصارات التي ألّف حولها خلال فترة الدراسة ينظر جدول رقم 06 (الملاحق).

⁴ - باعتبار أنّ كتب "القواعد الفقهية" فرع من كتب علم الأصول، كما أشار إلى ذلك العلامة شهاب الدين القرافي، في حديثه على الشريعة المحمّدية بأنّها تشتمل على فروع و أصول، وأنّ الأصول تنقسم بدورها إلى "أصول الفقه" و "القواعد الفقهية"، لأكثر تفاصيل ينظر القرافي، شهاب الدين (ت684هـ): أنوار البروق في أنواء الفروق، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، د ت، ج1، ص2.

يُعتبر الموطأ - كما هو معلوم - أول مدوّن في المذهب، وأول كُتب الصّحاح الستّة¹، بل كما قال أبو بكر بن العربي: " أول كتاب أُلّف في شرائع الإسلام وآخره، لأنّه لم يؤلّف مثله، إذ بناه الإمام مالك على تمهيد الأصول للفروع، ونبّه فيه على معظم أصول الفقه...² "، وهو الكتاب الذي جمع فيه مؤلفه³ بين الحديث والفقه، واستغرق في ذلك نحو الأربعين سنة⁴، وفضّله على كتب الحديث يكمن في كونه الكتاب الذي رُبّطت فيه حلقات العلم النبوي ممتّنة متوالية منذ أن تُلقّيت على النّبي ﷺ إلى أن اجتمعت عند مالك ﷺ⁵، ففيه - كما يقول صاحبه - أحاديث رسول الله ﷺ الواردة في الباب، وأقوال فقهاء الصحابة ثمّ سماعته من أهل العلم والفضل وأئمة التابعين، وما أدرك عليه العمل عند أهل المدينة⁶، لذلك فقد تحافت عليه الرواة والطلبة، وأخذ عنه الجم الغفير من العلماء، حتّى قيل لم يُعتن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء النّاس بالموطأ⁷.

ولقد عرفت حلق العلم بالمغرب الأوسط تداول الموطأ منذ القرون المحجّرية الأولى، وعكف عليه الطلبة حفظاً وشرحاً وتأليفاً، شفيّعنا في ذلك ما أورده "الحموي" من أنّ أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتي الضرير حضر مجلساً لهارون بن النضر الريغي بالريغ فيقراءة كتاب البخاري والموطأ⁸، كما ذكر التحجّبي في برناجه أنّه سمع الموطأ من أوّلِهِ إلى آخره من الخطيب الصّالح أبي عبد الله بن صالح ببحاية⁹ بعد أن قرأ عليه أبعاضاً منه، وتناوله جميعه من يده، وله في ذلك عدّة طرق كلّها من رواية يحيى بن يحيى الليثي¹⁰، ثمّ تظهر أهمّية هذا السّفر أكثر في

¹ - ينظر ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك (ت606هـ): **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تح عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط3، 1437هـ/2016م، ج1، ص07.

² - ابن العربي: القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، مصدر سابق، ج1، ص69.

³ - يذهب بعض المستشرقين إلى أنّ الموطأ ليس من تأليف الإمام مالك، وإنّما من تأليف تلاميذه، بحجّة اختلاف رواياته و تعدّدها، غير أنّ ذلك كما هو معلوم يعود إلى اختلاف الأزمنة و الفترات التي سمع فيها كلّ راوٍ، ومن البديهي أن تختلف وتتفاوت هذه الطّرق لأنّ صاحب المصنّف كان يراجعها كلّ سنة، ولم يزل ينظر فيه و يسقط منه إلى أن توفي رحمه الله، حتّى عدّ القاضي عياض ثمانية وستين راوياً من الذين رووا الموطأ عن الإمام مالك دون واسطة، وقال أنّ الذي وقفت عليه من روايات الموطأ نحو عشرين نسخة، وذكر بعضهم ثلاثين نسخة. لأكثر تفاصيل ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص89. ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته، مصدر ساب99ق، ص302، 303. محمد الشاذلي النيفر: موطأ الإمام مالك، مرجع سابق، ص63 وما بعدها. نجم الدين الهنتاتي: **الموطأ و المدونة و النوادر**، مجلّة التاريخ العربي، ع29، س2004، ص276.

⁴ - قالها الإمام مالك لأحد التابعين الذي عرض عليه "الموطأ": "كتاب ألفت في أربعين سنة، أخذتموه في أربعين يوماً..." للمزيد ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص75.

⁵ - محمد الشاذلي النيفر: موطأ الإمام مالك، مرجع سابق، ص53.

⁶ - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص73.

⁷ - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص80.

⁸ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج3، ص113.

⁹ - التحجّبي: برنامج التحجّبي، مصدر سابق، ص57.

¹⁰ - تُعدّ رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي (ت234هـ) للموطأ من أجلّ الروايات وأوعبها وأوثقها، فبالإضافة إلى إجماع المترجمين له على كونه أميناً ثقة عدلاً وقوراً، فقد كان آخر من حدّث عن الإمام مالك، وكانت روايته هي المعتمدة عند أغلب الشّراح و المفسّرين، أشاد بها بن عاشور في "كشف

تلك الشروحات التي ألفها فقهاء المغرب الأوسط حوله، ككتاب "النّامي" للداودي (ت402هـ/1012م)¹، و"تفسير الموطأ" لتلميذه البوني (ت440هـ/1048م)² وغيرهما.

ب. مدوّنة سحنون (ت240هـ/854م):

تُعَدّ المدوّنة الأصل الثاني من أصول المذهب بعد الموطأ، وقد قيل عنها بأنّها ثمرة جهود ثلاثة من الأئمّة، "مالك" بإجاباته، و"ابن القاسم" بقياساته، و"سحنون" ببعض إضافاته³، وأمّا عن حضورها بحلق العلم في المغرب الأوسط، فيذكر "ياقوت الحموي" أن أكثر من مئة طالب كانوا يحضرون مجلس الشيخ هارون بن النظر الريغي، لقراءة المدوّنة و الموطأ و البخاري و غيرها⁴، و يورد فقيه تلمسان أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) الذي دخل بجاية في القرن الثامن الهجري، كلاماً يوحى بمدى الاهتمام الذي لقيه هذا المصنّف عند أهلها لما يقول: "أنّ فيها خمسمائة صبية يحفظن المدوّنة"⁵.

ج. واضحة ابن حبيب (ت238هـ/852م)⁶:

بالرّغم ممّا اشتهر به "ابن حبيب" من مؤلّفات في شتّى فنون المعرفة، لكن تبقى "الواضحة في السّنن والفقه"⁷ أعظم كتاب عُرف به⁸، إذ يُعتبر أحد أتمّهات الكتب المالكية الخمسة التي لا غنى عنها لدراسة الفقه المالكي⁹، أمّا

المغطّى"، وعليها اعتمد ابن عبد البر في "التمهيد" وابن العربي في "القبس"، وقال الكتاني في "الرسالة المستطرفة" بأنّه إذا ذُكر الموطأ في هذه الأزمنة انصرف التفكير إليها، للمزيد ينظر ابن العربي: القبس، مصدر سابق، ص60. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت463هـ): التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، حمصطفي بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ، ج1، ص10. الكتاني، أبو عبد الله محمد الحسني الإدريسي (ت1345هـ): الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، تح محمد المنتصر بن محمد الزمزمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط6، 1421هـ/2000م، ص13. محمد الطاهر بن عاشور: كشف المغطّى من المعاني و الألفاظ الواردة في الموطأ، تع طه بن علي بوسريح، دار السلام، مصر، دار سحنون، تونس، ط2، 1428هـ/2007م، ص44.

¹ - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج2، ص83. ابن خير الإشبيلي: فهرست ابن خير، مصدر سابق، ص76.

² - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص259. ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص345. ابن خير الإشبيلي: فهرست ابن خير، مصدر سابق، ص76.

³ - طرح هنتاتي في هذا الصدد إشكالية: لمن يمكن أن تُنسب الأسدية؟ للاطلاع على ذلك ينظر هنتاتي: المذهب المالكي، مرجع سابق، ص205، 206.

⁴ - الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج3، ص113.

⁵ - الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الآثار، مصدر سابق، ص37.

⁶ - ترجمناه سابقاً في "الفصل الثاني" تحت عنوان "المذهب المالكي بعد ابن تومرت".

⁷ - تجدر الإشارة إلى أنّ الواضحة حملت (إلى جانب آراء المدنيين و المصريين في الفقه المالكي) آراء يمكن إرجاعها إلى المذهب الأوزاعي، ذلك أنّ صاحبها- كما أشرنا- تلمذ لصعصعة بن سلام زعيم المذهب الأوزاعي الذي كان منتشراً بالأندلس. ينظر هنتاتي: المذهب المالكي، مرجع سابق، ص196.

⁸ - المقرئ: نفع الطيب، مصدر سابق، ج2، ص6.

⁹ - القراني: الذخيرة، مصدر سابق، ج1، ص36.

عند دخولها إلى المغرب الأوسط فلا شك أنّها كانت من جملة الكتب التي انتقلت مع أولئك المرتحلين من الأندلسيين أو مع طلبة العلم المنتسبين إلى المغرب الأوسط، ويبدو أنّ ذلك كان في القرن الرابع الهجري (10م)، فقد ذكر "ابن فرحون" أنّ فضل بن سلمة البجائي (ت319هـ/931م) كان له مختصر على الواضحة، من أحسن كتب المالكية، فيه تعقيبات وزيادات مفيدة من فقهه¹، وفي ذات السياق ذكر "الحميدي" أنّ سعيد بن فحلون (ت346هـ/957م) و هو أحد المرتحلين إلى بجاية، كانت له سماعات من ابن حبيب، وأنّ من روى عنه "الواضحة" أبو علي الحسين بن يعقوب البجائي، كما أخبر بذلك ابن عبد البر بقوله: "أخبرني بالواضحة لعبد الملك بن حبيب، أبو علي الحسين بن يعقوب عن سعيد بن فحلون، عن يوسف بن يحيى المغامي، عن عبد الملك"².

ورغم ما نالته الواضحة وصاحبها من شهرة في القرنين الثالث والرابع الهجريين (9، 10م) إلّا أنّها انتهت بمصنّف تلميذه محمد العتيبي (ت255هـ/869م) الموسوم بـ "العتيبة"³، فاعتمدها -أهل الأندلس- وهجروا الواضحة وما سواها⁴، وعمد بعض أهل العلم إلى وضع المؤلفات حولها، إمّا بسطا وشرحا، أو تلخيصا واختصارا، أو نقدا وتقويما.

د. مختصر ابن عبد الحكم المصري (ت214هـ/829م)⁵:

يُعتبر كتاب "المختصر" واحدا من أقدم الكتب الفقهية المالكية و أهمّها بعد الموطأ و المدوّنة، ذكر "عياض" بأنّه اختصار لكتب "أشهب" المصري و سماعاته من الإمام مالك، حيث بلغت مسائله الفقهية نحو ثمانية عشر ألف مسألة أو تزيد⁶، أمّا عن حضوره بالمغرب الأوسط فقد ذكر "الغبريني" بأنّه من جملة المصنّفات التي درسها عن مشايخه ببجاية، بل وحفظ لنا حتّى الأسانيد التي كان يُروى بها⁷.

¹ - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص219، 220.

² - ينظر الحميدي، جذوة المقتبس، مصدر سابق، ص195.

³ - تسمّى "العتيبة" نسبة إلى مؤلّفها، كما تسمّى "المستخرجة من السماعات" لأنّ مؤلّفها جمعها واستخرجها من سماعات أحد عشر فقيها عن الإمام الإمام مالك، ممّا لم يرد في المدوّنة، انتهج فيها صاحبها منهج الاختصار و الاقتصار على الفروع، ينظر الهنتاتي: المذهب المالكي، مرجع سابق، ص197. الشرحيلي: تطور المذهب المالكي، مرجع سابق، ص492.

⁴ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ص569.

⁵ - ابن عبد الحكم (ت214هـ): هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث المصري، عدّه ابن فرحون من الطبقة الصغرى من أصحاب مالك من أهل مصر، حيث سمع مالكا والليث و القعني وابن لهيعة وابن عيينة، وروى عنه ابن حبيب وابن المواز و غيرهم، وله من التصانيف المختصر الأكبر و الأوسط و الأصغر، ذكر الشيرازي بأنّ إليه انتهت رئاسة المالكية في مصر بعد أشهب. للمزيد ينظر الشيرازي: طبقات الفقهاء، مصدر سابق، ص151. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص134.

⁶ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج3، ص367.

⁷ - ينظر مختار حساني: الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص134.

هـ. مصنفات ابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م):

الإمام ابن أبي زيد هو إمام المالكية في عصره، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، وهو آخر طبقة المتقدمين وأول طبقة المتأخرين من علماء المذهب، ولعلمه وتمكّنه لُقّب بمالك الصغير¹، له عدّة تصانيف ما بين موجود ومفقود، يعتبر كتاب "الرسالة" أكثرها انتشارا وأعظمها تأثيرا في الدرس الفقهي، كما حظي بالقبول والشهرة -كذلك- مصنفه "مختصر المدونة" الذي حوى خمسين ألف مسألة فقهية، حذف فيها ما كُثّر في المدونة، ورُتب فيها ما كان مفرقا²، أمّا تأليفه الموسوم بـ "التّوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمّهات"³ فقد جاء جامعا لما افترق في أمّهات الكتب المالكية من فوائد وغرائب وزيادات لم ترد في المدونة ووردت في غيرها كواضحة ابن حبيب ومستخرجة العتيبي، وموازية ابن مواز، ومجموع ابن عبدوس وغيرها، لخصها ابن أبي زيد وجمعها موضّحا ومرجّحا ومضيفا إليها اجتهاداته واختياراته وفق أصول المذهب وقواعده⁴.

أمّا عن تداول مصنفات ابن أبي زيد القيرواني بالمغرب الأوسط، و الحال أنّها انتشرت ولقيت القبول في جميع أصقاع العالم الاسلامي⁵، فإنّ تراجم فقهاءنا تقف شاهدة على مدى اهتمامهم بمصنّفات ابن أبي زيد تدرّسا وتأليفا، ففي معرض ترجمته للفقهاء عبد الرحيم بن أحمد الكتامي (ت413هـ/1022م) يذكر "الحجوي" بأنّه سمع عن أبي زيد كتابيه "التّوادر" و"المختصر"⁶، كما يذكر صاحب "الصلة" بأنّ الفقيه أبا إسحاق إبراهيم بن جعفر المعروف بابن الأشيري (ت435هـ/1044م) له اختصار على مختصر ابن أبي زيد⁷، وألّف الفقيه البجائي ناصر الدين المشذلي (ت731هـ/1331م) شرحا على الرسالة، قال "الغبريني" بأنّه لم يستكمل⁸، وذكر "التجبي" في برنامجه بأنّه قرأه عليه جميعه ببجاية⁹، كما ألّف عليها ابن قنفذ (ت810هـ/1407م) شرحا في أربعة أربعة أسفار، سمّاه "تقريب الدلالة في شرح الرسالة"¹⁰.

¹ - حميد بن محمد لحمر: فتاوى الإمام بن أبي زيد القيرواني، دار اللطائف، القاهرة، مصر، 2012م، ج1، ص58.

² - حميد بن محمد لحمر: المرجع نفسه، ج1، ص59.

³ - ميكوشموراني: دراسات في مصادر الفقه الاسلامي، مرجع سابق، ص68.

⁴ - الشرحبيلي: تطوّر المذهب المالكي في الغرب الاسلامي، مرجع سابق، ص425، 430.

⁵ - عن انتشار مصنفات القيرواني في الافاق أورد الدبّاغ نصّا أشار فيه إلى أنّ مصنّف الرسالة بلغ -في حياة مؤلّفه- العراق و اليمن و الحجاز و الشام و مصر وبلاد النوبة وصقلية، وجميع بلاد إفريقية و المغرب و الأندلس وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كُتبت بماء الذهب، بل وبيعت نسخة منها ببغداد في حلقة الأبحري بعشرين دينارا ذهبيا. للمزيد ينظر الدبّاغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص138.

⁶ - ينظر الحجوي: الفكر السامي، مرجع سابق، ج2، ص235.

⁷ - ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص96.

⁸ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص230.

⁹ - التجبي: برنامج التجبي، مصدر سابق، ص267.

¹⁰ - ابن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب: مصدر سابق، ص237.

و. تهذيب البراذعي (ت بعد 373هـ/983م):

هو عبارة عن تهذيب واختصار لمُدونة سحنون، وأشبه ما يكون بتصحيح لمختصر ابن أبي زيد عن المدونة¹، كان كان من الكتب المعتمدة عند المالكية، بل ظلّت عليه الفتوى، وظلّ المقرّر في الدراسات الفقهية -بالمغرب الأوسط- على مدار أربعة قرون قبل أن يزحزحه مختصر ابن الحاجب²، فقد ذكر الغبريني أنّ الفقيه محمد بن أبي بكر القلعي (ت بعد 660هـ/1262م) كان له ببجاية مجلس خاص يُقرأ عليه فيه "التهذيب"³.

ز. تفرّيع ابن الجلاب البغدادى (ت 378هـ/988م):

يعتبر كتاب "التفرّيع" من أهمّ المصنّفات الفقهية التي أنتجتها المدرسة المالكية البغدادية في القرن الرابع الهجري (10م)، وهو عبارة عن مختصر فقهي جامع لكلّ أبواب الفقه على المذهب المالكي، بلغت عدد مسأله ثمانية عشر ألف مسألة فقهية⁴، واعتمده المالكية مشرقاً و مغرباً⁵، فبمغربنا الأوسط يذكر الغبريني أنّه قرأه بالجامع الأعظم على شيخه الفقيه ابن مخلوف (ت 686هـ/1287م)⁶، ويذكر التحيي أنّه سمع طائفة منه تفقها على المفتي الأجل القاضي الأكمل ناصر الدين أبي علي المشدالي بإسناده فيه⁷، كما وردت في ترجمة سليمان الونشريسي (ت 705هـ/1306م) أنّه كان من القائمين عليه المداومين على إقرائه⁸.

ك. تلقين القاضي عبد الوهاب البغدادى (ت 422هـ/1031م):

هو أشهر كتب القاضي عبد الوهاب، يُصنّف من المختصرات السهلة والبسيطة في الفقه المالكي، و عنوانه الكامل "تلقين المبتدي وتذكرة المنتهي"⁹، ربّبه صاحبه على ما اشتهر في كتب الفقه، ولأهمّيته فقد كان هذا المصنّف حاضراً في حلق الدرس بالمغرب الأوسط، ففي ترجمته للفقيه القلعي ابن الرّمامة (ت 567هـ/1172م) يذكر ابن الأبار أنّ من تصانيفه كتاب "التبيين في شرح التلقين"¹⁰، وألّف -كذلك- الفقيه أبو إسحاق

¹ ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج 7، ص 256.

² عمر الجديدي: مباحث في المذهب المالكي، مرجع سابق، ص 78.

³ الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 266. كما ذكر الغبريني أنّ الفقيه أبا الحسن علي الشهير بابن الزيات نزيل بجاية كانت تقرأ عليه سائر

كتب المذهب، ومنها كتاب التهذيب، ينظر عنوان الدراية، ص 197.

⁴ محمد المامي: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، مرجع سابق، ص 252.

⁵ ينظر القرافي: الذخيرة، مصدر سابق، ج 1، ص 36.

⁶ الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 64.

⁷ التحيي: برنامج التحيي: مصدر سابق، ص 270.

⁸ التنبكي: نيل الانتهاج، مصدر سابق، ج 1، ص 183.

⁹ الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 197.

¹⁰ ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج 2، ص 158.

التنسي (ت658هـ/1260م) شرحا كبيرا في عشرة أسفار¹ غير أنّ عوادي الزمن ساهمت في ضياعه واختفائه، كما يذكر الغبريني في ترجمته للشيخ أحمد بن عثمان التونسي الملياني (ت644هـ/1246م) نزيل بجاية، أنّ له تقدّما في التلقين، وله عليه تقييد فيه تنبيهات خفيفة².

ل. مختصر ابن الحاجب المصري (ت646هـ/1248م):

وهو ما يُعرف بـ "جامع الأمّهات" أو "المختصر الفرعي"، وهو متن مختصر في الفقه، استخرجه مؤلفه من ستين كتابا في الفقه المالكي، وصنّفه على طريقة كتاب "الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة"³ لصاحبه "ابن شاس" (ت616هـ/1219م)⁴، هذا الأخير الذي سار على طريقة الغزالي في وجيزه في الفقه الشافعي، إذ لخص فيه طرق أهل المذهب في كلّ باب و عدد أقوالهم في كلّ مسألة، فكان بمثابة البرنامج للمذهب⁵.

أمّا عن دخوله إلى المغرب الأوسط وانتشاره بمواضره، فكما أشرنا إلى ذلك أنّه كان في أواخر المئة السابعة معكبر مشيخة بجاية أبي علي ناصر الدين الزّواوي (ت731هـ/1331م) الذي كان قرأه مع تلامذة ابن الحاجب بمصر، ثمّ نسخه وجاء به فانتشر بقطر بجاية في تلاميذه، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية⁶، و تمدّنا كتب البرامج وتراجم العلماء معلومات قيّمة حول المكانة التي حظي بها هذا الكتاب في حلق العلم، فقد قرأه التحيي ببجاية و أثنى على قيمته العلمية⁷، وقرأه أبو علي منصور بن علي الزواوي نزيل تلمسان⁸، وقرأ -كذلك- "المجاري" حظّا حظّا وافرا من بيوع ابن الحاجب بالجامع الأعظم تفقها على الشيخ أبي القاسم المشدالي، وحاز ابن مرزوق الخطيب على إجازة فيه عن طريق فاطمة بنت محمد التي كان قد أجازها ابن الحاجب بجميع تصانيفه⁹.

¹ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص67.

² - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق،

³ - للاطلاع على مدى التقارب بين الكتابين (مختصر ابن الحاجب، و الجواهر الثمينة) مضمونا و شكلا ينظر جوهار محمد: المختصرات الفقهية في المذهب المالكي، رسالة دكتوراه تحت إشراف السعيد بوركبة، دار الحديث الحسنية، المملكة المغربية، د ت، ص 803.

⁴ - ابن شاس: هو العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار الجذامي السعديّ المصريّ، شيخ المالكية، وصاحب كتاب «الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة». كان من كبار الأئمة العاملين، حجّ في أواخر عمره ورجع فامتنع من الفتيا إلى أن مات مجاهدا في سبيل الله، في حدود رجب من سنة ستّ عشرة وستّ مائة. ينظر ابن العماد دمشقي: المصدر السابق، ج7، ص123.

⁵ - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص570.

⁶ - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص570، 571.

⁷ - التحيي: برنامج التحيي، مصدر سابق، ص272.

⁸ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص293.

⁹ - ابن غازي: فهرس ابن غازي، مصدر سابق، ص185.

هذا والجدير بالذكر أنّ هناك مصنّفات فقهية أخرى كانت حاضرة على مستوى المقررات الدراسية بالمغرب الأوسط لكن ليس على نطاق واسع كالتي أثبتنا، ومنها كتاب "الكافي"¹ لابن عبد البر (ت463هـ/1071م)، وكتايب "البيان والتحصيل"² و"المقدمات والممهدات"³ لابن رشد الجد (ت520هـ/1126م) وغيرها، كما أنّ هناك مصنّفات أخرى لقت رواجاً كبيراً لاسيما في القرن التاسع الهجري (15م) وبعده، أي خارج الإطار الزمني لدراستنا، ككتايب "التوضيح"⁴ و"المختصر"⁵ للشيخ خليل بن إسحاق المصري، المعروف بالجندي (ت767هـ/1366م)، و"المختصر الفرعي"⁶ لابن عرفة الورغمي التونسي (ت803هـ/1401م)، و"المقدمة الوغليسية"⁷ لعبد الرحمان الوغليسي البجائي (ت786هـ/1384م).

2. كتب الأصول⁸ والقواعد الفقهية:

- 1 - كتاب مختصر في الفقه المالكي، يعدّ من أبرز مؤلفات "ابن عبد البر"، اعتمد فيه على المشهور من أمهات الكتب المالكية، واقتصر فيه على أصحّ أصح الآراء وأوثقها، ينظر ابن عبد البر، أبو عمرو يوسف بن عبد الله (ت463هـ): الكافي في فقه المدينة، محمد أحمد ولد ماديك الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، السعودية، ط2، 1400هـ/1980م، ج1، ص138.
- 2 - اسمه الكامل "البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة"، وهو من أهم الكتب المالكية المعتمدة في التدريس والإفتاء، وتكمن أهميته في كونه استوعب مسائل "المستخرجة" و"المدونة". ينظر ابن رشد القرطبي، أبو الوليد (ت520هـ): البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، تح محمد حجي وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ/1988م، ج1، ص30 وما بعدها.
- 3 - عنوانه الكامل "المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات"، وهو عبارة عن مدخل وتمهيد للمدونة يقعد ويؤصل للمسائل ويناقش الخلاف الفقهي ويوجه لآراء المذهب المالكي في مقابلة حجج الآراء الأخرى، ينظر محمد بن حسن شريحيلي: تطور المذهب المالكي، مرجع سابق، ص539 وما بعدها.
- 4 - كتاب "التوضيح" في الفقه المالكي هو عبارة عن شرح على كتاب جامع الأمهات (المختصر الفرعي) لابن الحاجب، لقي قبولا ونال مكانة في أوساط الفقهاء المغاربة، قال عنه ابن مرزوق الحفيد: "شرح مبارك لين تلقاه الناس بالقبول". ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص170.
- 5 - "مختصر خليل" في الفقه المالكي، أعاد فيه مؤلفه الاعتبار للمنهج الفقهي المالكي الصرف، بعيدا عن تأثيرات الشافعية، وقد اعتمد في ذلك على المدونة أساسا، ثم على أقوال كتب أربعة من أقطاب المذهب، وهم ابن يونس واللخمي والمازري وابن رشد، لذلك فقد تبوأ مكانة مميزة عند المالكية، فدرسوه، وألفوا عليه شروحا وتعليقات، ينظر محمد بن حسن شريحيلي: تطور المذهب المالكي، مرجع سابق، ص553.
- 6 - المختصر الفقهي لابن عرفة من بين أهم المؤلفات الفقهية في المذهب المالكي نظرا لاختصاره المبسط لمجموع القواعد وأقوال المالكية، معتمدا بدرجة بدرجة أولى على المدونة في ترجيح قول على آخر، وقد استشهد به صاحب "الدرر المكنونة" في واحد وعشرين موضعا، ما يدلّ على أهمية هذا الكتاب بالنسبة لعلماء المغرب الأوسط. ينظر ابن عرفة الورغمي التونسي، محمد (ت803هـ): المختصر الفقهي، تص و تع حافظ عبد الرحمان محمد خير، مسجد ومركز الفاروق، دبي، الإمارات العربية، ط1، 1435هـ/2014م، ج1، ص29.
- 7 - الوغليسية مقدمة في فقه العبادات اقتصر فيها مؤلفها على القول المشهور في المذهب المالكي، مركزا على أسرار أحكام العبادات، ينظر الطاهر بونابي: أبو زيد عبد الرحمان الوغليسي الفقيه الصوفي، مرجع سابق، ص89 وما بعدها.
- 8 - وردت عدّة تعريفات لعلم أصول الفقه، تتفق كلّها على أنّ محور هذا العلم يدور حول معرفة الأدلة الفقهية وكيفية استنباط الأحكام الشرعية منها، ولعلّ أوعب هذه التعريفات وأجزها هو: "معرفة أدلة الفقه إجمالا (القرآن، السنّة، الإجماع....)، وكيفية استنباط الأحكام الشرعية منها (أي معرفة قواعد استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية)، وحال المستفيد (أي معرفة حالة المجتهد والمقلّد)". ينظر وهبة الزحيلي: أصول الفقه ومدارس البحث فيه، دار المكني، دمشق، سوريا، ط1، 1420هـ/2000م، ص07.

برزت معالم علم أصول الفقه بنحو متكامل على يد الإمام الشافعي (ت204هـ/820م) في كتابه "الرسالة"¹ الذي أثار فيه الطريق لمن بعده من العلماء لتأصيل مباحث هذا العلم وقواعده ومناهجه، ثم توالى تأليف العلماء في هذا الفن وفي طريقة بحثه في اتجاهين -أو لنقل مدرستين- مختلفتين، مدرسة المتكلمين، ومدرسة الفقهاء²، ما أدى بعد ذلك إلى ظهور مدرسة ثالثة توفيقية جامعة بين طريقة المتكلمين الشافعية، وطريقة الفقهاء الحنفية. أمّا عن الحضور الأصولي لدى فقهاء المغرب الأوسط فإنّ بعض الباحثين نفى وجود هذا العلم لدى مالكية المغرب عموماً قبل القرن الخامس الهجري (11م)، إن تدرّيساً أو تأليفاً³، في حين ذهب آخرون إلى التعاطي المغربي الأصولي -ولو بضَعْفٍ- استناداً على ما ذكره القاضي عياض من أنّ الشيخ أحمد بن نصر الداودي (ت402هـ/1012م) واضع الأسس الأولى للتأليف الفقهي بالمغرب الأوسط له كتاب في هذا الفن موسوم بـ "الأصول"⁴، وبقي هذا العلم في التطوّر والانتشار بالتزامن مع دخول المصنّفات المشرقية التي انبرى لها علماء المغرب الأوسط بالدرس و التأليف ، فكان ممّن ألّف فيه -في القرن 6هـ- ابن الرّمّامة (ت567هـ/1172م) الذي ذكر صاحب "الذيل" أنّ له مختصراً نبيلاً في أصول الفقه⁵، كما ألّف أبو علي الحسن بن علي المسيلي (ت580هـ/1184م) كتاب "النبراس في الرد على منكري القياس"⁶، وكان من جلّة التصانيف المشرقية التي لقيت رواجاً بحلق الدرس المغربي، كتاب "المستصفى في علم الأصول" لأبي حامد الغزالي (ت505هـ/1112م) الذي قام على شرحه في القرن السادس الهجري (12م) فقيه تلمسان علي بن عبد الرحمان بن قنون (ت575هـ/1179م) في مصنّفه "المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى"⁷، وفي القرن السابع الهجري (13م) ظهر هذا الكتاب ضمن برنامج مشيخة الغبريني ببجاية⁸، كما تواصلت الشروحات و التقييدات حوله، فألّف محمّد بن سحنون الكومي الندرومي (ت624هـ/1227م) كتاب "اختصار المستصفى"⁹،

¹ - ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص576.

² - لُب الخلاف بين المدرستين يكمن في أنّ المدرسة الأولى (الكلامية) ترى استنباط القاعدة الفقهية من الأدلّة الكلية دون النظر إلى المسائل الفرعية، بينما تذهب المدرسة الفقهية الحنفية إلى استنباط القواعد من الفروع الفقهية التي قرّرها أئمة المذهب. ينظر وهب الزحيلي: أصول الفقه، مرجع سابق، ص20 وما بعدها.

³ - يستند أصحاب هذا الرأي على ما ذكره ابن رشد الحفيد (ت595هـ) من عدم وجود هذا العلم لدى مالكية المغرب. ينظر كتابه: فصل المقال في في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تح محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، ص27.

⁴ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص103.

⁵ - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة، مصدر سابق، ص327.

⁶ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص33.

⁷ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص72.

⁸ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص358.

المستصفي¹، وذكر "ابن الأتار" في معرض ترجمته للفقير محمد بن إبراهيم المهري (ت 612هـ/1215م)² أن له تقييدا على المستصفي³.

كما تأتي - كذلك - مصنفات الفقيه الأصولي فخر الدين الرازي (ت 606هـ/1210م)⁴ من ضمن الكتب الأصولية المشرقية التي اشتغل عليها فقهاء المغرب قراءة وتلخيصا، وأيا كان الذي جلبها إلى البلاد المغرب، أبو العباس أحمد بن عيسى الغماري (ت 682هـ/1283م)⁵ شيخ الغبريني، أو ابن زيتون التونسي (ت 691هـ/1292م)⁶، فقد نقل لنا الغبريني جزءا من النقاشات التي دارت بين مالكية بجاية ومالكية تونس حول منهج الرازي في كتابيه "المعالم" و"الحصول"، و المعروف بمنهج المتأخرين القائم على إدماج علوم المنطق و الفلسفة، وإعمال العقل في الاستدلالات الأصولية، وهو المنهج الذي وصفه الغبريني بالطرق المغفلة والقوانين المغلفة في أصول الفقه⁷، أما عن الشروحات التي ألّفت حولها فإننا نسجل شرحين لكتاب "المعالم" أحدهما ذكره "المقري" للتميمي⁸، و الآخر ألّفه الحسن بن حسن أبو علي البجائي (ت 754هـ/1353م)، و الموسوم بـ "شرح المعالم للرازي"⁹.

¹ - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 330.

² - ورد ذكره عند الغبريني "الفهري"، ينظر عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 208.

³ - ينظر ابن الأتار: التكملة، مصدر سابق، ج 2، ص 163.

⁴ - فخر الدين الرازي: هو الإمام المفسر، والفقيه الأصولي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، فخر الدين الرازي، قرشي النسب، شافعي المذهب، أشعري العقيدة، أصله من طبرستان، ومولده في "الري" سنة 544هـ و إليها نسبته "الرازي"، ويقال له "ابن خطيب الري" لأن والده أحد كبار علماء الشافعية كان خطيبا في مدينة "الري"، له تصانيف غزيرة في شتى فنون المعرفة، منها "المعالم" و"الحصول" في أصول الفقه، توفي بكرة سنة 606هـ. للمزيد ينظر ابن التلمساني، أبو محمد الفهري المصري (644هـ): شرح المعالم في أصول الفقه، تح عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ/1999م، ج 1، ص 101.

⁵ - أحمد بن عيسى الغماري (ت 682هـ/1283م): هو الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمان الغماري، رحل إلى المشرق وقرأ وجدّ وحصل وأتقن، له علم بالفقه والأصولين، ومشاركة في علم الأدب، ذكر المقري أنه أول من أدخل معالم فخر الدين الرازي إلى بلاد المغرب، للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 79. الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 93. المقري: نفح الطيب، مصدر سابق، ج 5، ص 221.

⁶ - ابن زيتون التونسي: هو فقيه إفريقية وقاضيهما أبو القاسم بن أبي بكر بن مسافر بن أبي بكر بن أحمد اليميني التونسي المعروف بابن زيتون تولى القضاء القضاء مرتين ورحل للمشرق مرتين الأولى سنة 648 هـ أخذ فيها عن أعلام منهم سراج الدين الأرموي والعز بن عبد السلام وفخر الدين الرازي، والثانية سنة 656 هـ أتى فيها بتعاليم المشرق، مولده بتونس سنة 621 هـ ووفاته بما يوم الاثنين السابع لشهر رمضان المعظم عام 691 ودفن يوم الثلاثاء بجبل المنارة خارج مدينة تونس. للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 362. الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 97.

⁷ - ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 358.

⁸ - هو القاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي، أدرك ابن زيتون وولي قضاء تلمسان مرات. ينظر المقري: أزهار الرياض، مصدر سابق، ج 5، ص 49.

⁹ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 158.

ويعتبر مصنف ابن الحاجب المصري (ت 646هـ/1248م) الموسوم بـ "مختصر منتهى السؤل و الأمل في علمي الأصول والجدل" الذي جلبه ناصر الدين المشدالي (ت 731هـ/1331م) إلى بلاد المغرب، بمثابة الوجه الجديد لهذا الفن، حيث جاء هذا المؤلف على منهج المدرسة التوفيقية بين مدرسة المتكلمين و مدرسة الفقهاء¹، كما جاء جامعا بين منهج المتقدمين و المتأخرين في طرق الاستدلال و مآخذ الخلاف، ويبدو من خلال تتبع كتب الفهارس و التراجم أنّ هذا المصنف قد استحوز على حلق العلم خلال المائة الثامنة (14هـ) لاسيما بحاضرتي بجاية و تلمسان، فقد أثبتته التحجبي في برنامجه²، وذكره ابن غازي في سلسلة مروياته³، ونصّ المجاري على السند الذي قرأه به عن ابن مرزوق الحفيد⁴، أمّا عن الشّروحات التي ألّفت حوله في هذه المائة فقد ذكرت لنا المصادر شرحا لابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ/1407م) سمّاه "تفهيم الطالب لمسائل ابن الحاجب"⁵، كما أضاف "ابن فرحون" في معرض تراجمه شرحا لقاسم بن سعيد العقباني (ت 854هـ/1450م)⁶، وآخر ليحيى بن موسى الرهوني (ت 773هـ/1372م) سمّاه "تحفة المسؤل في شرح مختصر منتهى السؤل"⁷.

وفي إطار حديثنا عن المصنّفات الأصولية، يجدر بنا التعرّيج على مدوّن الشريف التلمساني (ت 771هـ/1370م) و الموسوم بـ "مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول"⁸ الذي يُعدّ من أهمّ الكتابات الأصولية التي لاقت اهتمام المشاركة والمغاربة على حدّ سواء، حيث نحى فيه مؤلّفه منحى تجديديا، جمع فيه بين منهج المتكلمين و الفقهاء⁹، مبرزاً أدلّة المالكية غير منغلقة عليها، إذ يعرض الأقوال و الخلافات في المذهب ثمّ يقارنها بآراء المذاهب الأخرى¹⁰، ما أضفى على هذا المصنّف قيمة علمية جعلت شرّاحه يشيرون إلى عظم قيمته رغم صغر حجمه.

¹ - لمزيد التفاصيل عن أسلوبه ومنهجه ينظر ابن الحاجب: مختصر منتهى السؤل، مصدر سابق، ص 116. ص 130.

² - التحجبي: برنامج التحجبي، مصدر سابق، ص 274.

³ - ابن غازي: فهرس ابن غازي، مصدر سابق، ص 185.

⁴ - المجاري: برنامج المجاري، مصدر سابق، ص 134، 135.

⁵ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 309.

⁶ - عمر كحالة: معجم المؤلفين، مصدر سابق، ج 8، ص 101.

⁷ - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 355.

⁸ - سُمّي كذلك بـ "المفتاح في أصول الفقه"، ينظر الحجوي: الفكر السامي، مرجع سابق، ج 2، ص 289. محمد مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ص 337.

⁹ - ينظر ضيف الله بن هادي بن علي: أصول الفقه في القرن الثامن الهجري، دراسة تاريخية تحليلية، رسالة دكتوراه، إشراف عبد الكريم بن علي النملة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، 1426هـ، ص 848.

¹⁰ - الشريف التلمساني، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 771هـ): مفتاح الوصول إلى علم الأصول، تح محمد علي فركوس، المكتبة المكية، مكة، السعودية، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، ط 1، 1419هـ/1998م، ص 9.

كما لا يفوتنا في هذا الباب عمل الإمام المقرئ الجد (ت759هـ/1358م) في كتابه الذي ضمّنه أزيد من ألف ومائتي قاعدة فقهية، فعُدّ من أوسع كتب القواعد الفقهية عند المالكية، وإن كان لم يتقيد فيه برأي الإمام مالك وأصحابه، بل كان يبحث مسالك المذاهب الفقهية الأخرى مقارنا و مناقشا ومرجّحا، قال فيه الونشريسي: "كتاب غزير العلم كثير الفوائد، لم يسبق لمثله، لكن يحتاج لعالم فتّاح"¹، أمّا مصنّفه الموسوم بـ "عمل من طبّ لمن لمن حبّ" فقد وضعه خصيصا - كما أشار في مقدمته - لتنمية الملكة الفقهية للمتعلّمين، فضمّنه من أحاديث الأحكام أصحّها، ومن كلياتها أصلحها، ومن قواعدها أوضحها، ومن حكمها أملحها²، و هو إلى جانب كتابه كتابه "مائة مسألة فقهية مع أصولها"³ ليظهر مدى اهتمام الإمام المقرئ وبراعته في التأليف التعقيدي في المذهب المالكي.

3. آليات وطرق تدريس المقررات الفقهية والأصولية:

عرفت طرق إلقاء الدرس الفقهي و الأصولي بحواضر المغرب الأوسط تباينا واختلافا بين حاضرة وأخرى وبين شيخ وآخر، وبين مرحلة وأخرى، ويمكن أن نلخصها في ثلاث طرق على النحو التالي:

أ. طريقة التلقين و التحفيظ:

كانت هذه الطريقة هي السائدة في القرون المحرّية الأولى، وعادة ما تتمّ في الكُتّاب، حيث يجلس المُعلّم وسط الحلقة، ويملي على الطلبة شيئا من القرآن أو الحديث أو المتون وهم يكتبون، ثمّ يستظهرون ما حفظوه على شيخهم، أو يُلقّن الشيخ تلامذته مشافهة وهم يكرّرون حتّى يتمّ الحفظ، وما يدلّ على كثرة انتشار هذه الطريقة ما حكاه عبد الرحمان الجيلاني في معرض حديثه عن الحياة العلمية في العهد الحمّادي قائلا: "وأعجب من ذلك أنّ هناك من العوام وأشباههم من كان يحفظ عن ظهر قلب من أمّهات كتب الفقه كصحيح البخاري وموطأ مالك ومدوّنة سحنون وتلقين عبد الوهاب البغدادي حفظا لا بأس به"⁴، وفي ذات العهد يروي لنا ياقوت الحموي ما نصّه: "قال أبو طاهر بن سكينه: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتي الضيرير بالشعر يقول: حضرت هارون بن النضر الريغي بالريغ في قراءة كتاب البخاري والموطأ وغيرهما عليه وكان يتكلّم على معاني الحديث وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب ورأيت يقرأ كتاب التلقين لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك من حفظه

¹ - التنبكّي: كفاية المحتاج، مصدر سابق، ج2، 67.

² - المقرئ، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت759هـ): عمل من طبّ لمن حبّ، تحأبؤ الفضل بدر بن عبد الإله العمراني الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص35.

³ - ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص289. محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلّفات المذهب المالكي، الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، المغرب، ط01، 2012م، ص248.

⁴ - عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ج1، ص384.

كما يقرأ الإنسان فاتحة الكتاب ويحضر عنده دوين مائة طالب لقراءة المدونة وغيرها من كتب المذهب عليه¹، أمّا شهادة أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) التي قال فيها: "و قد سمعنا أنّ بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة، وأمّا اللاتي يحفظن ابن الحاجب فلا يعلم عددهنّ إلا الله"² فإنّنا نستشفّ منها أنّ هذه الطريقة بقيت متداولة في المغرب الأوسط إلى فترات متأخرة.

ب. طريقة اختيار كتاب فقهي أو أصولي وشرحه:

وهي طريقة تقليدية كذلك، تمارس مع العامة في المراحل الأولى، كما تمارس في مرحلة التعليم الاحترافي بالمدرسة أو المسجد الجامع، و فيها يقوم الطالب بقراءة نص المسألة أو الحديث من المصنّف المختار، ثمّ يقوم الشيخ بشرحه وتبسيط مفرداته ومعانيه، حسب غزارة علمه وسعة اطلاعه، والطلبة سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة³، ومن أمثلة ذلك ما ذكره "الغبريني" عن الشيخ أحمد بن عجلان القيسي (ت678هـ/1279م) الذي استوطن بجاية مدّة من الزمان وأقرأ بها، فكان إذا جلس للإقراء يحضر بين يديه الكتب المقرّوة عليه، فإذا فتح الطالب الكتاب، أخذ هو الكتاب في يديه، ويقرأ الطالب وتقع المعارضة، وحينئذ يقع الشرح منه لما يقرأه القارئ⁴، وحفظ لنا لسان الدين ابن الخطيب نقلا عن المقرّي الجّد جملة من النماذج منها أنّ الفقيه أبا زيد ابن الإمامكانيقول، فيما جاء من الأحاديث⁵: ما معنى قول ابن أبي زيد القيرواني: «وإذا سلّم الإمام، فلا يلبث بعد سلامه ولينصرف⁶»، وذلك بعد أن ينتظر من يسلم من خلفه لئلا يمر بين يديه أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالدخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة. وقلت: وهذا من ملح الفقيه⁷

ج. طريقة التباحث و التناقش في مسألة أو مبحث من مباحث كتاب:

أفادتنا المصادر بعدّة نماذج من هذه الطريقة التي عُرفت بحواضر المغرب الأوسط -خصوصا- بعد عودة طلبة العلم الذين شدّوا الرحال إلى الحواضر المشرقية بهدف توسيع المعارف ولقاء المشايخ، من أمثال أحمد بن عيسى

¹ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج3، ص113.

² - الورثياني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الآثار، مصدر سابق، ص37.

³ - هذه الطريقة أعابها ابن خلدون لقصور ملكة المتعلّم على الحفظ، وعدم الحصول على طائل من ملكة المناظرة والتصرف في علمه. ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص545.

⁴ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص99.

⁵ - ومنها الحديث الذي روته عائشة أنّ النبي ﷺ كان إذا سلّم لم يقعد إلّا مقدار ما يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» ينظر صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص414.

⁶ - ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله (ت386هـ): الرسالة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ت، ص37.

⁷ - لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج2، ص136.

الغماري (ت682هـ/1283م) الذي ذكر "الغبريني" بأنه حضر دروسه وشاهدها، فوصفها قائلاً: "فيكثر البحث وتحدّ القرائح، ويجيء بالمسألة الخلافية فيرتضي أحد وجهيها، فيبحث عليه إلى أن يظهر الرجحان ويقع التسليم"¹، ومنهم -كذلك- أبو علي ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1331م)، الذي ذكر التحيي بأنه كان يحضر درسه ببجاية، وقد وقف عليه يعلم تلامذته طرق البحث ومآخذ الخلاف، فيعرض عليهم الأسئلة و ينتظر الجواب وإذا اعترض طالب صاحبه في مسألة استفهمه عما قال، فإن فهمه تركه يعترض عليه، وإلا قال: أنت لا تعلم ما قال، فكيف تعترض عليه؟²

ومن أمثلة هذه النقاشات الفقهية والأصولية التي حفظتها لنا المصادر، ما نقله لنا صاحب "أزهار الرياض" من أنّ الإمام محمد المقرئ الجد (ت759هـ/1358م) شهد مجلساً قرأ فيه عن أبي زيد عبد الرحمان بن الإمام (ت741هـ/1341م) حديث ﴿لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ³﴾، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوي⁴: هذا الملقن محتضر حقيقة ميت مجازاً، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم، والأصل الحقيقة فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه، وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت: زعم القرائي أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال، مجازاً في الاستقبال، مختلفاً في الماضي، إذا كان محكوماً به، أما إذا كان متعلق الحكم كما هنا فهو حقيقة مطلقاً إجماعاً، وعلى هذا التقرير لا مجاز، فلا سؤال، لا يقال: إنه احتج على ذلك بما فيه نظر، لأننا نقول: إنه نقل الإجماع، وهو أحد الأربعة التي لا يطالب مدعيها بالدليل، كما ذكر أيضاً، بل نقول: إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق، كما أساء اللخمي وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها، بل هذا أشنع، لكونه مما عُلِم من الدين بالضرورة، ثم إننا لو سلمنا نفي الإجماع فلنا أن نقول: إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة، لأتلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين، أي لقنو من تحكمون أنه ميت، أو نقول: إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه: هل أخذ من حضور الملائكة، أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس، ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصبها دليلاً على

¹ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص93.

² - التنبكي: كفاية المحتاج، مصدر سابق، ج2، ص248.

³ - الحديث في صحيح مسلم، ينظر أبو الحسن، مسلم بن الحجاج (ت261هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت، ج2، ص631.

⁴ - إبراهيم بن حكم السلوي (ت737هـ/1337م): هو أبو إسحاق إبراهيم بن حكم الكناني السلوي، من شيوخ أبي عبد الله محمد المقرئ، الذي قال عنه "شيخنا مشكاة الأنوار يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار"، دخل تلمسان بعد العشرين وسبعمئة، ولم يزل بها إلى أن قُتل سنة 737هـ. للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص41. المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج5، ص224.

الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها، وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضاً مما لا يعرف بنفسه، بل بالعلامات، فلما وجب اعتبارها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها¹.

ثالثاً: مميزات التصنيف وخصوصيات الفتوى عند فقهاء مدرسة المغرب الأوسط

1. مميزات التصنيف الفقهي و الأصولي:

بالرغم من أنّ المدونات الفقهية (الأمّهات) كانت هي أساس العلم والتعليم و الفتيا و القضاء ببلاد المغرب، إلّا أنّ هذا لم يمنع فقهاء المغرب الأوسط من المساهمة في ترسيخ المذهب المالكي بجملة من المؤلفات الفقهية والأصولية، سارت قبل القرن السابع الهجري (13م) - في الغالب - في اتجاه الدفاع و الذود عن الفقه و العقيدة السنّية، والرّد عن المذاهب المخالفة (الإباضي، الشيعي، الموحدية...)، نلمس ذلك - مثلاً - في المسائل التي تطرّق إليها الداودي (ت402هـ/1012م) في كتابه "الأموال" الذي وضّح فيه أحكام أغلب المعاملات المالية كمسألة الخمس² التي فرضها الشيعة على العامّة قهراً باعتبارها حقّاً من حقوق آل البيت، كما ألّف في هذا الاتجاه أبو علي الحسن بن علي المسيلي الملقب بأبي حامد الصغير (ت580هـ/1184م) كتاباً في أصول الفقه سمّاه "النبراس في الرّد على منكري القياس"³، أمّا مصنّفات ما بعد القرن السابع الهجري فإنّها تميّزت عموماً بما يلي:

أ. الاختصار⁴ والتهديب:

إنّ المتبّع لمصنّفات فقهاء المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، يلاحظ شيوع ظاهرة المختصرات التي يبدو أنّها لم تطل كتب الفقه فقط، بل صارت منهجاً رامه المؤلفون في شتى العلوم، خصوصاً بعد القرن السابع الهجري (13م)⁵، ولعلّ المبتغى من ذلك هو جمع ما في كُتب المذهب من فروع متفرقة، وضّم المسائل المتشابهة إلى بعضها، وجمع الأسفار إلى سفر واحد، و تخفيف المشاق و تكثير العلم و تقليل الزمن⁶، لكنّ هذه المقاصد النبيلة

¹ - المقري: أزهار الرياض، مصدر سابق، ج5، ص19.

² - الداودي: كتاب الأموال، مصدر سابق، ص10 وما بعدها.

³ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص33.

⁴ - اختصار الكلام في اللغة هو إيجازه، والاختصار في كل شيء أن تحذف منه الفضول، وقيل "هو الإتيان بالمعنى الكثير في اللفظ القليل، ومثله الإيجاز". ينظر ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص243. أبو العباس الهلالي: نور البصر في شرح خطبة المختصر للعلامة خليل، مرا و تص، محمد محمود ولد محمد الأمين، دار يوسف بن تاشفين، مكتبة الإمام مالك، مورتانيا، ط1، ص15.

⁵ - عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً كاملاً في كثرة الاختصارات، وذكر أسبابها وتداعياتها، وشرح نتائجها التي أدّت إلى الإخلال بالتحصيل وفساد التعليم، ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص733.

⁶ - للمزيد عن أسباب شيوع ظاهرة الاختصار والأهداف المرجوة منها ينظر أحمد خويلدي: المختصرات الفقهية في المذهب المالكي: نشأتها، أسبابها، أهدافها وجهود الفقهاء الجزائريين، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية، جامعة الوادي، الجزائر، مج05، ع02، 2019م، ص57، 59.

النبيلة أفسدتها ألغاز المختصرات التي احتاج متداولوها إلى شروح و تفسيرات¹، ويمكننا في هذا الباب التمييز بين الاختصار و التهذيب، فأما الاختصار فنقصد به تلك المصنفات التي ألفها أصحابها ابتداءً مختصرة في ألفاظها، مجردة من الدليل، مقتصرة على إيراد المشهور من أقوال المذهب، ومن أمثلتها عند متقدمي فقهاءنا كتاب "الواعي"² في الفقه لأبي جعفر أحمد بن منصور الداودي (ت402هـ/1012م)، أما عند المتأخرين فمنها "المقدمة الوغليسية"³ لأبي زيد عبد الرحمن الوغليسي (ت786هـ/1384م).

أما التهذيب⁴ فهو أن يعمد الفقهاء إلى مؤلفات مطوّلة غُنيّت بذكر الأدلة والأحاديث بأسانيدھا، وسرد الأقوال المتعدّدة في المسائل الواحدة، فيختصرونها بحذف الأسانيد والاستطرادات، والاقتصار على الرأي الراجح أو المشهور منها، ومن أمثلة ذلك عند فقهاء المغرب الأوسط، "مختصر الواضحة" لفضل بن سلمة الجهنبي البجائي (ت319هـ/931م)، قال عنه ابن فرحون "هو من أحسن كتب المالكيين"⁵، ومنها "مختصر جامع ابن يونس" لعيسى أبو الروح المنجلاقي الزواوي (ت743هـ/1342م)⁶.

ب. الشروحات والتعليقات و الحواشي:

أما الشروح⁷ فهي تلك المصنّفات التي غُنيّت بتفصيل وتوضيح ما جاء موجزا أو غامضا في أمّهات الكتب المالكية، أو في تلك المختصرات التي شاعت بعد القرن السادس الهجري كمختصر ابن الحاجب الفرعي، ومختصر خليل بن إسحاق المصري، وقد ظهرت عناية فقهاء المغرب الأوسط بهذا النوع من التصنيف في وقت مبكرٍ بغرض بسط المسائل الفقهية المعقّدة وتقريبها لطلبة العلم، ومن أهمّ هذه الشروح وأولّها تلك التي عنيت بتحقيق وشرح المسائل الفقهية التي تضمّنها موطأ مالك ككتاب "النّامي في شرح الموطأ"⁸ للداودي، وكتاب "تفسير الموطأ"¹

¹ - ينظر ألفرد بل: الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي، مرجع سابق، ص361.

² - ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص102. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص35.

³ - ينظر الوغليسي، أبو زيد عبد الرحمن (ت786هـ): المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية، تح محمد أمل نجيب، مركز نجيبويه

للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 1427هـ/2007م، ص14.

⁴ - التهذيب في اللغة هو التنقية و الإصلاح، ومنه هذب النخلة أي نقى عنها الليف، ورجل مهذب مطهر الأخلاق. ينظر الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مصدر سابق، ص144.

⁵ - وذكر ابن فرحون أنّ له - كذلك - مختصرا على المدونة، ومختصرا لكتاب ابن الموّاز، ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص219، 220.

⁶ - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص183.

⁷ - شرح الشيء يشرحه شرحاً، فتحه وبيّنه وكشفه، وشرح مسألة مشكلة: بيّنها، وشرحت الغامض إذا فسّرتّه، وشرح المشكل من الكلام: بسطه وإظهار وإظهار ما خفي من معناه، ينظر ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص497. محمد زين الدين، ابن تاج العارفين (ت1031هـ): التوقيف

على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1410هـ/1990م، ص203.

⁸ - حتّى وإن كانت النصوص المصدريّة تعوزنا في تبيان أهمية هذا الكتاب وحضوره بخلق الدرس في المغرب الأوسط فإنّ كتب الفهارس والبرامج الأندلسية بيّنت تعدّد روائه وأسانيد هذا المصنّف، ممّا يبيّن المكانة الهامة التي حظي بها في الحواضر الأندلسية، ينظر في ذلك القاضي عياض: الغنية،

مصدر سابق، ص106. ابن خير: فهرسة ابن خير، مصدر سابق، ص76.

للبيوني، أما من المتأخرين فتذكر المصادر أنَّ أبا عمران موسى الزناتي² كان له شرح على الموطأ³ وآخر على المدونة⁴ وثالث على رسالة ابن أبي زيد⁵.

ومن أمتهات الكتب التي غني فقهاء المغرب الأوسط بشرحها كذلك، كتاب "التلقين" للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت 422هـ/1031م)، حيث ألّف عليه الفقيه القلعي ابن الرّامة (567هـ/1172م) كتاباً سمّاه "التبيين في شرح التلقين"⁶، كما ألّف عليه أبو إسحاق التنسي (ت 680هـ/1281م) شرحاً من عشرة أسفار⁷ ضاع في الحصار المريني لتلمسان، أما المختصرات التي نالت عناية الفقهاء -ليس بالشرح فقط- بل بالحفظ والتدريس كذلك، فإنّ مختصر ابن الحاجب الفرعي حاز الريادة في ذلك، إذ أقبل عليه الطلبة بالحفظ والدراسة وتأليف الشروحات و التعليقات عليه بعد دخوله إلى بجاية نهاية المائة السابعة، فلا تكاد تخلو ترجمة علم من أعلام المائة الثامنة بالمغرب الأوسط من ذكر له، ومن أبرز تلك الشروحات⁸ كتاب "إيضاح السبيل إلى القصد الجليل في علم الخليل"⁹ لأحمد بن عباس النقاوسي (ت بعد 765هـ/1364م)، وكتاب "إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب"¹⁰ لابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م)...، أما الحواشي والتعليقات التي ألّفت على مختصر ابن الحاجب فكثيرة هي الأخرى، منها "درر القلائد" لأبي عبد الله المقرئ (ت 759هـ/1358م)¹¹

ج. التأليف في الفقه التطبيقي

- ¹ - وهو محقق ومطبوع، ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج 7، ص 259. ابن فرحون: الديباج المذهب، مصدر سابق، ص 345. البيوني: تفسير الموطأ، مصدر سابق، مج 1، ص 48، 49.
- ² - موسى بن أبي علي الزناتي (ت 8هـ/14م): هو الفقيه الصالح أبو عمران موسى بن أبي علي الزناتي، الزموري مولداً ومنشأً، نزل مراكش وبها توفي ودُفن، قيل في العشرة الأولى من المائة الثامنة وقيل سنة 772هـ، والأولى أرجح، من آثاره شرح لرسالة ابن أبي زيد في جزئين، وشرح للمدونة و الموطأ، وكتاب في المولد النبوي، ينظر ترجمته عند التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 604. عباس بن إبراهيم السملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مرا عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط 2، 1413هـ/1993م، ج 7، ص 299.
- ³ - ذكره التنبكي في معرض ترجمته لأبي العباس المراكشي المعروف بابن البتّا (ت 721هـ)، ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 85.
- ⁴ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 604.
- ⁵ - ذكره ابن مريم في معرض ترجمته لسيد محمد بن عبد الرحمان الوهراني (ق 10هـ)، ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 262.
- ⁶ - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج 2، ص 158.
- ⁷ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 67. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 38.
- ⁸ - ذكرنا -من قبل- شروحات علماء بجاية على مختصر ابن الحاجب الفرعي، ينظر المبحث الأول من الفصل الثالث، "المدرسة المالكية ببجاية الحفصية"
- ⁹ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 95.
- ¹⁰ - ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 189.
- ¹¹ - ينظر أبو عبد الله المقرئ (ت 759هـ): جامع الأمهات ومعه درر القلائد وغرر الطرر والفوائد، جمع أبي العباس الونشريسي، تح أبي الفضل بدر العمراني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1425هـ/2004م، ص 04

• علم الفرائض¹:

ويدخل هذا العلم ضمن أصناف الفقه التطبيقي، ذلك أنه يجمع بين الفقه و الحساب و العدد في تقسيم ممتلكات المتوفي بين ورثته واقعياً لا نظرياً، و يهتم به -في الغالب- الأئمة و القضاة بحكم التصاقه المتين بواقع العلاقات الاجتماعية و الأسرية التي تدخل ضمن اختصاص هذه الفئة من الفقهاء، وقد عرّف التأليف في هذا الفنّ بالمغرب الأوسط تأخراً مقارنة بأصناف العلوم الأخرى، فألّف فيه الفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحيى (ت بعد 585هـ/1189م) منظومة فرضية²، ثمّ اشتهرت فيه "الأرجوزة التلمسانية"³ لإبراهيم بن أبي بكر بكر التلمساني الوشقي (ت 697هـ/1298م)⁴، التي لاقت عناية علماء المغرب الأوسط و غيرهم، حفظا و شرحا و تدريسا و بياناً، ولعلّ من أبرز شروحها⁵ -في المائة الثامنة- شرح أبي الحسن عبد الرحمان بن يحيى العصنوني المغيلي⁶، كما لاقى مصنّف "المختصر في الفرائض" لأبي القاسم أحمد بن محمد الحوفي (ت 588هـ/1192م)⁷ اهتمام فقهاء المغرب الأوسط، وهو إذ يُعدّ من المختصرات فقد ألّفت عليه شروح و أراجيز كثيرة، فكان من أبرز الذين تناولوا هذا المصنّف بالفقه سعيد بن محمد

¹ - علم الفرائض أو علم الموارث هو علم بقواعد فقهية وحسابية، يُعرف بما نصيب كل وارث من التركة، والموارث في الأصل جمع ميراث. ولفظ ميراث يطلق في اللغة العربية على معينين؛ أحدهما: البقاء، وثانيهما: انتقال الشيء من قوم إلى آخرين، ويطلق في الشريعة الإسلامية على استحقاق الإنسان شيئاً بعد موت مالكه بسبب مخصوص، وشروط مخصوصة، يُنظر محمد خيرى المفتي: علم الفرائض والموارث في الشريعة الإسلامية والقانون السوري، د د، 1398هـ/1978م، ص 06.

² - الغريبي: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 45.

³ - تسمّى أيضاً "تبصرة البادي في الفرائض، تذكرة الشادي المجيد الفارض"، وتضمّ 834 بيتاً، أمّتها صاحبها في منتصف جمادى الآخرة من عام 635هـ، وعمره لم يتجاوز العشرين سنة، ينظر التحجيبي: برنامج التحجيبي، مصدر سابق، ص 276. ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 90.

⁴ - إبراهيم بن أبي بكر التلمساني (ت 697هـ/1298م): هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني الوشقي، أديب وفقيه عالم بالفرائض، مولده بتلمسان سنة 609هـ، استوطن غرناطة ثلاثة أعوام وانتقل إلى مالقة ثم استقر في سبتة إلى أن توفي بها سنة 697هـ. اشتهر بمنظومة له في (الفرائض) تعرف بالأرجوزة التلمسانية، قال ابن فرحون: لم يؤلّف في فنّها مثلاً. وله تأليف أخرى، منها كتاب المع في الفقه وشرح على ابن الجلاب، وقصيدة في المولد الكريم. ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 90. ابن القاضي: درة المجال، مصدر سابق، ص 177. محمد مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج 1، ص 290.

⁵ - عن أهمّ شروحات الأرجوزة التلمسانية ينظر بوبكر زاوي: إسهامات فقهاء المغرب الأوسط في المدونة الفقهية المالكية (ق 4-10هـ/10-16م)، رسالة دكتوراه، إشراف د/نصر الدين بن داوود، جامعة تلمسان، الجزائر، 2019/2018م، ص 243، 244.

⁶ - ينظر عمر كحالة: معجم المؤلفين، مرجع سابق، ج 5، ص 198. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص 307.

⁷ - أحمد بن محمد الحوفي (ت 588هـ/1292م): هو القاضي والفقيه المالكي أبو القاسم أحمد بن محمد بن خلف الإشبيلي الحوفي نسبة إلى "حوف" مصر، كان من بيت علم وعدالة، فقيهاً حافظاً حاضر الذكر للمسائل، بصيراً بعقد الشروط، فرضياً ماهراً وله في الفرائض تصانيف أشهرها "مختصر الحوفي"، أخذ عن أبي بكر بن العربي وأبي طاهر السلفي وقاضي الحرمين أبي المظفر وغيرهم، تولى قضاء أشبيلية مرتين فشكرت سيرته في أحكامه وسلك سبيل النزاهة والعدل والجزالة واشتد بأسه على أهل الشر ويقال: إنه لم يأخذ على القضاء أجراً وإنه كان يعيش أيام قضاائه من صيد السمك مرة في الأسبوع يبيعه ويقتات بثمنه حتى خلصه الله عز وجل من القضاء. توفي في شعبان من سنة 588هـ. ينظر ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 53، 54. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مصدر سابق، ج 1، ص 229.

العقباني (ت 811هـ/1408م)¹، أمّا عن المصنّفات المؤلّفة ابتداء في علم الفرائض فقد ذكر صاحب البستان أنّ لابن القنفذ القسنطيني (ت 808هـ/1406م) مصنّفا موسوما بـ "معونة الرائض في علم الفرائض"²، وآخر موسوم بـ "بغية الفارض من الحساب و الفرائض"³ ذكره "التنبكّي" في الكفاية. ويُعتبر أبو القاسم عبد الرحمان بن يحيى القرشي (ت 580هـ/1184م)⁴ نزيل بجاية، مبتكر طريقة جديدة في حساب الأنصبة، اعتمد فيها على تجزئة فريضة الميراث إلى أقلّ عدد لا كسر فيه⁵، وهي الطريقة التي أثنى عليها سعيد العقباني في شرحه لمختصر الحوفي⁶، وسار عليها أحمد بن محمد بن زاغو (ت 845هـ/1441م) في مصنّفه "منتهى التوضيح في عمل الفرائض من الواحد الصحيح"⁷، وبها قرأ القلصادي (ت 891هـ/1486م) "مختصر الحوفي" على مشايخه بتلمسان⁸.

• علم الوثائق⁹ و العقود:

يعتبر فنّ التوثيق من فنون الفقه التطبيقي الذي أولته الشريعة الاسلامية اهتماما خاصا لما له من أهمية بالغة في حماية الحقوق وصيانة الأعراض وحفظ الأموال و الأنفس، بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾¹⁰ وأمره ﷺ عليّا بن أبي طالب ﷺ بكتابة الصلح يوم

¹ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 106. ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص 124. المجاري: برنامج المجاري، مصدر سابق، ص 129.

² - ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 308.

³ - التنبكّي: كفاية المحتاج، مصدر سابق، ج 1، ص 104.

⁴ - عبد الرحمان بن يحيى القرشي (ت 580هـ/1184م): هو أبو القاسم عبد الرحمان بن يحيى بن الحسن القرشي الأموي الإشبيلي، الفقيه المحدث المقرئ المتبحر في علم العدد والهندسة، لم تذكر المصادر عن مولده ونشأته إلّا أنّه سليل أسرة علم وصلاح، وأنّه نزل بجاية بعد منتصف المائة السادسة، وبها مكث ونشر علمه إلى أن توفّي سنة 580هـ، من تلاميذه عبد الحق الإشبيلي (ت 582هـ). للمزيد ينظر أبو جعفر الضبي: بغية الملتبس، مصدر سابق، ص 372. الذهبي: تاريخ الاسلام، مصدر سابق، ج 41، ص 400. ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج 3، ص 33.

⁵ - لمعرفة المزيد عن هذه الطريقة ينظر عبد الله محمد المذكوري: طريقة أبي القاسم عبد الرحمان بن يحيى القرشي في حل المسائل الفرضية دراسة وتحقيق، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والدراسات الاسلامية، مج 20، ع 01، شعبان 1444هـ/مارس 2020م، ص 495 وما بعدها.

⁶ - ينظر السطّي، أبو عبد الله محمد بن سليمان (ت 750هـ): شرح مختصر الحوفي، تح يحيى بوعرورو، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 1، 1430هـ/2009م، مج 1، ص 169.

⁷ - بشر ضيف: مصادر الفقه المالكي، مرجع سابق، ص 90.

⁸ - ينظر القلصادي: رحلة القلصادي، مصدر سابق، ص 99، ص 101، ص 107.

⁹ - يقال التوثيق، و الوثائق، جمع وثيقة، و هو في اللغة ربط الشيء لئلا ينفلت و يذهب، و هو علم ينظّم سير العلاقات بين الناس و يحدّد معالم ذلك ذلك التعامل بين الناس طبقا للنصوص الشرعية، واجتهادات الفقهاء، وما جرى به عمل القضاة، من غير إغفال عمل الناس وعاداتهم، فهو علم يبين عناصر كل اتفاقية معقودة بين شخصين أو عدة أشخاص، يضمن استمرارها وأثر مفعولها، ويحسم مادة النزاع بين الأطراف المتعاقدة، موضحا لكل من العاقد والمعقود عليه ما له وما عليه، والذي يتعاطى هذا الفن هم الشهود أو ما يعبر عنهم اصطلاحا "العدول"، ينظر عمر الجيدي: مباحث في المذهب المالكي، مرجع سابق، ص 113.

¹⁰ - سورة البقرة الآية 282.

الحديثة بين يديه ¹، وكان هذا دأب الصحابة والتابعين من بعدهم، فقد روي عن ابن عباس أنه أمر بالشهادة عند المدينة لكيلا يدخل في ذلك جحود ولا نسيان ²، ومن لم يُشهد على ذلك فقد عصي ³، وقال مجاهد: "لا تستجاب دعوة رجل باع ولم يشهد ولم يكتب"، ولأهمية هذا العلم أظهر فقهاء المغرب الأوسط عناية فائقة به، فكان ممن اشتهر فيه الفقيه القاضي ابن هدية القرشي التلمساني (ت 736هـ/1336م) الذي قال عنه صاحب البغية: "عالمٌ خيرٌ من أئمة اللسان والأدب، ذو بصر بالوثائق، مشهور بالفضل والدين" ⁴، كما اشتهر -كذلك- الفقيه البجائي عيسى أبو الروح المنقلاقي الزواوي (ت 743هـ/1342م) فقد ذكر ابن فرحون أنّ له تصنيفاً في الوثائق ⁵، وألّف في هذا المجال -أيضاً- الفقيه القاضي موسى بن عيسى المازوني -والد المازوني صاحب النوازل- مصنفًا سماه "الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق" ⁶، ويعتبر أبو العباس الونشريسي (ت 914هـ/1508م) ⁷ أبرز من كتب في هذا العلم من خلال مصنفه "المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق" الذي أحاط فيه بمختلف الجوانب المتعلقة بالموثق والوثيقة والشهود فيها في ستة عشر باباً مفصلة ⁸.

¹ - ينظر الإمام مسلم: صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 3، ص 258، باب صلح الحديبية، حديث رقم 1783.

² - السيوطي، جلال الدين (ت 911هـ): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ت، ج 2، ص 118.

³ - حمل جمهور الفقهاء أدلة الأمر بالكتب والإشهاد على التدب، إرشادا إلى حفظ الحقوق وإزالة الرتب، ينظر القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط 2، 1384هـ/1964م، ج 3، ص 383.

⁴ - يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ص 153، 154، تر رقم 42.

⁵ - ابن فرحون: الديباج، مصدر سابق، ص 183.

⁶ - ويذكر الباحث "عبد القادر بوعقادة" نقلا عن الأستاذة "بوبة مجاني" أنّ له مصنفًا آخر في هذا الفن بعنوان "فلاحة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي و الشهود، ينظر بوعقادة: الحركة الفقهية في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص 874

⁷ - أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914هـ/1508م): هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، فقيه مفت حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة، وُلد سنة 834هـ، نشأ بتلمسان وأخذ عن علمائها، ثم ارتحل إلى فاس سنة 874هـ واستوطنها إلى أن توفي بها سنة 914هـ مخلفاً تراثاً علمياً هاماً لاسيما في الفقه التطبيقي، ككتاب المعيار المعرب في النوازل، وكتاب المنهج الفائق في الوثائق وغيرها. للمزيد ينظر ابن القاضي: درة الحجال، مصدر سابق، ص 91، 92. المقري: أزهار الرياض، مصدر سابق، ج 3، ص 65. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ص 269. اسماعيل بن محمد البغدادي (ت 1399هـ): إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج 3، ص 113.

⁸ - ينظر الونشريسي، أبو العباس (ت 914هـ): المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق، تح عبد الرحمان الأطرم، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، الإمارات، ط 1، 1426هـ/2005م، ص 118.

2. فقه النوازل¹ بمدرسة المغرب الأوسط:

اشتهرت المدرسة المالكية المغربية عموماً والأوسطية على وجه الخصوص بالتميّز في هذا الفرع من فروع الفقه التطبيقي، الذي يتمثل حصراً في جوابات الفقهاء وفتاويهم حول سؤالات أفراد المجتمع على حاجاته المتعددة، ذلك ما ساهم في التمكين للمذهب المالكي بهذه المجالات، ليس من خلال تصانيف فقهاء ومؤلفاتهم في هذا الفن فحسب، بل ومن خلال احتكاكهم بالمجتمع وتقديم الحلول لمشاكله الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وفق أصول المذهب المالكي، والتلائم في ذات الوقت مع أعراف المجتمع وخصوصياته، حتى أضحت فقهاء المذهب ملجأً وملاذاً آمناً لكل سائل أو باحث عن مخرج شرعي لنازلته.

وبصرف النظر عن التسميات التي أطلقتها المصنّفات الفقهية عن مصطلح "النازلة"²، فإنّها في الجمل تصبّ في معنى واحد مفاده أنّها المشكلة العقدية أو الفقهية أو الأخلاقية التي تواجه الناس في حياتهم، فيلجؤون إلى إيجاد حلّ لها وفق قواعد الشريعة، لأجل أن تكون ممارستهم شرعية تلقى القبول³، أمّا ما تقدّمه لنا النازلة في جانب الدراسات التاريخية⁴ فيتمثل في إعطاء البعد الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي للواقعة، والذي يمكن من خلاله تصوّر ملمح الحياة العامة، وإصدار حكم تاريخي بشأنها، خاصّة إذا كانت النازلة معلومة الزمان والمكان وشخص السائل و المجيب، غير أنّه ومن خلال تفحصنا لكثير من كتب النوازل وقفنا على الكثير منها مجهولة المصدر، دُوّنت بصيغة "سئل فقيه"، بل إنّ بعضها قد يكون أسئلة افتراضية لا يمكن البناء عليها إلّا باجتماع

¹ - فقه النوازل أو "فقه تحقيق المناط" كما يسمّيه الأصوليون، هو فقه له خصوصيته التاريخية والعلمية، إذ يعرض الصناعة الفقهية مرتبطة بحيثاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كما كانت بالفعل، أي تنزيل الأحكام على منازلها الواقعية المرتبطة بالزمان والمكان، وما يعتريهما من نسبية وتغيّرات. ينظر محمد البركة: **فقه النوازل على المذهب المالكي**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010م، ص 07.

² - النوازل في اللغة جمع نازلة، من الفعل نزل ينزل نزولاً، أي حلّ، و التّزول هو الحلول، والنازلة هي المصيبة الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالنّاس، ينظر ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج 11، ص 656. الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 770هـ): **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ج 2، ص 243. أمّا اصطلاحاً فتعددت تعاريفها عند الفقهاء والأصوليين، و هي في مجملها تصبّ في أنّها تطلق على المستحدّات الحادثة التي تستدعي حكماً شرعياً يتطلّب اجتهد المفتي في استنباطه، فيعرفها الدكتور وهبة الزحيلي بأنّها: "المسائل أو المستحدّات الطارئة على المجتمع بسبب توسّع الأعمال وتعدّد المعاملات، والتي لا يوجد نصّ تشريعي مباشر أو اجتهد فقهي سابق ينطبق عليها، وصورها متعدّدة ومختلفة بين البلدان أو الأقاليم، لاختلاف العادات والأعراف المحلية"، ينظر وهبة الزحيلي: **سبل الاستفادة من النوازل والفتاوى والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة**، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط 1، 1421هـ/2001م، ص 09. وعن أهمّ المصطلحات التي أطلقها الفقهاء على "النازلة" ينظر نور الدين أبو لحية: **النوازل الفقهية ومناهج الفقهاء في التعامل معها**، دار الأنوار للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 2، 1436هـ/2015م، ص 10.

³ - عبد القادر يوعقادة: **الحركة الفقهية في المغرب الأوسط**، مرجع سابق، ص 996.

⁴ - للمزيد عن أهمية النوازل في كتب التاريخ ينظر مسعود كربوع: **كتب النوازل بين الاستعمال الفقهي والتوظيف التاريخي (المعيار المعرب للونشريسي أنموذجاً)**، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة، الجزائر، ع 09، مارس 2014م، ص 51 وما بعدها.

قرائن أخرى، كتلك التي ذكرها "المازوني" في دُرِّره من نوع صحّة إمامة الجيّ، وزواج الجيّ بالإنسية، أو المسبوق بركعة في صلاة الصبح وترتبت عليه عشرين سجدة ومع ذلك صحّت صلاته، وغيرها كثير¹

أ. الفتاوى² النّوازية بالمغرب الأوسط:

- بصرف النظر عن التعريفات اللغوية و الاصطلاحية التي وردت عند الباحثين والفقهاء حول مصطلحي "الفتوى" و "النازلة"³، فإنّ أوّل ما يمكن الإشارة إليه في هذا الباب هو الفصل بين الفتوى والنازلة، إذ أنّ الأولى إخبارُ الفقيه بالحكم الشرعي في المسألة التي سئل عنها لا على وجه الإلزام، سواء في القضايا الفقهية من عبادات أو معاملات أو جنائيات كحكم صيام ستة أيام من شوال، أو حكم البيع عند صلاة الجمعة وغيرها، أو في القضايا العقدية، أو قضايا الأخلاق و الآداب وغيرها، والحكم فيها غالبا ما يكون معلوما لغير العامّة، أمّا النازلة فهي التي تخصّ الوقائع التي تقع للفرد أو المجتمع، ومن مبادئها -غالبا- الابتعاد عن الخوض في الفرضيات واستعمال الألباز الفقهية، والحكم فيها يحتاج إلى فقيه باحث مجتهد، ملّم بفتاوى المتقدّمين عالم بقياس الفروع على الأصول، وبذلك تكون الفتوى أعمّ وأشمل من النّازلة⁴، أمّا بخصوص المتصدّرين لها فهم في الغالب الفقهاء المُفتون، وبدرجة أقلّ القضاة، إذ أنّ أغلب النوازل يتمّ البتّ فيها قبل الوصول إلى القضاء⁵.

- ولقد تبوّأت خطّة الإفتاء في منظومة الحكم بالمغرب الأوسط مكانة مرموقة، كما حظي الفقهاء المتصدّرون لها بقيمة اجتماعية رفيعة خصوصا بعد القرن السابع الهجري حيث سيطر الفقهاء المالكية على جميع الخطط الدينية ببلاد المغرب عموما حتّى أضحي هذا المجال يُعرف بهم مذهبيّا، فمن أوائل المفتين الذين ذاع صيتهم بالمغرب

¹ - ينظر المازوني، أبو زكريا يحيى بن عيسى (ت883هـ): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحماحقندوز، رسالة دكتوراه، إشراف أ. د. لحضاري لحضر، جامعة وهران، الجزائر، 2010/2011م، ص413، 435.

² - الفتوى في اللغة هي الجواب، جاء في لسان العرب أفتاه في الأمر: أبانه له، و أفتيت فلانا رؤيا رأها إذا عبّرَها لهوأفتيته في مسألته إذا أجبتة عنها. وفي الحديث: أن قوما تفتاؤا إليه؛ معناه تحاكموا إليه وارتفعوا إليه في الفتيا. ينظر ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص147. أمّا في الاصطلاح فالفتوى هي الإخبار بحكم شرعي على غير وجه الإلزام. ينظر أبو عبد الله المالكي، محمد بن أحمد (ت1299هـ): منح الجليل شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1409هـ/1989م، ج8، ص428. أمّا علم الفتاوى فهو علم يختصّ بدراسة الأحكام الصادرة عن الفقهاء في الوقائع الجزئية، ليسهل الأمر على القاصرين-أي المقلدين- من بعدهم. ينظر أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ/1985م، مج2، ص557.

³ - ينظر عبد العالي بوعلام: منهج العلماء في الاجتهاد في النوازل الفقهية (المفهوم والضوابط)، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنراست، الجزائر، مج13، ع04، س2021، ص595 وما بعدها.

⁴ - ومع ذلك قد جرى العرف في المغرب الإسلامي أن يطلق مصطلح النازلة على الفتوى، ينظر بلشير عمر: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 16 إلى 9هـ من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، إشراف د. غازي الشمري، جامعة وهران، الجزائر، 2010/2009م، ص51.

⁵ - لذلك نجد كتب النوازل و الفتاوى -غالبا- أدقّ وأشمل في تصوير الوقائع من سجلّات القضاء، باستثناء تلك النوازل النزاعية كتلك الخاصة بالأحوال الشخصية والجنائيات، والتي غالبا ما يت فيها القضاء، ينظر عبد القادر بوعقادة: الحركة الفقهية في المغرب الأوسط، مرجع سابق، ص998.

الأوسط الفقيه أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت402هـ/1012م) الذي اشتهر بفتواه المخالفة لعلماء القيروان الذين آثروا العيش تحت سلطة العبيديين، في الوقت الذي كان يرى وجوب الخروج عليهم وعدم مخالطتهم والسكن معهم¹، ومنهم كذلك محمد بن عيسى التاهرتي²، الذي ذكره القاضي عياض ضمن شيوخه، وكان يتولّى إلى جانب الفتوى خطّة القضاء، فكان من أحسن القضاة، وأنزههم في عصره، ومن مفتي المائة السادسة تحدّثنا المصادر عن الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي بن مروان الهمذاني التلمساني (ت601هـ/1205م) الذي وصفه صاحب "الذيل" بأنّه كان حافظاً للمسائل بصيراً بالفتوى في النوازل³، ويحدّثنا الغبريني عن الفقيه أبي علي الحسن بن علي المسيلي (ت580هـ/1184م)، ويصفه بالفقيه المحقّق المحصّل الذي بلغ درجة الاجتهاد، وهو القائل: "أدركت ببجاية تسعين مفتياً ما منهم من يعرف أبا علي المسيلي من يكون"⁴، وهذه -لعمري- شهادة على كثرة المفتين بالمغرب الأوسط خلال المائة السادسة⁵.

أمّا في المائة السابعة والثامنة فقد أفرزت لنا كتب التراجم والطبقات مجموعة من الفقهاء المفتين الذين نالوا مرتبة الاجتهاد⁶، كالفقيه أحمد بن عثمان بن عبد الجبار الملياني (ت644هـ/1246م) الذي جلس ببجاية للفتوى وإقراء الفقه و الأصول بعد رحلته المشرقية، وهو الذي حلّاه القراني بالشيخ الجليل الفاضل المحصّل الواصل درجة الاجتهاد⁷، كما تصف لنا المصادر الفقيه أبا علي ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1331م) بالمتّهد، فقد اطّلع اطّلع على مذاهب الأئمة وانفرد بمعرفة مذهب مالك تحريراً وتمهيداً، تقريراً وترجيحاً، حيث قال عنه تلميذه منصور الزواوي (ت بعد770هـ/1369م): "كان شيخنا ناصر الدين إماماً مجتهداً قطب الفقهاء النظار وإمام الأمصار"⁸، وقال عنه الخطيب ابن مرزوق الجد: "قد وصل شيخنا أبو علي درجة الاجتهاد"⁹، أمّا صهره وتلميذه وتلميذه أبو موسى عمران بن موسى المشدالي (ت745هـ/1344م) الذي حلّته المصادر بالفقيه الحافظ، والمحقّق

¹ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج7، ص103.

² - القاضي عياض: الغنية، مصدر سابق، ص27. ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج2، ص303.

³ - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة، مصدر سابق، ص339.

⁴ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص36.

⁵ - عن أشهر الفقهاء المفتين بالمغرب الأوسط بين القرنين الرابع والسادس المحجرين ينظر سعيدة الوزري: دور فقهاء مالكية المغرب الأوسط في إثراء إثراء التأليف خلال العصر الحمادي ما بين 395-547هـ، رسالة دكتوراه، إشراف د. لطيفة بشاري، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2018/2017م، ص313.

⁶ - ليس المقصود هنا بالمتّهد المطلق المستقل، ولا المجتهد المطلق المنتسب، وإنّما مجتهد المذهب أو مجتهد الترجيح. لأكثر تفاصيل عن مراتب الاجتهاد وحدّ كلّ مرتبة ينظر محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الفقهية الإسلامية المعاصرة، مرجع سابق، ص330 وما بعدها.

⁷ - ينظر القراني: توشيح الديباج، مصدر سابق، ص51. الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص188.

⁸ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص610.

⁹ - التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص610.

العمدة¹، فقد بلغ في الاجتهاد والإفتاء شأوا عظيمًا، حتّى حُلّاه "المقري" بحافظ تلمسان ومدرّسها ومفتيها²، ترك ترك رسالة في اتّخاذ الركاب من خالص الفضّة، ونقل الونشريسي في معياره كثيرا من فتاويه³. واشتهر بحاضرة تلمسان -في هذه المائة- مجموعة من الفقهاء المفتين المجتهدين كالأخوين ابني الإمام، أبي زيد عبد الرحمان (ت743هـ/1342م)، وأبي موسى عيسى (ت749هـ/1348م)، اللذين رحلا إلى المشرق فتفّقها وتمّهرا وتميَزوا وتقدّمَا ثمّ عادا إلى المغربدرسا وأفتيا وفاقا الأقران وصارا عجبا في سرعة الاستحضار وقوّة الجنان والتوسع في المنقول والمعقول⁴ حتّى بلغ صيتهما بلاد المشرق فضلا عن المغرب، وقد ذكر "المقري" أنّهما ناظرا شيخ الاسلام ابن تيمية (ت728هـ/1328م)⁵ وظهر عليه في بعض المسائل⁶، ثمّ نحا نحوهما تلميذهما أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) الذي اعتبره معاصروه -كما المصادر القريبة منه- آخر الأئمّة المجتهدين⁷، الذين الذين انتهت إليهم إمامة المالكية بالمغرب، إذ قال فيه الفقيه ابن عبد السلام التونسي: "ما أظنّ أنّ في المغرب مثل هذا"⁸، وقال عنه صاحب كتاب البستان: "وكان آخر الأئمّة المجتهدين، نسيج وحده فريد عصره في كل طريقة، انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب، وضُرِبَتْ إليه آباط الإبل شرقا وغربا، فهو علم علمائها ورافع لوائها، فحييت به السنة وماتت به البدعة وأظهر من العلم ما بهر به العقول"⁹، كما أشار ذات المصدر إلى الفقيه

¹ - ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص350. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص316.

² - ينظر ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج2، ص123.

³ - القرائي: توشيح الديباج، مصدر سابق، ص143. التنبكي: كفاية المحتاج، مصدر سابق، ج1، ص372. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص316.

⁴ - حَلّاهما تلميذهما "المقري" بالشاخوان والعلمان الراسخان، ينظر ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، ج2، ص123.

⁵ - تقي الدين ابن تيمية (ت728هـ/1328م): هو شيخ الاسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحاراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، وُلِدَ بِحَرَّانَ سنة661هـ، وتحوّل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصّب عليه جماعة من أهلها فشجّجوا مده، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة 712هـ واعتقل بها سنة 720هـ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة728هـ، وخرجت دمشق كلّها في جنازته، جاء في "الدرر الكامنة" أنّه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودّرّس وهو دون العشرين. أما مؤلفاته فقد ذكر صاحب "فوات الوفيات" أنّها بلغت ثلاث مائة مجلّد. ينظر الصفدي، صلاح الدين خليل (ت764هـ): أعيان العصر وأعوان النصر، تح علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ج1، ص233. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج1، ص168. ابن شاکر: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج1، ص74. الزركلي: الأعلام، مصدر سابق، ص144.

⁶ - المقري: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مصدر سابق، ج5، ص216.

⁷ - عن بعض آرائه وفتاويه الاجتهادية الواردة في نوازل المازوني ينظر: غرداوي نور الدين: جهود أبي عبد الله الشريف التلمساني فيمجال الفتوى ودوره في الإشعاع الثقافي بالمغرب الاسلامي خلال العهد الزياني من خلال نوازل المازوني، مجلة المنارة للاستشارات الأكاديمية، ع18، جوان2017م، صص45-54.

⁸ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص165.

⁹ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص167.

أبي عبد الله المقرئ (ت759هـ/1358م) الذي عُدَّ من أشهر الفقهاء المجتهدين الذين أنجبتهم المدرسة المالكية خلال المائة الثامنة¹، فقد كان ينبذ التقليد وينتقد التعصّب و النقل الحرفي لآراء الأولين²، بل تصدّى لأصحاب المواقف التقليدية الجانحة إلى نقل فتاوى السابقين، حيث نُقل عنه -في ذلك- قوله: "اعلم أنّ التقليد هو المعصية التي هي كالطبع لهذا النوع، لأنّه غلب عليه حبّ الخيال والوهم، وقلّ فيه طاعة العقل و الفهم"³، لذلك نجده يقارن في فتاويه وتصانيفه بين فروع المذاهب الأربعة، ويربط الفروع بقواعدها الفقهية، وكانت له آراء اجتهادية اعترض فيها على بعض أقوال فقهاء المذهب، وصحّح فيها أقوال آخرين⁴.

ب. خصائص الفتوى النوازلية بالمغرب الأوسط:

من خلال تصفّح كتب النوازل التي ألّفها فقهاء المغرب الأوسط، يتبيّن أنّ أغلب المسائل التي طُرحت فيها كانت -إلى جانب النوازل الفقهية- تتعلّق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية و الفكرية لمجتمع المغرب الأوسط، كما يتّضح أنّها تتميّز -في الغالب- بالواقعية واعتماد العرف و العادة كمبدأين هامّين لاستصدار الفتوى النوازلية، وهما المبدآن اللذان أرساهما الإمام مالك زعيم هذه المدرسة، فقد كان يتجنّب الخوض في الفرضيات، ويحرص على ألاّ يبحث إلّا في فقه الواقع، قدّم عليه يوما أسد بن الفرات، فكان يسأله عن المسألة - وكان أصحابه يهابونه في السؤال - فإذا أجاب يقولون: قل له فإن كان كذا؟ يقول أسد: فضاق عليّ يوما، وقال: هذه سلسة بنت سلسة، إن أردت هذا فعليك بالعراق⁵، وسأله رجل عراقي عن مسألة لا تُتصوّر، فقال مالك سل عما يكون ودع ما لا يكون. وسأله آخر عن نحو هذا، فلم يجبه. فقال له لم لا تجبني يا أبا عبد الله. فقال له لو سألت عما تنتفع به أجبتك، وقال ابن القاسم كان مالك لا يكاد يجيب وكان أصحابه يحتالون أن يجيء رجل بالمسألة التي يجوبون أن يعلموها كأنها مسألة بلوى (نازلة) فيجيب بها⁶، وأمّا مبدأ العرف والعمل فقد قرّر الإمام مالك - كذلك - عمل أهل المدينة كأصل من أصول مذهبه، ما يوحي بضرورة مراعاة ظروف كلّ قُطر أو إقليم، ومنه استنبط فقهاء

¹ - قال عنه الخطيب ابن مرزوق الجذّ المعاصر له: "كان صاحبنا معلوم القدر مشهور الذكر، ممّن وصل إلى الاجتهاد المذهبي، ودرجة التخيير والتزييف بين الأقوال، وتبعه بعد موته من حسن الثناء وصالح الدّعاء ما يُرجى له به النفع يوم اللقاء، وعوارفه معروفة عند الفقهاء مشهورة عند العلماء" ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص155. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص420.

² - الونشريسي: المعيار، مصدر سابق، ج2، ص483.

³ - ينظر الونشريسي: المعيار، مصدر سابق، ج2، ص483.

⁴ - المقرئ، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت759هـ): القواعد الفقهية، تح أحمد بن عبد الله بن حميد، مركز إحياء التراث الاسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، دت، ص88.

⁵ - مناع بن خليل القطان: تاريخ التشريع الاسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط5، 1422هـ/2001م، ص291.

⁶ - القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج1، ص191.

المالكية مبدأ ما جرى به العمل، أي عدول القاضي أو المفتي عن الراجح والمشهور من المذهب إلى التفات إلى المصلحة مجتلبة أو مفسدة مدفوعة أو عرف جار¹، وهذا الصنيع لا يستطيع القيام به إلا الفقهاء المجتهدون الذين أوتوا حظًا من البصيرة بمقاصد الشرع، والنظر في مصالح الخلق، وهو ما يعطي الفتوى قوة علمية وقبولًا حسنًا عند المستفتي، ومن تطبيقات هذا المبدأ في حواضر المغرب الأوسط ما أفتى به القاضي أبو عمران عيسى بن موسى المغيلي المازوني (ت 9هـ) فيما بينه الغاصب أو يُنشئه تعميرًا في المغمصوب، إذ يقول في كتابه قلادة التسجيلات والعقود: "وما بناها الغاصب أو غرسه خيرًا للمالكين أخذ قيمته منقوصًا بعد إسقاط أجر من يقلع ذلك، وإخلاء البقعة إلا أن يكون الغاصب ممن يتولّد لكبنفسه وهذا فيما كان له قيمة بعد قلعه، ومنغصب خشبًا أو حجرًا أو قرمودًا أو سوارى، فبنى عليها في ملكه كان لربّه قلعه وإن أدى ذلك إلى فساد بناء الغاصب، وقال أشهب لا يهدم وله تركه للغاصب وأخذ قيمته منه يوم غصبه، والعمل عليه، وما أحدثه الغاصب مما لا قدرة على إزالته فربه مخير في أخذه ودفع قيمة ما زاد، أو قيمته يوم غصبه²"، غير أن المشهور في المذهب خلاف ما اختاره المغيلي وجرى به العمل في تلمسان³، وإنما هو قول الإمام "أشهب" رحمه الله⁴.

ومما لمسناه - كذلك - في فتاوي مالكية المغرب الأوسط اختيارهم لآراء فقهية خارجة عن المذهب المالكي أو مخالفة للمشهور منه، ومن أمثلة ذلك ما ورد في جواب أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت 402هـ/1012م) لما سُئل عن بيع برغواطة وشرائهم، وعن غنمهم، وهل تُضرب عليهم الجزية إن أجابوا إلى ذلك بعد القهر؟ وعن قوم ذُكر أنّهم على الكفر بنواحي أشير، وهم من صنهاجة، وهم يزعمون أنّهم من العرب، هل يُحملون محلّ العرب، لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو القتل، وكيف الأمر في الجميع؟ فقلوه فيهم كان مخالفًا لما ورد عن الإمام مالك في المدونة⁵، وهو أن لا يُقبل منهم جزية إن بذلوها، وإنما جاء النصّ في الجزية في أهل الكتاب و المجوس،

¹ - ينظر قطب الريسوني: ما جرى به العمل في الفقه المالكي، نظرية في الميزان، مجلة العدل، ع 43، رجب 1430هـ، ص 21.

² - أبو عمران عيسى بن موسى المغيلي: قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود، تح أحمد لشهب، رسالة دكتوراه، إشراف كمال العربي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2016/2017م، ص 345، 346.

³ - هو أخذ المغمصوب ولو أدى ذلك إلى فساد بناء الغاصب، وهو ما جاء في مدونة سحنون، ونصّ عليه البراذعي في التهذيب، ينظر البراذعي: التهذيب في اختصار المدونة، مصدر سابق، ج 4، ص 95.

⁴ - ومفاده أنه لا يهدم، وله تركه للغاصب وأخذ قيمته منه يوم غصبه، ينظر أبو عبد الله المالكي: منح الجليل شرح مختصر خليل، مرجع سابق، ج 7، ص 102.

⁵ - قال مالك - في المدونة - في مجوس البربر إنّ الجزية أخذها منهم عثمان بن عفّان، قال: قال مالك في المجوس ما قد بلغك عن عبد الرحمن بن عوف أنّه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «ستوا بهم سنة أهل الكتاب» فالأمر كلّها في هذا بمنزلة المجوس عندي. ينظر سحنون بن سعيد التنوخي (ت 240هـ): المدونة، ار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1415هـ/1994م، ج 1، ص 529.

وكذلك القوم من صنهاجة، فمن كان هو المرتد نفسه قُتل وماله للمسلمين، ومن ورث كفره عن آبائه فهو بمنزلة برغواطة، وإنما يُسترقون إذا أسلموا ويُجبرون على الاسلام، وأما من أسر كفره فليس فيه إلا القتل¹.

وفي ذات السياق نسجل اختيار أبي عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) لمذهب عبد الملك بن حبيب الأندلسي المالكي (ت238هـ/852م) في عدم وجوب القضاء على تارك الصلاة عمدا، خلافا لجمهور المالكية الموجبين عليه القضاء، فعمل بقاعدة أن القضاء لا يجب إلا بأمر جديد، وهو ما عليه الجمهور²، واختياره لمذهب الأحناف القائل بأن السنة في رتبة الظهر القبليّة أربع ركعات لا يُسلم بينهما³، خلافا لما عليه مالك والشافعي من استحباب أربع ركعات قبل الظهر يُسلم بعد كل ركعتين⁴، وخلافا للحنابلة القائلين بأن رتبة الظهر القبليّة ركعتان⁵، وقد استدلل في ترجيحه بحديث أبي أيوب الأنصاري "أربع ركعات قبل الظهر لا يفصل بينهما بسلام تُفتح لهن أبواب السماء"⁶، كما لاحظنا هذا التوجه في بعض فتاوي الإمام أبي عبد الله المقرئ (ت759هـ/1358م)، وذلك عند اختياره -مثلا- لقول الشافعي في مشروعية التثليث عند غسل الرجلين في الوضوء⁷، مع أن مشهور مذهب مالك عدم تحديد عدد الغسلات، وإنما فرضها الإنقاء⁸، وقاعدته في ذلك أن أن كلما يستدعي المراد منه تكراره في الغالب لا يُطلب فيه التكرار عند مالك كغسل الرجلين، وظاهر الرسالة طلبه كالشافعي، وهو الصحيح⁹، ومن آرائه الفقهية -كذلك- اختياره لمشروعية الصلاة بالنعل -وهو مذهب الإمام أحمد- استنادا إلى حديث شدد بن أوس "خالفوا اليهود فإنهم لا يُصلّون في نعالهم ولا خفافهم"¹⁰.

¹ ينظر عبد العزيز الصغير دخان: موسوعة الإمام العلامة أحمد بن نصر الداودي، المسيلي، التلمساني، المالكي، في اللغة والحديث والتفسير والفقه، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش، الجزائر، 2013م، ج2، ص263.

² ينظر الشريف التلمساني: مفتاح الوصول، مصدر سابق، ص402، 403.

³ ينظر الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود الحنفي (ت587هـ): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ/1986م، ج1، ص284.

⁴ ينظر الخطاب الرعيني المالكي: مواهب الجليل، مصدر سابق، ج2، ص67. النووي، أبو زكريا محيي الدين الشافعي (ت676هـ): المجموع شرح المذهب (مع تكملة السبكي والمطيعي)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج4، ص56.

⁵ ينظر ابن قدامة المقدسي، موفق الدين عبد الله بن أحمد (ت620هـ): المغني، مكتبة القاهرة، مصر، 1388هـ/1968م، ج2، ص93.

⁶ ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت273هـ): سنن ابن ماجه، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ج1، ص365.

⁷ ينظر فخر الاسلام، محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي الشافعي (ت507هـ): حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، تح ياسين أحمد إبراهيم دراذكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، دار الأرقم، عمان، الأردن، ط1، 1980م، ج1، ص126.

⁸ الخطاب الرعيني المالكي: مواهب الجليل، مصدر سابق، ج1، ص262.

⁹ أبو عبد الله المقرئ: القواعد الفقهية، مصدر سابق، ص310 (قاعدة85).

¹⁰ أبو داود سليمان بن الأشعث (ت275هـ): سنن أبي داود، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ج1، ص176.

ومّا سجلناه كذلك في نوازل المغرب الأوسط ملامستها لجميع نواحي الحياة ذات الصبغة المحليّة وانتقالها بين فقهاء الحواضر مع تعدّد الأقوال فيها، فمن النوازل الاجتماعية مثلاً نازلة إثبات الشرف من جهة الأمّ، التي ذاعت في حواضر المغرّبين الأدنى والأوسط، فقد ورد في "المعيار" أنّه سُئل فيها الفقيه أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م) ومَن في طبقة من العلماء بما نصّه: "الحمد لله سيدي رضي الله عنكم ومتّع المسلمين بحياتكم، جوابكم المبارك في مسألة من أمّه شريفة، هل يثبت له بذلك الشرف أم لا؟ وعلى ثبوته هل يُدعى به، ويستجيب هو إذا دُعي أم لا؟"¹، فكان جوابه بأنّه لا يعلم في المسألة نصّاً للمتقدمين من المالكية ولا المتأخرين، إلّا ما اختلف فيه الفقيه القاضي التونسي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرّبيع (ت733هـ/1333م)² مع فقيه بجاية الشيخ أبي علي ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1331م)، حيث يذهب الأوّل أنّ الشرف لا يثبت من جهة الأمّ بينما يرى المشدالي خلاف ذلك³، أمّا رأي الشريف التلمساني فمفاده أنّه يثبت له شرف الرحم وهو دون شرف النسب، وإذا ثبت ذلك جاز أن يُدعى به، ويستجيب هو لثبوت الصفة المدعو بها له من غير أنفة تلحقه بها، بل له فيها عزّ، وله إليها ميل طبيعي⁴، ولقد أشار ابن عرفة الورغمي (ت803هـ/1401م) في مختصره إلى الخلاف الوارد في هذه النازلة، مستعرضاً قول شيخه الفقيه أبي عبد السلام التونسي (ت749هـ/1348م) المتمسك بأنّ نسب الولد لأبيه لا لأمه⁵، كما تناول هذه القضية فقهاء قسنطينة، قسنطينة، وخاضوا في هذه النازلة الاجتماعية بالمناظرة والتأليف، فكان منهم الفقيه محمد بن عبد الرحمان القسنطيني، الشهير بابن الأكمه (ت807هـ/1405م) الذي ذهب مذهب البجائيين في الإثبات، ومنهم ابن

¹ - ينظر الونشريسي: المعيار، مصدر سابق، ج12، ص207.

² - إبراهيم بن عبد الرّبيع (ت733هـ): قاضي القضاة أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد الرّبيع الربيعي التونسي، وُلد بتونس سنة639هـ، سنة639هـ، وبها نشأ وتعلّم، تولى قضاء الجماعة بها خمس دول أولها سنة 699هـ، كما تولى الخطابة بجامع الزيتونة ثم صرف عنها وامتنح بالعزل والنفي للمهدية والسجن بها، توفّي في رمضان سنة733هـ، ودُفن بترابته المعروفة بتونس، ترك مصنفات كثيرة في فنون مختلفة من العلوم النقلية، منها اختصار لمسائل ابن رشد، وكتاب "البدیع" في شرح التفریع، وغيرها، للمزيد ينظر ابن فرحون: الدياج، مصدر سابق، ص89 (وفيه وفاته سنة734هـ). محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص296.

³ - يُرجع الشريف التلمساني الخلاف بين الفريقين إلى مفهوم الشرف ذاته، فالمقصود بالشرف عند أبي إسحاق هو التّسبب، بينما يُفهم من كلام المشدالي أنّ المقصود بالشرف هو الفضيلة والرفعة والعلو على الغير، ينظر: الونشريسي، المعيار، مصدر سابق، ج12، ص211.

⁴ - ينظر الونشريسي: المعيار، مصدر سابق، ج12، ص207.

⁵ - وذكر ابن عرفة أنّ هذا قول بعض من لقيه من الفاسيين، وأشار إلى أنّه لو تزوّج يهودي أو نصراني - بعد عتقه وإسلامه - شريفة فلا يُعقل أن يكون يكون ولده منها شريفاً، ينظر ابن عرفة الورغمي التونسي: المختصر الفقهي، مصدر سابق، ج8، ص478.

قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) الذي جنح إلى رأي فقهاء تونس في النفي¹، مخالفاً لرأي شيخه الفقيه حسن بن أبي القاسم بن باديس (ت787هـ/1385م)².

ومن النوازل الفكرية والكلامية التي راجت بين حواضر المغرب الأوسط وتعددت أقوال الفقهاء فيها كذلك، نازلة إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت505هـ/1112م)، بعد فتوى قاضي قرطبة ابن حمدين سنة503هـ/1110م، فكان ممن ذهب في هذا الطرح الفقيه أبو حفص عمر بن عتيق القلعي (ت550هـ/1155م) الذي كان معارضاً للتوجه الغزالي، منكرًا على من يريد قراءة كتابه، وأورد الونشريسي في المعيار أنه سئل أبو العباس القباب (ت779هـ/1377م)³ عن جماعة من الطلبة يطعنون في كتاب الغزالي المشهور بالإحياء، وبالع بعضهم في ذلك بقوله ليس ذلك بإحياء علوم الدين وإنما هو إماتة علوم الدين، فهل لإنكارهم وجه، أم هو جهل منهم؟ فأجاب بأن هذا قول منكر وكلام مبتدع وغبي جاهل بحق الرجل وحق كتابه⁴، وأثر عن فقهاء تلمسان أنهم راسلوا كلاً من الفقيهين أبي الفضل يوسف بن النحوي (ت513هـ/1119م)، وأبي زكريا يحيى ابن أبي ملول الزناتي القلعي نزيل الاسكندرية، بخصوص قولهما في كتاب الإحياء؟ هل النظر فيه جائز؟ وهل وضعه على مذهب أهل السنة؟⁵ فحرّر الفقيه أبو زكريا الزناتي جواباً ناقش فيه الانتقادات الموجهة إلى هذا الكتاب و المتعلقة بالعقيدة والفقه و التصوف و غيرها في كتابه الموسوم بـ "كتاب انتصار الإمام الزناتي لأبي حامد لما في الإحياء من كلام سليم"⁶، أما أبو الفضل النحوي فقد تحدّث في

¹ - ينظر ابن قنفذ: شرف الطالب، مصدر سابق، ص38.

² - حسن بن أبي القاسم بن باديس (ت787هـ/1385م): هو الفقيه القاضي المحدث الشهير أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس، وُلد مطلع القرن الثامن الهجري (14م)، روى عن ناصر الدين المشذلي، وابن غريون البجائي، والقاضي ابن عبد الرّيع التونسي، وعنه أخذ ابن قنفذ القسنطيني، وتوفي وهو قاض بقسنطينة سنة787هـ، وله تقايد منها شرح مختصر ابن فارس في السيرة، وكتاب النفحات القدسية، للمزيد ينظر ابن قنفذ: الوفيات، مصدر سابق، ص376 (وفيه ولد سنة707هـ). التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص155. عمر كحالة: معجم المؤلفين، مرجع سابق، ج3، ص270. محمد الحفناوي: تعريف الخلف، مرجع سابق، ج2، ص218، 219 (وفيه ولد سنة701هـ).

³ - أحمد بن قاسم القباب (ت779هـ/1377م): هو أبو العباس، أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي، الشهير بالقباب، فقيه وقاض مالكي، مولده ووفاته بفاس، تولى القضاء و الفتيا بها، أخذ عن ابن فرحون والسطي وغيرهما، وعنه أخذ ابن قنفذ القسنطيني والإمام الشاطبي وغيرهما، له عدّة مؤلفات وفتاوى مشهورة نقل البرزلي بعضاً منها في ديوانه، والونشريسي في معياره، توفي سنة778هـ وقيل سنة779هـ، للمزيد ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص102، ابن الخطيب: الإحاطة، مصدر سابق، ج1، ص71. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص338.

⁴ - الونشريسي: المعيار، مصدر سابق، ج12، ص184.

⁵ - ينظر نص رسالة فقهاء تلمسان عند محمد المغراوي وآخرون: متنوعات محمود حجي، مرجع سابق، ص125.

⁶ - شحوم سعدي: فتوى الإمام أبي زكريا الزناتي في الانتصار لأبي حامد الغزالي، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع03، جوان2016م، ص13.

جوابه عن أبي حامد ومكانته وفضله¹، وطلبه الهداية لمن تعدى على حرمان العلماء²، ويروى عنه أنه أولى عناية كبيرة بهذا الكتاب فقد ذكر تلميذه ابن الرمامة أنه دخل يوما إلى منزله فوجد "بين يديه كرسي عليه أسفار جديدة التفسير" وكتبا كثيرة في جوانب البيت فسأله عن ما بيديه فقال له: "هذا كتاب "الإحياء" لأبي حامد، ولو اقتنيت قبل هذه الكتب لم أكسب كتابا منها"³، وأورد صاحب "البستان" أنه لما أفتى الفقهاء بحرق الإحياء، ووصل كتاب علي بن يوسف اللمتوني بذلك، وتحليف الناس بالآيمان المغلظة أن ليس عندهم الإحياء، انتصر وكتب إلى السلطان، وأفتى بعدم لزوم تلك الآيمان، وانتسخ الإحياء في ثلاثين جزءا، يقرأ منه كل يوم جزءا في رمضان، وقال وددت أيّ لم أنظر في عمري سواه⁴.

ج. التأليف النوازلي عند فقهاء المغرب الأوسط:

بالرغم من اهتمام فقهاء المغرب الأوسط بالقضايا النوازلية، ومساهمة الكثير منهم في هذا الشأن، إلا أنّ التأليف النوازلي في بداية الفترة الوسيطة كان محتشما لا يكاد يُرى له أثر، شفيعنا في ذلك ما لمسنه في المصنّفات النوازلية المتأخرة كنوازل البرزلي (ت844هـ/1440م)⁵ ودرر المازوني (ت883هـ/1478م) ومعيّار الونشريسي (ت914هـ/1508م) والتي كانت تحوي العديد من فتاوي فقهاء المغرب الأوسط المتقدمين، ما يوحي بحضورهم واهتمامهم بهذا المسلك الفقهي وعنايتهم به.

وإذا ما تتبعنا أشكال التأليف و تطورها - في هذا الفن - عند فقهاء المغرب الأوسط، فإننا نسجّل ثلاثة أنواع من التصنيف النوازلي، نوعٌ جاء عبارة عن جوابات فقيهٍ معيّن للنوازل التي طُرحت عليه، بينما تناولت مصنّفات النوع الثاني نازلةً فقهية واحدة، فكانت عبارة عن فتوى لمؤلفها، تناولها بالشرح والتحليل أو بإعطاء آراء معاصريه فيها، وجمعها في كتاب أو تقييد صغير، في حين جاءت مصنّفات النوع الثالث كموسوعات نوازلية رصدت لنا فتاوى علماء المغرب الأوسط وغيرهم من المعاصرين للمؤلف، ومن الذين تقدّموا عنه، فكانت أشبه ما تكون بخزان للفتاوى و النوازل، وسنحاول رصد نماذج لكل نوع كما يلي:

¹ - للاطلاع على نص رسالة فقهاء تلمسان، وجواب أبي الفضل عليها ينظر الملحق رقم 08.

² - عبد الرحمان بدوي: مؤلفات الغزالي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1977م، ص113.

³ - ينظر الفاسي: المستفاد من مناقب العباد، مصدر سابق، ق02، ص172.

⁴ - ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص301. التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص624.

⁵ - أبو القاسم البرزلي (ت844هـ): هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني المالكي الشهير بالبرزلي، وُلد سنة 740هـ بالقيروان وبها وبها نشأ، رحل إلى القاهرة وحجّ سنة 800هـ، ثم عاد إلى تونس وشغل إماما مفتيا وواعظا بجامع الزيتونة، توفّي سنة 844هـ وقيل 841هـ وقيل 843هـ، من أشهر مؤلفاته كتاب "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالفتين والحكام" المعروف بـ "نوازل البرزلي". للمزيد عن ترجمته ينظر السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج11، ص133 (وفيه أبو القسم). التنبكي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص368. عمر كحالة: معجم المؤلفين، مصدر سابق، ج8، ص94.

فمن مؤلفات النوع الأول كتاب "الأسئلة والأجوبة" لأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت402هـ) وهو يضم بالإضافة إلى أجوبة الداودي عددا لا بأس منه من فتاوى علماء تلمسان قبل العهد الزياني¹، ومنها كتاب "الفتاوى"² لأبي عبد الحق الإشبيلي (ت581هـ/1185م)، وكتابان لمحمد بن عبد الحق بن سليمان الندرومي (ت625هـ/1228م) هما "إرشاد المسترشد وبغية المريد المستبصر المجتهد"³ و"الأجوبة المحررة على المسائل المغيرة"⁴، كما ألّف في هذا الصنف الفقيه أبو علي بن زكون التلمساني (ت553هـ/1158م) كتابه الموسوم بـ "اعتماد الحكام في مسائل الأحكام وتبيين شرائع الإسلام من حلال أو حرام"⁵.

أمّا من نماذج النوع الثاني نجد نازلة إثبات الشرف من جهة الأمّ التي ألّف فيها محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن الأكمه القسنطيني (ت807هـ/1405م) مصنّفه "إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأمّ" طرح فيه أقوال الفقهاء وأدلّتهم في موضوع الشرف من جهة الأمّ إثباتا ونفيا، فصدّره باختلاف علماء تونس وبجاية فيها سنة ستّ وعشرين وسبعمئة، حيث منعه التونسيون وأثبتته البجائيون، قال وأنا معهم بل هو قول ابن الغماز من علماء تونس وابن دقيق العيد وأشياخنا بني باديس رحمهم الله⁶، فقدّم بذلك نموذجا لتلك النقاشات الفقهية التي كانت جارية في حواضر المغرب الأوسط. وساهم ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) كذلك في هذا النقاش العلمي بمؤلّفه "تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد"⁷ جنح فيه إلى رأي علماء تونس في نفي إثبات إثبات الشرف من جهة الأمّ، ثمّ ألّف في ذات الموضوع تلميذه ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ/1439م) مصنّفه "إسماع الصم في إثبات الشرف للأمّ"⁸ الذي انتصر فيه لرأي علماء بجاية، وخالف مذهب شيخه ابن القنفذ.

وقد أشار ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/1379م) في مسنده إلى أنّ كثيرا من المسائل كان يدور حولها النقاش، وتُصنّف فيها التأليف، فكان ممّا ذكر مسألة اتّخاذ سلاح الحرب من خالص الذهب والفضة، التي كتب فيها علماء أهل فاس وأهل تلمسان، فصنّف فيها الفقيه ابن عبد الكريم من أهل فاس، والفقيه أبو موسى عمران

¹ - محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، مرجع سابق، ص315.

² - ذكره الونشريسي في المعيار، ينظر ج8، ص338.

³ - ينظر ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، مصدر سابق، سفر8، ص319. محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، مرجع سابق، ص243.

⁴ - ينظر ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، المصدر نفسه، سفر8، ص319.

⁵ - مؤلف ضخم، توجد الأجزاء 7، 8، 9، 10 مخطوطة بالخرانة العامة بالرباط بعدد(413ق)، ينظر محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، مرجع سابق، ص287.

⁶ - ينظر السخاوي: الضوء اللامع، مصدر سابق، ج8، ص48.

⁷ - ينظر ابن قنفذ القسنطيني: شرف الطالب، مصدر سابق، ص38.

⁸ - ينظر ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص211. وقد تمّ تحقيق كتاب الأكمه وكتاب ابن مرزوق في مصنّف واحد، من قبل الباحثة "مريم لولو"، ينظر الملاحق (صورة رقم 07).

المشذلي من أهل تلمسان¹، وقالوا بجواز ذلك، بينما ذهب أبو موسى عيسى بن الإمام (ت749هـ/1348م) والزاهد عبد العزيز القروي (ت) إلى المنع مستدلّين بأدلة نصبوها².

وفي ذات السياق حكى ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) عن مساهمة والده الحسن بن علي (ت750هـ/1349م) في التأليف النوازي بمصنّفين أحدهما موسوم بـ "المسائل المسطّرة في النوازل الفقهية" والثاني موسوم بـ "المسنون في أحكام الطاعون" والذي ألّفه بسبب اختلاف الطلبة في الفرار من هذه النازلة (الطاعون)، وتحدث فيه عن الوباء وأحكامه الشرعية والأحاديث الواردة فيه³.

أمّا الصنف الثالث من التأليف النوازي، والذي يُعدّ بمثابة الموسوعات الفقهية فإنّه انتشر عند فقهاء المغرب الأوسط بعد القرن الثامن الهجري (14م)، ولعلّ أبرز من ألّف فيه قاضي مازونة وفقهها أبو زكريا يحيى بن أبي عمران المازوني (ت883هـ/1478م) في مصنّفه الشهير "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" الذي يعتبر من الكتب الجامعة لتراث مالكي موسوعي ضخّم⁴، ثمّ جاء من بعده الفقيه أبو العباس أحمد الونشريسي (ت914هـ/1508م) بمؤلفه النوازي الضخم والموسوم بـ "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب" الذي جمع فيه ما يزيد عن الألفين ومائة وخمس وثلاثين فتوى من أجوبة المتأخرين و المتقدمين، وربّتها على أبواب الفقه ليسهل الأمر فيها على الناظرين⁵.

رابعاً: روافد المدرسة الفقهية بالمغرب الأوسط

1. التوجّه الأشعري عقيدة:

يعود إطلاق لفظ الأشعرية إلى المذهب العقدي الذي يُنسب لأصحاب أبي الحسن الأشعري (ت324هـ/936م)⁶ بعد انفصاله عن المعتزلة، وجعل مذهبه وسطاً بين غلوهم في اعتماد العقل، وبين

¹ - ينظر التنبكتي: نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص352.

² - ينظر ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن، مصدر سابق، ص131.

³ - ينظر ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، مصدر سابق، ص44، 45.

⁴ - الكتاب مطبوع ومحقّق عدّة تحقيقات، ينظر بوبكر زاوي: إسهامات فقهاء المغرب الأوسط في المدونة الفقهية المالكية، مرجع سابق، ص256.

⁵ - ينظر الونشريسي: المعيار، مصدر سابق ج1، ص1. بلبشير عمر: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى والأقصى من القرن 6 إلى 9هـ من خلال كتاب المعيار للونشريسي، مرجع سابق، ص59.

⁶ - أبو الحسن الأشعري (ت324هـ): هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى ابن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رحمته الله، ولد بالبصرة سنة260هـ، أخذ الفقه عن الفقيه الشافعي أبي إسحاق المروزي (ت340هـ)، وتعلم الكلام أربعين سنة على مذهب الاعتزال على يد أبي علي الجبائي (ت303هـ)، وفي نسبه وتكوينه دور في تحوّل من الاعتزال إلى الأشعرية الذي بدأ بالمنظرة الشهيرة بينه وبين شيخه الجبائي حول أفعال الخالق عزّ وجلّ، توفي سنة324هـ وقيل سنة330هـ وقيل بعدها، وترك ما يربو عن التسعين مؤلفاً أغلبها في علم الكلام والرد عن الفرق المخالفة، وأشهرها كتاب الإبانة عن أصول الديانة، وكتاب الملع في الرد على أهل الزيغ والبدع، وكتاب مقالات الاسلاميين. للمزيد عن ترجمته ينظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مصدر سابق، ج13، ص260. ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج3، ص284. ابن

أهل الحديث المتوقّفين عند النصوص والعمل بها على ظاهرها، فحلّ إشكالات كثيرة كانت مطروحة على الساحة الإسلامية في عصره، ولعلّ أبرزها قضايا الذات الإلهية وصفاتها، وأفعال العباد...¹، وانتشر هذا المذهب بفضل تلاميذه وكبار أتباعه²، وعمّ البلاد الإسلامية مشرقا ومغربا، ووجدت فيه المذاهب السنية - لا سيما الشافعية والمالكية - دعائمهم وقاعدتهم التي انطلقوا منها لمقاومة مخالفاتهم من المعتزلة والشيعة والخوارج³.

ولقد شكّل الوجود الأشعري ببلاد المغرب جدلا كبيرا من حيث تسلّله وتبلور أفكاره، إذ لا تزال مسألة تحقيبه بين مدّ وجزر عند قدامى المؤرخين ومحدثيهم، بين من يُرجع ذلك إلى عهد مؤسّسه وبين من يجعله ملازما لدعوة ابن تومرت وقيام دولة الموحّدين، ذلك أنّه لا وجود لمعلومات كافية تُمكن من تشكيل أرضية يمكن الاعتماد عليها في إبداء رأي باتّ في الموضوع، غير ما تناثر في كتب التراجم من إشارات توحّي بأشعرية بعض المغاربة الذين كان لهم السبق في إدخال هذا المذهب زمن صاحبه كأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله القلانسي (ت359هـ/970م)⁴ الذي اعتبره "البرزلي" من كبار الأشاعرة ببلاد المغرب⁵، وكان ممّن سمع منه من فقهاء المغرب الأوسط أبو جعفر الداودي (ت402هـ/1012م)⁶، كما أشار الباحث "إبراهيم التهامي" - في سياق حديثه عن الخط البياني لدخول الأشعرية إلى بلاد المغرب - إلى عدّة شخصيات مغربية ومشرقية ساهمت في نقل آراء أبي الحسن الأشعري، كأبي ميمونة دراس بن اسماعيل الفاسي (ت357هـ/968م)، وابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م)⁷ اللذين

عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت571هـ): تبين كذب المفترّي فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1404هـ، ص34.

¹ ينظر المقرئ: المواعظ والاعتبار، مصدر سابق، ج4، ص191. عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية، مرجع سابق، ص18.

² رغم أنّ تسمية المذهب تنسب إلى أبي الحسن الأشعري، إلّا أنّ الفضل الأكبر يعود إلى أبرز أتباعه الذين كانت لهم اليد الطولى في اكتمال صياغته وانتشاره، كأبي بكر الباقلاني المالكي (ت403هـ)، عبد القاهر البغدادي الشافعي (ت429هـ)، إمام الحرمين أبو المعالي الجويني الشافعي (ت478هـ)، حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الشافعي (ت505هـ)... ينظر أحمد محمود صبحي: في علم الكلام (الأشاعرة2)، مرجع سابق، ص43.

³ ينظر عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية، مرجع سابق، ص18.

⁴ أبو إسحاق إبراهيم القلانسي (ت359هـ): هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزيري المعروف بالقلانسي، لم تشر المصادر إلى تاريخ ميلاده، قال عنه القاضي عياض كان رجلا فاضلا فقيها، عالما بالكلام والرد على المخالفين، له في ذلك تأليف حسنة، وله كتاب في الإمامة والرد على الرافضة. توفي سنة تسع وخمسين وثلاث مئة، وقيل سنة إحدى وستين. ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج6، ص257. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص140.

⁵ ينظر أبو القاسم بن أحمد البرزلي (ت844هـ): جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ج1، ص387.

⁶ ينظر القاضي عياض: ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج6، ص257. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ج1، ص140.

⁷ اختلف المؤرخون والباحثون المغاربة وحتى المشاركة في أشعرية ابن أبي زيد القيرواني من خلال مصنّفه "الرسالة" بين مثبت وناف، ولقد فضّل الباحث "محمد نصير" في هذا الجدل تفصيلا مهما، ينظر محمد نصير: انتشار المذهب الأشعري ببلاد المغرب خلال القرنين 4-5هـ/10-11م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2، بوزريعة، الجزائر، 2011/2010م، ص60 وما بعدها.

عرفا الأشعرية -مبكرًا- لما ارتحلا إلى المشرق والتقيا بأئمتها وأخذوا عنهم، ثم تلاهم تلاميذ أبي بكر الباقلاني (ت403هـ/1013م) سواء المغاربة الذين أخذوا عنه كأبي الحسن القابسي (ت403هـ/1013م) وأبي عمران الفاسي (ت430هـ/1039م)، أم المشاركة الذين أرسلهم إلى بلاد المغرب كأبي عبد الله الأزدي (ت403هـ/1013م) وأبي طاهر البغدادي¹، واكمل دور "الباقلاني" في هذا الشأن بتلميذه أبي ذر الهروي (ت434هـ/1043م)² الذي جمع بين الأشعرية في الأصول والمذهب المالكي في الفروع، فكان أهل المغرب يحجّون فيجتمعون به ويأخذون عنه الحديث وأصول الأشعرية³، ومن أشهر تلاميذه أبو الوليد الباجي (ت474هـ/1081م) الذي لازمه ثلاث سنوات كاملة يدرس عليه علم الكلام⁴، ليأتي بعده دور إمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت478هـ/1085م)⁵، ويكمل المشهد بنبوغ حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت505هـ/1112م) الذي كان أبو بكر بن العربي (ت543هـ/1148م) من أبرز ثماره⁶.

أمّا بالمغرب الأوسط وفي الفترة الحمّادية والمرابطية تحديدًا، وبالرغم من التوجّه التسليمي التفويضي لعقيدة دولة المرابطين ومنافرتهم لعلم الكلام⁷، فإنّ المجتمع المغرب أوسطي لم يخلُ من فقهاء يمثلون التوجّه الأشعري، وقد كان للعلماء التّازحين من القيروان -بعد دخول العرب الهلالية إليها- دور كبير في نشر العقيدة الأشعرية وتعليمها بجواضره، فكان من جملة هؤلاء العلماء أبو القاسم عبد الجليل بن أبي بكر الربيعي القروي (ت478هـ/1085م)⁸، وأبو القاسم عبد الرحمان بن عبد المعطي صاحب العقيدة الموسومة بـ "الأنوار في معرفة

¹ - ينظر إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص252 وما بعدها

² - ينظر ترجمته عند ابن عساكر: تبين كذب المفتري، مصدر سابق، ص255. المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج2، ص70،

³ - ينظر ابن تيمية، تقى الدين أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ): درء تعارض العقل والنقل، تح محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411هـ/1991م، ج2، ص101.

⁴ - المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج2، ص69.

⁵ - كان للإمام الجويني أثر ودور كبير في نشر الأشعرية ببلاد المغرب، من خلال تلاميذه ومؤلفاته التي لاقت رواجًا كبيرًا واعتنى بها علماء المغرب شرحًا وتدريسًا، لاسيما كتابيه "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد" و"البرهان في أصول الدين". للمزيد ينظر: إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص260 وما بعدها. عبد الغني حروز: المذهب الأشعري في بلاد المغرب الاسلامي ما بين القرنين 5-7هـ/11-13م، رسالة دكتوراه، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2015/2016م، ص200.

⁶ - يذكر "النّجار" أنّ ابن العربي عاد من المشرق بأشعرية عميقة تلقاها عن أبي حامد الغزالي، وجلب معه أمهات كتب الأشاعرة، وانتصب لتدريسها، وألّف فيها كتابه الشهير "العواصم من القواصم". ينظر عبد الحميد النجار: المهدي بن تومرت، مرجع سابق، ص438.

⁷ - يذكر المراكشيّ أنّ أهل ذلك الزمان دانوا بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام. وقرر الفقهاء عند أميرالمسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، وهجر من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين. ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص131.

⁸ - يُعرف بالديباجي وبابن الصابوني، ذكر ابن الأبار أنّه تتلمذ عن أبي عمران الفاسي وأبي القاسم الخرقني وأبي عبد الله الأزدي، وروى عن الجويني كتابه كتابه "التلخيص"، وأنّه أقرأ بقلعة بني حماد، وفاس والأندلس، ينظر ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج3، ص133.

الجبار"¹، وأبو عبد الله المازري (ت516هـ/1122م)² المعروف بالذكي صاحب كتاب "الاستيلاء"، أمّا عن أشهر أشهر تلامذتهم الذين حملوا لواء العقيدة الأشعرية بالمغرب الأوسط فتذكر المصادر الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية بن سعيد العكي القلعي (ت525هـ/1131م)³، والفقيه أبو الفضل يوسف بن النحوي (ت513هـ/1119م) الذي عُرف بميله إلى النظر والاجتهاد⁴.

ومن أعلام الفكر الأشعري في هذه الفترة الفقيه علي بن القاسم بن محمد التميمي أبو الحسن القسنطيني الأشعري (ت509هـ/1115م) صاحب كتاب "تنزيه الإلهية وكشف فضائح المشبهة الحشوية"⁵، كما يُذكر عن الفقيه المقرئ أبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة (ت465هـ/1073م) البسكري مولدا النيسابوري وفاة أنّه كان أشعري العقيدة⁶.

ولئن ظلّ انتشار الأشعرية حتّى هذه الفترة يختصّ بالعلماء، فإنّه وما إن عاد داعي الموحدين "محمد بن تومرت" من رحلته المشرقية حتّى سعى إلى إرسائها بالتدريس و التأليف لدى الخاصة والعامة⁷، وسار خلفاؤه من بعده على نفس الخطة الهادفة إلى التغيير الشامل وتكوين مدرسة مغربية تحمل صبغة أشعرية، هذه المدرسة التي توطّدت أركانها في العهد الزياني و الحفصي، ونُقّحت ممّا شابها من أفكار مقتبسة من المعتزلة والشيعة⁸، ساعدها في ذلك

¹ - وهي العقيدة التي كتبها للأمير الناصر بن علناس الحمادي، ينظر سمية ماحي: الأشعرية في الغرب الاسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 01، الجزائر، 2022/2021م، ص84.

² - وهو أحد المازريين الثلاثة، المعروف بالذكي و المتوفى بأصبهان سنة516هـ، ينظر الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص203. حسن حسني عبد الوهاب: الإمام المازري، مرجع سابق، ص93.

³ - من شيوخ القاضي عياض، درس الأصول وعلم الكلام على الربيعي وتفقه على يد المازري الذي مدحه بقوله: "شيخنا الذكي أفقه من أبي عمران الفاسي، ومن كلّ مالكي رأيته"، تولى قضاء تلمسان ثمّ إشبيلية، ثمّ فاس وبها توفي. ينظر الدباغ: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج3، ص203. القاضي عياض: الغنية، مصدر سابق، ص64. ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص573.

⁴ - روي أنّه دخل سلجماس، وأقرأ بها الأصلين، أصول الفقه وأصول الدين، ثمّ ضيق عليه وأمر بإخراجه من المسجد، فغادرها إلى "فاس"، وانتصب للإقراء بما فُتّح كذلك، وعاد إلى القلعة سنة495هـ، وجلس للإقراء والتدريس حتّى وافته المنية سنة513هـ. ينظر ابن الزيّات: التشوّف إلى رجال التصوّف، مصدر سابق، ص98، 99.

⁵ - ينظر الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج21، ص256. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مصدر سابق، ج4، ص349 وفيه أنّه توفي سنة519هـ.

⁶ - ينظر إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مرجع سابق، ص267.

⁷ - تجمع المصادر على أنّ الانتشار الأوسع للأشعرية كان على يد ابن تومرت، و في ذلك يقول المراكشي أنّ جُلّ ما كان يدعو إليه علم الاعتقاد على على طريق الأشعرية، و يذهب المقرئ إلى أنّ ابن تومرت هو السبب في اشتها مذهب الأشعري وانتشاره، أمّا ابن خلدون فذهب إلى أبعد من ذلك حين أشار إلى أنّه حمل الناس على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم، ووجوب تقليدهم. ينظر المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص139. المقرئ: المواعظ والاعتبار، مصدر سابق، ج4، ص192. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص302.

⁸ - ينظر عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، مرجع سابق، ص377.

المدارس التي شُيّدت وانتشرت في هذا العهد¹، إضافة إلى حروب الاسترداد التي بدأت تشهدها الأندلس، والتي كانت عاملاً في هجرة كثير من العلماء الأندلسيين واستقرارهم بجوار المغرب الأوسط، مثلما يظهر في الجدول الذي يبرز نماذج من أعلام الأشعرية بالمغرب الأوسط في هذه الحقبة

الرقم	الاسم والكنية	أماكن نشاطه وإنتاجه الفكري	المصدر
01	ابن الرمامة، أبو عبد الله محمد بن علي بن جعفر القلعي (ت 567هـ/1172م)	بجاية، الجزائر له "التفصي عن فوائد التفصي" وكان عاكفا على كتاب أبي حامد الغزالي المسمى "البيسط"	ابن الأبار: التكملة، ج2، ص158. ابن مريم: البستان، ص303.
02	أبو علي حسن بن علي المسيلي (أبو حامد الصغير ت 580هـ/1184م)	بجاية "التذكرة في أصول الدين" "التفكر فيما تشتمل عليه الصور من المبادئ والغايات"	الغبريني: عنوان الدراية، ص33 التنبكي: نيل الابتهاج، ص155.
03	أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان بن عبد الله بن الحسين بن سعيد الأزدي الإشبيلي (ت 581هـ/1185م)	بجاية "العاقبة في علم التذكير" و"التهجد" و"اختصار الرشاطي"	الغبريني: عنوان الدراية، ص41 محمد بن شاكر: فوات الوفيات، ج2، ص256.
04	أبو مدين الغوت، شعيب بن الحسين الأندلسي (ت 594هـ/1198م)	من إشبيلية نزىل بجاية، تلمسان له "أنس الوحيد ونزهة المريد" "شرح عقيدة الإمام الغزالي"	ابن مريم: البستان، ص108. الغبريني: عنوان الدراية، ص22
05	أبو عبد الله، محمد ابن عبد الحق ابن سليمان اليعمري، الكومي الندرومي (ت 625هـ/1228م)	تلمسان، له: "إرشاد المسترشد، وبغية المريد المستبصر المجتهد"، و" الفیصل الجازم في فضيلة العلم والعالم"	ابن الأبار: التكملة، ج2، ص165.
06	أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي، أبو المطرف	من جزيرة "شقر" بالأندلس، سكن بجاية وتولى قضاء قسنطينة له تعليق على الإمام فخر الرازي	الغبريني: عنوان الدراية، ص298. ابن الخطيب: الإحاطة، ج1،

¹ - ينظر عبد القادر بوعقادة: الحركة الفقهية، مرجع سابق، ص126.

	(ت658هـ/1260م)	في كتابه المعالم في أصول الفقه و"التيان في علم الكلام"	ص62.
07	أحمد بن يوسف الفهري اللبلي، أبو جعفر (ت691هـ/1292م)	من لبلة بالأندلس نزيل بجاية، له عقيدة نثرية موسومة بـ "العقيدة الفهرية"	المقري: نفع الطيب، ج2، ص208. الغبريني: عنوان الدراية، ص345.
08	عمر بن ملك المرساوي، أبو علي (ت ق7هـ/13م)	من مرسية توفي ببجاية	الغبريني: عنوان الدراية، ص226.
09	منصور بن علي الزواوي، أبو علي (ت753هـ/1352م)	من بجاية نزيل تلمسان له تقييد ونظر في الأصول والمنطق والكلام	التنبكي: نيل الابتهاج، ص611. ابن مريم: البستان، ص292.
10	محمد بن إبراهيم الآبلي، أبو عبد الله (ت757هـ/1356م)	بجاية، تلمسان	ابن حجر: الدرر الكامنة، ج5، ص13. التنبكي: نيل الابتهاج، ص411.

2 . المسحة الصوفية سلوكًا:

بعيدا عن الخوض في أصل كلمة "التصوّف" و البحث في مصدر اشتقاقها¹، فإنّ المقصد الأوّلي منها كان العزوف عن الدنيا، والاعتكاف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقْبَل عليه النَّاس من لَذَّة ومال وجاه²، ولذلك -يبدو- أنّ هذا اللفظ أُطلق على المتصوّفة لصفاء أسرارهم ونقائهم³، وعن ظهوره كمصطلح عند المسلمين، فمن الرَّاجح أنّه كان في نهاية المائة الهجرية الثانية⁴، ثمّ تطوّر -مع ظهور

¹ - ناقش الباحث "الطاهر بونابي" مسألة اشتقاق مصطلح التصوف مناقشة مستفيضة، ذكر فيها أغلب الآراء والرؤى المتعلقة بأصل الكلمة ومصدر اشتقاقها، لمزيد من التفاصيل عن ذلك ينظر الطاهر بونابي: التصوّف في الجزائر خلال القرنين 6-7هـ، مرجع سابق، ص34 وما بعدها.

² - ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص611.

³ - ينظر الكلاباذي، أبو بكر بن محمد بن أبي إسحاق الحنفي (ت380هـ): التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت، ص21.

⁴ - تُرجع بعض الروايات ظهور هذا المصطلح إلى العهد الجاهلي، لكن أغلب المصادر تشير -كما ذكرنا- إلى نهاية المائة الثانية، باعتبار أنّ الجيل الأوّل كانوا يُسمّون الصحابة، يليهم جيل التابعين، ثمّ تابعي التابعين، للمزيد ينظر ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت597هـ): تلييس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م، ص145، 146. القشيري، عبد الكريم بن هوازن (ت465هـ): الرسالة القشيرية، تح عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج1، ص34. ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص611.

الفرق و المذاهب- إلى علمٍ مدوّنٍ، وفلسفة حياة، بنظام شديد في العمل والعبادة، كتب فيه كثير من علماء المسلمين من أصحاب هذا التوجّه، كالحارث المحاسبي (ت254هـ/868م) في كتاب "الرعاية"، وأبي طالب المكي (ت3هـ/9م) في "قوت القلوب"، والقشيري (ت465هـ/1073م) في "الرسالة" والسهوردي (ت580هـ/1184م) في "عوارف المعارف" والغزالي (ت505هـ/1112م) في "الإحياء".¹

أمّا عن ظهور التصوّف وانتشاره بالمغرب الأوسط، فقد ساهمت في ذلك عوامل دينية واقتصادية وسياسية، تخمّرت عبر قرون وأسفرت عن ميلاد الحركة الصوفية، وبروز معالمها بداية من القرن السادس الهجري (12م)، ولعلّ من بين هذه العوامل الدينية حركة الزهد التي عرفها المغرب الأوسط مع بداية الفتوحات الإسلامية²، ثمّ استمرّ إشعاعها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م) مع الطلبة العائدين من القيروان والمتأثرين بتيارات الزهد التي كانت منتشرة فيها، خاصّة مع تلك النهضة المالكية التي عرفتتها إفريقيا والمغرب الأوسط في مواجهة التشيع الاسماعيلي، فكان من أبرز زهّاد هذه الفترة الشاعر بكر بن حمّاد الزناتي (ت295هـ/908م)³، ويوسف بن عون الخزاعي (ت240هـ/854م)⁴، والزاهد جبلة بن محمود الصديقي (ت297هـ/910م) الذي قاد حركة جهادية ضدّ الشيعة العبيديين.⁵

أمّا في المائة الرابعة فقد مثّل هذه الظاهرة الفقيه الزاهد أحمد بن خلوف المسيلي المعروف بالخيّاط (ت393هـ/1003م) الذي هاجر إلى الأندلس واستقر فيها حتّى وفاته⁶، وهو نفس المسلك الذي سلكه سلكه الفقيه الزاهد عبد الرحمان بن زيادة الله الطبري (ت401هـ/1011م) الذي استقر -كذلك- في قرطبة إلى غاية وفاته⁷، وهذا ربّما استجابة لفتوى الفقيه الزاهد أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت402هـ/1012م)⁸ الذي أنكر على فقهاء القيروان بقاءهم في مملكة العبيديين، وكان هذا شأن الكثير من الزهاد الذين اتّخذوا من الرّبط أو سواحل البحر مكانا لإقامتهم، حيث رصد لنا القاضي عياض استقرار الزاهد علي بن محمد

¹ ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج1، ص613.

² تشير المصادر إلى استقرار التابعي "وهب بن منه" بتلمسان، ولما توفي أصبح قبره محل زيارة للتلمسانيين، بل وأطلقوا على أحد أبواب المدينة اسم "وهب" تبرّكا به، ينظر يحيى بن خلدون: البغية، مصدر سابق، ج1، ص129.

³ تذكر المصادر أنه كان يقول كثيرا من الشعر في الزهد والمواعظ وذكر الموت وأهواله، ينظر الذباغ: معالم الإيمان، ج2، ص282.

⁴ الذباغ: معالم الإيمان، ج2، ص72.

⁵ ممّا يؤثّر عليه قوله: "كنا نحرس عدوّا بيننا وبينه البحر، والآن حلّ هذا العدوّ بساحتنا وهو أشدّ علينا"، ينظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج4، ص371.

⁶ ابن الفرسي: تاريخ علماء الأندلس، مصدر سابق، ج1، ص77.

⁷ ابن بشكوال: الصلة، مصدر سابق، ص297.

⁸ ممّا يشير إلى زهدية الفقيه الداودي كذلك، مؤلّفه "الرد على البكرية" الذي نافع فيه على إثبات كرامات الأولياء، ينظر الهادي روجي إدريس:

الدولة الصنهاجية، مرجع سابق، ج2، ص311.

التدميري (ت347هـ/958م) ببونة، وهو الذي جمع في حياته بين الفقه والزهد وكثرة التأليف¹، كما اختار الزاهد أبو عبد الله محمد التاهري (ت313هـ/925م) رباط القصر بسوسة إلى أن توفي به، وقد كان من قبل صاحب منهج زهدي يقوم على المحبة والشوق².

كما لعبت سياسة الدولتين الحمّادية والمرابطية دورا في انتشار التصوّف، ذلك ما تجلّى في أعلى هرم السلطتين، إذ تميّز أمراء المرابطين بالميل إلى حياة الزهاد والمتبتّلين والبعد عن حياة السلاطين والملوك، حيث تذكر المصادر أنّ الأمير (يوسف بن تاشفين ت500هـ/1107م) التزم طريقة في العبادة مضمونها الإقبال على الصلاة والدعاء والاستخارة مع الخوف من الله، والتقشّف في المأكل والملبس، وكان ابنه (علي ت537هـ/1143م) - كما يذكر صاحب المعجب - يصوم النهار ويقوم الليل حتّى قيل عنه أنّه أقرب إلى الزهاد منه إلى الملوك³، وكان ابنه (تاشفين ت539هـ/1145م) مهتمّا بقراءة كتب الصوفية وأخبارهم، فقد ذكر "ابن الزيات" أنّه كان يهتمّ بزيارة المتصوّفة، ويتبرّك بهم ويسألهم الدّعاء⁴، وهو ذات النهج الذي سلكه بعض أعوان الدولة، كوالي تلمسان "المزدلي بن بلكان" الذي كان يزور الصوفي عبد السلام التونسي ويشاركه طعامه الذي لا يزيد عن خبز الشعير ولحم السلحفاة⁵، أمّا ملوك بني حمّاد فقد كانوا يكتّون التبجيل والاحترام لأهل الربط والزوايا، ما جعلهم - كما يذكر ابن خلدون - يستنكفون عن ملاحقة المهدي بن تومرت في رباط ملالة القريب من عاصمتهم بجاية⁶، والناس على دين ملوكهم، أينما ولّوا كانوا على شاكلتهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان لسيطرة الفقهاء على جميع مظاهر الحياة في الدولتين دوّر في ظهور شريحة الفقهاء المتصوّفة بالمغرب الأوسط قصد إعادة التوازن الذي اختلّ لصالح فقهاء السلطان.

وكان أبرز من حمل لواء الفكر الصوفي في هذه الفترة الفقيهين أبو محمد عبد السلام التونسي (ت512هـ/1118م)⁷، وأبو الفضل بن النحوي (ت513هـ/1119م) صاحب القصيدة الجيمية

¹ - ينظر القاضي عياض، ترتيب المدارك، مصدر سابق، ج6، ص22.

² - المالكي: رياض النفوس، مصدر سابق، ج2، ص182.

³ - المراكشي: المعجب، مصدر سابق، ص130.

⁴ - ابن الزيات: التشوف، مصدر سابق، ص137، 138.

⁵ - ابن الزيات: التشوف، مصدر سابق، ص110، 111.

⁶ - ينظر ابن خلدون: العبر، مصدر سابق، ج6، ص167.

⁷ - تذكر المصادر أنّه نزل تلمسان وأسّس بها رابطة المشهورة، وكان يدرّس بها كتب التصوّف ككتاب الإحياء، وكتاب الرعاية للمحاسبي. ينظر ابن الزيات: التشوف، مصدر سابق، ص93، 110. ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص122. ابن القنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، مصدر سابق، ص106، 108.

(المنفرجة)¹، اللذين كانا يدرّسان كتاب الأحياء، ويبحثان تلامذتهم على استنساخه وحفظه، فاشتهر منهم محمد بن علي بن جعفر المعروف بابن الرّامة (ت 567هـ/1172م) الذي اختصر -هو الآخر- كتاب الإحياء، وأبدى اهتمامه بكتب الغزالي الأخرى ككتاب "البسيط"²، كما رصدت لنا المصادر بعض أعلام متصوفة المغرب الأوسط الذين رحلوا إلى الحواضر الأندلسية واستقرّوا بها، ولما عادوا عملوا على نشر علومهم بين طلبتهم ومريديهم، ومن هؤلاء الفقيه أبي الحسن بن أبي قنون (ت 557هـ/1162م) الذي قصد "مرسية" وأخذ عن الزاهد أبي علي الصديقي (ت 6هـ/12م) الذي كان يدرّس المصنفات الصوفية المشرقية ككتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصفهاني³.

وفي الفترة الموحدية، يظهر تأثير المهدي بن تومرت جلياً في دعم انتشار التصوّف من خلال ظهوره بمظهر المتقشّف الورع، حينما حلّ بقسنطينة وبجاية ورباط ملالة وتلمسان، لدى عودته من المشرق، ما أدّى -كما يذكر المراكشي- إلى التفاف الطلبة والفقهاء والعامة حوله⁴، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان للآراء العقدية المبثوثة في كتبه، و التي تدعو إلى الأخذ بالمذهب الأشعري وهو مذهب يثبت الكرامات⁵ ويقرّ بالأولياء والصالحين، دورٌ في إضفاء نوع من الحرية على نشاطات المتصوفة وتحركاتهم.

كما تعزّز المنحى الصوفي في الفترة الموحدية بقدوم متصوّفة أندلسيين واستقرارهم بحواضر المغرب الأوسط يحملون معهم مصنّفات التصوّف ويعملون على تبسيطها ونشرها بين الطلبة والمريدين، ولعلّ من أبرزهم الفقيه الزاهد أبو مدين شعيب (ت 594هـ/1198م) الذي حلّ ببجاية منتصف المائة السادسة، ومكث بها خمس عشرة سنة يدرّس فيها إحياء الغزالي، ورسالة القشيري، ورعاية المحاسبي⁶، وبذات المكان والزمان حلّ أبو عبد الحق الإشبيلي (ت 581هـ/1185م) وعمل على نشر مؤلفاته الزهدية، ككتاب "الزهد"، وكتاب "العاقبة في ذكر الموت"⁷، أمّا بتلمسان فقد استقرّ الزاهد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان التجيبي (ت 610هـ/1213م) وساهم وساهم في إثراء الحياة الصوفية بها بعدّة مصنّفات ككتاب "الأربعين في الفقر وفضله" وكتاب "الحب لله"⁸.

¹ - ابن مريم: البستان، مصدر سابق، ص 299. ابن القنفذ: أنس الفقير وعز الحقيّر، مصدر سابق، ص 108. ابن الزيات: التشوف، مصدر سابق، ص 95.

² - ابن الأبار: التكملة، مصدر سابق، ج 2، ص 158.

³ - ينظر يحيى بن خلدون: بغية الرواد، مصدر سابق، ص 135.

⁴ - ينظر المراكشي: العجب، مصدر سابق، ص 137.

⁵ - ينظر الشهرستاني: الملل والنحل، مصدر سابق، ج 1، ص 102.

⁶ - عن شهرة أبي مدين وبسط أخباره ببجاية ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 22 وما بعدها. المقرّي: نفح الطيب، ج 7، ص 141.

⁷ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 41.

⁸ - ينظر المقرّي: نفح الطيب، ج 2، ص 160.

ومع مطلع المائة السابعة وبعد هزيمة الموحدين في "العقاب 609هـ/1212م" ازدادت موجة المهاجرين الأندلسيين -من أصحاب التيارات الصوفية المختلفة- إلى حواضر المغرب الأوسط، فنزل بتلمسان الصوفي أبو عبد الله الشوذياحلوي (ت 7هـ/13م)¹، والفقير أبو إسحاق بن دهاق المعروف بابن المرأة (ت 610هـ/1223م) واستقرّ بها عامين يُدرّس شرحه لكتاب "محاسن المجالس" لابن العريف (ت 536هـ/1142م)، أمّا ببجاية فقد حلّ المتصوّف أبو علي بن أحمد الحرّالي (ت 638هـ/1241م)² ومكث بها ردحا من الزمن، ألف خلالها عدّة مصنّفات منها "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل"³، كما كما حلّ بها الصوفيّان أبو محمد عبد الحق الشهير بابن سبعين (ت 669هـ/1271م)، وتلميذه أبو الحسن علي الششتري (ت 668هـ/1270م) وعملا على نشر مؤلفاتهما بين طلبتهما ومريديهما⁴.

- أمّا بعد الفترة الموحّدية فإنّ أهمّ ما ميّز هذا التّهج بالمغرب الأوسط هو التلازم بين الفقه والتصوّف، والجمع بين الشريعة والحقيقة، إذ لا يسلك طريق التصوّف -في الغالب- إلّا من اعتنى بعلوم الشريعة وتمكّن فيها، كما تميّز منتسبوه باعتناق التصوّف العملي المهتمّ بالرقائق والبعيد عن المؤثرات الكلامية والفلسفية، والذي أسّس له أبو مدين شعيب (ت 594هـ/1198م) القائل: "ليس التصوف بتشهيد الأحكام ولا بتدريج الأقدام، وإنّما التصوف سلامة الصدور و سخاوة النفوس والعمل بالمرسل"، وعبر عن هذا المسلك بقوله: "و طريقتنا هذه أخذناها عن سيدي أبي يعزى بسنده إلى أبيالقاسم الجنيد عن سيدي السقطي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري عن أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن رب العزة جلّ جلاله"⁵، وهو المسلك الذي تفرّعت عنه الطريقة الشاذلية المنتسبة إلى أبي الحسن الشاذلي (ت 656هـ/1258م)⁶، كما اندرجت في مسلكه بعض الزوايا، كالزاوية المالارية⁷ التي أسّسها يعقوب بن عمران البويوسف المملاري⁸ الذي تتلمذ عن أبي مسعود بن عريف الشلفي تلميذ أبي مدين¹.

¹ - ينظر المقرئ: نفح الطيب، مصدر سابق، ج 5، ص 260.

² - ينظر التنبكي: نيل الابتهاج، ص 318. محمد مخلوف: شجرة النور، مرجع سابق، ج 1، ص 260.

³ - الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 144.

⁴ - ينظر الغبريني: عنوان الدراية، مصدر سابق، ص 237، 239. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، مرجع سابق، ص 281.

⁵ - ينظر ابن سعد التلمساني، محمد بن أبي الفضل (ت 901هـ): النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار الدار البيضاء، المغرب، د ت، ص 320.

⁶ - ترجم له عبد الواحد محمد بن الطواح، وذكر بأنّه ينسب إلى "شاذلة" بالبلاد التونسية، وأنّه عُرف بزهده وورعه، ورحل إلى مصر فأخذ عن العز بن عبد السلام، ينظر ابن الطواح: سبك المقال لفكّ العقال، مصدر سابق، ص 76، 77.

⁷ - هذه الزاوية موجودة إلى اليوم، تقع في مشي ملارة ببلدية تسدان على بعد 12 كم من فرجوة التابعة لولاية ميلة، ينظر ابن القنفذ: شرف الطالب، مصدر سابق، ص 21.

⁸ - عن ترجمته ينظر ابن القنفذ: شرف الطالب، مصدر سابق، ص 21.

- وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك عاملين أساسيين ساهما -كذلك- في تجذّر التصوّف بالمغرب الأوسط في هذه الفترة، يتمثّلان في عناية السلاطين الريانيين و الحفصيين -كما أشرنا- بالمنشآت التعليمية لاسيما المدارس، وكذا حدوث نهضة تأليفية محليّة في علم التصوف، بعدما كان الاعتماد على المصنّفات المشرقية أو الأندلسية، وفيما يلي نماذج لبعض متصوّفة المائة السابعة والثامنة وإنتاجهم الصوفي.

الرقم	الاسم والكنية	تصوفه وإنتاجه الفكري	المصدر
01	أبو زكريا يحيى بن يحيى الزواوي (ت 611هـ/1214م)	من الفقهاء الصلحاء والعبّاد الزهّاد، له عدّة مؤلفات اطلّع عليها "ابن عربي" في زيارته لبجاية	الغبريني: عنوان الدراية، ابن الزيات: التشوّف،
02	أبو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي (ت 636هـ/1239م)	أديب زاهد، له شرح "مقامات الحريري"، وتخميسة على القصيدة "المنفرجة"	الغبريني: عنوان الدراية، ص 325.
03	أحمد بن عثمان بن عبد الجبار الملياني (ت 644هـ/1246م)	له علم بالعربية و الفقه و أصوله وأصول الدين والتصوف، وله تقييد على كتاب "التلقين"	القرافي: توشيح الديباج، ص 51.
04	أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي البجائي (ت 743هـ/1342م)	فقيه متصوف، له "شرح أسماء الله الحسنى" و قصيدة "نظم فرائد الجواهر في معجزات سيّد الأوائل و الأواخر"	التنبيكي: نيل الابتهاج، ص 401.
05	أبو عبد الله محمد بن محمد المقرئ (ت 759هـ/1358م)	فقيه صوفي له "كتاب المحاضرات"، "الحقائق و الرقائق"، "إقامة المريد" و "رحلة المتبتل"	المقري: نفح الطيب، ج 5، ص 310.
06	أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 771هـ/1370م)	فقيه أصولي، عارف بأخبار الصوفية ومذاهبهم وإشارتهم، له "شرح الجمل"	ابن قنفذ: شرف الطالب، ص 29.
07	الوعليسي أبو زيد عبد الرحمن البجائي (ت 786هـ)	فقيه صوفي له "المقدمة الوعليسية" في فقه العبادات، جمع فيها بين علم الظاهر والباطن	التنبيكي: نيل الابتهاج، ص 248. ابن قنفذ: الوفيات،

¹ - ينظر شجرة الزاوية الملارية، ملحق 09، ويراجع ابن قنفذ: الفارسية، مصدر سابق، ص 50.

ص376.			
التبكي: نيل الابتهاج، ص109. ابن قنفذ: شرف الطالب، ص43.	فقيه صوفي له "أنس الفقير وعز الحقير" و"وسيلة الاسلام في النبي عليه السلام"	ابن قنفذ أحمد بن حسن ابن الخطيب (ت810هـ/1407م)	08

خلاصة الفصل:

بعد تتبعنا لمراحل تبلور المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، وتعرضنا لأهم التغيرات و التطورات التي عرفت في الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري إلى غاية القرن الثامن هجري، حاولنا تلخيص بعض خصوصياتها وميزاتها في النقاط التالية:

1. عُرفت المدرسة الفقهية بالمغرب الأوسط بانفتاحها على المدارس الفقهية المالكية المجاورة وحتى المشرقية كالمصرية والعراقية، ذلك ما لمسناه من خلال تنوع المصنفات التي كانت تدرس بالمنشآت التعليمية، كمدونة سحنون وواضحة ابن حبيب وتلقين القاضي عبد الوهاب ومختصر ابن الحاجب وغيرها، هذا الانفتاح ساهم في تحديد توجهها وتطوره ليتسم في البداية بالجمود والانصياع التام لمذهب مالك تأثراً بالمدرسة السحنونية والمدرسة الأندلسية ذات التوجه الحديثي، ثم يتميز في مرحلة متأخرة بالمزج بين التوجه النقلي والعقلي والجمع بين الأقوال الواردة في أمهات الكتب مع التأصيل لها بالدليل من الكتاب والسنة والقياس.

2. تنوعت آليات وطرائق التدريس من حاضرة إلى حاضرة، ومن شيخ إلى آخر، كما تنوعت تصانيف فقهاء المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط بين الاختصار والتهذيب، والشروح والتعليقات والحواشي، كما شمل التصنيف -إضافة إلى فقه العبادات والمعاملات- الفقه التطبيقي، كعلم الفرائض (الموارث)، وعلم الوثائق والعقود.

3. مما ميّز مدرسة المغرب الأوسط الفقهية في مجال الفتوى النوازية تلاؤمها مع أعراف المجتمع وعاداته وخصوصياتها، وانتقالها من حاضرة إلى حاضرة مع تعدد الأقوال فيها، إذ تقتضي أحيانا- العدول عن الراجح والمشهور من المذهب التفاتا إلى مصلحة مجتلبة أو مفسدة مدفوعة أو عرف جار، لذلك كان المتصدرون لها ثلة من الفقهاء المفتين المجتهدين الذين أوتوا حظاً من البصيرة بمقاصد الشرع، والنظر في مصالح الخلق، وهو ما لمسناه في بعض فتاويهم واختيارهم لآراء فقهية خارجة -حتى- عن المذهب المالكي أحيانا.

4. عزز قيام المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط عدّة دعائم، أهمها دعامي التصوّف في السلوك والتوجه الأشعري في العقيدة، ذلك ما لمسناه من خلال تراجم أعلامها، وتتبع مصنفاتهم منذ إرهابات تشكّل هذه المدرسة الفقهية إلى

أن استوت على سوقها في العهد الحفصي والزيري، ومما ساهم في ذلك رحلات فقهاء المغرب الأوسط وتلاميذهم على علماء الحواضر المشرقية والأندلسية، إضافة إلى الرحلة العكسية وجلب المصنّفات والجلوس لشرحها وتدريسها.

الختامة



بعد هذه الدراسة التاريخية المتواضعة والسريعة للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، خلصتُ إلى جملة من النتائج والملاحظات التي تحمل في طياتها دعوة للباحثين إلى المضي قدماً في دراسة وتحقيق موروثنا المالكي والعناية به، وإعادة الاعتبار لعلمائنا وفقهائنا وتاريخنا الإسلامي بصفة عامة، وهذه هي أبرز النتائج التي توصلت إليها:

- مع مطلع القرن 3هـ/9م يمكننا التمييز بجلاء بين مدرستين مالكيتين على مستوى بلاد الغرب الإسلامي؛ المدرسة القيروانية التي تميّزت بالخضوع التام لفقه المدينة، والابتعاد - في بادئ الأمر - عن المناظرة والتوقف عن الجدل في عهد زعيمها سحنون (ت245هـ/859م)، ثم تطوّرت في ظلّ الحرّية المذهبية التي كفلتها السلطة الأغلبية المنضوية تحت لواء العبّاسيين، فأنتجت لنا عدداً من الفقهاء¹ الذين برزوا في مجال الجدل و المناظرات التي بلغت حدّها في العهد الفاطمي²، أمّا المدرسة الثانية فهي المدرسة الأندلسية بزعامة يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ/849م)، هذه الأخيرة التي نشأت تحت رعاية الأمراء الأمويين بالأندلس وبتأييدهم، كما صُبغت بالصبغة الأوزاعية التي تجلّت في مخالفتها للمشهور عند المالكية في عدّة مسائل³، أمّا بالنسبة للمغرب الأوسط وبالرغم من التهميش الذي طاله بسبب قلّة المصادر التي أُرّخت لتلك الفترة أو ضياعها، فإنّ تراجم فقهاء الذين درسوا عن سحنون كإسحاق بن عبد الملك الملشوني وبكر بن حمّاد التيهري (ت296هـ/909م)، توحى بما لا يدع مجالاً للشك بأنّ مدوّنته كان لها حضور في هذا المجال، كما أنّ المادّة المصدرية التي خلّفها لنا ابن الصغير المالكي تشير إشارة واضحة إلى حضور المذهب المالكي في مجالات الدولة الرسمية من خلال نشاطات أعلامه ومناظراتهم في ظل الحرّية التي كفلتها لهم الدّولة، أمّا في القرن الرابع الهجري (10م) ورغم الفسيفساء المذهبية التي عرفها المغرب الأوسط، إلّا أنّ ذلك لم يمنع من بروز أعلامٍ أظهرُوا عناية خاصّة بالفقه المالكي، انتهى البعض منهم إلى الاستقرار بالأندلس كأحمد بن خلوف المسيلي (ت393هـ/1003م)، أو بالحواضر المشرقية كسعيد بن خلف الوهراني الذي سمع من أبي بكر الأبهري (ت375هـ/985م) شيخ المالكية بالعراق في وقته.

- تعتبر فترة بناء قلعة بني حمّاد (398هـ/1008م) بداية الرّسوخ و الاستقرار النهائي للمذهب المالكي في أغلب حواضر المغرب الأوسط، وكان ذلك نتيجة للتوافق والتقارب الذي حدث بين السلط الثلاث، السياسية والعسكرية والفقهية، أمّا السلطة السياسية والعسكرية الممثّلة في العائلة الحمّادية الصنهاجية فعملت على تعزيز

¹ - أحصى لنا الخشني في طبقاته عدداً من فقهاء القرن الثالث الهجري بإفريقية، ممّن جلسوا في جلق المناظرات والجدل في المسائل الفقهية والكلامية، ينظر الخشني: طبقات علماء إفريقية، مصدر سابق، ص 198، 222.

² - ينظر الحبيب الجناحي: لمحة عن الحياة الفكرية في المجتمع القيرواني القديم، مجلّة الفكر، ع6، س1966م، ص27.

³ - أحصى أبو الوليد هشام بن هشام في مصنّفه "المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام" ثمان عشرة مسألة فقهية فرعية خالف فيها مالكية الأندلس مذهب المدوّنة واستقلّوا فيها عن رأي بن القاسم، ينظر مصطفى الهروس: المدرسة المالكية الأندلسية، مرجع سابق، ص306.

سلطة فقهاء المالكية من خلال تعيين الكثير منهم في الخطط والمناصب الإدارية كالقضاء والإفتاء...تمهيدا لإحداث القطيعة السياسية والمذهبية مع نظام القاهرة الإسماعيلي، التي تم الإعلان عنها سنة 443هـ/1051م، وأما السلطة الفقهية فتمثل دورها في نشر وتدريس تعاليم المذهب المالكي من قبل فقهاء المالكية يتزعمهم أبو حفص عمر بن الحسين الصابوني الذي حلاه القاضي عياض بزعيم فقهاء القلعة في وقته، دون أن ننسى جهود الفقيه المالكي صاحب كتاب الأموال، أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت402هـ/1012م) المتمثلة في التأليف والتعليم والإفتاء في حواضر المسيلة وتنس وتلمسان، والتي تُعدّ في مجملها كإرهاصات ممهّدة لوضع قواعد صلبة لمدرسة مالكية بالمغرب الأوسط.

- وبالتوازي مع جهود الحمّادين شرقا، استفاد مالكية المغرب الأوسط - كذلك - من الامتداد الجغرافي للدولة المرابطية (448-541هـ/1056-1146م) التي شملت - إلى جانب الأندلس والمغرب الأقصى - الأجزاء الغربية من المغرب الأوسط، هذه الدولة التي قامت - كما هو معلوم - على أساس دعوة دينية لم تجد أفضل من المذهب المالكي وسيلةً للتمكين لها، ذلك ما تشير إليه كتب التراجم عن روّادها الأوائل سواء في مرحلة الدعوة كأبي عمران الفاسي (ت430هـ/1039م) وعبد الله بن ياسين (ت451هـ/1059م)، أم في مرحلة الدولة كيوسف بن تاشفين (ت500هـ/1107م) وابنه علي (ت537هـ/1143م) الذي أثر عنه أنّه لم يكن يقرب إلا من علم فروع مذهب مالك، وأنّه كان لا يبتّ في حكم ولا يقطع في أمر صغير أو كبير إلا بمحضر أربعة فقهاء مالكية، ممّا شكّل دعما واضحا لنشاط فقه الفروع المالكي، ذلك ما تجلّى في التأليف والتدريس والإفتاء... وانعكس ذلك على جميع حواضر المغرب الأوسط التي كانت إلى عهد قريب تعيش فسيفساء مذهبية تحوّلت بخضوعها للدولة المرابطية إلى وحدة مذهبية، لكننا لا نذهب إلى حدّ وصفها بـ"ديكتاتورية المالكية" على حدّ تعبير بعضهم، ذلك ما لمسناه عند فقهاء تلمسان في معارضتهم لإحراق "الإحياء" مثلاً.

- انعكس قيام دولة الموحّدين على المسار التأسيسي للمدرسة المالكية ببلاد المغرب بصفة عامّة، واتّخذ مؤسّسها من انتقاد المنظومة الفقهية الفروعية المرابطية كأهمّ مرتكزٍ (وسيلةٍ) ارتكز عليه لتقويض الحكم المرابطي، وعمد خلفاؤه من بعده إلى ردّ الناس - في أمر الفقه - إلى مصدرَي التشريع القرآن والسنة، بل وأمر بعضهم بالأخذ بظاهرها وإحراق كتب المذهب بعد تجريدتها من الآيات والأحاديث، غير أنّ هذه المنظومة لم تدم طويلا، فقد أخذت تفقد بريقها، وتسير نحو الانهيار، في الوقت الذي أخذت فيه المقاومة المالكية تشقّ طريقها نحو النجاح، وأخذ الفقه المالكي في الانبعاث من جديد، إلّا أنه غير ذلك الفقه الفروعي الذي يقارن أقوال أئمة المذهب

بعضها، ثم يُرجعها إلى رواية ابن القاسم، بل ظهرت أراءً فقهية مالكية تميزت بالطابع الاجتهادي التأصيلي، والاعتماد على الأدلة

- عملت المنظومات السياسية الناشئة - بعد سقوط دولة الموحدين 668هـ/1270م - على بعث المدرسة المالكية و العمل بأحكام المذهب المالكي، من خلال تقريب أعلامه و تبجيلهم، و تقديم الدعم لهم من خلال تشييد المدارس وتوليتهم الخطط والمناصب، ساهم في ذلك - بكل تأكيد - التوجه الفقهي المالكي لأمرأ و سلاطين الدولتين (الحفصية والزبانية)، الذين عملوا على ترسيخ تقاليد راقية في الاعتناء بالفقهاء وإحاطة السلاطين بهم، حتى غدت بلاطاتهم مجالس علمية تدار فيها المناظرات وتفتح فيها النقاشات، ويستقدم إليها الفقهاء من مختلف الحواضر، ولعلّ تتبع المسائل التي أثّرت في القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14م) ومستوى النقاش فيها، إضافة إلى المقررات الفقهية والمصنّفات المالكية التي أُلّفَت في تلك الحقبة، يوحي بما لا يدع مجالاً للشك القيمة العلمية والتّضج الفقهي للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط، كما يُظهر -بوضوح- حضور النهج التقليدي الفروعي إلى جانب التّهج الاجتهادي التأصيلي، إن على مستوى التأليف أو على مستوى الآراء والفتاوى.

- ساهمت المدارس المالكية المجاورة (الإفريقية، الأندلسية، المصرية...) في تشكيل الملمح الفقهي ببلاد المغرب الأوسط منذ القرون الهجرية الأولى، تجلّى ذلك في رحلات طلبة العلم إلى حواضرها، وأخذهم عن فقهاءها وجلبهم المصنّفات العلمية والجلوس لتدريسها والتأليف حولها، أمّا في الفترة المتأخّرة -وتحديداً بعد دخول مصنّفات ابن الحاجب المصري إلى بجاية- فإنّ النصوص المصدريّة -التي تناولنا- تقف شاهداً على حضور كامل المعالم للمدرسة المالكية المغرب أوسطية، إنّ من حيث المؤلّفات التي تنوّعت بين الشروحات والمختصرات وتناولت مختلف فروع المعرفة الفقهية والأصولية كعلم الفرائض والقواعد الفقهية...، أو من حيث التعاطي مع القضايا الفقهية التي جمعت بين التوجّهين النّقلي والعقلي، التقليدي والاجتهادي، بل إنّ هذه المدرسة فاقت نظيراتها بالمغرب الأقصى والأندلس وإفريقية، شفيعنا في ذلك مكاتبات فقهاء المغرب و الأندلس بل وحتى فقهاء المشرق الاسلامي لعلماء المغرب الأوسط طلباً للفتوى كمراسلات فقيه إفريقية "يحيى بن موسى المهدي" وإمام الأندلس "ابن لب" للشريف التلمساني، إضافة إلى تتلمذ كبار الفقهاء والأصوليين على أعلام مدرسة المغرب الأوسط، كتتلمذ الإمام الشاطبي وابن زمرك على أعلام بجاية وتلمسان.

- كما ساهمت المصنّفات الفقهية والأصولية المشرقية في إثراء المقررات التعليمية، إذ سجّلنا حضور أغلب أمّهات كتب الفقه المالكي في الدرس الفقهي بحواضر المغرب الأوسط، كما لاحظنا العناية التي لاقتها مصنّفات ابن

الحاجب الفرعية والأصولية، إذ لا تكاد تخلو ترجمة لفقيه من فقهاء المائة الثامنة من ذكر لها، إمّا قراءة أو حفظاً أو شرحاً...، وإذا انتقلنا إلى الحديث عن الطرائق والآليات التي كانت تُقدّم بها هذه المقرّرات فإنّنا نجدتها تختلف من حاضرة إلى حاضرة ومن طور إلى آخر، من التلاميذ المبتدئين إلى الطلبة المتخصّصين، بدءاً بالتلقين والحفظ، وانتهاء بالجدل و المناقشة، ويمكن تلخيص مراحل الدرس بحواضر المغرب الأوسط في ثلاث مراحل، مرحلة تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم في الكتاتيب والزوايا والمساجد، ومرحلة تعلّم قواعد اللغة العربية ومبادئ الفقه وتكون -غالباً- في المساجد، بينما تعتبر المرحلة الثالثة مرحلة التخصص والتعمّق في شتّى فروع المعرفة، وتكون في المدارس أو في المساجد الجامعة المشهورة بالحواضر الكبرى، أمّا عن حركة التأليف المحلية في الفقه والأصول فإنّها تميّزت في الغالب بشرح المختصرات لفكّ غامضها، أو اختصار المطوّلات لتسهيل حفظها، دون إغفال لجهود بعض الفقهاء الذين أظهروا اجتهاداتهم التأليفية، كالشريف التلمساني في "مفتاح الوصول" والمقري الجد في "القواعد الفقهية"، كما تميّزت تصانيف فقهاء المغرب الأوسط بتناولها لأغلب فروع المعرفة الفقهية والأصولية كعلم الفرائض، علم الوثائق، التّوازل، القواعد الفقهية والفروق...، غير أنّ ما لاحظناه أنّ أغلب هذه المصنّفات لازالت مخطوطة في رفوف المكتبات والخزائن العامة والخاصة.

- إنّ قراءة ما بين سطور الفتاوى النوازلية ببلاد المغرب الأوسط تبين لنا كيف تمكّن فقهاء المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط منذ العهد الحمّادي المرابطي من فرض سلطتهم وسط مجتمعات الأرياف والحواضر على حدّ سواء، فبالإضافة إلى دعم نظام الحكم للمذهب المالكي من جهة، وجهود الفقهاء في تدريس وشرح أمّهات الكتب المالكية من جهة ثانية، يمكن أن نقف على نقطة ثالثة تتمثّل في توفيق الفقهاء -في الفتوى- بين مبادئ المذهب وعادات المجتمع وتقاليده، فجعلوا من "العُرف" أو "ما جرى به العمل" مصدراً من مصادر التشريع من أجل المحافظة على خصوصية المجتمع وأعرافه، ما جعل الفتوى تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان، وكمثال على ذلك نجد أنّ العرف حرم المرأة البجائية من كلّ حق في الميراث، وظلّ الأمر كذلك إلى أن أصدر الفقيه التلمساني أبو سالم إبراهيم العقباني (ت880هـ/1475م) فتوى أنكر فيها موقف فقهاء المالكية من إسقاط حكم شرعي¹

- تميّزت المدرسة الفقهية المغرب أوسطية منذ المائة السابعة وما بعدها -خاصّة بعد دخول مصنّف ابن الحاجب- بالانفتاح والتقارب مع المذهب الشافعي، وتوسّع التيارات الفكرية المتعدّدة كتيار الاجتهاد في إطار المذهب، وازدهار حركة الجدل والمناظرات بين فقهاء المغرب الأوسط وفقهاء الحواضر المغربية بل وحتى المشرقية،

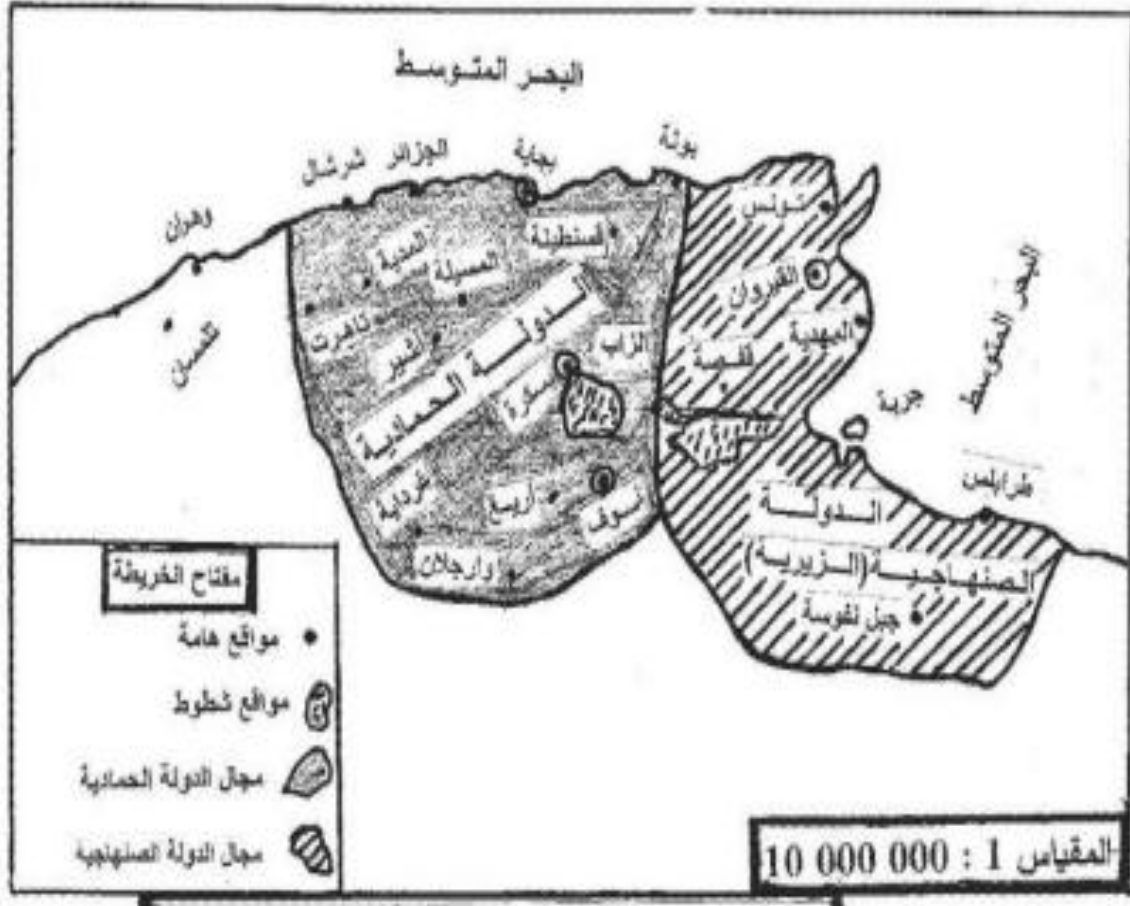
¹ - الونشريسي: المعيار، مصدر سابق، ج11، ص294.

كما برز المذهب الأشعري كتيّار عقائدي داعم ورافد للمذهب المالكي، لتكتمل الثلاثية بالمسحة الصوفية السلوكية على الطريقة المدينية الجنيدية، على حدّ قول ابن عاشر:

في عقد الأشعري وفقه مالك ... وفي طريقة الجنيد السالك.

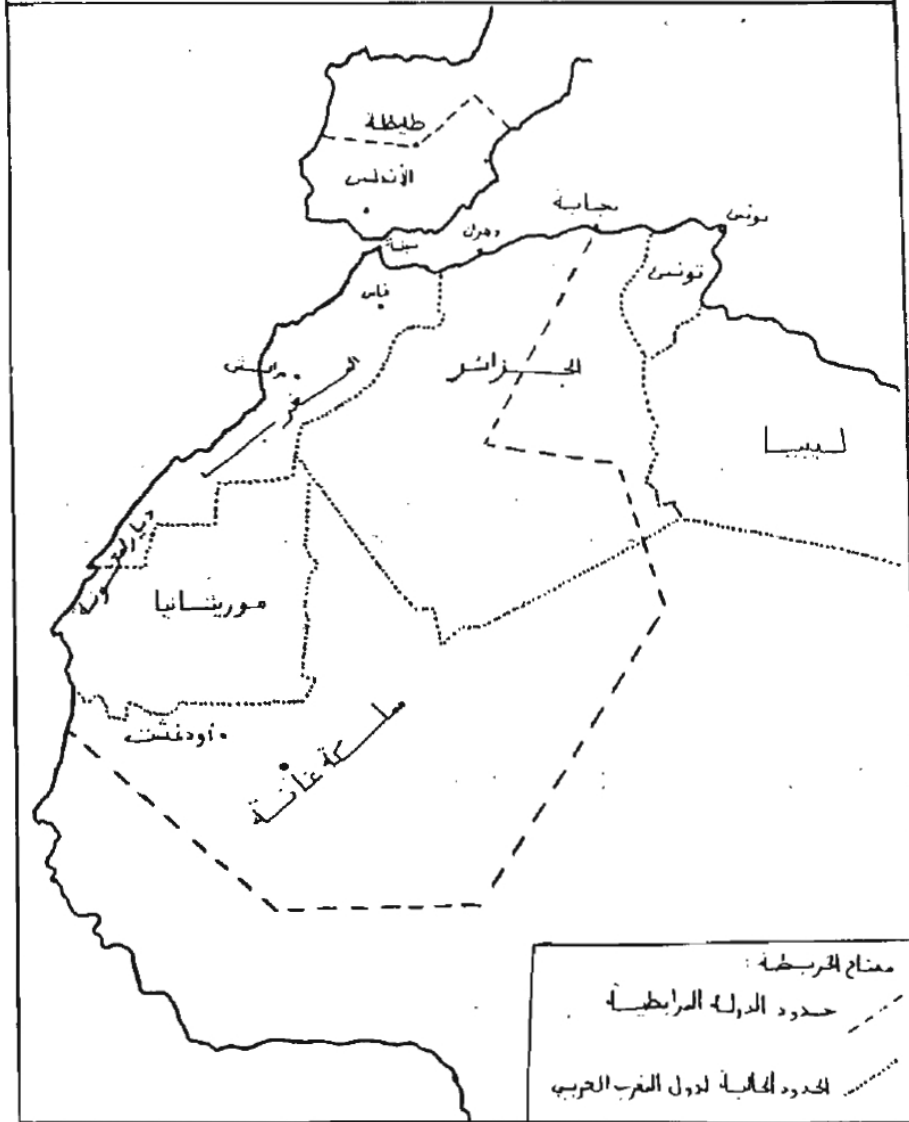
الملاحق

ملحق رقم 01 : مجالات الدولة الحمادية بالمغرب الأوسط



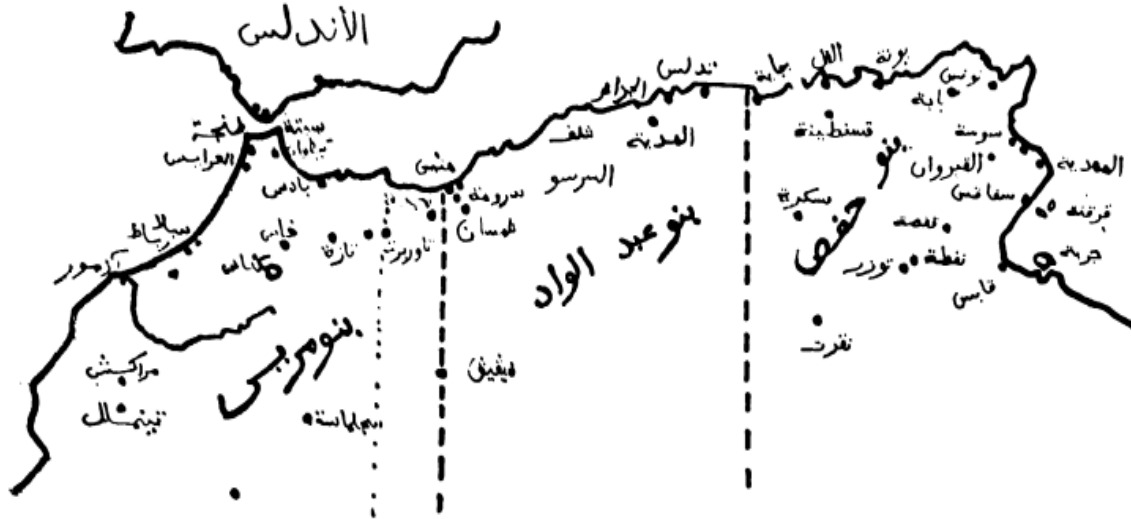
المرجع : علي غنابزية : مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصور الوسطى (بتصرف)

خريطة رقم 02 : مجالات دولة المرابطين بالمغرب الأوسط



المراجع : ابراهيم القادري بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين

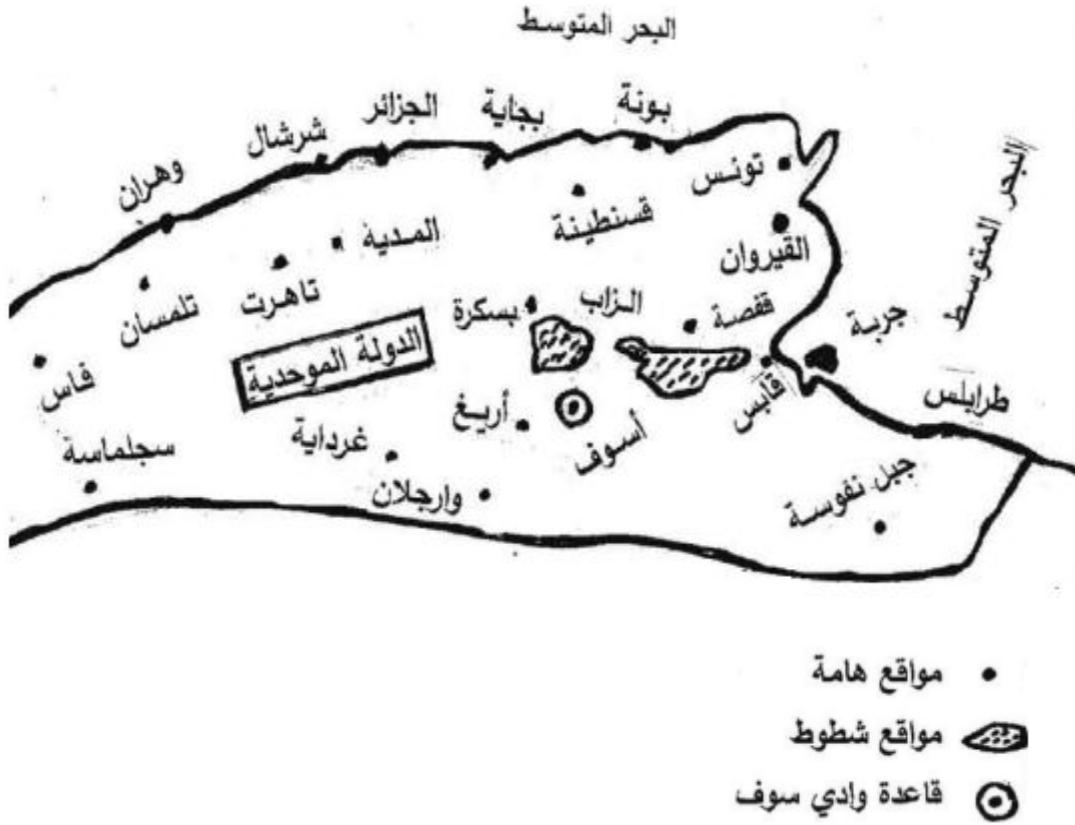
ملحق رقم 03 : خريطة المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين



المرجع : عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ، ج 2

ملحق رقم 04 : المناطق الواحية ضمن مجالات الدولة الموحدية

المقياس 1 : 10000000



المرجع : علي غنابزية : مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصور الوسطى (بتصرف)

فتوى لأبي الفضل بن النحوي (ت 513هـ) حول إحياء علوم الدين للغزالي.

(نص رسالة فقهاء تلمسان)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
كتب فقهاء تلمسان عن حضرته إلى الفقيه الإمام أبي زكريا القلعي قلعة سمرقند إلى الخفشي المتكلم
المقيم بالإسكندرية سنين، وإلى من بها من متكلمي الفقهاء بما هذا نسخته:
ما يقول الفقهاء السادة وفقهم الله لطاعته وعصمهم من معصيته في كتاب الفقيه حامد الغزالي
المسمى بإحياء علوم الدين، هل النظر فيه جائز، وهل وضعه على مذهب أهل السنة، وغير مخالف
لفقهاء الأمة الذين تقدموه، فقد طعن فيه في بلاد المغرب ورمي بالزندقة لما ظهر لهم في كتابه، وقد
أحرق هذا الكتاب في بعض بلاد المغرب، ونحن متوقفون عن ذلك في بعضها لما نرجو من جواب
الفقهاء لمعرفةهم بالرجل وعلومه ومعاني ألفاظه وما كان عليه، فبينوا لنا جميع ذلك مأجورين إذ أنتم
أعرف بالرجل وبكتابه مما نرجو إن شاء الله تعالى.

(جواب أبي الفضل ابن النحوي)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً
و للفقيه الإمام الفاضل الزكي أبي الفضل ابن النحوي رحمه الله مخاطباً لأهل تلمسان في مثل مجاوب
الزناقي:

جمع الله قلوبكم على التقوى حتى تقوى، ورفع ميثاقكم عن الدنيا التي هي أدنى إلى الأخرى التي هي
أخرى، وعقد ألوية مساعدكم بالقيام في دينه، وجعل أوعية قلوبكم مجلوة بيقينه، وصهر ألسنتكم التي
تلهجون بها من سيوفه الماضية، وأمكنتكم التي تحتلونها من حصونه المانع الواقية، حتى لا تركنوا لمخايل
الباطل العارضة في جهام الجهل على ظلام الظلم {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله
معكم، ولن يتركم أعمالكم} {ولينصرن الله من ينصره، إن الله قوي عزيز} {إن يمسسكم قرح فقد مسّ
القوم قرح مثله، وتلك الأمثال نذارها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا
يحب الظالمين}، {وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون}.

وما جرى به القضاء في كتاب إحياء علوم [الدين] فقد سبق به العلم في أول التكوين، و (ذلك تقدير العزيز العليم) و[تدبير] القوي الحكيم. ونسأل الله تعالى تدارك العصاة الخاطئين بتوبة تُحيي منهم ما أماتته الذنوب، وترد إليهم عازب الرأي حتى تقرر بصوابه القلوب. ولهذا الأمر ما بعده، والله لا يخلف وعده. والقوم قد زلت بهم القدم، وسيحيط بهم الندم {أفرأيت إن متعنهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتنعن}، {ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب}، {وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشيعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب}، وحزب الله هم الغالبون، وحزب الشيطان هم الخاسرون.

فيا إخواني الذين رأيت بعين الخيرة جميل نياتهم وكريم طوياتهم، كونوا قادة الخلق، وأحيوا عادة الحق، واضربوا بصارمه وجه مراغمه، (ولا ترتدوا على أديباركم فتقلبوا خاسرين) (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين)، و(إنه لقول فصل وما هو بالهزل).

وقد بلغني ثبوتكم على دينكم، ومضاؤكم على يقينكم، وتلك شنشنة أعرفها من أخزم، ومنقبة من الزمان الأقدم. والله يثبت على الحق أقدامكم، وينهض على عدوكم إقدامكم. ومتى استولت العامة عماها ولم تزعها الخاصة بمداها انتشرت ظلم الباطل وغياباته في آفاق البلاد، وتعددت خدع الشيطان و غواياته إلى أوهام العباد، فحتم على المستضاء [به] أن يطلع على جهاتها ما يتجلى لها الغاشي.

ولقد حضرني من النصر، ولزمتني بالغبية والحضرة، ما نحوت إليه حامدا، واستوليت عليه صاعدا. وأبو حامد الغزالي على الجملة والتفصيل، صاحب نقطة التحصيل ونكتة التوصيل. محمود المقال والفعال، ممدوح الجواب والسؤال. ومعروف المقدار في سائر الأقدار. قد أخذت تصانيفه بنواصي العباد، ووطنت دواوينه صياصي البلاد، فتتابع التسليم لها، وتعاضد الإقرار بها. فبأي مبالاة تقع بمثابة العوام، و ثفاية الهوام، الذين لم يصحبوا فريقه، ولم يسلكوا طريقه، ولم يتنقبوا في بلاده، ولا قاربوه في مراده ومراده، ولا قاموا إليه بسلطان، ولا نهضوا نحوه ببرهان. وقد وقعت على أحوالهم الهاجمة، فما رأيت بهجة تروق، ولا سمعت لهجة تفوق. وإنما هو انتحاء وانتحال، ومجال في مجال. ومسألة واحدة من مسائلهم لم يحددوا إليها دليلا، ولم يأخذوا نحوها سبيلا، ولم يأتوا إليها من بابها، ولا نطوا بها سببا من أسبابها. بل لا تسمع

إلا تشنيعا مهولا، و تبشيعا مضولا، وأنفاسا مختلف، وأقوالا متكلفة لا يخفى تلفيقها من جهات، ولا تأليفها عن ترديدات. لا فارس مشيح يرفع رأيه، ولا ممارس مليح يظهر آيه.

وكم من عائب قولا صحيحا  وآفته من الفهم السقيم

فليت شعري بماذا يهنون، وإلى ماذا يهتدون، وأفهامهم قاصرة، وأذهانهم حاصرة. نسأل الله رجعتهم وتوبة عليهم، وفتحنا مبينا فيهم ونصرا عزيزا عليهم.

ولا حول ولا قوة إلا بالله. وسلام عليكم ورحمة الله."

المرجع : محمد المغراوي و آخرون، متنوعات محمد حجي، صفحة 125

شجرة الزاوية المالرية



المرجع : ابن قنفذ، الفارسية ص : 50

ملحق 7: جدول لأبرز فقهاء المالكية بالمغرب الأوسط خلال (ق 7 - 8 هـ / 13 - 14 م)

الرقم	الاسم والكنية	النشاط الفقهي	المصدر
01	أبو الحسن علي الشهير بابن الزيات (ت ق 7هـ)	تصدّر للتدريس و الإقراء ببجاية، كانت تقرأ عليه كتب الرسالة و التلقين و التهذيب	الغبريني: عنوان الدراية، ص 197.
02	حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني (ت 664هـ/1266م)	فقيه مالكي من وجهاء مدينة قسنطينة، اشتغل بتدريس الحديث، وهو جدّ والد ابن قنفذ الخطيب.	ابن قنفذ: الوفيات، ص 330.
03	أحمد بن عثمان عبد الجبار المتوسي الملياني (ت 644هـ/1246م)	له تقييدات على كتاب "التلقين" للإمام المازري	التنبكي: كفاية المحتاج، ج 1، ص 77.
04	أبو اسحاق ابراهيم ابن يخلف التنسي (ت 680هـ/1281م)	له شرح على كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب، وله تقييد على "الإرشاد".	ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 66.
05	أبو الحسن علي الشهير بابن الزيات (ت ق 7هـ/13م)	تصدّر للتدريس و الإقراء ببجاية، كانت تقرأ عليه كتب الرسالة و التلقين و التهذيب	الغبريني: عنوان الدراية، ص 197.
06	أبو يوسف بن عبد السلام يعقوب الزواوي المنجلاقي (ت 690هـ/1291م)	عُرف بتفوّقه في الفقه المالكي، وكان أحد المفتين المشاورين في وقته.	الغبريني: عنوان الدراية، ص 265.
07	أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعي (ت 699هـ/1300م)	تصدّر لتدريس الفقه و الحديث ببجاية، من تلاميذه أبو العباس الغبريني.	الغبريني: عنوان الدراية، ص 65.
08	أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي (ت 731هـ/1331م)	كان عالما في الفقه والأصول واللغة والمنطق، ويعتبر أول من أدخل "مختصر ابن الحاجب" إلى بجاية	التنبكي: نيل الابتهاج، ص 609.

09	علي بن حسن بن علي بن ميمون (ت733هـ/1333م)	اشتغل بالخطابة نحو من خمسين سنة، وهو جد ابن قنفذ الخطيب (ت810هـ/1407م)	ابن قنفذ: الوفيات، ص345.
10	أبو زيد عبد الرحمان بن الامام البرشكي (ت741هـ/1341م)	شيخ المالكية في عصره، له شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي	التبكي: نيل الإبتهاج، ص245.
11	أبو الروح عيسى بن مسعود المنجلاقي (ت743هـ/1342م)	درس الفقه المالكي بالجامع الأزهر، وله شرح على مختصر ابن الحاجب في سبعة مجلدات	ابن فرحون: الديباج، ص182.
12	أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي (ت743هـ/1342م)	فقيه قاض ومفتٍ، له حواش على مختصر ابن الحاجب و"شرح أسماء الله الحسنى" و قصيدة "نظم فرائد الجواهر في معجزات سيد الأوائل و الأواخر"	التبكي: نيل الإبتهاج، ص401.
13	أبو موسى عمران بن موسى البجائي (ت745هـ/1344م)	كان أعلم معاصريه بمذهب مالك، تولى التدريس بالمدرسة التاشفينية، نقل عنه الونشريسي كثيرا من فتاويه في المعيار	المقري: نفح الطيب، ج5، ص223.
14	أبو موسى عيسى بن الإمام البرشكي (ت749هـ/1348م)	فقيه مالكي	التبكي: نيل الإبتهاج، ص291.
15	أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور التلمساني (ت749هـ/1348م)	فقيه لغوي، تولى القضاء بتلمسان وفاس	ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص
16	حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ (ت750هـ/1349م)	فقيه ومحدث مالكي تولى الخطابة، وهو والد ابن قنفذ الخطيب، له كتاب "المسنون في أحكام الطاعون"	ابن قنفذ: الوفيات، ص355.
17	أبو القاسم بن الحاج عزوز بن علناس (ت755هـ/1354م)	من العلماء البارزين في الفقه واللغة وأصول الدين، له مختصر حسن في الفرائض وغيره	ابن قنفذ: الوفيات، ص358.

18	أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأبلبي (ت757هـ/1356م)	شيخ العلوم العقلية والنقلية	
19	المقري، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي التلمساني (ت759هـ/1358م)	فقيه قاض، له عدة مؤلفات منها "القواعد الفقهية" و "عمل من طب لمن حب"	المقري: نفح الطيب، ج 5، ص207.
20	أحمد الشهاب القسنطيني (ت759هـ/1358م)	فقيه مالكي، كانت له أهلية الترقى إلى الإفتاء.	السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج1، ص158.
21	أحمد بن إدريس البجائي (ت بعد760هـ/1359م)	له شرح على مختصر ابن الحاجب، من تلاميذه الوغليسي وابن خلدون	التبكي: نيل الابتهاج، ص99
22	أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عمران المالري (ت764هـ/1363م)	فقيه متصوف، والده مؤسس الزاوية المالرية،	ابن قنفذ: الوفيات، ص362.
23	أبو العباس، أحمد بن الحسين بن سعيد المديوني (ت768هـ/1367م)	فقيه، استعمله أبو الحسن المريني في الزكاة، وتولى قضاء تلمسان على عهد أبي عنان	التبكي: نيل الابتهاج، ص105.
24	أبو عبد الله الشريف التلمساني (ت771هـ/1370م)	من كبار فقهاء تلمسان، اشتغل بالتدريس والتأليف، من مؤلفاته (مفتاح الوصول إلى علم الأصول) و (المنهل)	ابن خلدون: التعريف بن خلدون ص 62.
25	أبو علي حسين بن خلف الله ابن باديس (ت784هـ/1382م)	كان عالما بالفقه المالكي، اشتغل بالقضاء حتى وفاته	ابن قنفذ: انس الفقير، ص92
26	أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد الوغليسي (ت786هـ/1384م)	تولى إمامة الجامع الأعظم ببجاية، وله "المقدمة الوغليسية" في الفقه	التبكي: نيل الابتهاج، ص248.
27	أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس	كان محدثا وفقيها، تولى قضاء الجماعة بتونس وقسنطينة، وله	ابن قنفذ: انس الفقير، ص50.

	عدّة تقايد في مواضيع مختلفة.	(ت787هـ/1385م)	
28	بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد النواوي المشدالي (ت 8هـ/14م)	كان من حقاظ المذهب المالكي، قيل عنه كان بجاية كالبرزي بتونس	التبكي: نيل الابتهاج، ص150.
29	ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي(ت810هـ/1407م)	فقيه ومؤرخ متصوف، ترك العديد من المؤلفات، أهمّها في الفقه "اللباب في اختصار الجلاب" و "تقريب الدلالة في شرح الرسالة"	التبكي: نيل الابتهاج، ص109.
30	سعيد بن محمد العقباني (ت811هـ/1408م)	فقيه قاض، تولى القضاء في بجاية، مراكش، سلا، وهران وتلمسان	ابن فرحون: الدياج المذهب، ص124.

ملحق رقم 08: أهم الشروحات والمختصرات على أمهات الكتب المالكية

الرقم	المصنف	الشروحات والاختصارات والتعليقات
01	موطأ الإمام مالك (ت 179هـ/795م)	- النامي في شرح الموطأ لأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (ت 402هـ). - تفسير الموطأ للبوني (ت 440هـ). - مجموع في غريب الموطأ للأشيري (ت 561هـ). - المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار لأبي عبد الله محمد بن عبد الحق ابن سليمان اليفرنى التلمساني (ت 625هـ). - شرح الموطأ لأبي عمران موسى الزناقي (ت 8هـ).
02	مدونة الإمام سحنون (ت 254هـ/868م)	تكملة حاشية الوانوغى على ذيب المدونة لأبي عبد الله محمد بن بلقاسم المشذالي. (ت هـ). شرح المدونة لأبي عمران موسى الزناقي (ت 8هـ). شرح المدونة لسليمان بن إبراهيم الحسناوي البجائي (ت 887هـ).
03	رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت 369هـ/980م)	شرح الرسالة لناصر الدين المشذالي (ت 731هـ). شرح الرسالة لأبي عمران الزناقي الزموري (ت 8هـ). تقريب الدلالة في شرح الرسالة لابن قنفذ (ت 810هـ). تعليق مختصر على الرسالة لابن مريم. (ت 1011هـ/1603م).
04	تهذيب البراذعي (ت بعد 373هـ/983م)	روضة الأريب في شرح التهذيب لابن مرزوق الحفيد (ت 842هـ).
05	تلقين القاضي عبد الوهاب (ت 422هـ/1031م)	كتاب التبيين في شرح تلقين لابن الرمامة (ت 567هـ). شرح تلقين لأبي إسحاق التنسي (ت 680هـ).
06	مختصر الحاجب (ت 646هـ/1248م)	له عدة شروحات وتعليقات ينظر الفصل الثاني من الرسالة ص 142، 143.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر

- ابن الأثير، محمد بن عبد الله (ت658هـ): **الحلّة السيرة**، تح حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

- ابن الأثير، محمد بن عبد الله (ت658هـ): **إعتاب الكتاب**، تح صالح الأثير، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط1، 1380هـ/1961م.

- ابن الأثير، محمد بن عبد الله (ت: 658هـ): **التكملة لكتاب الصلاة**، تح عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م.

- ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين (ت630هـ): **الكامل في التاريخ**، تح عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1997م.

- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك (ت606هـ): **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تح عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط3، 1437هـ/2016م.

- ابن الأثير: **تاريخ الدولة الزيدانية بتلمسان**، تح هاني سلامة، مكتبة الثقافة الإسلامية، بور سعيد، مصر، ط1، 1421هـ/2001م.

- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت668هـ): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تح نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د ت.

- البرزلي، أبو القاسم بن أحمد (ت844هـ): **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت578 هـ): **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**، تص و مرا السيد عزت العطّار الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1374هـ/1955م.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت429هـ): **الفرق بين الفرق و بيان الفرق الناجية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1977م،
- البكري، أبو عبيد الله (ت487هـ): **المسالك و الممالك**، تح جمال طلبه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
- البوني (ت440هـ): **تفسير الموطأ**، تح أبي عمر عبد العزيز الصغير دخان المسيلي، وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية، دولة قطر، د ت.
- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي: **أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحّدين**، تح عبد الوهاب منصور، دار المنصورة للطباعة و الورق، الرباط، المغرب، 1971م،
- التجيبي، القاسم بن يوسف (ت730هـ): **برنامج التجيبي**، تح عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981 م
- ابن تغري بردي، جمال الدين (ت874هـ): **المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي**، تح محمد محمد أمين، تق سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،
- ابن تغري بردي، جمال الدين (ت874هـ): **التجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، دار الكتب، القاهرة، مصر، د ت.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت279هـ): **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
- التنبكي، أحمد بابا (ت1036هـ): **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، تح محمد مطيع، وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية، المغرب، 1421هـ/2000م.

- التنسي، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت899هـ): تاريخ دولة الأدارسة، من كتاب نظم الدر و العقيان، تح عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984م.
- التنسي، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت899هـ): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر و العقيان) تح محمود آغا بوعباد، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.
- ابن التلمساني، أبو محمد الفهري المصري (ت644هـ): شرح المعالم في أصول الفقه، تح عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1999م.
- ابن تومرت، محمد (ت524هـ): أعز ما يطلب، تق و تح عمار طالبي، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (ت728هـ): درء تعارض العقل والنقل، تح محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411هـ/1991م.
- ابن جبیر، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت614هـ): رحلة ابن جبیر، دار و مكتبة الهلال، بيروت، لبنان.
- ابن الجزري، شمس الدين محمد بن محمد (ت833هـ): غاية النهاية في طبقات القراء، تح ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.
- ابن جزري، أبو القاسم محمد بن أحمد (ت741هـ): القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، د ت، د ط.
- الجوذري، أبو علي منصور: سيرة الأستاذ جوذر، تق و تح محمد كامل حسين و محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ت.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت597هـ): تلبيس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م.
- الجويني، أبو المعالي (ت478هـ): نهاية المطلب في دراية المذهب، تح عبد العظيم محمود الديب، دار المنهاج، جدة، السعودية، ط1، 1428هـ/2007م.
- ابن الحاج، أبو عبد الله العبدري (ت737هـ): المدخل، دار التراث، د ط، د ت،
- ابن الحاجب، جمال الدين أبو عمرو (ت646هـ): مختصر منتهى السؤل و الأمل في علمي الأصول و الجدل، تح نذير حمادو، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م.
- ابن حبان، محمد الدارمي البستي (ت354هـ): الثقات لابن حبان، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ط1، 1393هـ/1973م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): تهذيب التهذيب، دائرة المعارف النظامية، الهند، ط1، 1326هـ.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): لسان الميزان، تح دائرة المعارف النظامية بالهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط2، 1390هـ/1971م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): تبصير المنتبه بتحرير المشتبّه، تح محمد علي النجار، مرا علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د ت.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): رفع الإصر عن قضاة مصر، تح علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1998م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح محمد عبد المعيد ضان، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ط2، 1392هـ/1972م.

- الحجوي، محمد بن الحسن (ت1376هـ): الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت456هـ): جمهرة أنساب العرب، تح لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م.
- أبو الحسن الأشعري (ت324هـ): مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط1 1426هـ/2005م.
- الحسن الوزان (ت957هـ): وصف إفريقيا، تر عبد الرحمان حميدة، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، 2005م.
- أبو الحسن النباهي (ت792هـ): تاريخ قضاة الأندلس، تح لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط5، 1403هـ/1983م.
- الخطاب الرعيني، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد (ت954هـ): مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1412هـ/1992م.
- ابن حمّاد، أبو عبد الله محمد بن علي: أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم، تح التهامي نقرة و عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، د ت.
- ابن الأحمر، إسماعيل (ت807هـ): بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط، المغرب، 1972م.
- الحميدي، محمد بن فتوح الميورقي (ت488هـ): جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1966م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت900هـ): العروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1980م.
- الحموي، ياقوت (ت626هـ): معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م.

- ابن حوقل، أبو القاسم (ت 4هـ): صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ط2، 1938م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808هـ): العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ، 1988م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 808هـ): التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا، تح محمد بن تاوويت الطنجي، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، مصر، 1370هـ/1951م.
- ابن خلدون، أبو زكريا يحيى (ت 780هـ): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة ببيروناتنا، الجزائر، 1321هـ/1903م.
- ابن خلدون، أبو زكريا يحيى (ت 780هـ): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر.
- الحشني، محمد بن الحارث (ت 361هـ): أخبار الفقهاء و المحدثين، تح ماريّا لويسا أبيلا و لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، إسبانيا، 1991م.
- الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي (ت 463هـ): تاريخ بغداد، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد و ذيلوله، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ.
- ابن الخطيب، لسان الدين (ت 776هـ/1374م): الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1963م.

- ابن الخطيب، لسان الدين (ت776هـ/1374م): أعمال الأعلام، تح سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين (ت681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1971م.
- الداودي (أبو جعفر أحمد بن نصر ت402هـ): كتاب الأموال، تح رضا محمد سالم شحادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
- الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت670هـ): طبقات المشائخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر.
- الإدريسي، محمد بن محمد (ت560هـ) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتاب، بيروت، ط1، 1409هـ.
- الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة (ت1230هـ): حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، دار الفكر، د.ت.
- الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر (ت748هـ): الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء و الرواة بأعلى الصّعيد، المطبعة الجمالية، حارة الروم، مصر، 1332هـ/1914م.
- الذهبي، شمس الدين (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1427هـ/2006م.
- الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، تح عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1413هـ/1993م.
- الذهبي، شمس الدين (ت748هـ): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1997م.

- الذهبي، شمس الدين(ت748هـ): **تذكرة الحفاظ**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م.
- ابن رشد القرطبي، أبو الوليد(ت520هـ): **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة**، تح محمد حجي وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ/1988م.
- ابن رشد الحفيد(ت595هـ): **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**، تح محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2.
- الرقيق القيرواني: **تاريخ إفريقية و المغرب**، تحقيق المنجي الكعي، الدار العربية للكتاب، ط2، 2005م.
- الرصّاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري: **فهرست الرصّاع**، تح محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م.
- الزبيدي، محمد بن محمد(ت1205هـ): **تاج العروس من جواهر القاموس**، تح مجموعة من المحققين، دار الهداية، دمشق، سوريا، د ت.
- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم(ت708هـ): **صلة الصلة**، تح عبد السلام المهراس و سعيد أعراب، وارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية، المغرب، 1414هـ/1994م.
- الزركلي، خير الدين (ت1368هـ)، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م.
- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف(ت1099هـ): **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، تح طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ - 2003م.
- أبو زكرياء، يحيى بن أبي بكر: **كتاب سير الأئمة و أخبارهم**، تح إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1402هـ/1982م.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود (ت538هـ): أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م.
- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ق6هـ): كتاب الجغرافية، تح محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله (ت386هـ): النوادر و الزيادات، تح عبد الفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999م.
- ابن أبي زيد القيرواني، أبو محمد عبد الله (ت386هـ): الرسالة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.
- ابن الزيات، التادلي (ت617هـ): التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م.
- ابن الزيات، شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت814هـ): الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة، مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1968م.
- الزباني، محمد بن يوسف: دليل الحيران و أنس السهران في أخبار مدينة وهران، تح المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 2013م.
- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ): طبقات الشافعية الكبرى، تح محمود محمد الطناحي و عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، ط2، 1413هـ،
- سحنون بن سعيد التنوخي (ت240هـ): المدونة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1994م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد (ت230هـ): الطبقات الكبرى، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1968م.

- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ): كتاب الجغرافيا، تح اسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ط1، 1970م.
- ابن سعيد المغربي الأندلسي، أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ): الغصون الياض في محاسن شعراء المائة السابعة، تح إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـ): المغرب في حلي المغرب، تح شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1993م.
- السطّي، أبو عبد الله محمد بن سليمان (ت750هـ): شرح مختصر الحوفي، تح يحي بوغرو، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/2009م.
- السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت562هـ): الأنساب، تح عبد الرحمان بن يحيى المعلمي و آخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، باكستان، ط1، 1382 هـ /1962م.
- ابن سهل، أبو الأصبع عيسى (ت486هـ): الإعلام بنوازل الأحكام، تح نورة محمد عبد العزيز التويجري، د.ت، ط1، 1415هـ/1995م.
- السيوطي، جلال الدين (ت911هـ): الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.
- السيوطي، جلال الدين (ت911هـ): تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك، المطبعة الخيرية، مصر، ط1، 1325هـ/1907م.
- السيوطي، جلال الدين (ت911هـ): طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد (ت790هـ): الإفادات و الإنشادات، تح محمد أبو الأحفان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

- ابن شاکر، صلاح الدین محمد بن شاکر (ت764هـ): **فوات الوفيات**، تح إحسان عباس، دار صادر، بیروت، لبنان، ط1، 1974م.
- الاشبيلي، ابن خیر (ت575هـ): **فهرست ابن خیر الاشبيلي**، تح محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بیروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م.
- الشربيني، شمس الدین محمد بن أحمد (ت977هـ): **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، دار الكتب العلمية، بیروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1994م.
- الشريف التلمساني، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت771هـ): **مفتاح الوصول إلى علم الأصول**، تح محمد علي فركوس، المكتبة المكية، مكة، السعودية، مؤسسة الريان، بیروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م.
- الشعراني، أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد (ت973هـ): **الطبقات الكبرى**، مكتبة محمد المليحي الكتبي وأخيه، مصر، 1315هـ،
- الشماخي، أبو سعيد أحمد بن سعيد: **مقدمة التوحيد و شروحها**، تح أبو حفص عمر بن جميع، دار الحكمة، لندن، ط2، 1436هـ/2016م.
- شهاب الدین أبو العباس أحمد (ت716هـ): **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام**، دار البشائر الإسلامية، بیروت، 1995م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت548هـ): **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، القاهرة، مصر، د.ت.
- الشوكاني، محمد بن علي اليميني (ت1250هـ): **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة، بیروت، لبنان، د.ت.
- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت476هـ): **طبقات الفقهاء**، تح إحسان عباس، دار الرائد العربي، بیروت، لبنان، ط1، 1970.

- الأصبهاني، أبو الفرج ت365هـ: **مقاتل الطالبين**، تح السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.
- الأصبهاني، أبو طاهر السلفي (ت576هـ): **معجم السّفر**، تح عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة، السعودية، د.ت.
- الإصطخري، أبو القاسم ابراهيم (ت346هـ): **مسالك الممالك**، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن سعد التلمساني، محمد بن أبي الفضل (ت901هـ): **النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب**، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.
- ابن الصغير المالكي: **أخبار الأئمة الرستمين**، تح ابراهيم بحاز و محمد ناصر، د.ت.
- الصفدي، صلاح الدين خليل (ت764هـ): **الوافي بالوفيات**، تح أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1420هـ/2000م،
- ابن عبد البر القرطبي، يوسف بن عبد الله بن محمد (ت463هـ): **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تح علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/1992م،
- ابن عبد البر، أبو عمرو يوسف بن عبد الله (ت463هـ): **الكافي في فقه المدينة**، محمد محمد أحيّد ولد ماديك الموريتاني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، السعودية، ط2، 1400هـ/1980م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت463هـ): **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تح مصطفى بن أحمد العلوي و محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1387هـ.
- عبد الواحد محمد بن الطواح (ت بعد 718هـ): **سبك المقال لفك العقال**، تح محمد مسعود جبران، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط2، 2008م.

- ابن عرفة الورغمي التونسي، محمد (ت803هـ): **المختصر الفقهي**، نص و تع حافظ عبد الرحمان محمد خير، مسجد ومركز الفاروق، دبي، الإمارات العربية، ط1، 1435هـ/2014م.
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمان بن عبد الله (ت257هـ): **فتوح مصر والمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ.
- ابن عبد ربه، أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد (ت328هـ): **العقد الفريد**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت463هـ): **جامع بيان العلم وفضله**، تح أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة السعودية، ط1، 1414هـ/1994م.
- عبد الكريم الفكون (ت1073هـ): **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية**، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1980م.
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت بعد 700هـ/1300م): **رحلة العبدري**، تح علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط2، 1426هـ/2005م.
- ابن عبد الملك المراكشي: **الذيل و التكملة لكتابي الصلة و الموصول**، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1965م.
- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله الاشيلي (ت543هـ): **القبس في شرح موطأ مالك بن أنس**، تح محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.

- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله الاشيلي (ت543هـ): **العواصم من القواصم**، تص عبد الحميد بن باديس، المطبعة الجزائرية الاسلامية، ط1، 1345هـ/1926م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت571هـ): **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1404هـ.
- ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني: **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تح محمد حجي، دار المغرب للتأليف و الترجمة و النشر، الرباط، المغرب، ط2، 1397هـ/1977م.
- أبو علي المتيجي: **دلائل القبلة**، تح نصيرة عزرودي، منشورات مؤسسة الإمام عبد الحميد بن باديس، قسنطينة، الجزائر، 2017م.
- عماد الدين إدريس (ت872هـ): **عيون الأخبار**، تح محمد السعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.
- عماد الدين الكاتب الأصبهاني، أبو عبد الله (ت597هـ): **خريدة القصر وجريدة العصر**، د ت، د ط.
- ابن غازي، أبو عبد الله محمد (ت910هـ): **فهرس ابن غازي**، تح محمد الزاهي، دار بوسلامة للطباعة و النشر، تونس، د ت.
- الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد (ت714هـ): **عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية**، تح رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.
- الغزالي، أبو حامد (ت505هـ): **إحياء علوم الدين**، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م.
- الفارابي، أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت339هـ): **الصّحاح**، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م.

- الفاسي، أبو عبد الله التيمي (ت603هـ): **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تح محمد الشريف، منشورات كلية الآداب، تطوان، المغرب، ط1، 2002م.
- فخر الاسلام، محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي الشافعي (ت507هـ): **حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء**، تح ياسين أحمد إبراهيم درادكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، دار الأرقم، عمان، الأردن، ط1، 1980م.
- الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز (ت1031هـ): **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تح عبد الكريم كريم، وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية و الثقافة، المغرب.
- ابن فرحون، ابراهيم بن علي بن محمد (ت799هـ): **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- ابن فرحون، ابراهيم بن علي بن محمد (ت799هـ): **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ط1، 1406هـ/1986م،
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت749هـ): **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبوظبي، ط1، 1423هـ.
- الفيروزبادي، محمد الدين أبو طاهر (ت817هـ): **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005م.
- أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت732هـ): **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد (ت395هـ): **معجم مقاييس اللغة**، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
- ابن الفريسي، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت403هـ): **تاريخ علماء الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1408هـ/1988م.

- الفيومي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت770هـ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- القاضي عياض، أبو الفضل (ت544هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح ابن تاويت الطنجي، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1.
- القاضي عياض، أبو الفضل (ت544هـ): فهرست شيوخ القاضي عياض (الغنية)، تح د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1463هـ/2003م
- القاضي النعمان: شرح الأخبار في ذكر فضائل الأئمة الأطهار، تح محمد حسين الجلاي، منشورات الأعلمي، بيروت، لبنان، 2006م.
- القاضي النعمان: المجالس و المسابير، تح الحبيب الفقهي و آخرون، دار المنتظر، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت1012هـ): جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط المغرب، 1973م.
- ابن القاضي، أبو العباس أحمد المكناسي (ت960هـ): درّة الحجال في أسماء الرجال، تح محمد الأحدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، مصر.
- القاسم محمود بن عمرو (ت538هـ): أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/1998م.
- ابن قدامة المقدسي، موفق الدين عبد الله بن أحمد (ت620هـ): المغني، مكتبة القاهرة، مصر، 1388هـ/1968م.
- القراني، شهاب الدين (ت684هـ): أنوار البروق في أنواء الفروق، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، د ت.

- القرافي، بدر الدين محمد بن عمر (ت1008هـ): **توشيح الديباج و حلية الابتهاج**، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1425هـ/2004م.
- القفطي، علي بن يوسف (ت648هـ): **إنباه الرواة عن أنباه النحاة**، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ.
- ابن القطّان، أبو محمد حسن بن علي المراكشي (ت ق7هـ): **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزّمان**، تق و تح محمود علي مكّي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط2، د ت.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن (ت465هـ): **الرسالة القشيرية**، تح عبد الحلّيم محمود ومحمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- القلصادي، أبو الحسن علي (ت891هـ): **رحلة القلصادي**، تح محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع.
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تح و تع محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت.
- القلقشندي، أبو العبّاس أحمد بن علي (ت821هـ): **نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب**، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1400 هـ/ 1980م.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العبّاس أحمد بن الحسين (ت810هـ): **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تح محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العبّاس أحمد بن حسن (ت810هـ): **الوفيات**، تح عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط4، 1403هـ/1983م.

- ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت367هـ): تاريخ افتتاح الأندلس، تح إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1410هـ/1989م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1384هـ/1964م.
- الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود الحنفي (ت587هـ): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1406هـ/1986م.
- الكتّاني، أبو عبد الله محمد الحسني الإدريسي (ت1345هـ): الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، تح محمد المنتصر بن محمد الزمزمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط6، 1421هـ/2000م.
- الكتّاني، محمد بن جعفر بن إدريس (ت): سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصالحاء بفاس، تح الشريف محمد حمزة بن علي الكتّاني.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ): طبقات الشافعيين، تح د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية 1413 هـ / 1993م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ): تفسير القرآن العظيم، تح سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر و التوزيع، ط2، 1420هـ/1999م.
- ابن كثير، عزالدين (ت630هـ): اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ابن الكردبوس، عبد الملك بن محمد التوزيري (ت بعد575هـ): الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية، ط1، 1429هـ/2008م.
- الكلاباذي، أبو بكر بن محمد بن أبي إسحاق الحنفي (ت380هـ): التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ت.

- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت273هـ): سنن ابن ماجة، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د ت.
- المازوني، أبو زكريا يحيى بن عيسى (ت883هـ): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح ماحي قندوز، رسالة دكتوراه، إشراف أ. د. لخضاري لخضر، جامعة وهران، الجزائر، 2010/2011م.
- المازوني، أبو زكريا يحيى (ت883هـ): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح الكريف محمد رضا، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2015/2016م.
- المالكي، أبو بكر محمد بن عبد الله (ت بعد464هـ): رياض النفوس، تح بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م.
- ابن مأكولا، سعد الملك (ت475هـ): الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411هـ/1990م.
- المجاري، أبو عبد الله محمد (ت862هـ): برنامج المجاري، تح محمد أبو الأحنان، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.
- محمد العدواني: تاريخ العدواني، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995م.
- محيي الدين الحنفي، عبد القادر بن محمد (ت775هـ): الجواهر المضية في طبقات الحنفية، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان، د ت.
- المراكشي، محمد بن محمد (ت703هـ): الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة، تح محمد بنشريف و إحسان عباس، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1984م.

- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي (ت647هـ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1426هـ/2006م.
- ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد (ت781هـ): المناقب المرزوقية، تح سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، ط1، 1429هـ/2008م.
- ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد (ت781هـ): المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تح ماريّا خيسوس بيغيرا، تق محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1401هـ/1981م.
- مسلم بن الحجاج، أبو الحسن (ت261هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
- المقدسي، أبو عبد الله محمد (ت380هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر بيروت، ط2، د.ت.
- المقدسي، أبو شامة (ت665هـ): عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م.
- المقرئزي، تقي الدين (ت845هـ)، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ.
- المقرئزي، تقي الدين (ت845هـ): كتاب المقفّى الكبير، تح محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ/1987م.
- المقرئزي، تقي الدين (ت845هـ): اتعاط الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط1، د.ت.

- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت1041هـ): **نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1900م.
- المقري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت759هـ): **جامع الأمهات ومعه درر القلائد و غرر الطرر والفوائد**، جمع أبي العباس الونشريسي، تح أبي الفضل بدر العمراني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م.
- المقري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت759هـ): **القواعد الفقهية**، تح أحمد بن عبد الله بن حميد، مركز إحياء التراث الاسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، د.ت.
- المقري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت759هـ): **عمل من طب لمن حب**، تح أبو الفضل بدر بن عبد الإله العمراني الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
- ابن مكي، أبو حفص عمر بن خلف (ت501هـ): **تثقيف اللسان وتلقيح الجنان**، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ/1990م، ص199.
- ابن منظور، جمال الدين (ت711هـ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.
- مؤلف مجهول: **زهر البستان في دولة بني زيان**، تح بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013م.
- مؤلف مجهول (ت ق 6هـ): **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986م.
- مؤلف مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تع سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.
- مؤلف مجهول: **مفاخر البربر**، تح عبد القادر بوبايدة، دار أبي رقراق، الرباط، المغرب، ط1، 2005م.

- مؤلف مجهول: **الحلل الموشية في ذكر الأخبار الأندلسية**، تح سهيل زكار و عبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1399هـ/1979م.
- **الناصرى السلاوي: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.
- ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله الدمشقي (ت842هـ): **توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم**، تح محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.
- ابن نقطة الحنبلي البغدادي، محمد بن عبد الغني (ت629هـ): **إكمال الإكمال**، تح عبد القيوم عبد ريب النبي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1410هـ.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة، مصر، ط1، 1423هـ.
- النووي، أبو زكريا محي الدين الشافعي (ت676هـ): **تهذيب الأسماء و اللغات**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- النووي، أبو زكريا محي الدين الشافعي (ت676هـ): **المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))**، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- الورثيلاني، سيدي حسين بن محمد (ت): **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الآثار**، مطبعة بدير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908م.
- الوسياني: **سير الوسياني**، تح عمر سليمان بوعصبانة، وزارة التراث و الثقافة، مسقط، عمان، ط1، 2009م.
- الوغليسي، أبو زيد عبد الرحمان (ت786هـ): **المقدمة الوغليسية على مذهب السادة المالكية**، تح محمد أمل نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ط1، 1427هـ/2007م.

- أبو الوليد، إسماعيل بن الأحمر (ت807هـ): روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1382هـ/1962م.
- أبو الوليد، إسماعيل بن الأحمر (ت807هـ): أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري، تح محمد رضوان الدايدة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ/1987م
- الونشريسي، أبو العباس (ت914هـ): المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق، تح عبد الرحمان الأطرم، دار البحوث للدراسات الاسلامية، دبي، الإمارات، ط1، 1426هـ/2005م.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت914هـ): المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس و المغرب، تح محمد حجي، وزارة الأوقاف و الشؤون الاسلامية، المغرب، 1401هـ/1981م.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت914هـ): وفيات الونشريسي، تح محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر.
- ياقوت الحموي: شهاب الدين (ت626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1995م
- أبو يحيى، زكريّا الأنصاري المعروف بشيخ الاسلام (ت926هـ): الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة، مطبعة محمد يحيى شيخ الطريقة السعدية، الاسكندرية، مصر، 1288هـ.
- يوسف بن علي بن جبارة، أبو القاسم (ت465هـ): الكامل في القراءات العشر و الأربعين الزائدة عليها، تح جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للنشر و التوزيع، ط1، 142هـ/2007م.

ثالثا: المراجع

- أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بدير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م.
- أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931م
- أحمد أبّا الصافي، جعفري: من تاريخ توات، أبحاث في التراث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 2009م.
- أحمد شامخ الحميد العنزي: الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني في مصر و الشام و الحجاز، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، ط1، 2010م
- أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ/1985م.
- أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام، مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، د ت.
- آنجل بالنشيا: تاريخ الفكر الأندلسي، تر حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، د ت.
- ابن بابا حيدة: القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م.
- بشير ضيف: مصادر الفقه المالكي أصولا و فروعاً في المشرق و المغرب قديماً و حديثاً، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ/2008م
- بشير مبارك: المدرسة المالكية المغربية ما بين القرنين 2-8هـ، مجلّة الحكمة للدراسات الإسلامية، مج3، ع1، 2016م.
- بشير رمضان التليسي: الاتجاهات الثقافية في بلاد الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2003م.

- إبراهيم بخّاز: **الدولة الرستمية، جمعية التراث، القنطرة، الجزائر، ط2، 1414هـ/1993م.**

- إبراهيم التهامي: **جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 2005م.**

- إبراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء و سوف، تع الجيلاني بن ابراهيم العوامر، الأبيار، الجزائر، 2007م.**

- ابراهيم مصطفى وآخرون: **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، د ت.**

- تاديوس ليفتسكي: **دراسات شمال إفريقية، تر أحمد بومزقو، مكتبة الضامري للنشر و التوزيع، المسيب، سلطنة عمان، ط2، 2008م.**

- جوزيف شاخت: **مدخل إلى الفقه الإسلامي، تر د. حمادي ذويب، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2018م**

- جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص195.**

- الحسين بن محمد شواط: **مدرسة الحديث في القيروان (من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري)، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1411هـ.**

- إحسان إلهي ظهير: **الاسماعيلية تاريخ و عقائد، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، د ت.**

- حسين مؤنس: **معالم تاريخ المغرب و الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط5، 2000م.**

- حسن حسني عبد الوهاب: **الإمام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس.**

- حسن إبراهيم حسن و طه أحمد شرف: **عيد الله المهيدي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1366هـ/1947م.
- حسين بويدي: **كتامة المنسية** (دراسة في مقاومة المشروع الشيعي الاسماعيلي داخل المجالات الكتامي)، مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية، ع24
- حسن أحمد محمود: **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د.ت.
- حسن علي حسن: **الحضارة الاسلامية في المغرب و الأندلس "عصر المرابطين و الموحدين"**، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1980م.
- الحسن الشاهدي: **أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني**، مطبوعات عكاظ، الرباط، المغرب، 1990م
- أبو الحسن العدوي: **حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني**، تح يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ/1994م.
- حميد بن محمد لخم: **فتاوى الإمام بن أبي زيد القيرواني**، دار اللطائف، القاهرة، مصر، 2012م.
- إدريس الفضيلي: **الدرر البهية و الجواهر النبوية**، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية،
- دي بور: **تاريخ الفلسفة في الاسلام**، تر و تع محمد عبد الهادي أبو ريده، دار النهضة العربية.
- راغب كحالة الدمشقي، عمر بن رضا (ت1408هـ): **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- رشيد بورويصة: **الدولة الحمّادية تاريخها و حضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1397هـ/1977م.

- روجي لي تورنو: **حركة الموحدين في المغرب**، تر أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م.
- ألفرد بل: **الفرق الإسلامية بالشمال الإفريقي**، تر عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987م.
- زغريد هونكة: **شمس العرب تسطع على الغرب**، تر كمال دسوقي، مرا مارون عيسى الخوري، دار الجيل و دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط8، 1993م.
- السنوسي، علي الخطابي الادريسي: **الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية**، مطبعة الشباب، القاهرة، مصر، 1349هـ.
- سعد زغلول، عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال**، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، د ت.
- سعد الله، أبو القاسم: **تاريخ الجزائر الثقافي (ق10 -14هـ / 16-20م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ المغرب في العصر الاسلامي**، مؤسس شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، ط2، 1982م.
- سليمان باشا الباروني: **الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية**، مرا محمد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن، ط1، 2005م.
- صالح بن قربة: **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية، الجزائر، 2007م.
- الطاهر بونابي: **مظاهر المجال والدين و المجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2020م.

- الطاهر بونابي: **التصوف في الجزائر خلال ق 6،7هـ/12،13م**، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2004.
- الطاهر المعموري: **الغزالي و علماء المغرب**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990م،
- الطاهر طويل: **المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط، من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس**، المتصدر للترقية الثقافية والعلمية والإعلامية، الجزائر، ط 1، 2011 م.
- الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية من ق 10 إلى ق 12م**، تر حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1992م.
- لخضر بولطيف: **فقهاء المالكية و التجربة السياسية الموحدية في الغرب الاسلامي**، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فرجينيا، و م أ، ط 1، 1429هـ/2009م.
- ليفي برونفسال: **الاسلام في المغرب و الأندلس**، تر السيد محمد عبد العزيز سالم و محمد صلاح الدين حلمي، مرا لطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، 1990م.
- سعيد أعراب: **مع القاضي ابن العربي**، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1407هـ/1987م.
- السعدي، عبد الرحمان بن عبد الله بن عامر : **تاريخ السودان**، مطبعة بردين، باريس، فرنسا، 1898م.
- اسماعيل بن محمد البغدادي(ت1399هـ): **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- السلاوي، أبو العبّاس أحمد بن خالد التّاصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1418هـ/1997م.

- سليمان بهلولي: الدولة السليمانية و الإمارات العلوية في المغرب الأوسط، وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011م.
- صالح بن قربة وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2007م.
- صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة و الأندلسيين في العصور الوسطى، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1963م.
- إبراهيم أعزام: غصن البان في تاريخ ورجلان، تحقيق إبراهيم بن بكير بحاز وسليمان بن محمد بومعقل، مطبعة العالمية، غرداية الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.
- كمال شبانة: الدويلات الإسلامية في المغرب، دار العالم العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1429هـ/2007م.
- عارف تامر: خمس رسائل إسماعيلية، دار الإنصاف، سلمية، سوريا، 1375هـ/1956م.
- عباس بن إبراهيم السملالي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مرا عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط2، 1413هـ/1993م.
- عبد العزيز الصغير دخان: موسوعة الإمام العلامة أحمد بن نصر الداودي، المسيلي، التلمساني، المالكي، في اللغة والحديث والتفسير والفقه، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الحراش، الجزائر، 2013م.
- عبدالفتاح عاشور سعيد: الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1996م.
- عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1977م.

- عبد الله كَنُون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم و الأدب و السياسة، تق محمد بن عزّوز، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/2010م.
- عبد الحميد بن باديس (ت1359هـ/1940م): العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، رواية محمد الصالح رمضان، الشركة الجزائرية مرازقة بوداود، الجزائر، ط2.
- عبد الحميد ابن باديس: تفسير ابن باديس، تع أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1416هـ/1995م
- عبد المجيد بن حمدة: المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، دار العرب، بن عروس، تونس، ط1، 1406هـ/1986م.
- عبد الرحمان الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان، ط2، 1965م.
- عثمان الكَعّاك: بلاغة العرب في الجزائر، مكتبة العرب، تونس.
- عبد العزيز فيلاي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب، دار الفجر للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1999م.
- عجيرد فهم: المسائل الفقهية المختلف في تشهيرها في المذهب المالكي، دراسة فقهية مقارنة، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2011/2012م.
- علي غنابزية: مجتمع وادي سوف منذ فجر التاريخ إلى أواخر العصور الوسطى، سامي للطباعة و النشر، الوادي، الجزائر، 2023م.
- علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، ط2، 1411هـ/1991م.

- عمر الجيادي: **مباحث في المذهب المالكي بالمغرب**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ط1، 1993م.
- عمارة علاوة: **دراسات في العصر الوسيط في الجزائر و الغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م.
- عيسى بن مسعود الزواوي: **مناقب سيدنا الإمام مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1994م.
- عصمت عبد اللطيف دندش: **دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب إفريقيا**، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.
- عبد الكريم غلاب: **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي**، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/2005م.
- عصمت عبد اللطيف دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين**، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.
- عمر سليمان بوعصبانة: **معالم الحضارة بوجرجلان**، رسالة ماجستير، إشراف د محمد ناصر، معهد أصول الدين، الجزائر، السنة الجامعية 1991/1992م.
- عبد الحميد البكري: **النبذة في تاريخ توات و أعلامها من ق9هـ إلى ق14هـ**، دار الغرب للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 2007م، ص80.
- عبد العزيز فيلاي: **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر، الجزائر، 2002م.
- علي يحيى معمر: **الإباضية في موكب التاريخ**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، ط3، 1429هـ/2008م.
- عمّار طالي: **آراء ابن العربي الكلامية**، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، د ت.

- عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 2001م.
- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015م .
- كلود كاهين: تاريخ العرب و الشعوب الاسلامية (منذ ظهور الاسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية)، تر بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت، لبنان، ط1، 1972م.
- مبارك بن محمد المليي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، د ت.
- مجموعة من المؤلفين: بحوث الملتقى الأول "القاضي عبدالوهاب البغدادي المالكي"، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، دولة الإمارات، ط1، 2004م.
- محمد أبو زهرة: مالك، حياته و عصره، آراءه و فقهه، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، مصر، ط2، د ت.
- محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الفقهية والإسلامية المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ت.
- محمد أمين بن فضل الله: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، لبنان.
- محمد علي الصلابي: الإباضية مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج، مكتبة حسن العصرية للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2019/2018م.
- محمد، محمد زيتون: القيروان و دورها في الحضارة الاسلامية، دار المنار للطباعة و النشر و التوزيع، مصر، ط1، 1988م.

- محمد الصالح حوتية: توات و الأزواد، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.
- محمد المغراوي: الموحّدون و أزمتات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2006م.
- محمد المنوني: حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1989م.
- محمد عبد الله عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتّى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1417هـ/1997م.
- محمد بن أحمد المالكي (ت1299هـ): منح الجليل شرح مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1409هـ/1989م.
- محمد زين الدين، ابن تاج العارفين (ت1031هـ): التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1410هـ/1990م.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، 1417هـ/1997م.
- محمد الشاذلي النيفر: موطأ الإمام مالك (قطعة منه برواية ابن زياد)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط5، 1984م.
- محمد بركات البيلي: التشيع في بلاد المغرب الاسلامي حتّى منتصف القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة و الكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، 1993م.
- محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد من شعر بكر بن حمّاد، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، ط1، 1385هـ/1966م.
- محمد عيسى الحريري: الدولة الرسمية بالمغرب الاسلامي، دار القلم ، الكويت، ط3
- محمد علي دبّوز: تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاوالت الثقافية، 2010م.

- محمد الطالبي: تراجم أغلبية، تح محمد الطالبي، الجامعة التونسية، تونس، 1968م.
- محمد الفاضل بن عاشور: أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي، مكتبة النجاح، تونس، د.ت.
- محمد إبراهيم علي: اصطلاح المذهب عند المالكية، دار البحوث للدراسات الاسلامية، دبي، ط2، 2002م.
- محمد المغراوي وآخرون: متنوعات محمود حجي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
- محمد البشير الإبراهيمي (ت1385هـ): آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع و تق أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- محمد خيرى المفتي: علم الفرائض والمواريث في الشريعة الإسلامية والقانون السوري، د د، 1398هـ/1978م.
- محمد البركة: فقه النوازل على المذهب المالكي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010م.
- محمد المختار محمد المامي: المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه و سماته، مركز زايد للتراث و التاريخ، العين، دولة الإمارات، ط1، 2002م.
- محمد المختار ولد أباه: المدخل إلى أصول الفقه المالكي، تق محمد الشاذلي النيفر، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1436هـ/2011م.
- محمد الفاضل بن عاشور: روح الحضارة الإسلامية، تق عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، فرجينيا، و م أ، ط2، 1413هـ/1992م.
- محمد العلمي: الدليل التاريخي لمؤلفات المذهب المالكي، الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، المغرب، ط01، 2012م.

- محمد الطاهر بن عاشور: كشف المغطى من المعاني و الألفاظ الواردة في الموطأ،
تع طه بن علي بوسريح، دار السلام، مصر، دار سحنون، تونس، ط2،
1428هـ/2007م.
- محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
لبنان
- محمود إسماعيل: فكرة التاريخ بين الإسلام و الماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة،
مصر، ط1، 1988م.
- مختار حساني: الحواضر والأمصاير الإسلامية الجزائرية، دار الهدى للطباعة والنشر
والتوزيع، الجزائر، ط1.
- مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر،
1417هـ/1996م.
- مصطفى المروّس: المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وزارة
الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1418هـ/1997م،
- مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الاسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر،
ط2، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د ت.
- مناع بن خليل القطان: تاريخ التشريع الاسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط5،
1422هـ/2001م.
- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية منذ التأسيس إلى منتصف القرن
5هـ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1979م.
- موهوبي عبد القادر: ومضات تاريخية واجتماعية لمدين وادي ربيع وميزاب و ورقلة
والطيات والعلية والحجيرة، دار البصائر، الجزائر 2011م.

- ميكوش موراني: دراسات في مصادر الفقه المالكي، تع سعيد بحيري و آخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.
- ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.
- نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي من ق4 إلى ق8هـ، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1976م.
- نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5هـ/11م، تبر الزمان، تونس، 2004م.
- نور الدين أبو حية: النوازل الفقهية ومناهج الفقهاء في التعامل معها، دار الأنوار للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1436هـ/2015م.
- نور الدين عبد الله بن حميد السالمي: اللمعة المرضية من أشعة الإباضية، مؤسسة عمان للصحافة و الأنباء، مسقط، عمان، 1426هـ/2005م.
- وهبة الزحيلي: سبل الاستفادة من النوازل والفتاوى والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط1، 1421هـ/2001م.
- وهبة الزحيلي: أصول الفقه ومدارس البحث فيه، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط1، 1420هـ/2000م.
- يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين، تر و تع محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1417هـ/1996م.

رابعاً: الرسائل الجامعية

- أحمد لشهب: قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود (لأبي عمران عيسى بن موسى المغيلي)، رسالة دكتوراه، إشراف كمال العرفي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2016/2017م.

- بوبكر زاوي: إسهامات فقهاء المغرب الأوسط في المدونة الفقهية المالكية (ق4-10هـ/10-16م)، رسالة دكتوراه، إشراف د/نصر الدين بن داوود، جامعة تلمسان، الجزائر، 2018/2019م.
- ابراهيم ارحومة سالم أمهيري: محمد بن تومرت و آراؤه الفكرية، رسالة ماجستير، إشراف أ.د عبد الفتاح محمد العيسوي، قسم التفسير، كلية الآداب، جامعة سبها، دولة ليبيا، 2006افرنجي.
- حيدر محمد عبد الله الكريلاي: المشرّع الاسماعيلي أبو حنيفة القاضي النعمان، رسالة ماجستير، إشراف د. ناجي حسن، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، 1428هـ/2007م،
- الزهرة بوكرابلية: البيوتات العلمية بإقليم توات ما بين ق7-11هـ/13-17م، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر، 2017/2018م.
- سايح دين: الاتجاهات المذهبية و دورها في التطور الثقافي في المغرب الأوسط (ق3-6هـ)، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2015/2016م.
- سعيدة الوزري: دور فقهاء مالكية المغرب الأوسط في إثراء التأليف خلال العصر الحمادي ما بين 395-547هـ، رسالة دكتوراه، إشراف د. لطيفة بشاري، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2017/2018م.
- قرواش سومية: إسهامات علماء تيهرت في الحركة العلمية ببلاد المغرب الاسلامي، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2018/2019م.
- سمية ماحي: الأشعرية في الغرب الاسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر 01، الجزائر، 2021/2022م.

- عائشة بوشقيف: إسهامات علماء تلمسان في الحياة الفكرية بإقليمي توات و السودان الغربي من ق8-10هـ/14-16م، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر، 2018/2017م.
- عبد الرحمان كريب: الأثر الحضاري للمذهب المالكي في المغرب الأوسط من ق5-9هـ، أطروحة دكتوراه إشراف بلعربي خالد، جامعة الجيلالي الياصب سيدي بلعباس، الجزائر، 2017/2016م.
- عبد الرزاق خالدي: دور الطرق التجارية في إنشاء المدن بالمغرب الوسط في العهد الوسيط - مدينة وارجلان أنموذجا - رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف بويحيوي عز الدين وخالف محمد نجيب، معهد الآثار جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2009 / 2008م.
- عبد الرؤوف تقرورت: دور علماء مالكية المغرب الأوسط في التمكين الحضاري و الثقافي في بلاد السودان الغربي من نهاية القرون الوسطى إلى بداية العصر الحديث، رسالة دكتوراه، جامعة الوادي، الجزائر، 2023/2022م.
- عبد الغني حروز: المذهب الأشعري في بلاد المغرب الاسلامي ما بين القرنين 5-7هـ/11-13م، رسالة دكتوراه، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2016/2015م، ص200.
- عمّار غرائسة: المدينة الدولة في المغرب الأوسط، ورجلان نموذجاً (ق4-6هـ)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2008/2007م.
- عمر بلشير: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6 إلى 9هـ من خلال كتاب المعيار للونشريسي، أطروحة دكتوراه، إشراف د. غازي الشمري، جامعة وهران، الجزائر، 2010/2009م.

- قادة سبع: الصراع المذهبي العقدي بالغرب الإسلامي، رسالة دكتوراه، إشراف محمد بن معمّر، جامعة وهران، الجزائر، 2014/2015م.
- ضيف الله بن هادي بن علي: أصول الفقه في القرن الثامن الهجري، دراسة تاريخية تحليلية، رسالة دكتوراه، إشراف عبد الكريم بن علي النملة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، 1426هـ.
- مبخوت بودواية: العلاقات الثقافية و التجارية بين المغرب الأوسط و السودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، الجزائر، 2005/2006م.
- مريم هاشمي: الروابط الثقافية لمدينة بجاية مع حواضر بلاد المغرب الاسلامي (ق6-9هـ/12-15م)، رسالة دكتوراه، إشراف د. عبد الرحمان بالأعرج، جامعة تلمسان، الجزائر، 1439-1440هـ/2018-2019م.
- محمد جوهار: المختصرات الفقهية في المذهب المالكي، رسالة دكتوراه تحت إشراف السعيد بوركبة، دار الحديث الحسنية، المملكة المغربية، د.ت.
- محمد نصير: انتشار المذهب الأشعري ببلاد المغرب خلال القرنين 4-5هـ/10-11م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 2، بوزريعة، الجزائر، 2010/2011م.
- نصر الدين بن داود: علماء أسرة المرازقة و دورهم الثقافي بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى 10هـ/16م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2002/2003م.
- نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان من ق7هـ/13م إلى 10هـ/16م، رسالة دكتوراه، إشراف الدكتور محمد بن معمّر، جامعة تلمسان، الجزائر، 2009/2010م
- رابعاً: المقالات

- أحلام صالح وهب: ابن عرفة الورغمي التونسي، دراسة في سيرته و علومه الشرعية، مجلّة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، مج06، ع04، س2007م،
- أحمد خويلدي: المختصرات الفقهية في المذهب المالكي: نشأتها، أسبابها، أهدافها وجهود الفقهاء الجزائريين، مجلة الدراسات الفقهية والقضائية، جامعة الوادي، الجزائر، مج05، ع02، 2019م.
- أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1405هـ/1985م.
- إبراهيم بلبالي: التأثير الثقافي و الفكري لحاضرة تلمسان على توات في القرن 9هـ من خلال نوازل الونشريسي، الملتقى الوطني الأول حول العلاقات الحضارية بين إقليم توات و حواضر الغرب الاسلامي، أدرار، 2009م.
- بشير مبارك: المدرسة المالكية المغربية ما بين القرنين 2-8هـ، مجلّة الحكمة للدراسات الاسلامية، مج3، ع1، 2016م.
- بن قربة، الشيخ: الحياة الثقافية و الفكرية على عهد الرستميين، مجلّة الحضارة الاسلامية، جامعة وهران، ع12، س2005م.
- تقي الدين طيايبيّة: التحقيق من عصر الفقيه أبي علي المتيجي، مجلة المعارف للبحوث التاريخية، جامعة الوادي، الجزائر، مج4، ع4، س2018م.
- جلول هادي: دور المكتبات في نشر العلوم في تلمسان في العهد الزياني، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية المتوسطة، جامعة الشلف، الجزائر، ع2، س1436هـ/2015م.

- الحبيب الجناحي: لمحة عن الحياة الفكرية في المجتمع القيرواني القديم، مجلّة الفكر، ع6، س1966م.
- حفيظة بلميهوب: مدرسة بجاية وإسهامها في خدمة المذهب المالكي، الملتقى الوطني الخامس للمذهب المالكي (فقه النوازل في الغرب الإسلامي)، 14-15-16 أبريل 2009م، دار الثقافة، عين الدفلى، الجزائر.
- حسين بويدي: الداعيان الشيعيان أبو سفيان و الحلواني ببلاد المغرب، دراسة في النصوص و مقاربات حول مجالات النشاط و التأثير، مجلّة المعالم، ع18، س2015.
- خريّف زيتون: الإمام أبو عبد الملك البوني شارحا لصحيح البخاري، مجلّة المعيار، ع35، س2014م، جامعة الأمير ع القادر، قسنطينة، الجزائر،
- خديجة بورملة: إقليم متيجة خلال العصر الوسيط، مجلّة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، مج11، ع2، س2021م.
- رشيد بورويبة: عنابة من الفتح الاسلامي إلى أواخر العهد الموحد، مجلة الأصالة، الجزائر، ع34/35، تا 01/07/1976م،
- رشيد بورويبة: الفنّ الرستمي بتيهّرت و سدراتة، مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر. ع41، 1397هـ/1997م.
- زينب سالمي: الحياة العلمية بمنطقة توات خلال ق8 و9هـ، مجلّة الحكمة للدراسات التاريخية، الجزائر، مج05، ع12، ديسمبر 2017م.
- سعد زغلول: محمّد بن تومرت و رحلته العلمية في المغرب و الأندلس و المشرق، ندوة بلاد المغرب و علاقتها بالشرق حتّى أواخر ق9هـ/15م، اتّحاد المؤرّخين العرب، القاهرة، مصر، 1997م.

- سعيد أحمد أعراب: موقف الموحدين من كتب الفروع و حمل الناس على المذهب الحزمي، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، المغرب، ع249، ش رمضان/جوان، س1405هـ/1985م.
- شخوم سعدي: فتوى الإمام أبي زكريا الزناتي في الانتصار لأبي حامد الغزالي، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع03، جوان2016م.
- طاهر بن علي: تاريخ المذهب الظاهري بالأندلس، مجلة إسهامات للبحوث و الدراسات، كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية، جامعة غرداية، مج04، ع02، س2019.
- الطاهر بونابي: أبو زيد عبد الرحمان الوغليسي الفقيه الصوفي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، ع07، سبتمبر2007م.
- عبد الحميد حاجيات: الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، ع26، جويلية1975م.
- عبد العزيز لعرج: المدارس الاسلامية، دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، ع01، س1421هـ/2001م.
- عبد العزيز فيلاي: أبرز علماء قسنطينة و أثرهم في بلاد المغرب و المشرق خلال العهد الحفصي(ق7-10هـ/13-16م)، مجلة العلوم الانسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع01، جوان1990م/ ذو القعدة1410هـ.
- عثمان الكعاك: تلمسان و نشأة الدولة الموحدية، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، ع26، س1975م.
- عبد القادر زمامة: البيذق و المهدي بن تومرت، مجلة المناهل، وزارة الشباب و الثقافة و الرياضة، المغرب، ع16، ش12، س1979م.

- عبد الكريم عباس، الخفاجي: الصلات التجارية بين المغرب و السودان الغربي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، العراق، مج01، ع04، سبتمبر/أيلول2010م.
- عبد الهادي الحسيين: دخول المذهب المالكي إلى بلاد الغرب الاسلامي، أسباب ذيوعه وانتشاره، مجلّة دار الحديث الحسينية، المغرب، ع03، س1982م.
- عبد العالي بوعلام: منهج العلماء في الاجتهاد في النوازل الفقهية (المفهوم والضوابط)، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنراست، الجزائر، مج13، ع04، س2021.
- عبد العزيز نواف الجحمة: صورة الغرباء المغاربة في مصر و الشام خلال عصر الحروب الصليبية، مجلّة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، سوريا، ع101، 102، س1429هـ/2008م.
- عبد القادر زمامة: البيذق و المهدي بن تومرت، مجلّة المناهل، وزارة الشباب و الثقافة و الرياضة، المغرب، ع16، ش 12، س1979م.
- علي حملاوي: مواقع و معالم أثرية من الجنوب الشرقي (منطقتي ورقلة و وادي ريغ)، مجلة البحوث الأثرية، قسم الآثار، جامعة الجزائر، 1997م.
- عليّة الأندلسي: شذرات فقهية من الحقبة الموحّدية(2)، ميثاق الرابطة، جريدة إلكترونية أسبوعية تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ع238.
- فياض، أبو دياك: المظاهر الحضارية و السياسية للدولة الرستمية، مجلّة دراسات تاريخية، ع55، س1996م،
- فوزية لزغم: البيوتات العلمية بقسنطينة و بجاية في ظل الحفصيين، مجلة عصور جديدة، جامعة وهران، الجزائر، ع14-15، س1435هـ/2014م.
- قطب الريسوي: ما جرى به العمل في الفقه المالكي، نظرية في الميزان، مجلة العدل، ع43، رجب 1430هـ.

- لخضر سعيداني: الإشعاع الفكري لعلماء قلعة بني حمّاد من خلال كتب التراجم، مجلّة المعارف، جامعة الوادي، الجزائر، مج7، ع4، ماي2022م.
- خميسي فريح: من علماء القراءات في القرن 5هـ أبو القاسم يوسف الهذلي البسكري، مجلّة المقدّمة للدراسات الانسانية و الاجتماعية، جامعة باتنة1، الجزائر، مج7، ع1، جوان 2022،
- محفوظ رموم: توات الجغرافيا و المصطلح من خلال المونوغرافيا المحلية و الأجنبية، مجلّة الحوار الفكري، جامعة أدرار، مج11، ع12، س2012م.
- محمّد بلغراد: الحركة الإباضية في تيهرت و سدراته، مجلّة الأصالة، العدد41، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1397هـ/1997م.
- محمد المذكوري: طريقة أبي القاسم عبد الرحمان بن يحيى القرشي في حل المسائل الفرضية دراسة وتحقيق، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والدراسات الاسلامية، مج20، ع01، شعبان1444هـ/مارس2020م.
- مريم هاشمي: بيوتات العلماء بمدينة بجاية، أسرة بني غبرين نموذجاً، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي تلمسان، الجزائر، مج16، ع01، س2024م.
- مسعود كربول: كتب النوازل بين الاستعمال الفقهي والتوظيف التاريخي (المعيار المعرب للونشريسي أنموذجاً)، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة، الجزائر، ع09، مارس 2014م.
- مصطفى بوهني: الإشعاع الفكري و الثقافي لتلمسان في المغرب الأوسط من ق6 إلى ق8هـ، مجلّة البدر، جامعة بشّار، الجزائر، مج09، ع11، س2017م.
- مصطفى الحكيم: الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، معالم من رؤيته الدينية و السياسية، مجلة المنهل، جامعة الوادي، الجزائر، ع04، س03، 2017م.

- المهدي البوعبدلي: أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط و دور الإمام المغيلي بها في قضية اليهود، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة و السياحة، الجزائر، ع94، جويلية، أوت1986م.
- المهدي البوعبدلي: جوانب من تاريخ بونة الثقافي و السياسي عبر العصور، مجلّة الأصاله، ع35/34، س1976.
- نجم الدين الهنتاتي: الموطأ و المدونة و النوادر، مجلّة التاريخ العربي، ع29، س2004م.
- نصر الدين بن داود: أبو عبد الله بن مرزوق الكفيف، قراءة عن سيرته و نشاطه، مجلّة أنثروبولوجيا الأديان، جامعة تلمسان، الجزائر، ع10، س2011م.
- نور الدين غرداوي: جهود أبي عبد الله الشريف التلمساني في مجال الفتوى ودوره في الإشعاع الثقافي بالمغرب الاسلامي خلال العهد الزياني من خلال نوازل المازوني، مجلة المنارة للاستشارات الأكاديمية، ع18، جوان2017م.
- و داد القاضي: ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية، مجلّة الأصاله، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ع45، س1387هـ/1977م.

سادسا: المراجع الأجنبية

- Mahjoubi(Ammar):**La Tunisie arabo musulmane**(dans les atlas de - jeune afrique), éd. Jeune afrique, Paris, 1979,
- Gautier E F: **Le passé de l'Afrique du Nord**, les Siecles Obscures, Paris Payot,1942.
- Jonathan Brockopp: **Early Mālikī Law** Ibn ‘Abd al-ḥakam and his Major Compendium of Jurisprudence, Leiden. Brill.2000.p206.
- R. Le Tourneau: **La revolte du Abu-yazid au X^{em} siècle**, Les cahiers de Tunisie, revue de science humaines, T I, 1^{er} trimestre, 1953,

- BOUROUIBA Rachid: **Cites disparues**, Tahert-Sedrata- Achir – Kalaâ des Beni Hammad, "Art et culture", Ministère de l'information, Alger.
- R. pottier: **histoire du Sahara**, nouvelles éditions latines , paris , 1947.
- Echallier(J.C): Village dèsertes et structures agraires anciennes du Touat, Gourara, Algerien, Paris ,AMG , 1972 .
- Gerhard Rolrefs: **Voyages et exploration au sahara**, Draa, Tafilelet, sud orenais, tout tidikelt, 1861-1864.

فهرس الموضوعات

الفهرس:	02
الموضوع:	12
كلمة التقدير:	12
الإهداء:	12
المختصرات:	12
المقدمة:	12
الفصل التمهيدي: لمحة تاريخية عن المذهب المالكي بالمغرب الأوسط قبل ق4هـ	12
تمهيد:	12
أولاً: تعريفات ومفاهيم:	12
01 المغرب الأوسط وإشكالية المجال:	12
02 المذهب والمدرسة:	14
03 الإمام مالك مؤسس المذهب:	17
ثانياً: دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب:	24
1. الخارطة المذهبية لبلاد المغرب قبيل دخول المذهب المالكي:	24
2. دور الرحلة في دخول المذهب المالكي إلى بلاد المغرب:	29
3. تلاميذ الإمام مالك البذرة الأولى للمذهب في بلاد المغرب:	32
ثالثاً: الحضور المالكي بالمغرب الأوسط خلال القرن 3هـ/9م:	42
1. المذهب المالكي ببلاد الزاب و المجالات الشرقية للمغرب الأوسط خلال العهد الأغلي:	45
2. واقع المذهب المالكي في الدولة الرستمية:	49
3. المذهب المالكي في الدولة السليمانية والإمارات العلوية بالمغرب الأوسط:	54
الفصل الأول: إرهابات تشكّل المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط (ق4-6هـ/10-12م):	56
تمهيد:	56
أولاً: العهد الفاطمي، مخاض ميلاد المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط (296-405هـ/):	56
1 . سياسة أبي عبد الله الداعي تجاه المذهب المالكي:	60
2 . عبيد الله المهدي ومحاولة طمس المذهب المالكي (297-322هـ):	62
3 . القائم بأمر الله وبداية الصراع العسكري مع فقهاء المالكية: (322-334هـ):	63
4 . المنصور بالله وازدواجية التعامل مع المالكية: (334-341هـ):	67
5 . فقهاء المالكية وفرض الرحيل على المعزّ لدين الله (341-361هـ):	69
6. قراءة في الصراع الفاطمي المالكي:	70

79	ثانيا: دولة بني حمّاد، مهد المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط:
79	1. حمّاد مؤسس الدولة، وقرار الانفراد بدولة سنية مالكية:
82	2. القلعة عاصمة مالكية لدولة بني حمّاد بالمغرب الأوسط (408-460هـ):
87	3. فقهاء بجاية والحواضر الحمّادية، النواة الأولى للمدرسة المالكية بالمغرب الأوسط:
97	ثالثا: دولة المرابطين، حاضنة المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط:
97	1. البعد المالكي لدولة المرابطين من جذور النشأة حتى عصر التمكن:
101	2. فقهاء المالكية بحواضر المرابطين بالمغرب الأوسط:
103	3. قراءة في واقع المذهب المالكي بالمغرب الأوسط خلال العهد المرابطي:
112	رابعا: الحضور المالكي بحواضر المغرب الأوسط في العهد الموحد:
112	1. تحديات المذهب المالكي في الفترة التومرتية (المرحلة الانتقالية بين المرابطين و الموحدين):
116	2. المذهب المالكي بعد ابن تومرت:
120	خلاصة الفصل:
	الفصل الثاني: المراكز الفقهية بالمغرب الأوسط، ومرحلة التمكين للمدرسة المالكية خلال
122	(ق7-8هـ/13-14م):
122	تمهيد:
122	أولا: صورة المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط نهاية العهد الموحد:
123	1. إقليم تلمسان الموحد (صراع بين التحرر والجمود):
125	2. بجاية والحواضر الشرقية (الفقهاء المتصوفة والأثر المدني):
128	3. حاضرة جزائر بني مزغنة و ما والاها:
131	4. فقهاء المالكية و النظام الموحد في المغرب الأوسط:
136	ثانيا: المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط في العهد الحفصي والزباني:
139	1. المدرسة المالكية بالحواضر الحفصية:
157	2. المدرسة المالكية بالحواضر الزبانية:
181	خلاصة الفصل:
184	الفصل الثالث: المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط (الخصائص و المميزات):
184	تمهيد:
184	أولا: الانفتاح والتواصل مع المدارس الفقهية المجاورة:
184	1. أثر المدرسة المالكية الإفريقية:
188	2. المدرسة المالكية الأندلسية، التأثير والتأثر:

3.	التواصل المشرقي وأثره على مدرسة المغرب الأوسط:	193
	ثانيا: تنوع المقررات الفقهية والأصولية المتداولة بمدرسة المغرب الأوسط:	198
1.	أتمهات كتب الفقه المالكي:	199
2.	كتب الأصول والقواعد الفقهية:	206
3.	آليات وطرق تدريس المقررات الفقهية والأصولية:	209
	ثالثا: مميزات التصنيف وخصوصيات الفتوى عند فقهاء مدرسة المغرب الأوسط:	212
1.	مميزات التصنيف الفقهي و الأصولي:	212
2.	فقه النوازل بمدرسة المغرب الأوسط:	218
	رابعا: روافد المدرسة المالكية بالمغرب الأوسط:	229
1.	التوجه الأشعري عقيدة:	229
2.	المسحة الصوفية سلوكًا:	234
	خلاصة الفصل:	240
	الخاتمة:	244
	الملاحق:	249
	المصادر والمراجع:	262
	فهرس الموضوعات:	308